لبيب حبشى
حياة عالم مصريات وإرثه
تأليف: چيل كامل
رجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم
مراجعة: طلعت الشايب

يعد لبيب حبشـى أحد رواد علم الأثار المصـرية، وهو زميل للـرواد الأوائل من أمثـال أحمد كمال وأحمـد فخرى، الذين يشكلون جيلا تسلم الراية من الأجانب الذين كانوا يسيطرون علـى نشـاط البحـث والتنقيـب . ويعتبر هـذا الكتـاب جامعا لنشـاط العلمـاء المصـريين الذيـن تعاونـوا مـع لبيب حبشـى بالإضافة إلى سيرته الذاتية وإنجازاته وإنجازات جيله الذى تحمل مسئولية الريـادة. ونرى فيها الصـورة الطيبة للمصـرى الذى عمل واجتهد وحمل على كتفيه مسـئولية التطوير الذى نجنى آثاره فى مجال الأثار المصرية.

لبيب حبشى

حياة عالم مصريات وإرثه

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1706
- لبيب حبشى: حياة عالم مصريات وإرثه
- جيل كامل
- إبراهيم سلامة إبراهيم
- طلعت الشايب
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

Labib Habachi:

The Life and Legacy of An Egyptologist

By: Jill Kamil

113 Sharia Kasr El Aini, Cairo,11511, Egypt

420 Fifth Avenue, New York 10018, USA

www.aucpress.com

Translated into Arabic with the permission of the American University

---

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ _ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

لبيب حبشى

حياة عالم مصريات وإرثه

تأليف: چيل كامل

ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم

مراجعة: طلعت الشايب

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كامل، چيل

لبيب حبشى: حياة عالم مصريات وإرثه / تأليف: چيل كامل،

ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة: طلعت الشايب

ط ١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١

٤٣٦ص، ٢٤ سم

١ – الآثاريون

(أ) إبراهيم، إبراهيم سلامة (مترجم)

(ب) الشايب، طلعت (مراجع)

(ج) العنوان ٩٢٣,٩

رقم الإيداع: ١٦٨٣٤ / ٢٠١١

الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 704 - 262 - 8

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تصدير المترجم

بعد أن عرض بولس الرسول فى رسالته إلى العبرانيين حياة المشاهير من رجال الإيمان اختتم عرضه بهذه الآية العظيمة:

"انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم" (عب ١٣: ٧)

والحقيقة هى أن اختيار لبيب حبشى لدراسة التاريخ والآثار إنما هو شاهد على عظمة هذه الآية التى وردت فى الكتاب المقدس.

إنه طريق واحد وليس طريقين ذلك الذى يجب على الإنسان أن يختار لنفسه السير فيه منذ البداية، طريق صعب ملىء بالحفر والمطبات والتلال والمنحدرات، ولكنه طريق الحياة الأبدية التى تبدأ على الأرض.

لذلك أقول: إن لبيب حبشى عندما اختار مجال دراسته إنما اختار لنفسه أن يبدأ من النهاية ويرجع إلى البداية، ليعود منها مرة أخرى للنظر فى مسيرة الحياة حتى نهايتها التى نقرأ عنها الآن كما كتبتها تلميذته جيل كامل.

أول معالم الطريق خدمة الناس. اختار التاريخ والآثار وهما مادتان متلازمتان على مدى الأيام لخدمة الناس. درس تاريخ مصر وآثارها منذ عصر ماقبل الأسـرات، ومضى فى الطـريق الصعب وهو يحفر ويستخرج الآثار لكى يدرس ما تضمنته الأحجار من نقوش سواء أكانت بارزة أو غائرة. كان طريقًا صعبًا على المصريين منذ البداية، فقد بدأه الأجانب ومضوا فيه إلى مدى بعيد، حتى إذا طرقه المصريون المحدثون واجهوا الكثير من المتاعب.

ولكن كان هناك رواد هم أفراد جيل لبيب حبشى، من أشهرهم أحمد كمال وأحمد فخرى وسليم حسن، وقد واجهوا منافسة الأجانب الذين كان من السهل عليهم الحصول على تصاريح الحفر لبعثاتهم الأجنبية، خاصةً أن القانون كان يسمح لهم بالمشاركة فى الحصول على نسبة من الآثار المكتشفة، وهو مالم يمنع وجود لصوص للآثار المصرية كان من بينهم علماء مثل بلزونى الإيطالى. هؤلاء اللصوص كانوا يعملون لحساب المتاحف الأجنبية، وأذكر أننى كنت فى بعثة إلى إنجلترا سنة ١٩٨٥ وقال لى أحد المرشدين: ألا تريد أن تصحبنا فى جولة لمشاهدة الآثـــار التى يـــزخر بها المتحف ؟ ومضيت فى الجولة وأنا أستغرب، لأن معظم - إن لم يكن كل الآثار التى شاهدتها - آثار مصرية من مختلف العصور، وقد منعنى الأدب عن توجيه سؤال للمرافق عن الكيفية التى وصلت بها تلك الآثار إلى المتحف البريطانى حتى أصبحت تشكل غالبية الآثار المعروضة به، ولكن كان هناك شيء لفت نظرى.

إن اهتمامهم وحبهم لهذه الآثار أملى عليهم كيفية الحفاظ عليها، ومن ذلك أننى شاهدت جزءًا من حائط وفوجئت بأنهم أكملوا الحائط اعتمادًا على هذا الجزء، وهو معروض فى المتحف بعد استكمال بنائه. وعلى الرغم من أن الإنجليز كانوا يقفون أمامه مذهولين فإننى لم أكن مثلهم، لأننى أعرف أنهم بذلوا كل ما يستطيعون من جهد لإبراز عظمة التراث المصرى من خلال هذا الجزء الصغير الذى أتيح لهم، كما أدهشنى حجر رشيد والحراسة المشددة التى تحيط به.

فى زيارة لباريس سنة ١٩٨٢، ذهبت إلى متحف اللوفر حيث شاهدت نموذجًا لحجر رشيد.

هذه المتاحف العالمية تعتمد شهرتها على ما تملكه من آثارنا المصرية، سواء كانت تماثيل أو مسلات مثل تلك العظيمة فى ميدان الكونكورد، التى وقف مرافقى الفرنسى يباهى بها أمامى، ونسى أن بلدى تمتلئ بالكثير منها حتى إن بعضها مازال يرقد تحت الرمال فى مناطق الأقصر وأسوان. إننا نشكر للمؤلفة

جيل كامل اهتمامها بإبراز هذه الثروة المصرية من خلال تقديمها لسيرة عالم المصريات لبيب حبشى، وعرض إنجازاته وإنجازات إخوانه من المصريين الذين تولوا رعاية ثروة مصر الأثرية إلى جانب العلماء الأجانب، وهم الآن يقومون بحراستها وحفظها بعد أن آل إليهم هذا الإرث العظيم الذى كان فيما مضى حكرًا على الأجانب، ونتمنى التوفيق للدكتور زاهى حواس فى جهوده التى يمضى فيها بإخلاص لاستعادة الآثار المصرية المنهوبة وإعادتها إلى وطنها مصر، وعلى من يريد مشاهدتها أن يزورها فى بلدها ليستمتع بها ويشاهد عظمتها التى هى عظمة أصحابها المصريين.

إبراهيم سلامة إبراهيم

مصادر وإقرار بالفضل

هناك عدد كبير من الأشخاص الذين أثروا فهمى للدور الذى لعبه لبيب حبشى فى حقل المصريات، وبخاصة الرموز التى كان يدور حولها عمله الوظيفى، ومنهم هنرى ج. فيشر من متحف المترو بوليتان للفنون فى نيويورك ووليم ج. مورنان من جامعة ولاية ممفيس فى تينسى وجون دورمان من المركز الأمريكى للأبحاث فى شيكاغو، واثنان من المديرين السابقين لمعهد شيكاغو فى الأقصر وهما كنت ويكس ولانى بيل، وولفجانج هيلك من هامبورج وإلمر إديل من بون وقد التقيت بهما فى المؤتمر الدولى للمصريات فى ميونيخ فى أغسطس ١٩٨٥، وتقاسما معى مجموعاتهما عن أواسط الأربعينيات، وورنر قيصر المدير السابق للمعهد الألمانى للآثار بالقاهرة الذى أمدنى بأدوات للأبحاث ومعلومات عن أنشطة المعهد مع السماح باستخدام صور من الأرشيفات الخاصة بهما، وجرهارد هاينى المدير السابق للمعهد السويسرى الذى ساعدنى بالتشجيع رغم رفض حبشى لوجهات نظره الخاصة حول نقوش مقصورة "هيكايب التى اكتشفت فى جزيرة فيلة سنة ١٩٤٦.

كما أمدنى جمال مختار وكيل وزارة الثقافة ورئيس هيئة الآثار المصرية برؤية ذات قيمة عن الفترة التى أعقبت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ وعمليات إنقاذ النوبة خلال الستينيات عندما واجهت تحديات جديدة.

أما هنرى رياض وكذلك هانى زينى الذى كان فى وقت من الأوقات مديرًا لمصنع الألومنيوم فى نجع حمادى – وقد صحب هانى زينى حبشى فى العديد من الرحلات إلى أبيدوس – فقد كان قادرًا على توسيع فهمى بخصوص علاقته الأخيرة بأم سيتى، وكذلك تورجنى من جامعة أوپسالا فى السويد، ورينرستاديلمان

المدير السابق للمعهد الألمانى للآثار بالقاهرة ومديران سابقان للمعهد الكندى فى مصر، وهما رونالد ليبروهون وإدوين بروك فقد زودانى من خلال بصيرتهم النافذه بمعلومات عن الأنشطة الأثرية وبالمنهجية خلال فترة المراجعة. وأخيرًا فإن أحاديثى مع عطية حبشى قبل وفاتها سنة ١٩٨٦ كانت مفيدة فى وصف أنشطة المركز الأمريكى للأبحاث فى مصر أثناء عمليات تهجير أهالى النوبة، وكذلك حياتها مع زوجها.

وهناك مصدر مهم للمادة المستخدمة فى هذه السيرة وهو أرشيف حبشى (*LHA*) الموجود فى رئاسة المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو فى الأقصر؛ وقد جمعت مادة هذا الأرشيف من مكتبة لبيب حبشى الشخصية وخزنت فى صناديق من الكرتون بمعرفة عطية حبشى وساعدها فى ذلك جمال مختار وهنرى رياض وإدوين بروك وكذلك مؤلفة هذا الكتاب. ويتضمن الأرشيف الرسائل الشخصية والمهنية المتبادلة بين حبشى ومتحف أشموليون، وداوز دونهام من متحف الفنون الجميلة فى بوسطن، وسير ألان جاردنر من معهد جريفين، وأحمد فخرى، وروز البندموس، وأم سيتى، ووليم هايز، وكونستانت دى ويت وغيرهم.

نادرًا ما كانت خطابات حبشى الشخصية بما فيها تلك التى إلى زوجته، تكتب على الآلة الكاتبة من نسختين أو ثلاث وهى توفر لنا مصدرًا قيمًا آخر من مصادر السيرة الذاتية.

لن أبتعد كثيرًا عن حدود الخيال فى هذا العمل لأننى رسمت هذه الصورة متحررة من مذكراتى الشخصية التى دونتها بين عامى ١٩٧٥ و١٩٨٤، أما التفاصيل الخاصة بانصرافه الحزين من مصلحة الآثار خلال معظم فترات عمله الوظيفى، وبخاصة فى مواجهة التجوال بين الدارسين وتفاصيل ما حدث عند تأميم خدمة الآثار بعد ثورة ١٩٥٢ فهوغير مفهوم، فيما عدا تجاربه الشخصية المؤيدة بأقوال زملائه وأسرته وأصدقائه، كما أتوجه بالشكر إلى فايزة راضى لتقييمها النقدى للبناء المصرى السياسى والاجتماعى، وأخيرًا وليس آخرًا فإننى أتوجه بالشكر لميخائيل ستوك لاقتراحاته القيمة وقيامه بتحرير المخطوط.

مقدمة

إن لبيب حبشى الذى قاده حب الاستطلاع غير المحدود إلى دراسة مجالات رحبة فى الآثار المصرية والتاريخ المصرى، كان بلا شك أكثر علماء المصريات إنتاجًا وشهرة دولية فى القرن العشرين. أما قائمة أعماله التى جمعتها بعد وفاته سنة ١٩٨٤ عالمة المصريات مى طراد فهى توضح لنا أن هناك أكثر من ١٨٠ حفرية موثقة، وقد نشر بعضها فى حينه. ولا يوجد سوى القليل من المناطق الأثرية فى مصر لا ينتسب إلى جانب أو أكثر من إنجازاته. لقد كانت لديه معرفة موسوعية بالنسبة لمجال تخصصه، كما كان مصدرًا عظيم القيمة في ما يتعلق بالحقل الميدانى وإلمامه بالآثار المصرية القديمة، والرسومات، والنقوش، والمدونات الجدارية مهما كانت صغيرة وغامضة ويصعب الوصول إليها، كان نتيجة عمله الميدانى. لقد ناضل حبشى بدون تراخ ليحفر طريقه فى سجل الحوليات الذى شغله الدارسون الغربيون التقليديون ولكن العديد من ملاحظاته الأثرية السهلة الإدراك التى تقوم على الفهم العميق للتاريخ القديم والمجتمع المعاصر له قد أصبحت بعيدة المنال، لأنها ألقت الشك على الاستنتاجات الأوربية الأقدم منها، ولم يعترف بها إلا حديثًا.

لقد حصل عمله "تل بسطة"، الذى كتبه عندما كان مفتشًا للآثار على إحدى جوائز الدولة، وعندما كان كبيرًا لمفتشى آثار مصر العليا والنوبة انخرط فى مهمة تحديد المشاكل التى أثارها إنشاء السد العالى خلال عقد الستينيات. كما يتضمن عمله الذى يضم ست عشرة دراسة عن النوبة الجنوبية، المنشور فى ١٩٨١ "ذكريات شخصية عن النوبة الجنوبية خلال النصف الأخير من القرن". وقد نتجت عن اهتمامه العميق خلال بداية الفترة المتوسطة الأولى والمملكة الوسطى مقالات

نشرت فى العديد من الدوريات التى جمعت وصدرت كذلك سنة ١٩٨١ بعنوان: "دراسات فى المملكة الوسطى"، أما كتابه" المسلات المصرية ناطحات سحاب الماضى "وهو أحد أكثر الكتب مبيعًا وكان موجهًا للمتخصصين والعامة، فقد صدر أولاً باللغة الإنجليزية، ثم ترجم إلى العربية والفرنسية والألمانية.

التقدير والاحترام الذى حازه لبيب حبشى يدل عليه عدد الجوائز التى حصل عليها وما حظى به من تكريم، فقد انتخب عضوًا فى المعهد الألمانى للآثار فى برلين سنة ١٩٥٣، وفى المعهد المصرى فى القاهرة سنة ١٩٦٤، كما اختير عضوًا شرفيا للمعهد المصرى بجامعة تشارلز فى براغ سنة ١٩٦٥. وفى سنة ١٩٦٦ منحته جامعة نيويورك الدكتوراه الفخرية. وفى سنة ١٩٧٠ اختير عضوًا شرفيا بالمركز الأمريكى للأبحاث بالقاهرة (*ARCE*). حصل حبشى على وسام الاستحقاق الإيطالى فى سنة ١٩٧٣، ووسام الشرف سنة ١٩٧٩، ووسام الاستحقاق النمساوى سنة ١٩٨٠. وفى سنة ١٩٨١ أهدى إليه الصليب الأكبر للاستحقاق تقديرًا لعلاقاته الطويلة والمستمرة بعلماء المصريات الألمان، وإصداراته المتميزة التى نشرها له المعهد الألمانى للآثار، وفى السنة نفسها حصل أيضًا على صليب الشرف للعلوم والفنون من الدرجة الأولى من الحكومة النمساوية تقديرًا لإنجازاته العلمية وتشجيعه ونصائحه للمعهد النمساوى للأبحاث الأثرية. وأخيرًا عين عضو شرف بالجمعية الفرنسية للمصريات فى سنة ١٩٨٣.

لقد مر لبيب حبشى فى دهاليز طويلة ومرهقة من العمل الوظيفى المحاط بالعقبات فى معظم رحلته الوظيفية، وقد عطله النظام الوظيفى المصرى عن تحقيق كل قدراته المهنية، وما أصابه من نجاح كان بصعوبة بالغة حقا. صحيح أنه حصل على وسام الفنون والعلوم من الدرجة الأولى فى مصر سنة ١٩٥٩ عن كتابه "تل بسطة" ولكن تعيينه بعد عام واحد رئيسا لأعمال الحفائر فى مصر كان، كما سيتضح فيما بعد، "خطوة جانبية" من الناحية المهنية. أما كتاب "لبيب حبشى حياة عالم مصريات وإرثه" - فقد جرى تأليفه على مدى فترة تصل إلى خمسة وعشرين

عامًا، ويعتمد على مسودتى الأولى لحكاية أثرية، ترتكز على حفريات حبشى سنة ١٩٤٦، واكتشافاته فى جزيرة فيلة التى نشرت سنة ١٩٨٤ بعد مرور ثلاثين عامًا من تخزينها فى مصلحة الآثار المصرية بمعرفة المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة تحت اسم: هيكايب" ***Heqaib*** وعندما أفصحت عن رغبتى فى كتابة قصة شعبية مبنية على حفائره واكتشافاته، شعر بالسعادة وكان يشير إلى ذلك بقوله: حبشى وهيكايب، وأشرف على تحرير عدة فصول. بعد وفاته ضمنت هذه المادة مسودتى الأولى عن سيرته الحياتية وأعدت كتابة المادة فى التسعينيات، وأدركت أنه كان من الضرورى تقديم عرض موسع من وجهة نظر علم المصريات، ولتحقيق هذا الهدف وضعت حياة حبشى وعمله فى مقابل حياة وعمل غيره من المصريين من جيله، وعندها اتضح لى شيئان:

الأول أن دراسة التراث المصرى القديم مرتبطة بالسياسة أكثر مما نعترض بوجه عام، **والثانى** أن تقلبات النظام التعليمى فى البلاد تمضى فى طريق طويل نحو توضيح سبب تخلف المصريين طويلاً فى مجال علم المصريات عن نظرائهم الغربيين.

لقد ابتعدنا الآن بما يكفى من الزمن والفهم عن القوى التى تقف وراء تطور التيارات التقدمية والوطنية فى القرن العشرين بحيث نستطيع استعراض حياة لبيب حبشى (١٩٠٤ – ١٩٨٤) إلى جانب بعض معاصريه، ومنهم أستاذه أحمد كمال (١٨٥١ – ١٩٣٢) الذى كان أول مصرى يصبح عالم مصريات وآثار، والذى كان أول من دخلوا هذا المجال الأكاديمى الذى كان يسيطر عليه الأجانب،. ثم سليم حسن (١٨٨٦ – ١٩٦١) الذى يقف فى طليعة الجيل الثانى وهو الذى قام حينذاك بحفائره فى الجيزة وهى تعادل تلك التى قامت بها أى من البعثات الأجنبية التى عملت بمصر فى ذلك الوقت، من حيث الحجم والطاقة الإنتاجية، وأحمد فخرى (١٩٠٥ – ١٩٧٣) المشهور بدراساته الرائدة عن واحات الصحراء الغربية،

وجمال مختار (١٩١٨ - ١٩٧٧) وكيل وزارة الثقافة ورئيس هيئة الآثار المصرية (*EAO*) فى السبعينيات وأحد أبرز المدافعين المرموقين عن الثقافة المصرية.

وتتجاوز الدراسة الشخصية لما وراء التعليق السردى حول الحياة العملية خلال فترة وقعت فيها حربان عالميتان، وحركتان ثوريتان، واستقلال مصر عن الاحتلال البريطانى، وانتقال فى أساليب البحث الأثرى من مجرد العثور على الأشياء إلى نهج علمى متعدد المجالات. وهدفى هنا هو بيان الدور الذى لعبه المصريون فى دراسة علم المصريات عن طريق تكامل وتحليل التوجهات السياسية والثقافية والاجتماعية التى عملوا من خلالها مع الدارسين الأجانب خلال الفترة تحت الدراسة.

ويمدنا كتاب "لبيب حبشى: حياة عالم مصريات وإرثه" بمنظور مصرى عن علم الآثار على مدى حوالى مائة عام، ابتداء من بناء المتحف المصرى عند مطلع القرن العشرين حتى المؤتمر الدولى الثامن لعلماء المصريات الذى عقد بالقاهرة فى سنة ٢٠٠٠.

خريطة مصر

البحر الأبيض المتوسط
رشيد
دمياط
الإسكندرية
بور سعيد
مارينا العلمين
سيناء
القاهرة
السويس
ميت رهينة
منخفض الفيوم
الفيوم
الزعفرانة
بنى سويف
وادى الريان
البهنسا
الوحات البحرية
بنى مزار
صحراء القلمون
المنيا
الأشمونين
تونة الجبل
أبنوب
ملوى
أسيوط
أخميم (بانوبوليس)
واحة الفرافرة
سوهاج
فاو
واحة الداخلة
نجع حمادى
قفط
واحة الخارجة
مقابر طيبة
طيبة الأقصر
إسنا
إدفو
كوم أمبو
أسوان
جزيرة إلفنتين
السد العالى
فيلة
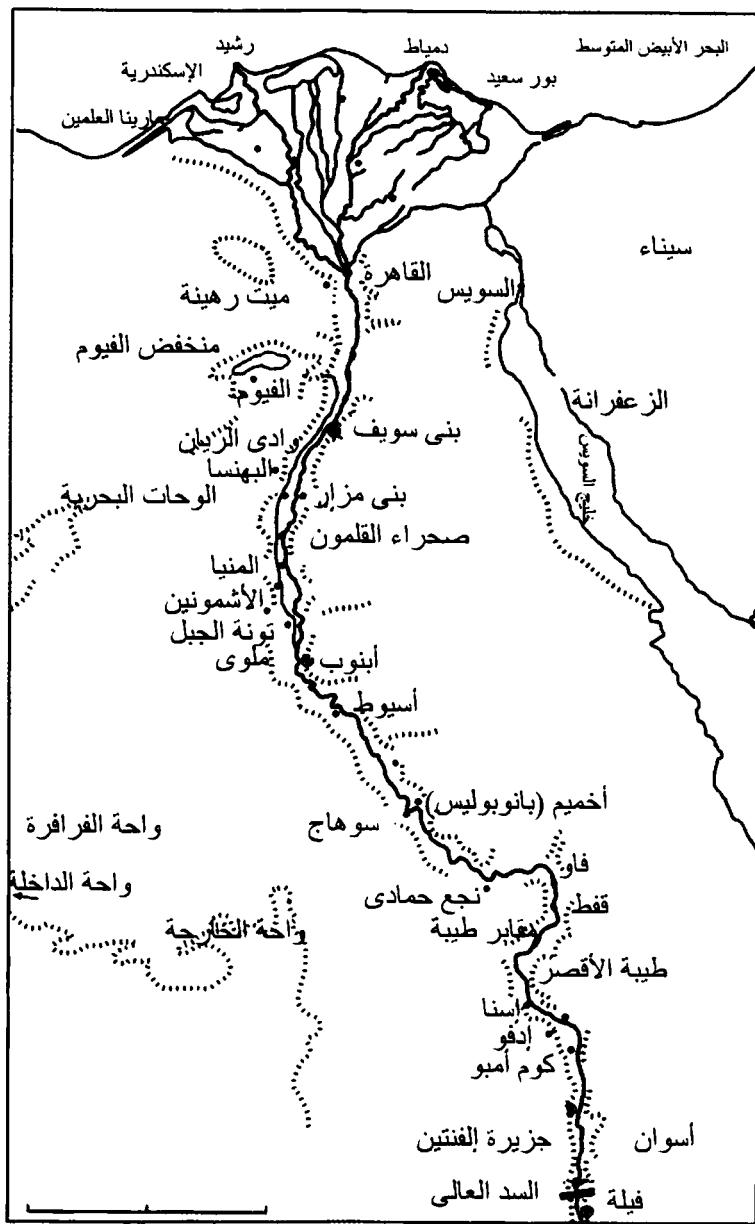
تمهيد

بينما تغطى سيرة لبيب حبشى الأنشطة الأثرية فى القرن العشرين، فإنها تبين أن الكثير مما يرتبط بهذه الفترة فى مصر ينبثق عن عمليات تعود جذورها إلى قرون أقدم. ولذلك فإن تتبع الدور الذى لعبه المصريون فى دراسة علم المصريات يحتاج إلى النظر فى القوى السياسية والاجتماعية التى شكلت مصر الحديثة، ظهور الدارسين الذين درسوا فى الغرب الذين وسعوا الأفق العقلى للناس، والأدوار التى لعبها عالم الآثار الفرنسى أوجست مارييت، وهو شخصية بارزة فى تاريخ الآثار المصرية، وأحمد كمال، أول مصرى يصبح عالم آثار وعالم مصريات فى وقت واحد، ودور الصحافة فى وضع أساس قيام الشخصية الوطنية الصاعدة.

وعلى الرغم مما قيل عن نابليون بونابارت من أنه فتح الباب أمام ماضى مصر وبخاصة أن حملته على مصر فى سنة ١٧٩٨ فيها الكفاية للدلالة على دورها المؤثر فى البحث الأثرى وتأسيس المعهد المصرى بالقاهرة - فإن الاهتمام بعجائب مصر سبق هذا الحدث التاريخى. وقبل أكثر من قرن كان قد وصل ف. بروسبيرو ألين إلى مصر فى صحبة قنصل ڤينيسيا، وعلى الرغم من أن اهتمامه كان مركزًا على الزهور والحيوانات، وجد الوقت لدراسة وقياس هرم خوفو بالجيزة وفحص أبو الهول، علمًا بأن الأب كلاود سيكارد أحد الجزويت وأحد الأفراد الرحالة الذين ظهروا خلال القرن السادس عشر لم يفعل أكثر من ذلك. لقد رسم خريطة چيولوچية لمصر إجابة لطلب ريچنت فيليپ الذى جاء من أورليانز، وضح فيها موقع أربعة وعشرين معبدًا وأكثر من خمسين مقبرة بنقوشها وزخارفها وعشرين من المعابد الرئيسية، كما وصف إنجازاته فى خطابات وتقارير مختلفة

فيما بين عامى ١٧٠٩ و ١٧٢٦ لم تنشر. ثم جاء ابن أحد الجواهرجية وهو بول لوكاس الذى سافر إلى بلاد شرق البحر المتوسط للتجارة فى الأحجار الكريمة. وقد زار مصر تحت قيادة ملك فرنسا وأبحر فى النيل حتى قرية الدر فى النوبة، وقام برسم خرائط طبوغرافية ونماذج معمارية فى كتاب للرحلات تم نشره بعد وفاته، وعلى الرغم من حضور آخرين فإن ريتشارد بوكوك وهوقس أنجليكانى يعتبران أكثر الرحالة القدامى اهتمامًا بالدراسة. فى سنة ١٧٣٦ زار سقارة ورسم مواقع عرض العجل أبيس، ووصف الهرمين المنحنى والأحمر اللذين أقامهما سنفرو فى دهشور، وذهب إلى المعبد الجنائزى الخاص بأمنحوتب الثالث فى هوارة لكى يرى بنفسه "المتاهة" التى وصفها الكتاب القدامى بعبارات مثيرة، وقد وردت أوصاف بوكوك الدقيقة للمواقع الأثرية فى مصر فى المجلد الأول من كتابه: "وصف الشرق وبعض البلدان الأخرى" ***Description of the East and Some Other Countries***، وكان مزينًا بالرسومات التى تصور التماثيل والتوابيت ومساقط المقابر والأديرة والخرائط. لقد أبحر إلى مصر العليا ومعه خطاب توصية من أحد كبار الموظفين إلى السلطات فى مختلف المناطق، وأمضى وقتًا فى الأقصر أنجز خلاله رسومات عظيمة لتمثال ممنون الضخم من زوايا عديدة ومقابر فى وادى الملوك. وعندما زار مناجم الجرانيت فى أسوان ذكر أن المدينة نفسها كانت صغيرة وفقيرة وبها معسكرات لإقامة أعضاء الحرس الملكى العثمانى.

كانت مصر، بوصفها ولاية عثمانية، يحكمها المماليك. وكانت على وشك الخراب عند نهاية القرن الثامن عشر، وقد جرت المعارك الدموية بين البيوت المتصارعة متزامنة مع سلسلة من فيضانات النيل المنخفضة والمجاعة وظهور وباء الطاعون مما استهلك الضرائب. كانت مصر الغنية بمواردها، ذات الموقع الاستراتيجى عند مفترق الطرق بين الشرق والغرب، تحت رحمة أية قوة عظمى مثل النمسا وبريطانيا وفرنسا وروسيا التى كان لها كلها اهتمامات تجارية واستعمارية بمصر. التحرك الأول فى هذا الصدد جاء من قبل فرنسا حيث كان

نابليون يحلم منذ فترة طويلة بإقامة إمبراطورية على النيل. وأعد خطة لغزوها واحتلالها اعتمادًا على البحث العلمى. كان يثق فى جا سپارد مونج، العالم المحترم، لإحضار المتخصصين أو العلماء لتشكيل لجنة للعلوم والآداب فى مصر، وقد نجح خلال شهرين فى تجميع الفلكيين والمهندسين وعلماء الطبيعة والعلوم الشرقية وأخصائيي الطباعة والرسامين ممن كانوا يشكلون أفضل العقليات فى فرنسا لتنظيم مستعمرته وإدارتها، وأفصح نابليون عن نواياه فى اجتماع للمعهد الفرنسى فى باريس فى بداية سنة الغزو، وأبحر وفى صحبته ثلاث عشرة سفينة حربية وست فرقاطات واثنتا عشرة سفينة صغيرة إلى جانب سفن لنقل الجنود، أبحرت كلها ورست فى الإسكندرية فى مايو ١٧٩٨ وحققت نصرًا باكرًا، واتجهت نحو القاهرة حيث وقعت موقعة الأهرام، وهزم فيها المماليك الذين لم يكن فرسانهم وأساليبهم العسكرية قد تغيرت منذ العصور الوسطى، على يد القوة الضخمة المكونة من خمسة وثلاثين ألف جندى فرنسى.

أعلن نابليون أنه جاء لإنهاء الاحتلال العثمانى الجائر، متشبهًا فى ذلك بالإسكندر الأكبر الذى قدم نفسه بوصفه محرر مصر من الحكم الفارسى، وقام نابليون بالتقرب إلى القيادات الدينية المحلية فدعا وجهاء الأرياف والقادة الدينيين للمشاركة فى الديوان أو المجلس الإدارى الذى يخضع للسيطرة الفرنسية مؤكدًا أنهم يستطيعون وضع قواعد وقوانين إدارة شئونهم الداخلية. حتى قدوم نابليون كان الحكم الشعبى غريبًا على مصر، ويعتبر ذلك أحد إسهامات فرنسا المهمة فى تطويرها لمصر. أما السلطان فى إسطنبول وكان قلقًا بالطبع للاحتفاظ بسيطرته على مصر، فقد تحالف مع بريطانيا وأعلن الحرب على فرنسا. ووصل الأسطول الإنجليزى بقيادة لورد نلسون إلى الساحل المصرى فى ١٨٠١، وأغرق الأسطول الفرنسى الذى كان راسيًا فى خليج أبى قير. واستطاعت القوات الإنجليزية والعثمانية والمملوكية المشتركة إجبار نابليون على الانسحاب من مصر، وبذلك ضاع حلمه فى إقامة إمبراطورية شرقية.

وعلى الرغم من قصر مدة الاحتلال الفرنسى فقد كان للنفوذ الفرنسى أثر دائم على مصر وعلى تطور شخصيتها الوطنية، وكان لذلك صلة وثيقة بإدخال مطبعة عربية، أقيمت فى منطقة الميناء النهرى فى بولاق. هذه المطبعة التى كانت تستخدم فى الأساس لطباعة البيانات الفرنسية والجرائد العلمية والاقتصادية التى تعتمد على تقارير العلماء الذين صحبوا جيش نابليون، كان لها تأثير ملحوظ فى التطور السياسى والفكرى للبلاد. أما أبرز التأثيرات الفرنسية فكان إقامة المقر الرئيسى للبعثة العلمية فى القاهرة الذى عرف باسم (المعهد المصرى)، وكان يضم أقسامًا للرياضيات والفيزياء والچيولوچيا والاقتصاد السياسى والفنون والآداب. وأقيمت مختبرات متقدمة كما رسمت خرائط طبوغرافية وخرائط أخرى للدراسات الچيولوچية. وعلى الرغم من أن المعهد كان قد أنشئ لخدمة أهداف سياسية لدراسة إمكانيات الوقود والطاقة المائية واحتمالات المواد الخام بعد الاحتلال، فإن أفضل ما يذكر به اليوم هو أبحاثه الخاصة بالآثار، وقيامه بين عامى ١٨٠٣ و١٨٨٢ بنشر تسعة مجلدات ضخمة وأحد عشر مجلدًا من الرسوم بعنوان "وصف مصر" وكان ذلك أول مسح علمى شامل عن مصر وآثارها.

وعندما عثر جنود نابليون فى رشيد على حجر مدون عليه نقوش أثناء حفر خندق لتقوية أساسات قلعة چوليان للدفاع ضد الهجوم البريطانى، لاحظ أحد الضباط نصًا إغريقيا منقوشًا مع نقوش هيروغليفية مع كتابة أخرى غير معروفة، ومما يحسب له أنه أدرك أهميته فأرسله إلى المعهد الذى كان قد أنشئ مؤخرًا فى مصر. كان حجر رشيد يمثل نوعًا من المراسيم بثلاث لغات، ربما كانت مفتاحًا لمعرفة لغة الفراعنة غير المعروفة. وعلى الرغم من أن مواد اتفاقية الاستسلام كانت تقضى بأن يقوم الفرنسيون بتسليم كل ما يكتشفونه من آثار للبريطانيين، استطاعت فرنسا الاحتفاظ بكل السجلات الأثرية وبقدر كبير من الكنوز المصرية وحقوق نشر النصوص التى كانت على حجر رشيد، وأما بريطانيا فاستحوذت على الحجر الثمين، الموجود حاليًا بالمتحف البريطانى.

مع الجلاء النهائى للفرنسيين فى ١٨٠١، أجبر المعهد على أن يغلق مؤقتًا ولكن بعض العلماء الفرنسيين اختاروا البقاء فى مصر، ظل المسئولون الفرنسيون الباقون يتنافسون مع رجال الإدارة البريطانية الجدد على السلطة لمدة سنتين. وأخيرًا ملأ الفراغ السياسى ضابط مقدونى شاب هو محمد على (١٧٦٩ – ١٨٤٨) الذى كان قائدًا لفرقة ألبانية ضمن القوات العثمانية التى جاءت لمحاربة الفرنسيين. وأسس محمد على أسرة حكمت مصر على مدى قرن ونصف القرن، إلى أن ظهر جمال عبد الناصر بطل ثورة ١٩٥٢ على مسرح الأحداث.

أحيانًا يشبه كلاهما بالآخر، المقدونى والوطنى المصرى، فكلاهما ذو أصول متواضعة: كان محمد على يتيمًا وعبد الناصر ابن بلد وأبوه وكيل مكتب للبريد. وكلاهما كان صاحب رؤية كبيرة لمصر. شرع محمد على فى تحديث البلد بإدخال التكنولوچيا الأوربية ولتحقيق هذا الهدف سحق منافسيه من قادة العثمانيين والمماليك فصادر ملكياتهم الواسعة وعين أفرادًا من أسرته فى المراكز الرئيسية وبذلك أوجد طبقة من الصفوة القوية الموالية، ووضعت ثورة عبد الناصر نهاية لهذه الأسرة الأجنبية التى كانت عميلة للنفوذ الأوربى (البريطانى) على مدى عقود، وكان هدفه هو تمصير البلاد من خلال التأميم والإصلاح الاجتماعى.

وأعطى كل من محمد على باشا (اللقب الذى خلعه عليه السلطان العثمانى) وكذلك جمال عبد الناصر للتعليم دورًا ضمن سياستهما الإصلاحية ولكن لأهداف مختلفة ولتحقيق نتائج مختلفة، فقد أرسل محمد على الكوادر الطلابية إلى الخارج للتدريب ورفع المستويات المحلية باستقدام المدرسين الأوروبيين والأساليب الأوروبية، كما أسس معاهد للتدريب فى مختلف المجالات. لم يدع بأنه كان يفصل ذلك من أجل المواطنين المصريين، لأنه فى الحقيقة كان يغازل السلطان العثمانى لحماية مصالحه ومصالح ورثته، بينما كان يجند الفلاحين المصريين إجباريًا فى الجيش الذى يمكنه أن يعوق أية محاولة لطرده من البلاد بالقوة. أما فى ظل سياسة عبد الناصر الاشتراكية فكان لتعليم المصريين أولوية كما كان التعليم المجانى

متاحًا للجميع حتى المستوى الجامعى، ولكنه أخطأ فى إلغاء المعاهد الأجنبية وعدم تشجيع المدرسين الأجانب على البقاء فى مصر قبل أن يحقق البديل المؤهل الذى يحل محلهم، ولكن كلا الرجلين لم يكن له اهتمام بآثار مصر القديمة.

كان محمد على متلهفًا على ثمار التكنولوجيا الغربية، وكان يدرك أن ذلك يحتاج الخبرة الأجنبية، كما كان حساسًا من جهة افتتان الغرب بالآثار المصرية. رحب محمد على بقدوم الأخصائيين بإطلاق أيديهم لجمع ما كانوا يريدونه فى مقابل خدماتهم، ولم يكن من الصعب فى تلك الأيام القيام بجمع الأشياء الجميلة. كانت التماثيل أو أجزاء منها، والرسومات البارزة على الخشب الذى كان على الحوائط المتساقطة من المقابر والمعابد، والأشياء الجنائزية كانت متوافرة فى أنحاء البلاد. وقد جمع محمد على نفسه مجموعة شخصية صغيرة من الآثار لكى يكون لديه مدد جاهز ليدفع مقابل الخدمات التى تقدم له أو لاستخدامه كرشوة، وكان الموقع المفضل لتخزينها هو مبنى صغير فى الأزبكية، وعندما ملأت هذه الأشياء المكان نقلت المجموعة إلى إحدى صالات القلعة.

عندما أقنع أحد المهندسين الفرنسيين محمد على بأن مستقبل مصر كان يعتمد على تطوير الزراعة، وبخاصة زراعة القطن، استدعى برناردينو دروفيتى القنصل العام لفرنسا فى مصر (الذى سبق أن شغل وظيفة عسكرية مهمة تحت إمرة نابليون) لبحث الموضوع. قبل دروفيتى المهمة وجند المهندسين لبناء قناطر عند رأس الدلتا وقناطر أخرى فى مواقع متباعدة. عن طريق شبكة من ترع الرى أمكن التحكم فى الفيضان السنوى، وتحويل الماء إلى أحواض أتاحت إمكانة رى الأرض من حولها. وفى مقابل خبرته أنعم عليه محمد على بإصدار فرمان يسمح له بالتنقيب فى المواقع القديمة لتكوين مجموعات من الآثار وكانت المجموعة الأولى تحتوى على ١٦٩ بردية ومخطوط و٤٨٥ قطعة من المشغولات المعدنية و٢٤٠٠ جعران وتميمة و١٠٢ مومياء، وكانت قدمت إلى فرنسا ولكنها رفضتها، وفيما بعد اشتراها ملك سردينيا فى سنة ١٨٢٤، وهى تكون الآن الجزء الرئيسى من

مجموعة مقتنيات متحف تورين العظيمة. استمرار دروڤيتى فى خدمة الدولة المصرية مكنه من تكوين مجموعة ثانية من الآثار، كانت تضم ثلاثة توابيت منقوشة، وعشر مسلات من الجرانيت وستين مسلة من الحجر الجيرى وخمسمائة مخطوط واثنتين من المومياوات وثمانين قطعة ذهبية موجودة الآن بمتحف اللوڤر. أما مجموعته الثالثة وهى أيضًا شديدة الأهمية، فهى موجودة فى متحف برلين.

أدى لقاء دروڤيتى العفوى مع فريدريك كايليو، وهو چيولوچى وعالم معادن فرنسى من نانت، إلى صداقة دائمة. كان كايليو قد زار مصر فى سنة ١٨١٥ للبحث عن صخور ومعادن جديدة لمجموعته الشخصية، وقام بعدة رحلات عبر النيل والصحراء خلال فترة تقدر بنحو خمس سنوات. وكان هو ودروڤيتى يشعران بالسعادة، لاكتشافهما أن اهتماماتهما مشتركة، وعزما على القيام بالاستكشاف معًا. وعندما قام دروڤيتى بتقديم كايليو للباشا (محمد على) وجد عالم الجيولوجيا نفسه وقد تم تعيينه فى عمل حكومى. فقد كلفه محمد على بالبحث عن مناجم الزمرد القديمة بالصحراء الشرقية التى كانت تعمل أيام ملوك البطالمة واختفت فى ما بعد ولم تترك أثرًا. ولما كانت چيولوچيا الصحراء الشرقية مألوفة له، تمكن كايليو من جمع بعض الزمرد، وعاد إلى القاهرة وسلمها للباشا منتصرًا ومتوقعًا أن يتركه وشأنه، ولكن محمد على كانت لديه أفكار أخرى؛ كانت حبات الزمرد قيمة اقتصادية فسرعان ما أرسل كايليو فى مهمة أخرى للبحث عن مناجم أخرى فأعد نفسه لجولة طويلة، حيث سافر إلى أبعد من جبل زابارا إلى جبل سيكيت بالصحراء الشرقية، حيث نجح فى جمع عدد أكبر من الأحجار غير المصقولة، ولكنه لم يندفع هذه المرة عائدًا إلى القاهرة، فبدأ باستكشاف الصحراء العربية (الشرقية) والليبية (الغربية) حيث جمع أحجارًا نادرة وبعض المعادن لمجموعته الخاصة.

وكان أنطوان ب. كلوت، وهو جراح فرنسى عرف باسم كلوت بك، واحدًا من بين مجموعة أخرى من الخبراء الأوروبيين الذين جندهم محمد على هذه المرة

لإنشاء أول مدرسة مصرية للطب. وضع كلوت أساسات الخدمة الصحية المصرية العامة ومركز التعليم الطبى فى مستشفى القصر العينى، وفى مقابل هذه الخدمات التى قدمها للدولة جمع كمية كبيرة من الآثار أرسلها فى مجموعات إلى متحف اللوڤر فى ١٨٥٢ و١٨٥٣. اشترى منه المتحف البريطانى برديتين، وبيع الباقى من المجموعة بمبلغ ضئيل لبلدية مارسيليا.

كانت الدول الأوربية قد بدأت فى إنشاء متاحف وطنية كمستودعات لحفظ ثقافتها الوطنية وثقافات الدول الأخرى، بدأت منافسة ضارية للحصول على الآثار عندما أمرت هذه الدول قناصلها فى مصر لجمع الآثار، وكان أبرز المتنافسين هما دروڤيتى والقنصل البريطانى هنرى سالت (الذى توجد مقتنياته فى المتحف البريطانى). ويليهما القنصل السويدى والقنصل النرويجى چيوڤانى أنسطاسى (اللذان وزعت مجموعاتهما فيما بعد على متاحف عديدة فى لندن وباريس وستوكهولم وبلچيكا وهولندا) والقنصل النمساوى چيوسيپى أكيربى. أصبحت الآثار المصرية مثارًا للهوس والجنون حتى إن الأب جيرامبى - وهو راهب كان فى زيارة مصر - ذكر لمحمد على أنه من الصعب احترام أى شخص يعود إلى أوروبا بعد زيارة لمصر دون مومياء فى يد، وتمساح فى اليد الأخرى.

دروڤيتى وسالت اللذان زاد اهتمامهما بالهيروغليفية وحظيا بمحاباة محمد على، توصلا إلى اتفاق جنتلمان لتقاسم وادى النيل فيما بينهما. لم يكن لديهما اهتمام بالموضوعات الأخلاقية عند التخلى عن الآثار. ومن بين أكثر الحالات التى يجدر بنا ذكرها ماحدث من تدنيس حرمة أثر، عندما رأى جامع الآثار الفرنسى سيباستيان سولنييه رسمًا من أجل كتاب وصف مصر لدائرة البروج الفلكية فى معبد دندرة رغب فى أن تمنح هذه القطعة الثمينة لفرنسا، وجند مهندسًا فرنسيًا هو جان لى لورين للاستيلاء عليها. وكان ذلك تحديًا هائلاً لأن قبة الضريح كانت محفورة على كتلتين كبيرتين من الأحجار، يبلغ سمكهما مترًا على وجه التقريب، فاستخدم البارود لتفكيكها من حائط المعبد، وبعد عشرين يومًا من نشرها بالمنشار

بواسطة جماعة من العمال المحليين سحبت هذه القطعة الأصلية فوق أسطوانات خشبية إلى أحد القوارب، وعندما وصلت إلى حافة نهر النيل تنبه البريطانيون إلى الأمر، وعندما شاهد سالت دائرة البروج تدخل لكى تكون من نصيب بريطانيا ولكنه فشل، وصل الأثر إلى باريس وبيع إلى الملك لويس الثامن عشر بمبلغ ١٥٠ ألف فرنك، ووضع فى المكتبة الوطنية وهو الآن فى اللوفر.

ومع توالى ظهور مجلدات كتاب وصف مصر اتضحت الصورة على نحو رائع، أصبحت ثروات الآثار المصرية معروفة، فقد كانت هنا حضارة قديمة مــزدهرة صمدت آثارها أمام اختبار آلاف من السنين. ولم يقلل الزمن أو الحروب أو الإهمال من رونقها وتزايد الإقبال عليها. ونجد أن جيوفانى بلزونى، وهو عملاق من مواليد إيطاليا وهو معروف باسم سامپسون من پتاجونيا وهو من مسرح سادلر ويللز فى لندن، قد قرأ عن أساليب الزراعة البدائية فى مصر وصمم ماكينة لضخ المياه يمكن لها أن تحل محل الشادوف والساقية التقليديين، ورأى محمد على الذى كان يستسلم لإغراء الأفكار الجديدة المشروع مجديًا فكلفه أن يمضى قدمًا، وقبل الرجل القوى التكليف بحماسة رافضًا فى البداية أن يصرفه عنه اللغوى السويسرى لودڤيج بوركهارت الذى حاول تجنيده لنقل رأس تمثال ضخم من الجرانيت رائع الجمال إلى الخارج من الضفة الغربية للنيل فى طيبة، يبدو أن المهندسين الفرنسيين فى بعثة ناپليون العلمية كانوا قد تركوه ضمن بعثة ناپليون العلمية. اتصل بلزونى بالعالم بوركهارت بعد أن فشلت تجاربه على مضخة الرى ووجد نفسه فى موقف مالى حرج، لكى يبلغه بأنه يمكنه أن ينقل التمثال ولكنه لن يتحمل التكلفة، فعرض هنرى سالت أن يمول المشروع،أصدر له محمد على الفرمان الضرورى وأصبح تمثال ممنون الصغير (وهو فى الحقيقة تمثال رمسيس الثانى) من أهم معروضات المتحف البريطانى.

لم تكن مبادلة محمد على الأعمال الفنية بالخبرة التكنولوچية حالة استثنائية، وحتى اليوم مازالت الأشياء الثمينة لعبة دبلوماسية فى أيدى السياسيين، أما الشىء

الذى يلفت النظر فهو ذلك القدر الكبير من كنوز مصر القديمة الذى حمل إلى الخارج، ومما يدين محمد على أنه هو الذى أمر شخصيًا بتدمير المعابد المهجورة إذا كانت تشغل أرضًا زراعية ذات قيمة، أو تقع على حافة الصحراء حيث توجد أراضٍ قابلة للاستصلاح، أو تعوق التنمية. علاوة على ذلك فقد كانت الآثار القديمة مصدرًا غنيًا للمواد الخام، فلم عناء استخراج جرانيت أوحجر جيرى جديد بينما هناك كتل مقطعة بعناية ومصقولة متاحة ومن السهل نقلها. لقد بنى معظم مصر الحديثة من أحجار المعابد التى قام العمال بتفكيكها على فترات غير منتظمة ونقلها بكميات كبيرة بواسطة المراكب، وقد استخدمت الآثار القائمة لأغراض أخرى مثل معبد أرمنت الذى تحول إلى مصنع للسكر، أما معبد هرموبوليس فقد تحول إلى جير لصناعة الأسمنت. وهناك أيضًا معبد صغير فوق جزيرة فيلة مسجل بمعرفة أحد علماء نابليون هدم كما يعتقد، لأن السياح الذين يزورون الجزيرة كانوا يزعجون الحاكم المحلى، وبذلك فإن خسارة الآثار والتاريخ القديم مذهلة.

وهكذا بينما كان الدارسون الغربيون مثل الدبلوماسى المستشرق السويدى چوهان ديڤيد أكربلاد، والطبيب البريطانى الفيزيائى المستشرق توماس يونج، والعالم الفرنسى چان فرانسوا شامپليون الذين كانوا يحاولون فك طلاسم حجر رشيد عن طريق النسخ الدقيقة من النقوش، فإن الحضارة المصرية القديمة التى كانوا يحاولون فهمها أزيلت أو محيت بالتدريج. كبادرة لحسن النية أهدى محمد على إلى الملك لويس الثامن عشر المسلة التى كانت تقف غربى مدخل معبد الأقصر، ونقلت إلى باريس لتنتصب فى ميدان الكونكورد سنة ١٨٣٦ وفيما بعد أهديت مسلة تحوتمس الثالث إلى الملك چورچ الرابع ملك إنجلترا علامة على الاحترام الشخصى لتقوم على شاطئ نهر التميز فى ١٨٧٨، أما المسلة التوءم فأخذت إلى نيويورك سنة ١٨٨٠ لتقف فى سنترال بارك.

حتى قيام المملكة الحديثة تحت حكم محمد على، وإقامة نظام تعليمى على الطراز الأوربى كانت فكرة المصريين عن الغرب غائمة، بدأ ذلك يتغير عندما

أرسل الباشا الذى كان يريد أن يدرب قوة بشرية على أعلى مستوى للعمل فى خدمات الدولة - أولى البعثات التعليمية إلى فلورنسا ولندن وميلانو وباريس وروما فيما بين عامى ١٨٠٩، ١٨١٣. الدارسون الذين أرسلوا ضمن هذه البعثات درسوا العلوم العسكرية وبناء السفن والهندسة. وقد لعب رفاعة الطهطاوى، ابن أسيوط الذى تخرج فى الأزهر، دورًا مهمًا فى تنمية الوعى بالثقافة العربية، فزار المعهد المصرى بالقاهرة، وشاهد الدارسين أثناء عملهم، وكان لديه هو نفسه رغبة طبيعية للدراسة، وعندما عين واعظًا لعدد من المصريين الذين ابتعثوا للدراسة فى فرنسا وعددهم ٢٤ مبعوثًا وذلك بين عامى ١٨٢٦ و١٨٣١ انتهز هذه الفرصة لقراءة الأعمال الكلاسيكية والفلسفية والتاريخ والجغرافيا والتعدين والهندسة والفلك والقانون والمثولوجيا والصحة، وقام بترجمة أجزاء من بعض الكتب إلى اللغة العربية، وأرسل بعضها إلى محمد على الذى سرعان ما وجد فى الطهطاوى رجلاً ذا تربية تقليدية اتسعت رؤيته الثقافية بعد احتكاكه بأوروبا. وأدرك أن مثل هذا الرجل كان مناسبًا للمساعدة فى توسيع الأفق الثقافى للمصريين، وعند عودته إلى مصر تم تعيينه رئيسًا لتحرير الجريدة الرسمية، ومن خلال ما كانت تنشره بدأت الأفكار الإصلاحية فى الانتشار. وعين الطهطاوى كذلك رئيسًا لمكتب الترجمة فى "مدرسة اللسان القديم" أو مدرسة اللغات القديمة (ويشار إليها أحيانًا بالخطأ بأنها أول مدرسة للمصريات)، التى كانت **إرهاصًا** بنهضة أدبية.

لقد تخرج أعظم الدراسين المصريين فى أروقة الأزهر، كان من بينهم عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الشهير (١٧٥٦ - ١٨٢٥) الذى كان شخصية غير عادية بالنسبة لعصره، وكان ينتمى إلى أسرة من علماء الدين فى إحدى قرى الدلتا، ودرس مصر الإسلامية عندما تتلمذ على المواردى كاتب السير السورى، ثم أكمل تعليمه فى إحدى المدارس الحكومية بكفاءة. والتحق الجبرتى بالمدرسة البحرية التى أنشأها محمد على بالإسكندرية ثم مدرسة المهندسخانة بالقاهرة وزار المعهد المصرى (حيث بهرته المكتبة والمختبرات ومستوى الدراسة، بعد ذلك أمضى

أربعة أعوام فى فرنسا، حيث درس فى مرصد باريس وزار أيضًا المراصد فى كل من برلين وبروكسل ودبلن وأدنبرة وڤيينا. وبعد عودته إلى مصر عين فلكيًا بمرصد العباسية. عمل الجبرتى لمدة عشر سنوات فى رسم خريطة لمصر السفلى طبعت فى مطبعة بولاق سنة ١٨٧١.

وهناك خريج آخر من الأزهر هو محمود بك الفلكى (١٨١٥ - ١٨٨٥) أحد رواد الرياضيات والهندسة الذى تخرج فى الأزهر والمدارس الحكومية وكان قد درس فى الخارج، وقد قام بعمل عظيم فى الآثار والطوبوغرافيا والهندسة ونشر مقالات فى الجرائد العلمية الأوروبية وكان أول مصرى يحظى باعتراف أوروبا، فمثل مصر فى المؤتمرات الجغرافية فى باريس سنة ١٨٧٥ وفى البندقية سنة ١٨٨١. وأصبح أحد أفراد الصفوة المصريين من ذوى الثقافة الغربية الذين ظهروا فى مصر للمرة الأولى حسب المستويات الأوروبية فى النظافة والصحة. وللمفارقة أنه عندما أصبح ارتداء الزى الغربى علامة على النبالة وجدنا كتابًا أوروبيين مثل جوستاف ڤلوبير، وفنانين مثل هنرى بريس داڤن، وروبرت هاى وديڤيد روبرتس بالإضافة إلى إدوارد لين صاحب كتاب أساليب وعادات المصريين المحدثين يرحبون بالزى العربى وهم يتنقلون فى مصر.

ظهر علم المصريات رسميًا فى سنة ١٨٢٢، عندما فك العالم الفرنسى چان فرانسوا شامپليون رموز حجر رشيد الذى اتضح أنه نص كتبه كهنة ممفيس تكريمًا للملك بطليموس الخامس، وعلى الرغم من مشاركة عدد كبير من العلماء فى فك طلاسمه، يعتبر شامپليون أول من وضع الدراسات اللغوية المصرية فى مجال التطبيق، وابتعد بها عن أن تكون مجرد رموز كما كان متوقعًا، لأن كل صورة كانت تمثل صوتًا يمكن وضعه فى شكل حروف تكون كلمات منطوقة. وضع شامپليون قواعد النحو المصرى والهيروغليفى ممهدًا بذلك الطريق لاستخدام "المفتاح" الذى توصل إليه. رحلته إلى مصر بصحبة رفيقه الأصغر وهو عالم المصريات الإيطالى إيپوليتو روسللينى نتج عنها عدة مجلدات من الرسوم والنصوص،

واستطاع علماء المصريات بفضلها إلى جانب كتاب "آثار مصر" أن يتابعوا تاريخ الحضارة القديمة من خلال سلسلة من الآثار.

أرسل فرانسواز أوجست مارييت (١٨٢١ - ١٨٨١) (مؤسس مصلحة الآثار) إلى مصر لأول مرة عن طريق متحف اللوفر للحصول على مخطوطات قبطية وإثيوبية وسريانية، وبدأ الحفر عند سقارة، ولكن سرعان ما تحول انتباهه بسبب طريق لتماثيل أبو الهول كان مثّل ممرًا يقود إلى السرابيوم فى كتابات الجغرافى الرومانى استرابو، نسى مارييت موضوع المخطوطات القبطية واكتشف مارييت القاعات المحفورة فى الصخر ذات الحجرات المجاورة التى كانت تضم توابيت حجرية ضخمة. أزيحت معظم الأغطية الجرانيت جانبًا ونهبت المحتويات، ولم يتبق سوى تابوت واحد بحالته الأصلية، حيث فشل اللصوص فى فتحه. استخدم مارييت الديناميت ليجد بداخله تمثالاً من الذهب الخالص لثور أرسله إلى متحف اللوفر مع التابوت الداخلى، الثور المومياء نفسه موجود فى المتحف الزراعى بالقاهرة. بعد ذلك انتقل مارييت إلى الجيزة حيث نقب فى معبد الوادى، معبد خفرع بانى الهرم الثانى.

عندما كان مارييت يعمل فى المقبرة الكبيرة كانت أنشطته مراقبة بمعرفة الحكومة المصرية، وكان عباس أكبر أفراد الأسرة العلوية الذى خلف محمد على فى سنة ١٨٤٨ قد عين حارسًا لمراقبة أعماله، ليس اهتمامًا بالآثار المصرية بقدر ما كان عدم ثقة فى الفرنسيين. مر الوقت منذ قيام محمد على بتطوير استراتيجيته التى كانت تقوم على التوسع الزراعى والنمو الصناعى، والمعدات التى تم استيرادها من فرنسا لنسج القطن والجوت والحرير والصوف بالإضافة إلى تلك المستخدمة فى صناعات السكر والزجاج والدباغة وغيرها - قد انهارت لعدم صيانتها أو إصلاحها حتى أغلقت هذه المصانع. الموظفون الذين كانوا مسئولين عن المحافظة على المعدات طردوا، ولم يجد التجار الفرنسيون ما يشجعهم على العمل فى مصر، كما أثبت الفرنسيون أنهم ليسوا أمناء فى تعاملاتهم، ولا شك أن عباس

شعر بالسعادة عندما وجد أن ماريت أفلس وعاد إلى فرنسا، حيث أصبح فيما بعد أمينًا للقسم المصرى فى متحف اللوفر.

حدث تطور عظيم فى المجال فى ١٨٤٢ عندما أرسل فريدريك وليم الرابع بعثة بروسية إلى مصر والنوبة. كانت أحسن البعثات التى جاءت إلى مصر من حيث التجهيزات والمعدات حتى ذلك الحين وكانت تحت إدارة ريتشارد لبسيوس الذى أعد لها تمامًا، حيث قام أولاً بزيارة المجموعات المصرية الرئيسية فى أوروبا، ثم عاد إلى مصر ومعه أفضل الرسامين، وبدأ فى تسجيل أكبر قدر من الآثار الموجودة فوق الأرض، ثم جمع الآثار وحاول عمل مسح للنقوش. وهذا الأسلوب فى التنقيب ورسم القطاعات العرضية والمتقاطعة عبر منطقة المتاهة فى الفيوم لم يستخدم مرة أخرى حتى حلول القرن العشرين. وتلا ذلك طبع اثنى عشر مجلدًا من الألواح ومن بعدها سبعة مجلدات من النصوص، وأنشئ المتحف المصرى فى برلين ليكون لبسيوس مديرًا له، وبرعاية الإمبراطورية القوية أنشئت دورية ألمانية لهذا الغرض فى سنة ١٨٧٤ بعنوان:

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde.

كان أدولف إيرمان – وهو عالم مصريات ولغوى – أحد الأوائل الذين أسسوا دراساتهم على فهم كامل للهيروغليفية، ووضع كتاب ***Ägyptische Grammatick***

الذى ظل لعدة سنوات مرشدًا لا غنى عنه لكل من يريد معرفة الهيروغليفية. وقد وصف فى كتابه: ***Life in Ancient Egypt*** البناء السياسى لمصر القديمة والأنظمة الإدارية والحياة الاجتماعية والقرابة العائلية والملابس وأدوات الترفيه والتعليم والرياضيات والقتال والسحر والجريمة.

وعلى خلاف معاصره كيرت سيث، فإن إرمان طبع أعماله فى طبعات علمية وأخرى شعبية، وبحلول عام ١٨٩٢ كان تأثير مدرسة برلين ملموسًا فى كل أنحاء العالم، وفى نفس الوقت قام العلماء الإنجليز روبرت هاى، وجيمس برتون،

وجون جاردنر ويلكنسون بإنتاج مجموعات من الصور طبق الأصل للرسوم والنقوش، كما تزايد الاهتمام بمصر القديمة على المستويين المهنى والشعبى.

كتاب إميليا إدواردز الصادر فى ١٨٧٧ بعنوان ***Athousand Miles up the Nile*** أصبح من كلاسيكيات كتب الأسفار، فقد أيقظت مؤلفته الاهتمام العام للتفكير فى المحافظة على الآثار[١].

كتبت عن تعرض الآثار لعوامل عديدة وتحطيمها على يد المخربين المحليين وجامعيها الأجانب، أما كتابها عن رحلتها حتى الشلال الثانى بمجرى نهر النيل فقد حولها من كاتبة روايات شعبية إنجليزية إلى راعية لعلم المصريات. لقد أسست "صندوق تمويل استكشاف مصر" الذى كان مقدمة لإنشاء جمعية استكشاف مصر (***EES***) فى سنة ١٨٨٢ كان أول مؤسسة، وكان فلندرز بترى عالم المصريات البريطانى الذى كان قد بدأ عمله فى مصر قبل عام عندما قام بعملية مسح للهرم الأكبر، قد قام بذلك تحت رعاية الصندوق. فى سنة ١٨٩٣ أسس بترى مؤسسته الخاصة التى استمرت إلى مابعد سنة ١٩٠٥ تحت اسم المدرسة البريطانية للآثار فى مصر. تمثل دوره فى وضع أسس طريقة صحيحة للبحث عن الآثار فى نقادة فى مصر العليا، وهو موقع نقب فيه أولاً إميل أميلينو الذى اكتشف العديد من الجبانات التى تعود إلى عصر ماقبل الأسرات. كان تاريخ مصر معروفًا فقط حتى عصر الفرعون سنفرو (حوالى سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد) بينما ظل تاريخ الأسرات الثلاث الأولى مجهولاً، وذلك حتى كانت حفائر أميلينو ما بين عامى ١٨٩٤ و١٨٩٨. كان اكتشاف كم ضخم من الجبانات التى تعود إلى عصر قبل الأسرات قد استغرق فترة زمنية طويلة، كما كان يمثل تحديًا كبيرًا بالنسبة لبترى.

---

(١) شرفت بترجمة كتاب إميليا إدواردز هذا تحت عنوان: "رحلة الألف ميل" وصدر عن هيئة الكتاب فى ١٩٩٧ تحت رقم ٢٨٠ ضمن سلسلة الألف كتاب الثانى، وأشرت فى تصديرى له إلى أهميته التاريخية وإلى الدور الذى قامت به المؤلفة فى خدمة التاريخ الفرعونى المصرى، وذلك عن طريق الجمعية التى أنشأتها سنة ١٨٨٢ تحت اسم: "صندوق تمويل استكشاف مصر" وأوقفت ثروتها لتمويله (المترجم).

مع عدم وجود دليل مكتوب، كيف كان يمكن تصنيف المادة المكتشفة حسب ترتيب زمنى ؟ كان الحل الذى توصل إليه هو "التأريخ المتعاقب"، الذى يمكن بواسطته اكتشاف العلاقة بين مختلف طرز الفخار، فيما أصبح يعرف باسم الأسلوب الأركيولوچى القياسى.

فى سنة ١٨٥٤ جمع لقاء تم بالمصادفة فى الإسكندرية بين مارييت وفرديناند دى ليسبس الذى كان يلح فى طلب امتياز قناة السويس، ربط مستقبل مارييت بمصر، وانبهر دى ليسبس عندما حكى مارييت عن اكتشافه لمقابر العجل أبيس، ورتب لقاء مع سعيد باشا وولى عهده عباس الذى كان مفتونًا هو الآخر بخبرات ذلك الفرنسى. كان سعيد يصغى بينما كان مارييت يتحدث عن آثار هذا القطر الفريدة، ويصف المدى الذى وصل إليه تخريب الآثار على يد الدبلوماسيين والسياح وصائدى الثروات والمتعاملين فى تجارة الآثار وأنشطة "السبَّاخين" (الذين يحفرون بحثًا عن التربة الغنية المتخلفة عن المواقع القديمة التى كان يستخدمها القدماء لتخصيب حقولهم). شرح مارييت كيف أن القليل من الحفائر هو الموثق وأكد أهمية إنشاء نظام لحماية الآثار، وخلال اجتماعات متوالية، كان احترام الباشا للرجل الفرنسى وإعجابه به يتزايدان، وقام بتعيين مارييت أمينًا (مديرًا فيما بعد) للآثار المصرية.

فى أواخر القرن التاسع عشر وضع مارييت سياسة للحفظ لإيقاف تدفق الآثار المصرية إلى الخارج، وطلَب مبانى مناسبة لإقامة متحف، فخصص له مبنى فى بولاق كان مخصصًا فى الأصل لإحدى شركات النقل البرى. ثم أعيد تجديده بمعرفة شركة إيطالية للبناء حسب طراز فرعونى جديد، وكان بالمبنى قاعات واسعة للعرض، وجمعت الأشياء من غرف التخزين المختلفة المنتشرة فى أرجاء القطر ووضعت للعرض وهى عبارة عن تماثيل لأبى الهول وشواهد مستطيلة وتماثيل وأعمال خشبية مختلفة وتشكيلة ضخمة من الأشياء الصغيرة. لم تكن المجموعة مرتبة زمنيا، ولكن لم يكن فى الإمكان أبدع مما كان، فمعظم الأشياء

كان قد تم جمعها عشوائيًا، وما كان يمكن تعريفه منها فنيًا جرى تصنيفه عن طريق وضع كروت وكتب ماريت دليلاً للمتحف.

عكف ماريت بطاقة غير عادية على برنامج ضخم للحفر فى ما لا يقل عن خمسة وثلاثين موقعًا فى أرجاء مصر، ترتب عليها تشغيل ٧٢٨٠ عاملاً، واستطاع أن يبنى تدريجيا جهازًا إشرافيًا من المفتشين وحراس الآثار، وبذلك أنهى "عصر القناصل" وحجم إلى حد ما أنشطة جامعى الآثار الذين أدى بحثهم عن الأشياء إلى إحداث أضرار بالغة بالآثار. وبفضل ماريت كان ما يكتشف يبقى فى مصر وذلك لأول مرة. أما إنجازه الأعظم فإنه يتمثل فى تنمية ضمير عالمى فيما يخص تدمير الآثار ونزع الملكية والعناية الصحيحة والحفاظ على الآثار المصرية، وأمر بإخلاء العديد من المعابد وإظهارها، ونتيجة لجهوده أزيحت الرمال عن معابد إدفو والكرنك ودندرة بحيث أصبح بالإمكان رؤيتها فى بهائها الأول. وإليه أيضًا يعود الفضل فى حفظ كنوز تانيس والجيزة ومصاطب المملكة القديمة فى سقارة ومقابر ميدوم، كما تم حماية المعابد العظيمة فى أبيدوس والدير البحرى ومدينة هابو وإسنا وإدفو من التنقيب العشوائى والسلب والنهب. لم يكن بمقدور ماريت أن يحرس موقعًا بنفسه، ولذلك فإنه قام بتعيين "ريس عمال" من المحليين مما عرضه للكثير من النقد، كما اتهمه العالم البريطانى فلندرز بترى بأنه كان يقوم بحفريات غير مدروسة، ويحتكر الأنشطة بحيث تحقق أغراضه.

إن أفضل تصوير للفارق بين الأسلوبين البريطانى والفرنسى فى علم الآثار يتمثل فى عمل بترى وجاك دى مورجان فى نقادة، حيث توجد واحدة من أهم أعظم ثقافات ما قبل الأسرات فى مصر العليا تغطى منطقة واسعة تبلغ مساحتها حوالى سبعة عشر فدانًا ممتلئة بعدد كبير من المقابر. وعندما حفر بترى هناك فى سنة ١٨٩٥ نظم عماله المدربين على الحفر إلى أطقم كانت تعمل تحت بصره. وكان دى مورجان قد أوفد فرقًا من العمال إلى المواقع الرئيسية، ولكنهم على العكس كانوا يحفرون عشوائيًا. فيما بعد كان بترى بالمثل شديد الانتقاد لإدوارد

ناڤيل عالم المصريات السويسرى ودارس الكتاب المقدس عندما عمل كلاهما لحساب جمعية استكشاف مصر فى الدير البحرى عند مقابر طيبة، كان ناڤيل قد حصل على تصريح بالحفر للتنقيب عن معابد منتوحوتب الثانى وحتشبسوت وتحوتمس الثالث، وكان بترى يعتبر ذلك شيئًا يدعو للسخرية: أن يؤتمن شخص لا يعرف أهمية الأشياء الصغيرة فى الموقع على مثل تلك الآثار القيمة كان موقف العلماء واضحًا وصريحًا بين العالمين.

وكان سعيد باشا (١٨٥٤ – ١٨٦٨) الذى أعاد فتح معهد مصر بالإسكندرية خطيبًا موهوبًا تنقل عنه الصحافة كثيرًا، إحدى خطبه – وكانت موجهة لمجموعة من القيادات الدينية، وأعضاء فى الحكومة والجيش – جديرة بالاقتباس عنها هنا لأنها تعكس بكل وضوح إحساسه القوى بالهوية الوطنية:

"إخوانى، لقد فحصت ظروف المواطنين المصريين من حيث علاقتهم بالتاريخ، ووجدت أنهم وقعوا تحت ظلم واستعباد أمم أخرى مثل الهكسوس والآشوريين والفرس، حتى الليبيين والسودانيين والإغريق والرومان، وذلك قبل الإسلام وبعده. وقد احتل هذه الأرض العديد من الشعوب الغازية، الأمويون والعباسيون والفاطميون من العرب، والأتراك والأكراد والجراكسة. وقد أغارت عليها فرنسا كثيرًا قبل احتلالها فى بداية هذا القرن بقيادة بونابرت. ولأننى أعتبر نفسى مصريا فقد نذرت نفسى لتغيير هذه الصورة، من التفكير إلى العمل" (ليلى شكرى الحمامصى، "توكيد الشخصية المصرية" من كتاب المجتمع المصرى فى حالة تحول، تحرير سعد الدين إبراهيم ونيكولاس هوپكنز (القاهرة، قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٧٧، ص ٥٩).

قام سعيد باشا بتجديد السياسات الأوروبية التى طبقها محمد على حتى إنه اتخذ خطوات لتمصير الحكومة المحلية، وأعطى الأفضلية للعربية على التركية فى المراسلات الرسمية وبينما كان يؤكد على أن المناصب العسكرية القيادية تظل فى يد أفراد من النخبة التركية الشركسية، أمر بأن يلتحق أبناء أعيان الفلاحين

(المشايخ) بالجيش للتدريب كضباط وذلك للمرة الأولى، وأعطى امتياز حفر قناة السويس لفرديناند دلسبس بحسن نية، ولكن بحيث تدفع الحكومة المصرية أكثر من ٧٠% من تكلفة رأس المال مقابل ١٥% من الأرباح السنوية، وكانت تلك قنبلة مالية موقوته حتى بعد وفاته.

خلفه إسماعيل باشا فى سنة ١٨٦٣ الذى منح فيما بعد لقب خديوى، ونحن نتذكره اليوم بسبب الاحتفال الضخم الذى أقامه بمناسبة افتتاح قناة السويس فى ١٨٦٩، وتوصيل مصر إلى حافة الخراب عندما أصبح عاجزًا عن دفع فوائد القروض إلى دائنيه فى بريطانيا وفرنسا، وقد أجبر على بيع حصته فى شركة قناة السويس. ونقول – ونحن فى سياق هذه الدراسة إنه من الضرورى أن نذكر وقفته لحماية الآثار المصرية وحفظها وكذلك حقيقة أن حكمه شهد أعظم تحول لمصر إلى قوة حديثة منذ زمن محمد على.

على خلاف سابقيه (عباس وسعيد) تلقى إسماعيل باشا تعليمًا أوروبيًا كما سافر كثيرًا، والواقع أن تعرضه للثقافة الأوروبية كان عرضيًا، كان قد أصيب فى طفولته بمرض فى عينيه، ووضع تحت رعاية أفضل الأخصائيين النمسويين فى ڤيينا. كانت المدينة فى ذلك الوقت سرة أوروبا، وهناك تلقى الأمير الصغير آيات التكريم وأمطروه بالحنان، ليس لأنه كان طفلاً آسرًا ولكن لأن الإمبراطورية العثمانية كانت على خلاف مع الدول الأوروبية، وأى انحراف فى هذا المجال كان ينظر إليه باعتباره معارضة جديرة بالاستحسان لنظام حكمها. وكان الشاب مشبعًا بالثقافة الأوروبية، درس الموسيقى كما زار المبانى التاريخية ومعارض الفنون واستكمل دراسة اللغة الفرنسية والتحق بالمدرسة الحربية فى سانت كير.

شرع إسماعيل فى تزيين القاهرة بمبانٍ على الطراز الأوروبى، وفى النهاية خطط وأنشأ أحياء جديدة فى عابدين والأزبكية على الضفة الشرقية للنيل وفى الجيزة، منها حديقة الحيوان وحدائق الأورمان فى الغرب، وأحياء العباسية والمطرية والزيتون ومصر الجديدة فى الشمال، وجزيرة الزمالك فى مقابل ميناء

بولاق. وأنشئت الخدمات البلدية مثل المجارى فى مناطق عديدة بالقاهرة والإسكندرية، وبنى إسماعيل المحطة المركزية للسكك الحديدية وأنشأ ميدان المحطة ودارًا للأوبرا على طراز ذلك الموجود فى باريس، وأنشأ مكتبة وطنية (دار الكتب) ومرصدًا فى حلوان. واتخذ إسماعيل الذى توسع فى إرسال الطلاب الموهوبين إلى الخارج للدراسة خطوات لإنشاء مدرسة الإدارة (التى أصبحت فيما بعد المدرسة الملكية للقانون) لخدمة أبناء الطبقة العليا من المصريين ذوى الحيثيات والصلات. وبدأ فى إنشاء الجمعية الجغرافية الخديوية (التى أصبحت الجمعية الجغرافية الملكية فى عهد الملك فؤاد والجمعية الجغرافية المصرية بعد ثورة ١٩٥٢) واختار على مبارك ليكون وزيرًا للتعليم، وكان فيما سبق زميله فى الدراسة فى باريس، وفيما بعد صار مسئولاً حكوميًا لامعًا خلال فترة الحاكمين اللذين حكما مصر قبل إسماعيل، وأنشأ على مبارك كلية لإعداد المعلمين كما ساعد فى إنشاء دار الكتب، وكتب دراسة ضخمة عن مصر فى القرن التاسع عشر بمساعدة كثير من المصريين. واعتمد الجزء الذى يتحدث عن التراث الفرعونى على خبرته الذاتية وكذلك كتابات المؤلفين العرب والأوروبيين، وتم توزيعه على نطاق واسع فى العالم العربى. أما الجريدة اليومية الرئيسية فقد اختارت آثار مصر الضخمة والباقية على مدى الزمن (وهى الأهرام) لتكون عنوانًا لها وأصبحت بالمشاركة مع صورة أبو الهول رمزًا لمصر على طوابع البريد.

وفى عصر إسماعيل سرعان ما ظهر جيل من المثقفين والإخصائيين المصريين مثل رفاعة الطهطاوى، ومحمود الفلكى، وعلى مبارك مما شجع المصريين على المشاركة فى المحافل الدولية للمستشرقين والجغرافيين، وقام مارييت بتنظيم معرضين فى باريس بتشجيع من إسماعيل، وأرسلت المعروضات إلى المعارض فى لندن وڤيينا وفيلادلفيا، وقد أرسلت هذه كلها بالمشاركة مع توماس كوك لوضع أساس حقبة من السياحة الكثيفة التى جاءت إلى مصر.

أما من جهة الآثار فقد أصدر إسماعيل سلسلة من القوانين فى ٢١ إبريل ١٨٦٣ موجهة إلى مفتشى الآثار ونصت هذه القوانين على أن مطالب "ماربيت بك" لتسهيل حفائره فى مصر العليا لابد من تنفيذها، ومنها ضرورة رفع أجور العمال فى المواقع، وكذلك عدم تخريب الآثار أو هدمها، أو استخدام الأحجار التى تؤخذ منها لإنشاء المبانى الحكومية أو الخاصة. " لأن الآثار فى مصر هى أقوى الوسائل لتخليد تاريخ المملكة كما أن حفظ هذه الآثار أحد أعز رغباتنا". وفوق ذلك نص قانون إسماعيل على أن أية آثار يقع عليها سكان القرى لابد من أن تصبح من ممتلكات مصلحة الآثار تلقائيًا، وينص القانون على أن "هذه الآثار يجب فحصها فى موقعها إذا كانت ضخمة وأن تبقى فى الموقع الذى وجدت فيه، أما إذا كان حجمها صغيرًا فلابد من نقلها إلى مصلحة الآثار". وحيث إن سكان الأقصر قد اعتادوا البحث عن الآثار والاستيلاء عليها وكذلك استخدام أحجارها لبناء مساكنهم، نص القانون على أن المفتشين "من سلطتهم إيقافهم والتأكد من عدم حدوث ذلك" وأضاف: "لابد من إصدار التعليمات للمدير بأن يحقق مطالب ماربيت بك مدير الآثار وإمداده بالجمال والخيول والقوارب والأخشاب وغيرها من المواد واتخاذ أية خطوات ضرورية لحفظ الآثار ونقلها".

أحيا إسماعيل مدرسة اللغات التى كانت قد أغلقت على أيام عباس الذى كان يكره الأجانب، وعندما أوصى ماربيت بأن يحرر عقدًا مدته خمس سنوات للعالم هينرش بروجش الذى كانت حكومة بروسيا أرسلته إلى مصر فى سنة ١٨٥٣، لكى يدير المدرسة، وكان رد إسماعيل بالإيجاب. افتتحت المدرسة فى مبنى فيلا كانت مهجورة بالقرب من المتحف المصرى فى بولاق إلى أن يتم تجهيز مقر مناسب لها، وأن يقيد بها الطلبة الموفدون من المدارس الحكومية والحاصلون على أعلى الدرجات فى اللغة الفرنسية والمؤهلون للقيد بها. كان يقوم بتدريس اللغة العربية شيخ من الأزهر، وبتدريس اللغة القبطية قبطى تعينه البطريركية وأن يقوم

بتدريس الإنجليزية والفرنسية والألمانية متحدثون من أهلها. بروجش نفسه كان يقوم بتدريس اللاتينية واليونانية والمصرية (الهيروغليفية).

كان أحمد كمال أحد تلاميذ بروجش وكان شابًا حاد الذكاء موهوبًا فى اللغات، أما بروجش نفسه فقد حصل فى بواكير حياته على ما كان يوصف بأنه معرفة مبكرة باللغة وقواعدها. درس أحمد كمال الدراسة فى اثنتين من مدارس الصفوة بالقاهرة فى المرحلتين الأولية والثانوية كما أهله اهتمامه بتاريخ مصر ولغتها القديمة للدراسة الطويلة للعلاقة بين اللغة المصرية واللغات السامية مع التركيز على اللغة العربية. ولسوء الحظ فإنه على الرغم من أن مستوى التعليم وكفاءته بمدرسة اللغات كان رفيعًا فإن المقابل كان ضعيفًا إلى حدٍ ما، وكان أسمى ما يحلم به أفضل الخريجين هو وظيفة مترجم بوزارة التعليم. كان أحمد كمال محظوظًا لأنه يجد وظيفة مترجم فى مصلحة الآثار ومعه أحمد نجيب أحد أترابه.

كان أحمد كمال فى سن الثلاثين قبل أن يخطو الخطوة الأولى فى عمله المهنى. فى سنة ١٨٨١ وصل تقرير إلى ميل بروجش، وهو الأخ الأصغر لهنــريش بروجش، يفيد بأن بعض الآثار الثمينة كانت تظهر بانتظام فى سوق الأقصر. ولم يكن ذلك بالشىء الجديد، ولكن عندما عرضت فى السوق التماثيل الجنائزية للملك بيندجم وبعض البرديات المهمة اتضح أن إحدى المقابر الملكية كانت قد نهبت، واستدعى ذلك الاهتمام الفورى بالأمر. ذهب إميل بروجش يرافقه أحمد كمال إلى الأقصر، وقاما بالتفتيش على الآثار وثبت أنها أصلية.

فقام بالبحث عن مصدرها مع أحمد كمال الذى قام بدور المترجم، وسرعان ما ظهر أن فلاحى القرية كانوا متورطين فى الأمر، ولكن التقصى لم يوصلهما إلى شىء محدد وقادهما المفتاح الوحيد إلى أحمد عبد الرسول تاجر الآثار المشهور الذى أنكر أية صلة، ولم يتوصلا إلى شىء حتى قادتهما إحدى العائلات المنافسة إلى خيانته. وقاد الأخ الأكبر لعبد الرسول بروجش إلى مدخل أحد التلال السفلية بسلسلة التلال التى تفصل وادى الملوك عن الدير البحرى، حيث رأى بروجش

مقبرة غير مكتملة تحتوى على حوالى أربعين مومياء، من بينها مومياوات لبعض أشهر ملوك الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر، ومنها مومياوات الملوك أمنحوتب الأول وتحوتمس الثانى وتحوتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث. وكان كهنة الأسرة الحادية والعشرين قد أخفوا هده المومياوات عن اللصوص على أثر فترة من الزمن شهدت نهبًا وتدنيسًا كبيرين للمقابر حوالى سنة ألف قبل الميلاد عندما انقطع الخيط الملكى للفراعنة بقيام حكم كهنة آمون. وكانت معظم المومياوات تحمل فوق لفائفها قوائم تبين طريقة دفنها، تم جرد الخبيئة، وقد أزيل على وجه السرعة، وفى خلال ثمانية أيام نقل الملوك عبر البحر إلى الشمال، وبدت ضفة النهر وكأنها قد أعدت لاحتفال جنائزى رسمى مع إطلاق الرصاص فى الهواء ونساء متشحات بالسواد ينحن ويذرين الرمال فوق رؤوسهن.

وعندما عين أحمد كمال للالتحاق برجال الآثار الفرنسيين الذين يقومون بالحفائر فى الدلتا وفى مصر الوسطى والعليا، كان يقوم بتوثيق عمله بانتظام، وظهر فى التقرير الذى قدمه لمجلة الآثار المصرية ***ASAE (Annales du Service des Antiquitie's de l' Égypte.)*** وهى المجلة الرسمية لمصلحة الآثار ما لا يقل عن ٢٢ مادة. كما قام أحمد كمال بترجمة الأعمال التى تتعلق بالآثار إلى اللغة العربية بهدف تشجيع المصريين على الاهتمام بتراثهم، وكان من بين هذه الأعمال دليل دى مورجان للآثار المصرية الذى كتب فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وجاستون ماسبيرو الجديد المنقح الذى نشر فى أوائل القرن العشرين، ودليل ج. بوتى للمتحف اليونانى الرومانى. وقد ألف أحمد كمال بنفسه كتابين باللغة العربية: كتاب "أنوار" الذى نشر سنة ١٨٦٨ كان مجرد لمحة تاريخية مبسطة للتاريخ القديم من عهد الفراعنة مرورًا بالعصر اليونانى الرومانى إلى أيام البيزنطيين، أما الثانى فيتناول هليوبوليس مركز عبادة الشمس فى العصور القديمة، كما قام زميله أحمد نجيب بترجمة كتاب بروجش عن اللغة الهيروغليفية كما نشر باللغة العربية أيضًا تاريخًا لمصر اعتمادًا على جولة فى مصر العليا.

كان أحمد كمال ومعاصروه قراءً متعطشين ممتلئين بالروح الوطنية. وقد كانت مطبعة بولاق قد تخصصت فى الأعمال الأساسية، ولكن بفضل الجهود المشتركة التى قام بها أحمد زكى عالم اللغة والمؤرخ وكاتب المقال والعالم الذى زار أشهر المطابع فى أوروبا، ومحمد جعفر فنان الخط الموهوب الذى كان يقوم بإعادة كتابة الخطوط، تفوقت المطبعة الوطنية المصرية على جميع المطابع العربية الأخرى من حيث رشاقة الأبناط وكفاءة عمليات الطباعة وساعدت فى تأسيس الهوية الوطنية وإبرازها. استخدمت اللغة العربية محل اللغة التركية، كما قام إسماعيل بتمويل الصحف الأكاديمية ومساندتها وشجع الجيل الأول من المثقفين المصريين المحدثين للتعبير عن وجهات نظرهم، وكما خصص الخديوى كذلك أموالاً لتمويل أول جريدة سياسية لمصر وهى "وادى النيل" التى كانت تصدر كل أسبوعين وتقوم بالدعاية والترويج لسياساته.

استدان إسماعيل من البنوك الأوربية الكبرى لتحقيق طموحاته وإقامة حفل الافتتاح المبهر لقناة السويس مما زاد من ديون البلاد، واضطر لبيع حصته فى شركة قناة السويس مع تعيين مراقبين أوروبيين أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى لمراقبة الدين العام لرعاية مصالح أصحاب الديون فى مصر، وفى سنة ١٨٧٨ أصبح سير إيفيلين بيرنج (لورد كرومر فيما بعد) عضواً فى لجنة الوصاية عندما امتدت سيطرتها على أموال وإقطاعيات الخديوى الشخصية.

استاء المصريون من كل ذلك وشكلوا حركة وطنية تحت اسم الحزب الوطنى بزعامة البكباشى أحمد عرابى الذى حشد الدعم سريعًا وسعى للحصول على أجور أفضل وترقيات للمصريين وقاوم التدخل الأجنبى فى شئون مصر. وزادت الأمور سوءًا بسبب الكوارث الطبيعية، مثل الوباء الذى أباد ٧٠٠ ألف رأس من الماشية، وظهور الكوليرا التى عطلت الأشغال، مع ارتفاع فيضان النيل مرتين بشكل غير مسبوق نتج عنهما خسائر كبيرة، أما طوفان سنة ١٨٧٨ الذى أغرق بولاق فقد كان تأثيره على المتحف خطيرًا. كان وصول الأشياء الناتجة عن

الحفائر مستمرًا عن طريق النهر وازدحم المتحف بها وبالتوابيت التى كانت توضع فوق بعضها بعضًا بعد امتلاء الحديقة. كل هذه الأشياء غمرتها المياه، أما المياه التى أغرقت الدور الأرضى فقد دمرت العديد من المومياوات والنصوص وسجلات ماريوت. ويحسب لإسماعيل، رغم عدم التأكد من ذلك، قيامه بإجراء سريع وتخصيص ملحق أحد قصوره فى الجيزة لإنقاذ الكنوز من المتحف الذى أغرقته مياه الفيضان.

لمواجهة حركة عرابى الوطنية مارست الدول الأوروبية الضغط على السلطان العثمانى لعزل إسماعيل وتعيين ابنه توفيق، ليصبح أداة أكثر طواعية فى أيديها، ثم قامت بريطانيا وفرنسا بافتعال أزمة لتبرير تدخلهما؛ واستجابة لطلب من توفيق أدى استعراض "قوة بحرى مشترك" إلى قيام اضطرابات ضد الأوروبيين بالإسكندرية، وتم تنظيم مؤتمر دولى للقوى الأوروبية فى إسطنبول لحشد الدعم ولكن السلطان العثمانى قاطع المؤتمر ورفض إرسال قوات إلى مصر. وتراجعت فرنسا وسحبت فرقتها البحرية من الإسكندرية.

وتصرفت بريطانيا منفردة وقصف الأسطول البريطانى الإسكندرية واحترقت المدينة. ونزلت القوات البريطانية وتم احتجاز الخديوى فى قصر رأس التين لحمايته. وحصل عرابى على فتوى من الأزهر بإعلان خيانة توفيق ثم أعلن عرابى الثورة.

أما القوات البريطانية البالغ عددها عشرين ألفًا، التى دخلت قناة السويس ونزلت فى الإسماعيلية لإخماد الثورة - فهزمت الجيش المصرى فى التل الكبير سنة ١٨٨٢ واحتلت مصر وتم القبض على عرابى ونفيه إلى مستعمرة سيلان البريطانية وتم الاستيلاء على القاهرة. استعاد توفيق سلطانه تحت السيطرة البريطانية وتعيين ايڤلين بيرنج قنصلاً عامًا لمصر. وأسرع بيرنج فأوقف الصحف الوطنية، ولم يكن متحمسًا لإنشاء جامعة وطنية، على الرغم من إعلانه أن بريطانيا لن تبقى طويلاً فى مصر وأنها سترحل سريعًا بعد استعادة النظام. فإن سجلات

الحكومة المصرية تبين أن مثل هذا القول كان يتم تكراره خلال فترة الخمسة وعشرين عامًا التالية.

جاءت بريطانيا إلى مصر لكى تبقى، واستمر التوتر فى علاقتها بفرنسا قائمًا، وكانت الأخيرة هى المسئولة عن الآثار منذ نابليون وتعتبرها مجال نفوذ حصرى لها. ولم يضطر الفرنسيون للقتال لاستعادة سيطرتهم. كان ماريت قد مات سنة ١٨٨١ ورضيت الحكومة المصرية بقبول خليفته المختار وهو جاستون ماسپيرو أستاذ علم اللغة المصرية والآثار فى الكوليج دو فرانسى الذى جاء إلى مصر للمرة الأولى رئيسًا لإحدى البعثات الأثرية التى أصبحت فيما بعد المعهد الفرنسى للآثار الشرقية (*IFAO*). وتابع ماسپيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦) بحماسة شديدة نشاط الرجل الذى سبقه فى تنظيم حفظ الآثار وأضاف إليه، قام بتطوير المصلحة الناشئة بإنشاء إدارة عامة قسمت إلى ثلاث إدارات للتفتيش، واحدة منها فى مصر العليا، والثانية فى مصر الوسطى ومصر السفلى، والثالثة فى سقارة والكرنك (وهما من أهم المواقع الأثرية). وقام بتنظيم العمل فى تسجيل النقوش والمناظر فى الكثير من المقابر ذات الأهمية، وافتتح أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة فى سقارة، ودشن العمل فى حفظ معابد الكرنك. واعتمادًا على خلفيته العلمية الصلبة أرسى مبادئ التسجيل المنظم للآثار. وبسبب الضغط البريطانى اضطر إلى أن يتخلى عن الاحتكار الفرنسى لأعمال الحفر، وتم تعيين اثنين من المفتشين من رجال الوزارة البريطانية هما جيمس كيبل فى موقع كبير المفتشين فى مصر الوسطى حتى أبيدوس وهوارد كارتر فى مصر العليا.

أعد ماسبيرو قانونًا للآثار يعتمد على مبدأ التقسيم المتساوى للأشياء التى تكتشف فيما عدا مناطق محددة مثل وادى الملوك وسقارة، وتوسع فى التسجيل بالاشتراك مع مجلة *BIE* التى بدأت من سنة ١٩٠٠ تتضمن معلومات تتعلق الحفائر والبحوث الجارية فى كل أرجاء القطر، واستمر فى عمل الكتالوج العام لمتحف القاهرة. وقد أنتج عمل أحمد كمال مع العلماء الغربيين فى الكتالوج مجلدين

عن الشواهد البطلمية والرومانية طبعا فى ١٩٠٤ و١٩٠٥ ومجلدان آخران عن موائد القرابين لنفس الفترة طبعًا فى ١٩٠٦ و ١٩٠٩.

والآن كانت الحاجة إلى إنشاء متحف دائم ماسة، وفى سنة ١٨٩٨ طرحت المناقصة لتقديم العطاءات للبناء، وبعد عام تم قبول التصميم الذى قام به المهندس المعمارى الفرنسى مارسيل دورجنون، ووضع حجر الأساس فى ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليًا). وفى سنة ١٩٠٢ تم الافتتاح الرسمى للمتحف المصرى (للآثار الفرعونية).

الفصل الأول

علم المصريات فى بدايات القرن العشرين

فى سنة ١٩٠٤ وهي السنة التى ولد فيها لبيب حبشى، تم الاحتفال بثلاث مناسبات، كانت الأولى هى إعلان الاتفاق الإنجليزى الفرنسى الذى تخلت بموجبه فرنسا - وكانت هى الدائن الرئيسى لمصر - عن موقعها للبريطانيين الذين سيطروا فيما بعد على العسكرية المصرية ووجهوا علاقاتها الأجنبية ووضعوا سياستها الداخلية. أما الحدث الثانى فكان هو إزاحة الستار عن التمثال البرونزى للعالم فرانسوا أوجست ماربيت مؤسس حفظ آثار مصر، وذلك فى حديقة المتحف المصرى الجديد بميدان التحرير. أما الحدث الثالث فكان هو منح عالم الآثار المصرى أحمد كمال لقب (بك) بمناسبة انتخابه لعضوية "معهد مصر" تقديرًا لعمله فى كتالوج المتحف المصرى. المؤكد أن هناك علاقة بين الأحداث الثلاثة السابقة، بسطت بريطانيا نفوذها على مصر وجعلتها مستعمرةً فى كل شيء فيما عدا الاسم، فرنسا أحكمت قبضتها على الأنشطة الأثرية، وظهرت لمحة استرضاء لعالم مصريات مصرى. وقد استخدمت كلمة استرضاء عمدًا لأن لقب أحمد كمال لم يكن يدل على قبوله فى حقل علم الآثار المصرية الذى كان يحتله الأوروبيون، وكان عليه أن يناضل لتحقيق أهدافه للوصول إلى غاية عمل وظيفى طويل ومثمر، وكان عليه أن يحتمل النقد الناتج عن أقاويل زميل فرنسى لطخ سمعته.

تم إزاحة الستار عن تمثال ماربيت بمعرفة الخديوى عباس حلمى الثانى وعالم الآثار الفرنسى جاستون ماسبيرو أول مدير للمتحف، حيث يظهر فى لحظة عفوية بذراعين متشابكتين وذقن مرفوع وتعبير يدل على العجرفة، فلابد أنه كان شديد الثقة بنفسه وإن كان يستحق ذلك، لقد فعل الكثير لمساعدة مصر فى حفظ

تراثها القديم ولفت الانتباه إلى تخريب الآثار العشوائى، أكثر من أى دارس آخر من أبناء جيله، وكان له دور فعال فى بناء أول مجموعة وطنية. كان المتحف الجديد الضخم يضم مايزيد على مائة غرفة مرتبة حول قاعة مكشوفة واسعة وضعت فيها أعمال النحت الحجرية الضخمة. وكان فريدًا من نوعه بحيث إنه يعرض كل مسار تطور حضارة واحدة من عصر ما قبل الأسرات حتى العصر الرومانى، وقد وضعت المعروضات وعددها ١٢٠ ألف قطعة فى الطابق الأرضى، حسب الترتيب الزمنى ثم حسب النوع فى الطابق الأول.

شكل رقم ١: كان معبد حتشبسوت فى الدير البحرى أحد المعابد العديدة التى أزيحت عنها الرمال الكثيفة على يد مارييت فى القرن التاسع عشر.

ومن بين الأشياء التى اكتشفت حديثًا والمعروضة اللوحة الاحتفالية للملك نارمر التى أحدثت ضجة كبيرة فى الدوائر الأثرية، فحتى اكتشافها فى ١٨٩٤ بواسطة كيبل كان كل المعروف عن مينا والملوك الأوائل مصدره المعلومات القليلة التى قدمها الكتاب القدماء مثل هيرودوت ويوسيفوس وأفريكانوس ومن قوائم الملوك التى رسمها المصريون أنفسهم فى فترات مختلفة من تاريخهم، وكانت الأخيرة غير جديرة بالثقة وغير كاملة ومتناقضة. وأما اللوحة المزينة برسومات بارزة على كلا الوجهين التى تحمل اسم نارمر فكانت تعتبر سجلاً لتوحيد "القطرين" أو النصر النهائى للملكة الجنوبية من مصر على الدلتا. وكان هناك أثر رئيسى آخر بالمتحف هو مجموعة من المومياوات الملكية التى استخرجها ڤيكتور لوريت من مقبرة أمنحوتب الثانى بوادى الملوك ما بين عامى ١٨٩٧، ١٨٩٩ كانت مقبرة الفرعون قد نهبت فى الزمن القديم ولم يتبق بها أى أثاث جنائزى، ولكنها كانت أول اكتشاف حتى تاريخه الذى وجد فيه الفرعون، حيث دفن فى غرفة الدفن الخاصة به. كان تابوته الحجرى مزينًا ومطوقًا بالزهور وبجانب الفرعون قوسه الشهيرة، وهى قوس لا يحمل مثلها أى فرد من أفراد جيشه ولا يستطيع أى أمير أجنبى أن يشهرها، وكان ذلك اكتشافًا مثيرًا فى حد ذاته ولكن عندما دخل لوريت إحدى الغرف الجانبية فى المقبرة وجد ثلاثة جسامين مجردة من كنوزها. فى البداية افترض لوريت أنها كانت تخص أفرادًا من عائلة أمنحوتب الثانى، ولكنه عندما فتح الغرف الجانبية الأخرى وجد تسع جسامين أخرى واستطاع تمييز الخرطوشة الملكية لرمسيس الرابع فوق إحداها، ثم قام بفحص الجسامين الأخرى على التوالى، وكان كل تابوت يحمل خرطوشة فرعون آخر. لقد عثر لوريت على خبيئة ملكية: ثمان مومياوات، كان اللصوص قد جردوها من متعلقاتها وهى فى مكانها، وتم نقلها إلى القاهرة لتوضع فى صناديق زجاجية فى المتحف، وحيث يطوف الزائرون حول بقايا بعض عظماء ملوك مصر ويتساءلون ما إذا كان من الملائم إهانة كرامة قادة البلاد القدماء.

وعلى الرغم من أن الدور الأرضى الواسع للمتحف كان مصممًا لحفظ بعض المواد التى تم استخراجها من أعمال الحفرفى أنحاء البلاد، فإن الكثير من القطع ذات الأهمية الفنية الحقيقية كانت تتدفق على إحضار أشياء أخرى ذات قيمة فنية حقيقية للمتحف، حتى إن نظام العرض فى القاعات الرئيسية بالمتحف تم تغييره أكثر من مرة لإيوائها.

ففى السنة التى افتتح فيها المتحف على سبيل المثال، قام عالم الآثار جورج لجرين مدير الأعمال بمصلحة الآثار فى الكرنك باستخراج ٧٧٩ تمثالاً حجريًا ومالا يقل عن ١٧ ألف قطعة من البرونز وأشياء أخرى مختلفة وذلك من مخبأ أمام البيلون السابع، وجعل هذا الاكتشاف من الممكن تصديق النص الهيروغليفى الذى كان يبدو مبالغًا، عن بردية هاريس التى تعود إلى رمسيس الثالث، وهو أن معبد الكرنك كان يوجد به ٥١٦٤ صورة مقدسة، و٨٦٤٨٦ تمثالاً.

كما أن اكتشاف مقبرة يويا وثويا فى المقبرة السليمة بعد ذلك بعام أو فى ١٩٠٥ أثار موجة جديدة من الدهشة، حيث اكتشف الثرى الأمريكى ثيودور ديفيد الذى مول حفريات مقبرة طيبة، مكان دفن والد ووالدة زوجة أمنحوتب الثالث المقربة، وهى الملكة تايى *Tiye* وكانت المومياوات قد وضعت داخل تابوتين خارجيين مذهبين أما التابوت الداخلى فكان مصنوعًا من الخشب المغطى بالجص المذهب وكان من بين الأثاث الجنائزى مركبة يويا الذهبية وخابيات فخارية وكراسى وأسرة وأشياء شخصية بما فيها باروكة وسلة باروكة وصنادل ومرآة، وكان من الصعب وضع هذه الأشياء فى البدروم، ولذلك تم إخلاء مكان لها لعرضها فى الطابق الثانى.

بعد انتخابه عضوًا فى معهد مصر التحق أحمد كمال ببعثات البحث عن الآثار فى دير البرشا وجبل الطير وتهنا وأطفيح وأسيوط فى مصر الوسطى حيث اكتسب خبرة فى العمل الميدانى فى مجال الآثار، وفيما بعد عمل فى حفائر الدلتا وفى مصر العليا وكان يقوم بنشر تقارير منتظمة عن عمله. وجد أحمد كمال أن من المهين أن يشرف الأجانب على توجيه البعثات الأثرية، الأجانب الذين يبحثون

عن أشياء تنتمى إلى تراثه ولا ينشرون شيئًا عما يجدونه باللغة الوطنية، فكيف يهتم المصريون بحضارتهم القديمة إذا لم يكن هناك كتب ترشدهم. كان الخديوى إسماعيل قد أنشأ مجلس المدارس الذى أصبح فيما بعد وزارة التعليم وكلية لتدريب المعلمين على مسح الأراضى والمحاسبة وغيرها من المجالات، ولكن لم يكن من بينها ما يشجع على الاهتمام بالتراث المصرى. كان كمال يرى حاجة ماسة لطبع النشرات الأجنبية فى مجال المصريات باللغة العربية، وبدأ هو نفسه هذا العمل، وقام زميله أحمد نجيب بترجمة كتاب بروجش عن الهيروغليفية كما نشر بالعربية أيضًا كتاب تاريخ لمصر بناء على رحلة فى مصر العليا.

قرر أحمد كمال صاحب الفكر الواسع والعملى أن يقترب من رئيس ديوان المدارس وأن يحاول إقناعه بالحاجة إلى إنشاء مدرسة لعلم المصريات فى مصر، وكان الرد إيجابيًا أكثر مما كان يتوقع، فقد نصح بالرجوع إلى وزير التعليم على مبارك، ولم يضيع وقتًا. وعرض أحمد كمال أوراقه وأكد للوزير أنه يستطيع إدارة مدرسة متواضعة بنفسه لا تكلف كثيرًا، وذكر أنه من الممكن بعد ذلك تعيين الطلبة المؤهلين مفتشين فى المواقع الأثرية، ليس فقط لاكتساب الخبرة العملية فى مجال الآثار ولكن أيضًا لملاحظة ما تقوم به البعثات الأجنبية، وكان الرد بالإيجاب للمرة الثانية وأصدر على مبارك تعليماته إلى ماسبيرو بتخصيص ٥٠٠ جنيه مصرى لفتح مدرسة داخلية صغيرة لخمسة من الطلبة المختارين تحت إدارة أحمد كمال. وكان كمال نفسه يقوم بتدريس الهيروغليفية والفرنسية والتاريخ بينما كان مصريون آخرون يقومون بتدريس اللغة العربية والحساب والجغرافيا.

انتشر الموضوع وخلال شهرين تم قيد عشرة طلاب آخرين فى المدرسة، كان من بينهم حسن ابن أحمد كمال وشفيق غربال وسليم حسن ومحمود حمزة وسامى جبرة، وعند تخرجهم تم تعيينهم كمفتشين. ولكن إذا كان أحمد كمال لديه أمل أن يدخل أبناء وطنه المجال، فسرعان ما اكتشف أنه كان واهمًا، وسواء لعدم الثقة أو التحيز أخبر ماسبيرو كمال بأن أجور المفتشين الجدد ستأتى من الأموال التى خصصت لإدارة المدرسة التى يمكن أن تتوقف فيما بعد.

لم يكد أحمد كمال يبدأ عمله فى التدريس حتى وجد نفسه دون عمل، إلى أن اقترح إيوچين جريبو مدير البعثة الأثرية في مصر على ماسپيرو أن يقوم أحمد كمال بمرافقة السياح الذين يزورون متحف بولاق، فعين فى وظيفة مرشد. وبينما قد يكون ذلك أمل كثيرين من علماء المصريات الشبان الذين يرونه عملاً مجزيًا ماديًا أكثر من التعيين كمفتش ميدانى فى المجلس الأعلى للآثار، فإن هذا العمل بالنسبة إلى أحمد كمال عضو معهد مصر كان إهانة لخبرته. ولتخفيف ما كان يشعر به من إحباط عمل بكل نشاط فى مشروعه الصغير وهو وضع قاموس هيروغليفى / عربى.

وهكذا بقى كبار علماء المصريات الذين كانوا جميعًا من الغربيين فى المواقع القيادية، متكلين على ثراء وغنى حضارة قديمة كانوا يقومون بعمل الحفريات حسب المستويات السائدة. أما عمل بترى فى مقبرة مننبتاح التى وجدت بالكرنك سنة ١٨٩٦ فقد أشارت مباشرة إلى إسرائيل وزاد من حب الاستطلاع حول إمكانية وجود دليل على قصة الخروج من مصر حسب ورودها فى الكتاب المقدس، وقد حفز ذلك بترى لكتابة كتاب شعبى لتصوير الإطار التاريخى العام عن قصص العهدين القديم والجديد فى ضوء اكتشافاته.

وحظى كتابه ***Egypt and Israel*** الذى تم تحديثه فيما بعد بالكثير من النقد بمعرفة المتخصصين، كما ذاع صيته وصدرت منه طبعات متوالية حتى سنة ١٩٣١ ***(Detrie, 1910)***. أما الأثرى الفرنسى پيرمونتيت فقد وضع تصوراته عن تانيس (صان الحجر) فى شمال شرق الدلتا، ونشرها سنة ١٩٣٣. وقاد عالم المصريات الفرنسى إدوارد نافيل بعثة إلى تل المسخوطة فى شمال غرب السويس التى يعتقد أنها موقع مدينتى الكنوز بيثوم ورعمسيس، وهما المدينتان اللتان بناهما الإسرائيليون للفرعون حسب الإصحاح الأول من سفر الخروج، وعمل فى الضفة الجنوبية لترعة مياه عذبة فى وادى الطميلات بالقرب من الإسماعيلية التى يعتقد أنها أرض جوش التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس ***(Naville 1885)***.

بالنسبة لهؤلاء الدارسين فإن الماضى القديم لم يكن يحمل أى تشابه مع مصر التى كانوا يعملون بها، والحضارة الفرعونية العظيمة لم يكن من المعقول نسبتها إلى أجداد من يتكلمون العربية الآن، الذين لم يكونوا يعتبرونهم مستنيرين بما فيه الكفاية للعناية بآثارهم، ولذلك – بغمامة كثيفة على الأعين – تناولوا التاريخ القديم بانحياز غربى، اعتبروا الاتصال الثقافى غزوًا، واكتشاف الفخار الذى وجد فى مصر العليا على أنه إخضاع مصر العليا بواسطة قبائل من مصر السفلى، وعندما وجد الأثريون أن عشيرة حورس الذين عاشوا فى الدلتا، استقروا جنوبًا حتى إدفو قويت النظرية. بعض الأشياء التى اكتشفت فى حفريات هيراكليوبوليس فى مصر الوسطى مثل يد سكين من العاج، كشفت عن طراز من الفن غير مألوف بالنسبة لمصر، ولذلك عندما ظهرت إلى الوجود أيضًا الأختام الدائرية التى يعود أصلها إلى حضارة ما بين النهرين ولوحظت تشابهات بين العمارة الأثرية وتلك التى تنسب إلى ما بين النهرين رسخت فكرة "جنس أسرى" (بناة المقابر الملكية).

من الواضح أن الغزاة الأقوياء هزموا وحكموا المحليين (أصحاب المقابر الصغيرة التى كانت مرتبة حول المقبرة الرئيسية)

وانطلقت أسطورة كتابات مثل كتاب ماسبيرو الذى يحمل عنوان:

The Dawn of Civilization: Egypt and Chaldea.

وكذلك كتاب جيمس بريستيد الكلاسيكى: ***A History of Egypt***

يعكسان تحيزهما.

وبربطهم بداية تاريخ الأسرات بالغزو، قدم علماء المصريات هؤلاء صورة مشوهة لآلاف السنين من التطور الثقافى، عندما كان سكان وادى النيل يتحولون تدريجيًا من مجتمع بدائى إلى ما يسمى بالحضارة. كان لابد أن يمر حوالى نصف القرن قبل أن يراجع العلماء مفهومهم أو فكرتهم عن "جنس أسرى"، ويتحولوا مؤقتًا نحو نظرة مركزية إفريقية.

استمرارًا لمنافسة نصف القرن السابق، كان هناك خلاف بين العلماء البريطانيين والفرنسيين وتبادلوا الاتهامات حول أسلوب كليهما فى الحفر، وحدثت المواجهة الشديدة عندما قررت مدرسة الآثار الإنجليزية فى مصر سنة ١٩٠٥ الشروع فى عمل مسح آثارى لمصر، كما جاء فى رسالة كتبتها إميليا إدواردز إلى جريدة التايمز (عدد ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٠) عن الحاجة إلى رسم خريطة وتصوير ونسخ كل المواقع ذات الأهمية وأعمال النحت والتصوير والنقوش والمخطوطات، وذلك لحفظ سجل دقيق لهذه النوعية من الآثار القابلة للتلف، وشملت الإرسالية بترى وعالم المصريات والنبات پيرسى نيوبيرى وچورچ فريزر وهو مهندس مدنى بريطانى، وقرروا البدء فى عمل استكشاف منظم ووضع أسس أسلوب آثارى فعال. وتم تخطيط المشاريع الإرشادية فى مصر الوسطى متضمنة المنطقة الواقعة بين المنيا وأسيوط بما فيها مقابر بنى حسن والبرشا وتل العمارنة على الضفة الشرقية للنيل، وميدوم على الضفة الغربية. وتم تقديم طلب الامتياز لمصلحة الآثار حسب القانون، وأعطى يوچين جريبو الذى كان قد حل محل ماسپيرو مؤقتًا الأمر بتنظيف زخارف المقابر والنقوش ونسخها وأن الإذن الرسمى سيتّبع.

الشكل رقم ٢: منظر يمثل انسياب فيض النيل المتكسر خلال صخور الجرانيت البارزة فى منطقة الشلال جنوب أسوان فى أوائل القرن العشرين قبل بناء خزان أسوان فيما بين عامى ١٨٩٨ – ١٩٠٢

وعندما وصل الإذن اتضح أنه يتضمن تعليمات جديدة لم يصدر بعد بشأنها مرسوم خديوى.

وحسب هذه التعليمات أصبح كل ما يتم العثور عليه فى الحفريات يخص الدولة، ولكن على ضوء التكاليف التى يتحملها القائم بأعمال الحفر لابد أن يؤول جزء من الموجودات التى يتم العثور عليها لبعثة الحفر. ويقوم القائم بالحفر ومصلحة الآثار (التى تمثل الحكومة المصرية) بتقسيم الأشياء التى يتم العثور عليها إلى أجزاء متساوية حسب الاتفاق، ثم تجرى القرعة وفيما بعد يصبح للحكومة الحق فى شراء ماتريده من نصيب القائم بالحفر، وذلك لصالح المتحف المصرى بسعر مقبول حسب القانون، وغضب بترى خاصة بسبب بند يشير إلى أن التقسيم يتم فقط بعد اختيار القطع الفريدة لتضاف إلى المجموعة الوطنية، فمن وجهة نظره أن جميع القطع التى يتم العثور عليها فى مصر فريدة، وقرر مغضبًا العودة إلى إنجلترا. وخرجت الرسائل الموجهة إلى الأرستقراطية ذات النفوذ فى إنجلترا وتم تحذير لورد كرومر فى القاهرة من أن بترى كان يعد نفسه "لإثارة زوبعة" مع الحكومة البريطانية، وخشية أن يعود ذلك عليه بالضرر حتى لا يتهم بأنه كان يوقف الدعم عن الآثاريين البريطانين، دعا كرومر إلى اجتماع على أعلى مستوى بين الوزراء والعلماء المصريين والممولين الأوروبيين وتم التوصل إلى صيغة توافقية.

تم اقتراح أن يتم اختيار القطع التى لا مثيل لها أو الفريدة للمجموعة الوطنية، وأن يحصل من يقوم بالحفر على نصف الباقى، مع إضافة فقرة بأن يتم نشر نتيجة العمل خلال عامين. هذه العبارة الأخيرة أضيفت بعد إصرار بترى الذى كان يريد وقتًا يكفى لتسجيل كل شىء قبل تسليمه لمصلحة الآثار، وكان لذلك نتائج مهمة لأن أى نزاع سوف يقدم للتحكيم، وليس إلى مصلحة الآثار التى كانت تحت السيطرة الفرنسية، وإنما إلى وزارة الأشغال العامة التى كانت تحت السيطرة الإنجليزية. بالإضافة إلى أن الحكومة احتفظت بحق الموافقة على إدارة جميع

المشاريع الميدانية التى بيد البعثات الأجنبية بمن فيهم كل أفراد أطقم العاملين. أية مخالفة ستؤدى إلى إلغاء الامتياز.

رفض بترى على أية حال قبول طريقة تقسيم الموجودات المكتشفة نتيجة الحفائر التى تقوم بها البعثات الأثرية، وكانت الخطوة التالية التى قام بها كرومر، دون شك، بتحريض الباحثين الإنجليز هى تعيين اثنين من المفتشين أحدهما إنجليزى والآخر ألمانى لمتابعة جميع الشئون المتعلقة بالآثار، ونتج عن ذلك احتجاج صارخ من الآثاريين الفرنسيين، مرة بعد أخرى كانت مصالح الإنجليز والفرنسيين تتصادم، وعلى سبيل المثال فقد كانت هناك فى تل العمارنة قاعة ضخمة ذات أرضية مبلطة ومنقوشة (كان بترى يعتبرها أكبر وأهم اكتشاف له أهمية فى مصر الوسطى منذ العثور على تمثال الأمير رع حوتب ونوفرت الذى اكتشفه مارييت فى ميدوم) متروكة تحت قيظ الشمس.

وعندما أزيحت عنها الرمال أسرع بالكتابة إلى وزارة الأشغال طالبا منها دفع تكلفة بناء مظلة لحماية هذا الأثر الفريد، تم تحويل خطاب بترى بتزكية إلى جريبو الذى لم يتخذ إجراء، وهكذا اندثرت الأرضية بإطارها بما فيها من نقوش لزهور اللوتس وموائد القرابين وسلسلة المناظر الطبيعية الجميلة لطيور فى حالة طيران وبط وعجول ترعى بين الأحراش وأزهار اللوتس. لكى نضع حياة أحمد كمال فى سياقها كمقدمة لوصف البيئة السياسية والاجتماعية التى نشأ فيها لبيب حبشى،لابد من ذكر هدف اللورد كرومر المعلن للمساعدة على "تحرير المصريين من أغلال الاستبداد الشرقى"، ولهذا الغرض أقنع وزارة داخليته بالحاجة إلى إصلاحات ذات روح بريطانية وعلى وجه السرعة تم وضع مستشارين بريطانيين فى مختلف الوزارات الحكومية وأصبحت الإنجليزية هى اللغة الرسمية للإدارة. وشجع كرومر إنشاء مدارس الإرساليات الإنجليزية، أما احتقاره للحركة الوطنية المصرية فيعكسه رفضه التفاهم مع مصطفى كامل (١٨٧٤ – ١٩٠٨)، وكان شخصية كاريزمية وقوة محركة من أجل الهوية الوطنية التى رفعت شعار "مصر للمصريين".

لقد كان مصطفى كامل يتمتع بمهارات واسعة كخطيب وخبير بالشأن العام، رفض بشدة هو ودائرته من المثقفين استبعادهم من أن يكون لهم نصيب عادل من السيطرة على شئون بلدهم. انتقد مصطفى كامل مدارس الإرساليات التى لم تشجع على تدريس اللغة العربية، وكانت غربية اللغة والمنهج والتقاليد، ودعا إلى إنشاء المزيد من المدارس الحكومية وحث على افتتاح جامعة مصرية، وهى الفكرة نفسها التى رفضها كرومر بشدة. كان عقل مصطفى كامل مركزًا على الوطنية والاستقلال ومن خلال كتاباته وأحاديثه دعا إلى موقف واحد مع الخلافة العثمانية لمواجهة "المؤامرات الأجنبية"، وكان يرى أنه مادام من الصعب إجبار البريطانيين على الخروج من مصر، ينبغى مواجهة وجودهم غير الضرورى بالمقاومة السليمة، وكان يقوم بتنظيم الإضرابات والمظاهرات العامة.

فى سنة ١٩٠٦ وقع حادث كان له أثره الفعال فى تطور القضية الوطنية، فى ما أطلق عليه فيما بعد اسم حادث دنشواى؛ حكم على عدد من الفلاحين المصريين بالإعدام والأشغال الشاقة والجلد العلنى بتهمة قتل ضابط بريطانى أثناء قيام مجموعة من الضباط برحلة صيد بالدلتا. حفز الحادث مصطفى كامل على فضح طبيعة الحادث والتنديد به، وطالب بجلاء قوات الاحتلال مؤكدًا أهمية وضع نهاية للتدخل البريطانى فى الشئون المحلية وبخاصة شئون التعليم، وأصر على تعيين المصريين فى الوظائف الحكومية. وبدعم من الخديوى أسس جريدة "اللواء"، لنشر الوعى السياسى بين الناس، ودعا مصطفى كامل إلى الاصلاح السياسى والاجتماعى، وحققت الجريدة انتشارًا واسعًا ثم صدرت بعد ذلك بالفرنسية والإنجليزية، وقد منحته الجريدة منبرًا ليطالب بدعم السلطان العثمانى ومعارضة الوجود البريطانى فى مصر. توقفت جريدة اللواء بسبب الموت الباكر لمؤسسها بعد عام، ولكن ليس قبل ظهور مجموعة أخرى من الوطنيين إلى المقدمة.

كان لطفى السيد ابنًا لأحد أثرياء الريف (عمدة)، وكان تعليمه الرسمى مصريًا صميمًا فى الكُـتَّاب، ثم مدرسة أولية فى المنصورة، ثم الخديوية الثانوية

فى القاهرة. بعد ذلك التحق بمدرسة الحقانية وبعد تخرجه تم تعيينه فى القسم القضائى بالحكومة. أثناء تنقله فى مختلف المديريات بحكم عمله المهنى، أصبح ملمًا تمامًا بالحياة الريفية ومشاكلها. أنشا جريدة (الجريدة) وكان يمولها بنفسه وكانت المناطق باسم حزب الأمة وباعتباره أول حزب سياسى حديث فى مصر، فقد تبنى الأفكار العلمانية الليبرالية، وقد أدرك لطفى السيد أن مصر قد تظل متخلفة وغير قادرة على إدارة شئونها حتى تتحصل على التعليم الحديث، وأشار إلى أن فرنسا قد سيطرت على محمد على وأن الإنجليز كـــانوا يريدون تخـــريج كـــتبة لا مفكرين، وحاول أن يركز على حاجة البلد لوضع قواعد لإقامة مجتمع يرتكز على نظام من القيم والمبادئ السامية، وعزا قنوط الشعب إلى نظام لم يفعل شيئًا لتطوير الشخصية الوطنية، وأشار فى "الجريدة" إلى أن الأمم القوية لا ترفع يدها عن دولة ما إلا إن أثبت أبناء تلك الدولة أنهم مسئولون، وكتب مقالات مفادها أن التعليم والإسهام النشط فى حياة المجتمع هما متطلبات أساسية للحرية السياسية، وساند بقوة قاسم أمين المحامى والكاتب فى موضوع تحديث الإسلام، وفى تطلعه إلى تحرير المرأة وجذبها نحو التيار العام للمجتمع كما شجعه وغيره من القيادات للكتابة فى الجريدة.

فى سنة ١٩٠٨ شكل عدد من الوطنيين لجنة جمع تبرعات لإنشاء الجامعة، واستطاعت اللجنة المكونة من مصطفى كامل، ومحمد فريد (محام سانده فى توجهه الوطنى) ولطفى السيد، وسعد زغلول (الذى كان وزيرًا للتعليم تحت حكم كرومر سنة ١٩٠٦) وقاسم أمين ومحمد عبده (أحد كبار رجال الدين المهمين فى تلك الفترة، الذى أصر على ألا يكون هناك صراع حقيقى بين الإسلام والغرب)، استطاعت اللجنة جمع مبلغ قدره ٢٣ ألف جنيه، وكان مبلغًا كبيرًا آنذاك، واستطاعوا أن يحصلوا على مساندة الخديوى بسهولة، وأن يعلن قيام الجامعة المصرية فى نهاية تلك السنة.

كانت مؤسسة علمانية بدأت فى الدور الأول المستأجر من قصر چانا كليس بالقرب من السفارة البريطانية فى جاردن سيتى، وكان المنهج الدراسى يشمل الأدب والتاريخ والفلسفة، وعلى الرغم من أن لطفى السيد وأحمد كمال كانا يقومان بتدريس بعض المناهج (كان كمال يحاضر مرتين أسبوعيًا فى التاريخ القديم كما قاد رحلات ميدانية)، فإن الجامعة عندما بدأت كانت إلى حد كبير تحت إشراف الأساتذة الأجانب. وكان تدريب مصريين مؤهلين ضرورة ملحة، وكان الطلاب الذين يتم اختيارهم بعناية يرسلون فى منح دراسية إلى إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وعند عودتهم، وبأيديهم درجات الدكتوراه، كان المفترض أن يشغلوا أماكنهم كأساتذة جامعيين ثم يحلوا محل الأجانب تدريجيًا، ولكن لسوء الحظ فإن بعضهم لم يواصل واختار آخرون عدم العودة إلى بلادهم، وكان الانتقال أبطأ مما كان المؤسسون يأملون.

فى المؤتمر الدولى الثانى للآثار الكلاسيكية الذى عقد بالقاهرة سنة ١٩٠٩ كانت المشاركة المصرية ضئيلة بشكل مؤسف كان بعض الوزراء بمن فيهم سعد زغلول أعضاء فى اللجنة المنظمة، أما جاستون ماسپيرو فرأس اللجنة التنفيذية التى كانت تضم ممثلين عن مصلحة الآثار، ***IFAO*** (المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة)، والمعهد الألمانى للآثار بالقاهرة والجمعية الأثرية بالإسكندرية. وكان عدد المصريين المشاركين ٢١ عضوًا من بين ألف مشارك من ١٦ دولة أوروبية، وقدم مصرى واحد ورقة، لم تكن ورقة علمية وإنما كانت تتناول العلاقة بين الفن القبطى والتماثيل الفرعونية.

عندما افتتحت مدرسة للآثار فى أثينا فى تلك السنة، وجد أحمد كمال الفرصة سانحة للإلحاح من أجل افتتاح مثل ذلك المعهد المتخصص فى مصر، لم يكن كافيًا تدريس القليل من المناهج فى التاريخ القديم على مستوى الجامعة، لأن المصريين كانوا يحتاجون إلى دراسات متخصصة أكثر، مع فرصة للتدريب على الأساليب الفنية فى مجال الآثار، وبدأ يردد نداء مصطفى كامل للاستقلال "مصر

للمصريين" من خلال شعاره "علم المصريات للمصريين". فى هذه المرة لجأ مباشرة سعد زغلول فأنشئت الكلية العليا للتدريب فى سنة ١٩١٠. تم تخريج الدفعة الأولى فى ١٩١٢. ومن المؤسف أن ما كان يجب أن يكون بداية فتح طريق للاحتراف، اتضح أنه طريق مسدود. اعتبر ماسبيرو الخريجين غير مؤهلين للالتحاق بمصلحة الآثار لأنهم لم يتخرجوا فى معهد أكاديمى ولأنهم كانوا يفتقرون إلى المهارات اللغوية الضرورية.

حقيقة أن الكثيرين من الأثريين الغربيين بمن فيهم فلندرز بترى لم يكونوا علماء لغة لم تثر اهتمامه، فهو لم يكن يريد أن يسمح للمصريين بالانضمام لهذه المهنة، ولما لم يجد الخريجون تشجيعًا بحثوا عن خيارات أخرى. وذهب حسن ابن أحمد كمال إلى أكسفورد وأنهى دراسته فى الطب، شفيق غربال أصبح مؤرخًا شهيرًا محترمًا للتاريخ الحديث، أما سليم حسن ومحمود حمزة وسامى جبرة فكانوا قادرين على متابعة دراساتهم بعد ذلك بعدة سنوات، لأن الكلية العليا للتدريب لم تعمر لفترة طويلة مثل مدرسة أحمد كمال للمصريات فى بولاق. أغلقت الكلية أبوابها مع نشوب الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٤، وعاد طلبتها مرة أخرى للتدريس بالمرحلة الثانوية.

قرر أحمد كمال وكان فى الثالثة والستين أن يهجر معركته الضارية ضد الظروف المستحيلة وأن يكرس وقته للبحث. لم يضعف أبدًا اهتمامه بعلاقة اللغة المصرية القديمة باللغات السامية وبخاصة اللغة العربية. وكان فى طريقه نحو إكمال المجلد السادس عشر من القاموس الكبير الذى كان مقررًا له أن يشمل ٢٠ مجلدًا، وقرر أن يكتب تقريرًا أوليًا عن مدى تقدمه قبل تقاعده الرسمى وكان عنوان التقرير: ***Leprocédé Graphique Chez Les Anciens Égyptiens*** :

.L'origin du Mot Égypte

وقد ظهر هذا التقرير فى نشرة:

(Bulletin de L'Institut Égyptien (Kamal, 1916).

وحتى تزيد هموم أحمد كمال وجدنا چورچ دارسى عالم المصريات الفـــرنسى الـــذى كان قد انتخب حديثًا سكرتيرًا عامًا لمعهد مصر فى سنة ١٩١٣ – يتحدى كفاءته فى علم اللغة المصرية، نشر دارسى مقالاً بعنوان: ***Les Noms de l'Égypte,*** يتهم فيه أحمد كمال بإهمال السياق التاريخى لبعض الكلمات واتهمه بعدم الكفاءة، وأعلن أن أحمد كمال قد أصدر عددًا من التأكيدات التى "لا يمكن أن يقبلها علماء المصريات" لأنها تضمنت "أخطاء لغوية فادحة"، وأورد قائمة طويلة من هذه الكلمات التى اعتبرها خطأ، مستنتجًا من ذلك أن افتراضات أحمد بيه كمال ليس لها أساس من الحقيقة. الغيرة المهنية ليست أمرًا غير عادى ولكن سبب قيام دارسى الذى عمل مع أحمد كمال فى مصلحة الآثار تحت رئاسة ماسپيرو، والذى شارك فى عمليات إزاحة الرمال عن المناطق الأثرية فى مصر الوسطى، بالسعى لتحطيم سمعة أحمد كمال الرائد العظيم من العلماء المصريين – سبب غير واضح. كان أحمد كمال، وهو أكبر سنًا من دارسى، قد تقدم بطلبات للترقية بحكم الأقدمية وإنتاجه ومعرفته اللغة العربية ولكنه لم ينجح فى ذلك، ولذلك لم يكن هناك ما يخشى منه دارسى على نفسه.

لابد من أن يكون الاتهام قد كدر العالم المصرى الذى عمل فى المشروع عندما كان مازال تلميذًا لهينرش بروجش وكان يتابع هدفه مخلصًا. كان طه حسين، أحد أعظم كتاب مصر ومفكريها، يرى أن تراث مصر الثقافى كانت له قواعد إغريقية ورومانية وعربية، وحمل أحمد كمال ذلك المفهوم خطوة أبعد، فزود قاموسه عن الهيروغليفية المصرية بالمقابل العربى والفرنسى. وتتبع عددًا كبيرًا من الكلمات المصرية القديمة التى يمكن نسبتها إلى العربية والعبرية والسريانية، وناضل أحمد كمال، وهو واثق من عمله، لكى يستعيد سمعته على مستوى المعهد والكتابة فى النشرة.

وقد شرح أحمد كمال فى مقال بعنوان:"الرد على انتقاد مسيو دارسى" أن جهود دارسى لبيان عدم وجود علاقة بين اللغتين المصرية القديمة والعربية التى

ليس فيها الحرف *P* فشلت فى إقناعه بأن اللغة المصرية ليست هى اللغة الأم للغة العربية من خلال العبرية، كما قدم دفاعًا واضحًا ومقنعًا عرض فيه الرسوم مع المراجع الصحيحة صفحة بعد صفحة (كمال، ١٩١٧) ولكن المقال لم يحقق غرضه ولم يبرئه من "الأخطاء فى الحكم" التى ادعاها دارسى الذى استطاع أن يشير إلى هذه الغلطة التى لا خلاف عليها: ويزعم أحمد كمال بأن كلمة ***Aigyptos*** اليونانية التى اشتق منها اسم مصر، هى اسم مدينة ***Coptos*** المصرية التى تقع فى مصر العليا بينما هى فى الحقيقة اسم أثر فى ممفيس.

كان من الصعب اعتبار هذا الخطأ سببًا للإهانة التى تقترب من القذف، أما اليوم فإن الدارسين يعملون فى بيئة متعددة المجالات وينتقدون بعضهم بعضًا نقدًا بناءً، عندما كان أحد الدارسين الفرنسيين يشك فى كفاءة دارس مصرى لم يكن لدى الأخير مايستند إليه. ولم يلق عمل أحمد كمال التقدير، وليس من السهل تقييم إسهامه اليوم لأن المخطوطات فقدت، أما عن دراساته وعددها ٢٩ للـــ ***ASAE***، المطبوعة الرسمية لمصلحة الآثار فقد أغفلها من قاموا بإعداد الطبعة الأولى من ***Who was who is Egyptology*** التى صدرت فى ١٩٥١، وهذا العمل لا يضم اسم أحمد كمال، رغم ورود أسماء كثير ممن انتهكوا الآثار المصرية وتجار الآثار من بينهم عبد الرسول رئيس إحدى الأسر العربية من تجار الآثار فى صعيد مصر، وألبرت عيد وهو تاجر آخر لديه محل فى خان الخليلى، وفؤاد سليم معتوق وهو جامع آثار سورى لبنانى هاجرت أسرته إلى مصر وهو طفل وأصبح تاجر آثار ناجحًا حتى قيام ثورة عبد الناصر عند ما تم تأميم تجارته. أما عن أحمد كمال وهو الرجل الذى أضاء الطريق لأبناء وطنه فقد أجبر على تحمل النتائج السيئة التى لحقت بطبقته وسلالته، ففى العام السابق لوفاته فى ١٩٢٣ قام بعض المسئولين الفرنسيين ببادرة ترضية وذلك بدعوته إلى فرنسا لحضور احتفالات الذكرى المئوية لقيام شامبليون بفك رموز حجر رشيد.

الفصل الثانى

بين عـالـمـيـن

فى النصف الأول من القرن العشرين لم تكن هناك طبقة وسطى مصرية بالمفهوم الذى نعرفه اليوم، بل كان هناك طبقة من النبلاء الذين لديهم إحساس النظام القديم ***L'ancient r'egeme*** ومفهوم ملكية الأراضى الذى كان سائدًا فى القرن التاسع عشر، وقد توزع أفرادها بين الحاشية الملكية والحكومة. أما الطبقة العليا فكانت تضم المهنيين كالمحامين والأطباء والأكاديميين والمهندسيين ويساندها طبقة اجتماعية أخرى من الصناع المهرة والحرفيين والتجار، أما جماهير الفلاحين وفقراء الحضر فكانوا يشكلون غالبية السكان. الطبقة العليا نفسها كانت تضم ثلاث فئات: أولئك الذين أكملوا دراستهم فى باريس وكانوا موالين للفرنسيين، والذين تعلموا حسب النظام الإنجليزى وهم الذين درسوا فى كلية ڤيكتوريا بالقاهرة والإسكندرية. وكان الكثيرون منهم معارضين للبريطانيين، وأولئك الذين التحقوا بمدارس الصفوة الحكومية مثل الإبراهيمية فى جاردن سيتى والسعيدية فى الجيزة وقد أرسل بعضهم فى بعثات إلى الخارج. هؤلاء الشبان المتعلمون ارتبطوا بصداقات دائمة وأنشأوا علاقات خارج البيت وخارج الأسرة المباشرة متحولين بذلك إلى "شلة". وقد لعبت العلاقات العائلية والالتزامات الأسرية وروابط الدم والتعليم دورًا فى قيام العلاقات القريبة والبعيدة. كانوا يقضون أوقات الفراغ فى الرياضة والنوادى الاجتماعية مثل نادى محمد على ونادى السيارات الملكى.

أما البيوت فكانت تزين بخليط من الأثاث على الطراز التركى (الرومى) مع خزائن مطعمة مبالغ فى زينتها، ومصابيح معلقة، وسجاد فارسى، ولوحات من النسيج المطرز، ومضاف إليها فى بعض الأحيان البورسلين الصينى، والأثاث من

طراز لويس الخامس عشر وأحيانا لوحة فنية أو اثنتين، وكان أبناء الجيل الصاعد يشاهدون آباءهم يدخنون، ويتناولون المشروبات الكحولية، ويركبون المركبات بطول شارع عريض مزين بالأشجار للذهاب إلى المسرح ودار الأوبرا أو محلات تناول الشاى مثل جروبى فى وسط القاهرة، حيث كانت الشوارع تغسل يوميًا بواسطة عربات تجرها الحمير ومحملة بالماء.

فى شمال المدينة كان يوجد حى شبرا الذى يمثل عالمًا آخر مختلفًا عن القاهرة، فهى ضاحية أنيقة تستخدم كمكان للترفيه حيث توجد أشجار الجميز والأكاسيا على جانبى الطريق الممتد من القصر الذى بناه محمد على إلى ميدان المحطة، وتم تطويره فيما بعد على يد إسماعيل، ولكن بدأ الاضمحلال التدريجى مع نمو ضواحى القاهرة مثل إمبابة وبولاق. هناك كان يعيش لبيب حبشى مع أخيه المدرس، ويذهب إلى المدرسة سيرًا على قدميه كل يوم من هذه المنطقة المتواضعة عبر الأسواق والحارات إلى طرف المدينة الحديثة ثم يعود فى آخر اليوم، وكان يسترشد فى سلوكه الاجتماعى بكبار السن فى القرية والرهبان المارونيين كما كان قليل الاختلاط بأبناء جيله من سكان المدينة. وقد عرف قيم الريف التقليدية التى أبعدته جانبا، ولم يكن مستعدًا لمواجهة المصريين مع أصحاب المعاملات الاجتماعية الغربية، وهو الذى يعيش فى بساطة مع الفلاحين والقساوسة والأئمة وفيما بعد مع الأثريين الأجانب الذين شاركوه اهتمامه بالأرض والآثار. الاختلاف فى أسلوب الحياة والنظرة الثقافية جعل من الصعب عليه اقتحام الدائرة الداخلية الضيقة للأكاديميين المصريين.

"ولدت فى قرية سلامون، وهى أحد أكثر الأماكن برودة فى مصر، وهى تقع بين المنصورة وترعة يطلق عليها اسم البحر الصغير الذى لم يكن صغيرًا بالمرة، بل كان رافدًا رئيسيًا يجرى بين عاصمة مديرية الدقهلية فى الدلتا على امتداد فرع دمياط، شرقًا إلى بحيرة المنزلة على الشاطئ الشمالى، وكان كبيرًا بما يكفى لإيجار مراكب البضائع بطوله أثناء الفيضان السنوى".

بهذه الكلمات بدأ لبيب حبشى يسرد لنا قصة حياته تمهيدًا لكتابة سيرته الذاتية. كان عمره ٧٩ عامًا وصحته معتلة بعد مروره بأزمتين قلبيتين. كنا نجلس فى شرفة شقته بمنشية البكرى التى تطل على شريط ترام مصر الجديدة، قال: "كنت الابن الرابع لأحد التجار"، ولم يذكر أخواته حيث لم يكن الحديث عنهن بشيء من التفصيل أمرًا ضروريًا فى الوسط الاجتماعى فى بلد إسلامى فى تلك الأيام، كما لم يتحدث عن أمه فى غير هذه المناسبة الوحيدة ليقول: "أمى المسكينة.. مولود جديد كل عامين تقريبًا، وأنجبت فى عمرها كله اثنى عشر طفلاً، مات منهم اثنان بعد ولادتهما مباشرة".

أما عن أبيه فقد فقال إنه كان مجرد طفل عندما توفى أبوه، ولما كان هو الابن الأكبر أصبح ملزمًا بالمساعدة فى تربية أخوين وثلاث أخوات، أما تعليمه الوحيد فقد كان فى كنيسة محلية على يد "عريف" وهو شماس يتلو القداس القبطى مع القس وهو الذى علمه القراءة والكتابة. وكان هو وأترابه من الأطفال لا يستطيعون العناية بأنفسهم ولذلك لم يفكر فى الزواج وإقامة أسرة خاصة به، "كان أبى هو الذى يعتنى بالمبنى الذى كان مشروعًا تجاريًا، وعمل مع بعض منتجى العسل ليقوم بالاعتناء بخلايا النحل ثم تعبئة العسل فى زجاجات وبيعه. وكان هذا العمل يكفى بالكاد لإطعام عائلته الكبيرة، ولذلك كان يجمع أقراص شمع العسل ويحولها إلى شمع إضاءة للبيع فى الكنائس القبطية، كما عمل أيضًا لبعض الوقت فى شركة تجارية. كان قد صمم على أن يتيح كل فرصة لأولاده من أجل الحصول على عمل مثمر"، كما قال.

كان لبيب حبشى يجيد التعبير باللغة الإنجليزية على الرغم من أن الفرنسية كانت هى لغته الثانية بعد العربية لغته الوطنية، وعندما كان يستخدم كلمة عربية لم يكن متأكدًا من أننى أفهمها، كان يتبعها بالترجمة الإنجليزية دون توقف مؤكدًا اللغة لاشعوريًا، كما فى اللغة العربية وذلك بتكرار الكلمات أو العبارات. كان الاستماع إليه فى تلك الظروف الخاصة شبيهًا بالاستماع إلى محاضراته. وعند حديثه فى

عرض عام كان يتمهل عند نهاية الجملة ويقول " دعونى أقول لكم... " أو " أنتم تعرفون... " وينتقل إلى توضيح موضوع حديثه بتقديم أمثلة أو يرفه عن مستمعيه، وعلى الرغم من أن خروجه عن الموضوع كان يستغرق أحياناً عشر دقائق فإنه كان يعود لمتابعة الموضوع من حيث توقف. " كان عمرى ١٨ شهرًا عندما أرسلنى والداى لكى أعيش فى مزرعة مع أختى الكبرى التى تزوجت أحد النظار وهو كبير المزارعين فى العزبة. لم يكن لديها أطفال وكانت وحيدة ولذلك كانت ترحب بأخواتها وإخوانها، وقد ذهبنا إليها كلنا على التوالى، وكنت أنا المفضل لديها وتعاملنى كما لو كنت ابنها وليس أخاها، ربما لأننى كنت صغيرًا وعليلاً. وكان عمى (يقصد زوجها) مشرفًا على خمسمائة فدان، وكان ذلك ملكية متوسطة بمقاييس ذلك العصر، حيث إن بعض عزب الدلتا حينذاك كانت تصل إلى أكثر من ألف فدان مثل تلك التى تمتلكها عائلة أبو سعدة القوية.

قال حبشى "ظل الفلاحون على مدى أكثر من ألف عام وهم يتعلمون كيفية زراعة الأرض ويمدون حقولهم من خلال الترع ويوجهون الماء الزائد إلى المنبع. كان نظامًا فعالاً. القطن وإقامة الخزانات غيرا حياتهم، لأن القطن يحتاج الماء صيفًا ولذلك كان الرى ضروريًا لتأمين إمدادات المياه خلال فصل انخفاض الفيضان، ولكن الترع يتراكم بها الطمى وكان الأمر يحتاج إلى جهد لضمان تدفق المياه. كان لابد أن يعمل الفلاحون دون توقف، فبالإضافة إلى إعداد الأرض لإنتاج محصولين وأحيانًا ثلاثة فى السنة، كان عليهم الإشراف على عمليات الصرف وأن يتعلموا استخدام الآلات الزراعية الجديدة التى برهنوا على مهارتهم فى استخدامها".

الشكل رقم ٣: جنى القطن فى الدلتا
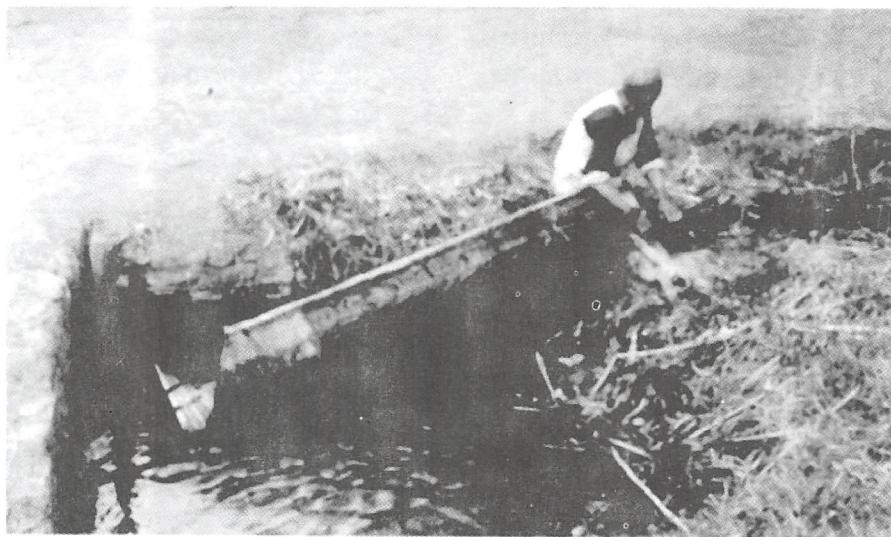
الشكل رقم ٤: استخدام الطنبور لرفع الماء من الترعة، وهو أسلوب كان مستخدمًا على نطاق واسع فى بداية القرن العشرين.

وشرح لنا كيف أنهم كانوا يتقاضون أجورًا ضئيلة لقاء عملهم مع تجنيب قطعة صغيرة من الأرض تكون مورد رزق لهم.

وفى السنوات التى كان يضعف فيها محصول الشتاء أو هجوم دودة القطن كانوا لا يستطيعون دفع الضرائب، ويتم الحجز على أراضيهم، فكان العديد من الفلاحين فى مصر العليا يضطرون لأن يصبحوا عمال تراحيل لإطعام عائلاتهم، فكانوا يستأجرون لتجريف الترع وتقوية الجسور وإعداد الأرض لزراعة القطن. لم يكن لهؤلاء العمال دخل ثابت ولا مكان ينامون فيه، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر على نفقتهم الخاصة، وكان موظفو الحكومة يجلدونهم، والفلاحون المحليون يستاءون منهم". عرف حبشى مبكرًا الكثير عن اعتزاز العمال بالعمل فى الأرض الزراعية وقدرتهم الكبيرة على التعايش مع الصعوبات وعلى روح المرح والإيمان لديهم؛ وقد أعطى طوال حياته كلها وقتًا لهؤلاء الأقل منه حظًا، وحتى بعد أن أصبح من الحاصلين على الجوائز العالمية كان مازال متمسكًا بالعديد من التقاليد الريفية. لم يبد الازدراء نحو الطبقات الأدنى منه، وهو الأمر الذى مازال موجودًا بين المتعلمين، كان حبشى يتحلى بطيبة القلب فى كل مراحل عمره.

كان يتذكر أن محصول القطن هو الحدث الأبرز فى السنة، "كان الرجال، والنساء، والأطفال يعملون من الفجر حتى الغروب فى جمع الألياف البيضاء التى تخرج من البذرة، وكان الوسطاء موجودين دائمًا لتمويل المحصول وبينما كانت الأرباح تذهب فى النهاية إلى أيدى الرأسماليين فى القاهرة والإسكندرية، يمكنك أن تتأكد أنه كانت هناك بعض الفائدة التى تعود على الفلاحين؛ ففى كل قرية كان هناك أكثر من "خولى" يشترى المحصول السنوى مقدمًا، وعليه فقد كانت هناك كمية كبيرة من النقود التى تدور من خلال التعامل"، ويتذكر أنه كان هناك "تجار يونانيون ويهود موجودون دائمًا لعرض خدماتهم كوسطاء". وفيما بعد أصبح الفلاحون يقومون بحصاد محاصيلهم ويعطونها للناظر لبيعها لصالحهم. "كان ذلك يغطى إيجار أراضيهم ويوفر لهم دخلاً معقولاً، وبعد الحصاد كانت الاحتفالات والأعياد التى تعتبر مناسبة للزواج.

كان الباعة يقيمون الأكشاك الصغيرة ويعرضون الحلى الصغيرة للبيع كما كانت هناك مقاه وكميات كبيرة من الفاكهة والخضراوت والفطائر والمكسرات والبلح ولبن الماعز".

وحيث إنه لم يكن هناك إلا القليل الذى يمكن أن يتسلى به الصبى فى مزرعة بعيدة سوى اللعب الخشبية التى يصنعها الفلاحون، وأحاديث الكبار التى تتركز حول ارتفاع الفيضان، وحجم المحصول، وبعض التعليقات الانتقادية عن المندوب السامى البريطانى أحيانًا، وكان حبشى يراقب الفلاحين أثناء العمل ويستمع إلى القصص الشعبية بعد غروب الشمس ويتنقل من قرية إلى أخرى لحضور الأسواق الأسبوعية والموالد، وكان عليه أن يقطع مسافات طويلة لحمل المنتجات إلى السوق أو حضور الجنازات التى يشيع فيها بعض الشخصيات المهمة أو يحضر الاحتفالات الدينية. وقد حضر فى قرية قريبة من بلقاس "مولدًا" لتكريم القديسة دميانة ابنة حاكم محلى، وكانت قد استشهدت فى عصر دقلديانوس مع أربعين من العذارى اللاتى تمسكن بالمسيحية"، ومولدًا آخر فى قرية طماى لتكريم الشيخ عبد الله بن سلام، ويلاحظ أن المسيحيين والمسلمين على السواء يجلون القديسين "وأحيانًا يكونون نفس القديسين" وابتسم وهو يعترف بأن ليس كل من كانوا يحضرون المولد كانوا يفعلون ذلك بحثًا عن الاستنارة الروحية أو لأنهم كانوا يؤمنون بالمعجزات الشافية. "كانوا يجيئون للترفيه عن أنفسهم أو للفرجة على سباقات الخيل والمنافسات التى كان يشارك فيها أصحاب الأراضى المجاورة وكانوا عادة من الأعراب ". تلك المناسبات كما يقول، كانت فرصة للناس للتجمع وللمشاركة أو لإحضار المرضى بمعرفة أقربائهم بحثًا عن العلاج. "كان الموسيقيون المحترفون يحققون دخلاً جيدًا أثناء الإبحار فى فرق تنتقل من قرية إلى أخرى فى قوارب صغيرة بطول روافد النيل أو الترع حيث ينشرون البهجة ويجمعون النقود، وغالبًا ما كنت أنضم إليهم وهم يصفقون ويطبلون ويغنون، ولابد أن أضيف أن هذه الأغانى كان بعضها دينيًا والبعض الآخر دنيويًا مثل تلك التى وصفها هيرودوت فى القرن السادس قبل الميلاد".

استمتع حبشى الصغير بالحرية فى القرية الأمر الذى لم يكن يجده مع والديه فى المنصورة. لم يهتم بنصائحهما بعدم الاختلاط بالفلاحين خوفًا من أن يصاب ببعض الأمراض المخيفة على الرغم من وجود أسباب كثيرة لمراعاة هذا الأمر. لم يكن هناك فى تلك الأيام لقاحات روتينية. كانت مقالب النفايات والترع الملوثة مصدرًا لكل أنواع الأوبئة. كانت الكوليرا منتشرة قد ظهرت والدوسنتاريا متفشية. وفى صيف سنة ١٩٠٧ كان حوالى ثلاثة آلاف طفل يموتون كل شهر. وهو رقم مخيف بالنسبة لبلد كان تعداد سكانه أكثر من اثنى عشر مليونًا بقليل. كان سكان المدن يتجنبون الذهاب إلى الريف الذين كانوا يعتبرونه مصدرًا للأمراض لأنه ملىء بالذباب الذى ينقل التهابات الملتحمة والتيفود، وكذلك البعوض الذى يحمل الملاريا، والماء الملوث الذى ينشر الكوليرا؛ ونتيجة للرى الدائم فإن الترع كانت تغص بالقواقع التى تسبب المرض الرهيب المعروف بالبلهارسيا كما أن الإنكلستوما، وهو من أمراض الأمعاء، كان من الأمراض المستوطنة.

الشكل رقم ٥: غسل أوانى الطبخ فى الترعة

اكتسب الصغير حبشى إحساسًا حادًا بطبوغرافية الدلتا، وهو ينتقل بحرية عبر الأراضى الزراعية ويستكشف القرى ويتابع الطرق والممرات ويلاحظ مواقع الترع بالنسبة لروافد النيل أو مقام أحد المشايخ؛ فقد لاحظ على سبيل المثال أن الطريق الترابى الموجود جنوب قريته ينقسم إلى فرعين يقودان إلى قريتين أخريين ثم يتفرعان إلى آخرين، ثم إلى غيرهما وهكذا، ولاحظ أنه عندما تربط المسارات قرية بأخرى فإنها كلها تؤدى إلى منفذ تجارى. وأثناء سيره عبر الحقول الخضراء المزروعة المحاصيل، والأرض السوداء المحروثة حديثًا كان يرى روابى عالية جافة وخالية من النباتات. " وقد عرفت أخيرًا أنها روابى تكونت من خرائب المدن القديمة، ولكن كل ما كنت أعرفه فى ذلك الوقت هو أنها كانت غنية بالسباخ وغنية بأنقاض المنازل القديمة وأكوام القمامة المحيطة بأماكن الإقامة التى كان يفيد منها الفلاحون لكى يخصبوا أراضيهم الزراعية. يواصل: "بعد إدخال نظام الرى الدائم أصبحت الأرض غير منتجة ومحتاجة إلى مواد غير عضوية لإعادة خصوبتها والفلاحون يعرفون السبيل إليها".

تقلص حجم خرائب جميع المدن نتيجة عمل السباخين وكانت إحداها عند تل تمى (الأمديد) فى الدلتا حيث لاحظت أن الرجال كانوا يعملون بنشاط لإزالة تل ضخم، لم يكن السباخ هو الشىء الوحيد الذى يحفرون من أجله لأن الروابى كانت تخفى آثارًا، وصدقنى حتى الفلاح البسيط كان سرعان ما يعرف قيمتها فى السوق، وكانوا يرون تلهف الأجانب عليها والمبالغ التى كانوا على استعداد لدفعها ثمنًا لها.

إن الطفل فى العائلة المسيحية فى المناطق الريفية قد يذهب إلى كنيسة محلية ليتعلم القراءة والكتابة، وهى المتطلبات الضرورية للالتحاق بالمدرسة الابتدائية، ولكن أقرب كنيسة كانت بعيدة ولا يمكنه الذهاب إليها سيرًا على قدميه، ولذلك فإن والد حبشى الذى كان تعليم أولاده له أهمية قصوى، طلب من صهره أن يرسل الولد إلى الكتاب الملحق بمسجد القرية. هنا كان الأطفال يتعلمون مبادئ القراءة والكتابة والحساب على يد شيخ أو "فقى" ممن درسوا فى الأزهر أو أحد معاهده

الدينية. لم يكن من المستبعد أن يُرسَل طفل مسيحى إلى الكتاب. كثير من العائلات القبطية فى المناطق الحضرية كانوا حريصين على تنشئه أبنائهم، وكانوا يعون مزية دراسة اللغة العربية من خلال القرآن. ومن بين المثقفين المصريين الذين مروا بالكتاب وكان للفقى الأثر المهم فى سنوات تكوينهم: الطهطاوى وطه حسين.

كان الكتاب يتلقى إعانة مالية من الحكومة فى مقابل تطبيق التعليمات والخضوع للتفتيش، ولكن الفقى نفسه، والذى هو فى العادة مواطن من القرية، معروف لعائلاتها المحلية ويدفعون له مبالغ ضئيلة تصل أحيانًا إلى عدة قروش فى الأسبوع وبعض القمح والذرة عند الحصاد. "كان أطفال القرية يجيئون إلى الكتاب، حفاة يرتدون الجلباب، ويجلسون القرفصاء على الأرض وقد كان معظمهم يهجر التعليم ويعود إلى حقول القطن. " كما قال حبشى الذى كان يرتدى قميصًا وبنطلونًا، ونظرًا لأنه كان قريبًا للناظر فقد كانوا يحضرون له حصيرة صغيرة لكى يجلس عليها فى موضع تشريفى بجوار الفقى نفسه". كان يعتبر ذلك معاملة مستحقة، مشيرًا إلى أن أخته وعمه كانا يعيشان بالقرب من استراحة صاحب العزبة بينما كان الفلاحون يعيشون فى أكواخ من الطوب المجفف فى الشمس، وفى وسط الغرفة مكان لإشعال النار ويخرج الدخان من خلال فتحة فى السقف. كان البؤس الذى وصفه حقيقيًا فإن مصر الزراعية على الرغم من كل أرضها الخضراء لم تكن جنة.

كـــان تجمع الأكواخ الطينية التى تكون القرية منخفضًا ومظلمًا، لا نوافذ أو ماء نظيف أو دورات مياه. كانت الماشية التى تعتبر مصدرًا للتفاخر تعيش فى الغرفة نفسها مع الناس. أما وأنا فى موقعى المتميز فكان المتوقع أن أدفع أكثر للفقى الذى لم يكن يتردد فى طلب الهدايا".

فى سن السادسة، التحق حبشى بمدرسة خاصة فى المنصورة كان يديرها مسيو أسكندر - وهو لقب كان يعتبره بعض المسيحيين علامة على العلم - كان هناك اختلاف بسيط بين المدارس الخاصة أو الدينية، ومدارس الحكومة فى تلك

الأيام، ولكن المدرسين فى الأخيرة كانوا موظفين يتطلعون إلى المناصب الإدارية المجزية فى وزارة التعليم ويستاءون من نفيهم إلى الأرياف. يقول حبشى: "إنه لم يكن تلميذًا نجيبًا ولم يكن لديه ميل للرياضيات"، "على كل حال لم يكن هناك دافع للدراسة لأن مسيو إسكندر كان ينقلنا من فصل إلى آخر بصرف النظر عن درجاتنا، وكان معظم الأطفال يتركون المدرسة بعد مرحلة التعليم الابتدائى لأن الأرض كانت تحتاج إليهم."

وعندما لاحظ والد حبشى ضآلة التقدم الذى يحرزه ابنه الصغير قرر أن يرسله إلى أخيه الأكبر إبراهيم الذى كان يقوم بتدريس الرياضيات فى مدرستين بالقاهرة: مدرسة التوفيق فى الأزبكية والمدرسة المارونية بالقرب من ميدان المحطة،" كان أبى قد وفر كل مليم لتعليم أخى إبراهيم ابنه الأكبر، وكان فخورًا بأنه وصل إلى مركز اجتماعى مرموق. وكان من المتوقع له أن يساعد فى تربية إخوته الأصاغر، وهذا هو التقليد المتبع عندنا، وقد ساعد بدوره فى تربية كل من إخوانه الأربعة الذكور. أصبح أحد إخوتى ترزيًا والآخر محاسبًا بوزارة المالية، أما أنا فكان من المفروض أن أتبع خطا إبراهيم لأصبح مدرسًا للرياضيات. درس لى أخى إبراهيم لمدة عام وبعد ذلك اقترح على أبى أن أنضبط فى المدرسة المارونية وهو ماكنت أحتاجه.

كانت المدرسة قد أخذت اسمها من الكنيسة المسيحية الشرقية التى تأسست فى سوريا فى القرن الخامس تحت رعاية شفيعها القديس مارون. المارونيون (الذين يعترفون بالكنيسة الكاثوليكية وبابا فى روما ولكنهم يتبعون طقوس الكنيسة الشرقية)، كانوا قد استقروا فى لبنان فى القرن السابع حيث جعلهم الصليبيون على صلة بالكنيسة الغربية. جاءت إرسالياتهم إلى مصر فى القرن الثامن عشر وأقاموا كنائس عديدة ومدرسة واحدة ابتدائية. "كان مستوى المدرسة عاليًا والمدرسون يحرصون على النظام وكان الإهمال يعاقب عليه بدنيا. كنا ندرس قواعد اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وقد علمنى الرهبان أننى أستطيع تحقيق هدفى إذا شرعت فى

العمل من أجل ذلك، واكتسبت العادة الطيبة، عادة قراءة الكتب التى لم تكن مقررة. "كانت المدرسة المارونية" - كما يقول حبشى - "هى المسئوله عن نمو شخصيتى"، أما عزيز سوريال عطية وأحد مدرسى المارونية الذى أصبح فيما بعد مديرًا لمركز الشرق الأوسط بجامعة يوتاه ***Utah***، فيتذكر لبيب حبشى شابًا صغيرًا بهى الطلعة، يتمتع بكفاءة غير عادية.

كان نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ معلمًا على طريق مصر القرن العشرين حيث أعلنت بريطانيا الحماية عليها، وبذلك انتهت علاقة البلاد بالإمبراطورية العثمانية التى استمرت ٤٠٠ سنة وكانت الإمبراطورية العثمانية قد أخذت جانب ألمانيا. فرضت الأحكام العرفية وقيدت الحريات المدنية وقلصت الحقوق السياسية. وعندما خلع عباس الثانى وخلفه على العرش عمه حسين كامل، وأصبح لقبه (السلطان) وفرض رقابة صارمة، إلا أن الحركة الوطنية رغم تقييدها اكتسبت زخمًا كبيرًا، كان الشعب متذمرًا ولكن الزعماء كانوا يعللونه بالصبر حتى يأتى الوقت المناسب. وعندما أعلنت الهدنة بين الحلفاء وألمانيا فى ١٩١٨ شكل سعد زغلول وفدًا وطلب السماح لهم بالذهاب إلى لندن لعرض قضية مصر والحصول على الاستقلال. قوبل طلبه بالرفض وتم تحذيره من الاستمرار فى إثارة الجماهير وتحريضهم على الثورة، مما أدى إلى هبة عارمة فى أرجاء القطر فى ١٩١٩.

حتى اليوم فإن المصريين يطلقون عليها اسم ثورة، وعلى سعد زغلول اسم زعيم الأمة. ومن موظفى الدولة على جميع المستويات إلى عمال السكك الحديدية والبريد والتلغراف هب الجميع لمساندة الوفد.

وقامت صفية زغلول زوجة سعد - وكانت امرأة على دراية بشئون الحياة ذات أصول تركية وابنة مصطفى باشا فهمى (وزير سابق) - بتعبئة النساء لضم أصواتهن إلى أصوات المتظاهرين، كان الجميع يطالبون بقطع العلاقات السياسية والعسكرية مع بريطانيا وتأكيد سيادة الشعب المصرى. وتفجرت الإحباطات التى

طال كبتها ويبدو أن الإنجليز بتجاهلهم الأعمى لطموحات الشعب المصرى لم يدركوا أن الحركة لم تكن حدثًا منفصلاً وإنما جزء من الشعور متزايد بالوطنية، كان ينضج من زمن طويل.

تشكلت لجنة ملنر لبحث أسباب الثورة وواجهت مقاطعة منظمة من الوفد، أظهر المصريون معارضة واسعة لأى استمرار للحماية البريطانية، ولذلك ردت بريطانيا بقوة فألقى القبض على سعد وثلاثة من رفاقه ونفيوا، وطالب المصريون وضغطوا ونجحوا فى النهاية فى إطلاق سراحه مع انتهاز كل فرصة بعد ذلك لنشر مقالات فى "الوقائع المصرية" لتأجيج مشاعر حب الوطن وإشعال الروح الوطنية. رفض سعد تأييد حكومة عدلى باشا، السياسى الذى عمل رئيسًا للوزراء، وطالب بإلغاء الحماية البريطانية قبل بدء المفاوضات، تم النفى مرة ثانية وثالثة ورابعة إلى عدن، وجزر سيشل، وجبل طارق.

وعلى الرغم من معارضة السلطان والإنجليز، استمر سعد زغلول فى توجيه أنشطة الوفد من المنفى، وعاد إلى مصر فى الوقت المناسب من أجل دستور ١٩٢٣ الذى حول مجموعة الأمة إلى حزب الوفد. فاز الوفد فى الانتخابات البرلمانية فوزًا ساحقًا وبدأ يتحدث فى ذلك العام صراحة عن إنهاء مكشوف للاحتلال الأجنبى. أسهم كثير من المصريين فى زرع بذور الاستقلال ولكن سعد زغلول كان أكثرهم إصرارًا، ولم يكن لأى زعيم سياسى آخر مثل ذلك التأثير فى المصريين. لم يكن يرى نفسه مجرد زعيم حزب سياسى وإنما زعيمًا للأمة، وفتحت زوجته بيتهما الخاص لعقد اجتماعات المثقفين والناشطين السياسيين.

فى هذا المناخ من صعود الروح الوطنية كانت سنة ١٩٢٢ جديرة بالذكر فى التاريخ المصرى. وهى السنة التى اتخذت فيها خطوات لإعلان مصر دولة مستقلة دستوريا كما قام أحد أحفاد محمد على ليحمل لقب ملك مصر" (كان محمد على "واليًا" أو حاكم مصر نيابة عن السلطان العثمانى، أما حفيده إسماعيل فمنح لقب "خديوى" فى سنة ١٨٦٧. وعند إعلان مصر محمية بريطانية عند نشوب

الحرب العالمية الأولى منح حاكم مصر لقب "سلطان" ليعكس بذلك انقطاع الصلة بين مصر والسلطنة العثمانية، وسنة ١٩٢٢ عندما منحت بريطانيا مصر استقلالاً محدودًا، أخذ فؤاد لقب "ملك")

فى تلك السنة أيضًا (١٩٢٢) تم اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فى وادى الملوك، كما أنها كانت هى السنة المائة على فك شامبليون رموز اللغة الهيروغليفية. الواضح أن المصادفات قد ينجم عنها تغيرات هائلة ! قررت الحكومة الفرنسية إقامة احتفال كبير بهذه المناسبة فى باريس ودعى أحمد كمال للحضور، وقرر سليم حسن أحد خريجى مدرسة أحمد كمال للمصريات التى لم تعمر طويلاً، والذى قضى سنوات طويلة متنقلاً بين المدارس الثانوية فى القاهرة وطنطا وأسيوط خلال سنوات الحرب، قرر أن يصحب أستاذه المسن. وعندما أعلن سليم حسن أنه ينوى القيام برحلات إلى مختلف متاحف أوروبا لفهرسة المقتنيات المصرية وتصوير القطع التى ليس لها مثيل فى المتحف المصرى، ويعد شرائح للأشياء التى ليس لها نظير بذلت مصلحة الآثار كل جهدها لكى تحول دون ذلك، ولكن سليم حسن أشار إلى أن أحمد كمال لا يستطيع أن يسافر وحده، والحقيقة أنه مات بعد ذلك بعام واحد، وأنه سيسافر على نفقته الخاصة.

فى أول مقال نشره سليم حسن فى الجريدة العربية الوطنية (الأهرام)، عدد يوليو ١٩٢٢، بعد عودته من أوروبا وعد بأن "يكشف السر وراء سرقة الآثار المصرية وفضح الدور الذى لعبه الأثريون الأجانب فى هذه العملية". كتب عن الترحيب الحار الذى حظى به فى فيينا من هيرمان يونكر، العالم الألمانى الذى ساعد فى إنشاء المعهد الخاص بالمصريات والدراسات الإفريقية فى جامعة ڤيينا وأمين المتحف الوطنى. وقام يونكر شخصيًا بمصاحبة سليم فى جولته بين المجموعة الضخمة من الآثار، وكتب سليم حسن أنه ذهل لعدد القطع والمساحة المخصصة للقسم المصرى، ولاحظ فارقًا ضخمًا بالمقارنة مع الثقافات الأخرى. وتذكر يونكر تعليقًا ينسب إلى جاستون ماسپيرو، وهو أنه إذا أراد أحد أن يرى

متحف مصر الأول، فعليه أن يذهب إلى فيينا لأن سليم حسن اقتبس هذا التعليق فى مقاله. رأى سليم حسن أشياء لامثيل لها فى بلده وعرف حجم ما تم نقله من الآثار المصرية إلى الخارج بتواطؤ من الحكومة، إذ كيف يمكن نقل ثلاثة أعمدة ضخمة من الجرانيت ذات التيجان المزينة بأزهار اللوتس، التى يرجع تاريخها إلى عصور حكم تحوتمس الرابع ومرنبتاح وسيتى الأول إلى خارج البلاد؟ وذكر أنه بصرف النظر عن عدد الزوار الضخم الذين يزورون المتحف ويهتمون بالقسم المصرى، وهم مندهشون أيضًا بمدى اهتمام جامعى الآثار الأجانب بأشياء عادية مثل رغيف خبز مصرى قديم أو أشياء صغيرة مثل بزازة لإرضاع الأطفال، كانت تلك الأشياء معروضة جيدًا وعليها التعريفات الدقيقة مثلها مثل القطع الكبيرة تمامًا.

أما مقاله الثانى عن المتحف المصرى فى برلين فقد كان أطول وأشمل، فقد تتبع تاريخ المتحف الوطنى منذ إنشائه بعد توحيد ألمانيا تحت حكم بسمارك (١٨٦٤ - ١٨٧١) كما تتبع أصل المجموعة حتى قياصرة بروسيا الذين كانوا من جامعى الآثار المعروفين بالشراهة. كان من بين الآثار المعروضة فى المتحف مجموعة دروفيتى الرائعة ومجموعة أخرى كانت تخص تاجر آثار إيطالى رسمه بليورى. كما كانت هناك أيضًا ثروة من الأشياء التى جمعت أثناء أولى البعثات الأثرية الألمانية إلى مصر التى كان يرأسها ريتشارد لبسيوس سنة ١٨٤٢ وكانت تتضمن ١٥ ألف قطعة من بينها أربعة تماثيل للملكة حتشبسوت ولوحًا من الحجر الجيرى من داخل هرم زوسر المدرج فى سقارة ولوحة ثمينة مزخرفة بسرب من الطيور والوحوش تكريمًا لمينوفر أحد الأمراء من الأسرة الخامسة.

لقد بهر متحف رومز- بليزايوس فى هيلدشايم بالقرب من هانوفر سليم حسن، عندما عرف أن الذى أسسه كان أحد علماء المصريات الهواة وهو بليزايوس جامع الآثار الذى دعم الحفائر العلمية فى الجيزة، ومول عملية نقل تمثال هميونى إلى الخارج وهو المهندس المعمارى الذى صمم هرم خوفو وكان ابن عم الملك ووزيره والتمثال عمل فنى فريد؛ وقد أثار سليم حسن فى مقاله هذا السؤال:

كيف يمكن أن يكون الأجانب أكثر اهتمامًا بتراث بلدنا وتطوير دراسة لغة أسلافنا أكثر منا ؟" مضيفًا: "حسب علمي لايوجد سوى شخص واحد فى طول البلاد وعرضها هو الذى أظهر على الأقل اهتمامًا مشابهًا لدراسة تراثنا القديم رجل سيظل اسمه محفوظًا عندما يشرق نور المعرفة على بلادنا ويبدأ الناس فى تقدير الأعمال العظيمة التى أنتجتها، هذا الرجل هو خشبة باشا الذى أنشأ المتحف المصرى للآثار فى أسيوط والذى ملأ متحف طنطا ومتحف المنيا بالآثار ذات القيمة التى اكتشفها فى حفرياته.

لم يستطع سليم حسن إلا أن يكرر التعبير القائل بأنه (لابد من الرؤية حتى يحدث التصديق) وذلك مثل كل من شقوا طريقهم فى متحف اللوڤر فى باريس فقال: "وجدت فى الطابق الأول قاعة كبيرة للتماثيل أنشأها الملك تشارلز العاشر فى ١٨٢٦ محددة أبعادها بستة أعمدة وتماثيل فرعونية"، وأسرف فى مديح كل من دروڤيتى، والقنصلين العامين البريطانى والفرنسى فى مصر، والأشياء التى تم استخراجها من حفائر أوجست مارييت وأنطوان كلوت. كانت مجموعة اللوفر واحدة من أهم وأقدم المجموعات فى العالم، كما كتب يصف التمثال الشهير للكاتب المصرى المجهول الجالس والتمثال الذهبى للعجل أبيس الذى اكتشفه مارييت والمجموعة التى جمعها شامپليون " الذى بحث عن أكبر عدد ممكن من الآثار، وأتاح التغطية المالية للأسرة المالكة وكان قادرًا على شراء مجموعة من الآثار من تاجر إيطالى من ليڤورنو".صدر عدد جريدة الأهرام الذى نشر به مقال سليم حسن عن متحف اللوڤر فى ٤ أكتوبر ١٩٢٢، وقد تم توزيعه على نطاق واسع حتى أطلق عليه اسم طبعة اللوڤر.

الشكل رقم ٦: المدخل إلى وادى الملوك فى القرن التاسع عشر

بعد ذلك بشهر واحد وبينما كان هواردكارتر يخلى أحد الممرات فى مدخل مقبرة بوادى الملوك ظهر باب كامل استطاع أن يحدد عليه ختم نيكروبوليس، فأرسل برقية إلى مموله لورد كارنارفون تقول "ننتظر وصولك". وأخرى إلى صديقه الحميم آرثركالندر وهو عالم مصريات بريطانى عمل معه سابقًا. لقد وجد مقبرة توت عنخ آمون.

شرع عالم المصريات البريطانى هواردكارتر، كبير مفتشى الآثار فى مصر العليا تحت رئاسة جاستون ماسبيرو – فى العمل لحساب أحد أفراد الأرستقراطية البريطانية الغنية فى سنة ١٩٠٥. قام إيرل كارنارفون بتمويل العديد من الحفائر وبعضها فى الدلتا ولكن كارتر كان متشوقًا للعودة إلى الأقصر، حيث كان قد اكتشف مقابر طيبة ووجد عدة أشياء تحمل اسم توت عنخ آمون وملك آخر لم تكتشف مقبرته. كانت مواقع الأشياء قريبة بعضها من بعض، ولذلك استنتج كارير أن المقبرة التى جاءت منها هذه الأشياء لابد من أن تكون قريبة. كان موسمهم الأول فى وادى الملوك فى ١٩١٥ولكن جهود كارتر تحولت خلال سنوات الحرب، أما كارنارفون فقد ظل فى إنجلترا ولذلك فإن كارتر لم يعد إلى المقبرة حتى سنة ١٩١٧ للعمل مع مصلحة الآثار لحفر قطاع غير مستكشف من وادى الملوك. ولم يحول انتباهه إلى الوادى الأوسط إلا بعد استكمال تلك البعثة، وكان قد اقتنع بأن هناك مقبرة لم تكتشف. كانت السنة غير المثمرة تدفع الأمل إلى السنة التالية، كان على كارتر فى النهاية أن يقبل احتمال أن يكون سلفه على حق وأن الوادى لا توجد به مقبرة أخرى. ولكنه استمر لأنه كان هناك احتمال بعيد أخير: كان الموقع تحت رمسيس السادس مغطى ببعض أكواخ العمال. وكان من المحتمل أن تكون تحته مقبرة لم تكتشف. كان كارتر قد انتهى من إزالة ما يقدر بحوالى مائتى ألف طن من الأنقاض، ولذلك قام العمال حسب تعليماته بهدم الأكواخ، وعلى مسافة أربعة أمتار تقريبًا تحت المستوى الحالى للوادى اكتشفت بعض الدرجات المنحوتة فى الصخر، كان تحتها باب محكم الإغلاق مبنى من الأحجار الضخمة المغطاة بالجص ومختومة بالأختام البيضاوية الكبيرة الخاصة بالمقبرة.

هناك روايات كثيرة لقصة الاكتشاف كما كتبت مقالات عدة عما يسمى "لعنة الفراعنة" ولكن لا يوجد سوى إشارات قليلة حول ما كان يحدث فى السر وكيف استطاعت مصر أن تبقى المجموعة كلها داخل البلاد.

قام كارتر بتأمين المقبرة وحمايتها من اللصوص، وانتظر وصول لورد كارنارفون وابنته قبل المضى فى تنظيف ممر المدخل. وفى ٢٦ نوفمبر تم الكشف عن مدخل ثان مغلق. وقام كارتر بعمل ثقب صغير باستخدام قضيب حديدى، وعندما نظر منه رأى "أشياء مدهشة" ولاشك فى أنه وكارنارفون الذى مول الحفائر فى الوادى الملكى لمدة حوالى خمسة عشر عامًا كانا يتوقعان القواعد التى وضعت منذ ستة عشر عامًا، وبناء عليه يؤول إليهما نصف الكنز.

انتشرت بالطبع أخبار الاكتشاف كالنار فى الهشيم ولكى يوقف ما وصفه بأنه "تقارير خيالية" (بعض هذه التقارير ذكر أن كارتر دخل المقبرة قبل وصول كارنارفون وأخذ بعض الأشياء)، كان كارتر متشوقًا لوضع قصة من مصدر موثوق به عن الاكتشاف، ودون علم أى شخص من خارج دائرة المحيطين به وقع عقدًا مع جريدة التايمز التى تصدر فى لندن، وافق فيه على إعطائها حق التغطية الخاصة للأخبار، وكان لهذا الإجراء أصداء خطيرة.

وكان الخطأ الثانى الذى ارتكبه كارتر أكثر خطورة فقد قرر أن يحدد بنفسه التاريخ الرسمى لافتتاح المقبرة، وجعله فى ٢٩ نوفمبر وأرسل دعوات إلى المندوب السامى البريطانى فى مصر اللورد اللنبى، وإلى الحاكم الإدارى للمديرية عبد العزيز يحيى ورئيس الشرطة محمد فهمى وبعض الشخصيات المصرية الأخرى من الأعيان والرسميين، وكان غياب بيير لاكاو المدير العام لمصلحة الآثار ذا مغزى، وحسب قصة كارتر أنه لم يتمكن من الحضور وأنه سيقوم بعمل تفتيش رسمى للمقبرة فى اليوم التالى. حملت مثل هذه الإجابة الجافة دلالات مبهمة. والحقيقة أن لاكاو بمجرد سماعه عن الاكتشاف أصر على ضرورة وجود عضو من مصلحة الآثار فى الموقع طوال عملية الحفر، واختار لذلك عالم

المصريات واللغوى ريجينالد إنجلباخ الذى كان كبيرًا لمفتشى الأقصر. فى ذلك الوقت كان إنجلباخ فى جولة تفتيشية، ولذلك تم إخلاء ممر المدخل دون حضور ممثل لمصلحة الآثار. وأكد ذلك انطباع كارتر وكارنارفون بأن المقبرة كانت لهما واستمرا فى ترتيبات الافتتاح، ومن هنا يعتبر استياء لاكاو مفهومًا عندما يعلن الافتتاح الرسمى للمقبرة حتى قبل أن يراها.

عندما جاءت انتخابات سنة ١٩٢٣ بمؤسس حزب الوفد سعد زغلول إلى موقع رئيس الوزراء الأول - حكومة على أساس شعبى فى النظام الملكى الدستورى تحت رئاسة الملك فؤاد - كان المتوقع إقحام الكنز الذى تضمه المقبرة ساحة السياسة، وحتى عندما ترأس الملك الاحتفال بالجامعة الجديدة فى الجيزة (جامعة فؤاد الأول) ودخل كارتر وفريقه غرفة الدفن فى المقبرة، بدأت الأخبار تنتشر بأن الحكومة كانت تناقش قانونية إعلان كنوز أول مقبرة ملكية يتم اكتشافها وحدة متكاملة وتبقى فى مصر، كما كانت هناك إشاعات عن خطط لوضع قيود على بعثات البحث عن الآثار فى مصر.

قرر كارتر وكارنارفون، فى محاولة لكسر أية قيود تضعها الحكومة، أن يبدلا فى سياستهما، فاتصلا بالمتحف البريطانى وحصلا على دعمه، وكذلك متحف اللوفر ومتحف المتروبوليتان للفنون، على أمل إحراج الحكومة المصرية وتقسيم الكنوز المكتشفة حسب القانون القائم. وأعلن كارتر وكارنارفون أنهما لم يطالبا بنصف كمية الكنوز المكتشفة لهما بصفة شخصية، وإنما من أجل مجموعات المتاحف فى الخارج.

بلغت الدراما ذروتها فى ١٢ فبراير سنة ١٩٢٤ وهو اليوم المعين لرفع غطاء التابوت فى غرفة الدفن بشكل رسمى، وفى هذه المرة أرسلت الدعوة إلى ممثلين تم اختيارهم بعناية يمثلون الارستقراطية المصرية، والأرستقراطية الإنجليزية، والأثريين الفرنسيين والأمريكيين والسياسيين، وممثلى الدول، وبيير لاكاو من مصلحة الآثار. واحتشدت الصحافة الوطنية والعالمية فى الأقصر، ولكنهم غضبوا

بشدة عندما علموا أن الحقوق قد منحت حصريًا لجريدة التايمز. وعند اقتراب موعد الاحتفال ومع تصاعد القلق والترقب، وقع كارتر فى خطأ آخر جسيم: كان قد أقصى مصلحة الآثار والصحافة المصرية وطلب التصريح لزوجات أعضاء البعثة لزيارة المقبرة قبل وصول الوفد الرسمى. كان الاقتراح بالسماح للنساء الأجنبيات بدخول المقبرة قبل المسئولين الرسميين المصريين يمثل إهانة بالغة. أرسل مرقص حنا وزير الأشغال العامة المعين حديثًا رسالة إلى كارتر يمنعه من عرض المقبرة على النساء، ويهدده بأن الحكومة قد تغلق المقبرة وتمامًا إذا لم يمنح الإذن بزيارة سابقة خاصة للمصريين. لم يكن كارتر مستعدًا للاستماع. ولأنه كان عنيدًا بطبعه، أهان مرقص حنا برفضه الاعتذار أو حتى الاستماع إلى نصيحة المحيطين به بضرورة التعامل بكياسة مع الحكومة الوطنية الجديدة. ومن جهته طبق بيير لاكاو قانون الآثار القائم الذى لم يكن الكثير من بنوده قد طبق بجدية، وطلب أسماء كل "مساعدى" كارير، وأعلن أن أحدًا لن يستطيع زيارة المقبرة دون إذن سابق من مصلحة الآثار، حيث إن كارتر كان قد اختار وكلف فريقًا صغيرًا من الدارسين لفتح التابوت الحجرى الخارجى، وتسجيل محتويات المقبرة بدون إذن سابق، فإنه يكون قد انتهك القانون.

ذهب مرقص حنا بنفسه إلى الأقصر وشاهد إغلاق المقبرة وعين حارسًا على المدخل، وقام مراسل من التايمز (كان شاهدًا على الأحداث) بإرسال معلومات تحولت إلى مانشيتات صحفية: "إغلاق المقبرة فى وجه كارتر"، "وقوف حارس أمام المدخل"، "المقبرة لا تخصك"، فقدت التايمز احتكارها وأجبر كارنارفون على التخلى عن مطالبته الرسمية بالكنز، وأغلقت المقبرة لعدة سنوات، ومنع هوارد كارتر من دخول وادى الملوك. قرر كارتر القيام برحلة لإلقاء المحاضرات فى الولايات المتحدة ورفع قضيتين ضد الحكومة المصرية. إحداهما للحصول على نصف الآثار والأخرى من أجل الحصول على حق دراسة الكنوز واستعادتها. وفي سنة ١٩٢٥ فقط أى بعد مرور ثلاث سنوات على الاكتشاف سمح له بالعودة للعمل فى مقبرة توت عنخ آمون ولكن تحت رقابة مشددة.

وقام لاكاو بتنفيذ أوامر الحكومة وأعد قانونا معدلاً للآثار أعطى للحكومة سلطة كاملة للإشراف على كل الحفائر وحمايتها. (فيما عدا حقوق التنازل للقائم بالحفر) وأعلن أن من حق الحكومة الموافقة على إدارة كل المشاريع الميدانية بمن فى ذلك كل أعضاء الفريق، وأن أى انتهاك للقانون سيؤدى إلى إلغاء الامتياز وفى ١٩٢٩ تم التصديق على القانون المعدل الذى كان يقضى بعدم إعطاء أية امتيازات لأفراد وإنما لمؤسسات معترف بها. وكان ذلك يعنى عدم أحقية كارتر أوكارنارفون في الحصول على أية قطعة من مقبرة توت عنخ آمون إلى خارج البلاد.

أدى اكتشاف مقبرة الملك الصغير والدعاية التى أحاطت بأحداث عامى ١٩٢٣، ١٩٢٤ إلى مجىء آلاف السياح إلى مصر، وكان على الفنادق فى الأقصر أن تقوم بنصب الخيام فى الحدائق لإقامة الضيوف القادمين من أرجاء العالم الغربى، وزادت مبيعات المحلات وانتعشت تجارة الآثار المقلدة، وزاد الطلب على الآثار الأصلية مما أغرى كثيرين، وكانت النتيجة هى زيادة سرقات المقابر.

فى هذا الوقت نفسه كان لبيب حبشى قد تخرج فى المدرسة المارونية، وبناء على رغبة والده التحق بكلية الرياضيات بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٣ وكانت هى وكليتا الآداب والعلوم فى قصر الزعفران بالعباسية. يقول حبشى إنه "هزم تمامًا" عندما وجد نفسه فى فصل يزيد عدد طلابه على المائة وخمسين طالبا حيث كانت المنافسة شديدة، وعلى كل حال "كنت أكره الرياضيات"، ولذلك عندما تحققت لأحمد كمال مطالبه بإنشاء قسم للمصريات الذى كان يطالب به منذ مدة طويلة وتم افتتاحه بعد قيده مباشرة، كان ذلك بمثابة "هدية من السماء"، فلم يضيع وقتًا وذهب إلى المنصورة ليخبر والده بخطته للتحويل إلى هذا القسم. يقول حبشى إنه ارتبك عندما رفض والده الإصغاء إليه وأشار إلى أن "أخى كان يحقق دخلاً جيدًا من عمله فى التدريس وأنه من غير المعقول أن ألتحق بكلية جديدة ليس لها مستقبل مضمون، ولكننى صممت على طلبى مما دفعه فى النهاية إلى التسليم".

أما الأثريون الذين كانت وظائفهم قد تعطلت خلال سنوات الحرب فقد وجدوا أخيرًا فرصة لمواصلة أعمالهم المختارة: "كنا جيلاً محظوظًا، درس على أيدى علماء متميزين، فقد درسنا الهيروغليفية على يد ڤلاديمير جولينشيف وهو نبيل روسى فى عهد القياصرة، كان قد تملكه حب مصر لدرجة أن ضياع ثروته ومصادرة ممتلكاته وهروبه من روسيا لم يكن إلا مقدمة لمستقبل مهنى عظيم فى مصر. كان علم المصريات هوايته وكان يأتى إلى مصر بانتظام ولم يقل عدد رحلاته إليها عن ستين رحلة.

كانت تصحبه فى كل مرة زوجة مختلفة كما كان يقال، وقد قبل بكل سعادة الدعوة لتدريس الهيروغليفية فى المدرسة التى كانت قد افتتحت حديثًا للمصريات وكان محل احترام تلاميذه. كنا معجبين لإلمامه بالبرديات المهمة مثل البحار الذى نجا مع حطام السفينة، وهى قصة مغامرات تشبه رحلة السندباد البحرى. وتقرير مملكة وينامون الجديدة الذى يصف تجربته أثناء أدائه واجباته الرسمية، وكان تشارلز كوننتز الأستاذ بالمعهد الفرنسى يقوم بتدريس فقه اللغة، وكان واسع المعرفة، وقد ساعدنا على مقارنة الهيروغليفية بالسامية واللغات الأخرى، وكان حريصًا على إعطاء المبتدئين من أمثالى الكثير من المعلومات فى وقت قصير. أما اللاتينية واليونانية فقد درسناهما على يد البروفسير پول چيرارد، ودرسنا الفرنسية على يد هنرى جريجوار عميد كلية الآداب البلجيكى، والإنجليزية على يد إيڤلين وايت وهو عالم مصريات بريطانى، والعبرية والعهد القديم على يد على العنانى وهو مصرى، أما طه حسين، وهو عميدنا اللامع فى الأدب العربى، فكان يدرس لنا التاريخ اليونانى الرومانى، ودرسنا الآثار على يد توماس پيت الذى كتب عن السرقات الكبرى لمقابر الأسرة التاسعة عشرة والبروفسير چورچى صبحى وهو طبيب بشرى درس لنا القبطية والديموطيقية، وكنا نتندر لأن دارسى المصريات كانوا يعرفونه كطبيب لامع بينما كان طلبة كلية الطب يعتبرونه عالم مصريات قديرًا.

كان الطلبة الذين امتلأوا بالحماسة ينالون اهتمامًا شخصيًا، كان لدى حبشى شعور قوى بالانتماء، وتذكر الرحلات الميدانية إلى المواقع الأثرية كنقاط منيرة خلال سنوات دراسته الجامعية، وبصرف النظر عن الأماكن التى كانوا يذهبون إليها فقد كان حبشى يجد وقتًا للذهاب بمفرده والاستكشاف، وتذكر مناسبة بعينها أثناء رحلة إلى أسوان، يقول: " أرانا عالم الچيولوچيا لبيب نسيم الموقع الذى اكتشف فيه بعض مناجم التراب الصلصالى الأحمر فى الصحراء الشرقية، واستطعت أن أبين له أنه لم يكن أول من يقوم بهذا الكشف، وأخذته ليرى بعض النقوش بالقرب من "أبو الريش" على بعد حوالى خمسة كيلو مترات شمالى أسوان يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأبدى سعادته باكتشافى وأحسست بالفخر العظيم". إن تذكر حبشى لهذه القصة يستحق الإشادة لأنه عندما عين بعد ذلك بعدة عقود مستشارًا للمصريات بالمعهد الشرقى لبعثة شيكاغو فى النوبة برئاسة كيث سيل أثناء عمليات إنقاذ آثار النوبة فى الستينيات، كان موضوع تفرغه للإشراف على ما كان يعتبره مدير البعثة "حفريات غير مرخص بها" أحدث صدعًا فى علاقاتهما. الحقيقة هى أن حبشى كان لديه ميل طبيعى للاستكشاف.

خلال عامه الثانى بالجامعة جذبه إعلان فى إحدى الجرائد عن امتحان لوظيفة بالمرصد فى حلوان، وهى ضاحية هادئة بها فيلات ضخمة، تحيط بها الحدائق والمنتجع الصحى المصرى المشهور بعيونه الكبريتية والحدائق العامة. ولما كان معظم الدروس تعقد فى المساء فقد قرر أن يجرب حظه، وكان ترتيبه الثانى بين أربعين متقدمًا، وتم تعيينه.

الشكل رقم ٧: أوائل الخريجين فى المصريات من جامعة القاهرة (١٩٢٨ م)

لقد استطاع الانضباط الذاتى الذى اكتسبه فى المدرسة المارونية أن يفيده كثيرًا، وأن يكون متقدمًا فى دروسه الجامعية، وأن يحصل على الوظيفة بالمرصد. "كنت مسئولاً عن تسجيل بيانات عن درجة الحرارة وتكوينات السحب والرياح التى تؤخذ كل ساعتين أو ثلاث ساعات، وأكرس بقية الوقت للقراءة فى ذلك المكان الرائع دون أى إزعاج. قرأت كتبًا فى الفلك، والچيولوچيا، والتاريخ، وعندما كنت أتأخر عن الجامعة أو أتخلف عن محاضرة كان أحد زملائى يعطينى مذكراته وبذلك استطعت الاستمرار".

وفى سنة ١٩٢٨ وهى السنة التى أزيح فيها الستار عن التمثال العظيم الذى صنعه محمود مختار باسم "نهضة مصر" ووضع فى ميدان محطة مصر، تخرج لبيب حبشى وعدد من زملائه فى جامعة فؤاد الأول حاصلين على درجة الليسانس فى المصريات. لقد توسعت الجامعة أكثر مما كان متوقعًا. كانت العربية هى لغة الدراسة فى العديد من الكليات، أما تمثال مختار الذى يظهر فيه أبو الهول متحفزًا على مخلبيه الأماميين وإحدى الفلاحات كاشفة عن وجهها فكان يجمع بين الأصالة والمعاصرة ويرمز لبداية جديدة فى كل المجالات، وقد نقل التمثال إلى موقع مواجه لجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٥.

عاد المصريون الذين كانوا قد أرسلوا فى بعثات للخارج إلى مصر. حصل مصطفى عامر على درجة الماچستير فى الجغرافيا من جامعة ليڤربول، وعين فى البداية محاضرا ثم أستاذًا للجغرافيا بجامعة القاهرة؛ وحصل سليم حسن على درجة الدكتوراه من جامعة ڤيينا، ليكون أول مصرى يعين أستاذًا لكرسى المصريات، أما سامى جبرة فقد واصل دراساته فى جامعة ليڤربول وفى السوربون ثم عين أمينًا بالمتحف المصرى، أما محمود حمزة الذى درس فى معهد الآثار فى ليڤربول ثم فى *École Pratique des Hautes Études* فى باريس فقد انضم إلى مصلحة الآثار فى ١٩٢٧. أما عن الخريجين الجدد فقد كانت حياتهم مخططة لهم إذ أرسل بعضهم فى بعثات إلى أوروبا، ولم يعودوا كلهم، من عاد منهم عمل بالتدريس. كما

حصل آخرون على مناصب فى المتحف أو تم تعيينهم فى مصلحة الآثار فى وظائف مفتشين بدلاً من الموظفين الصغار، وكان لبيب حبشى يتمنى الحصول على مثل هذا التعيين.

ظل ينتظر دون جدوى شهرًا بعد شهر بينما حصل زملاؤه على وظائف. يقول: "شعرت بالدهشة لأن تقديراتى كانت جيدة جدًا وكنت متأكدًا أن دورى سيأتى. كنت صبورًا. وبعد أن تم تعيين بعض من تخرجوا بعدى بعام مثل عبد المحسن بكير وأحمد بدوى أدركت أن هناك شيئًا خطأً وذهبت لكى أعرفه". هذا الخلاف المؤسف مع الجهات الرسمية فى بداية حياته العملية كان ليستمر خلال معظم حياته. السبب غامض ولكن ليس له علاقة بكفاءته الأكاديمية بقدر ما هو فى عالم الوعى الطبقى المتغير فى مصر. "وعندما قدمت احتجاجًا للمسئولين عن التعيين فى مصلحة الآثار، أحيلت شكواى إلى أستاذ فى الجامعة، قال إن اختياره للخريجين كان يعتمد على حسن أخلاقهم، وهكذا يكون قد اتهمنى بسوء الخلق"، كما تقول المذكرات التى تتضمن سيرته الذاتية، أو "تقرير سليم حسن عن خلقى" فى قول آخر. وكلمة " الخلق" فى هذا السياق غامضة بالطبع، واستخدامها لا يعنى أن حبشى كان يفتقد الفضيلة أو حسن الخلق ولكنها تعنى بعض الصفات. هل كان يعتبر لا يمكن الاعتماد عليه؟ لا شك أن عمله فى المرصد الذى كان سبب غيابه عن بعض المحاضرات كان فى الحسبان، ولكن من الصعب اعتبار ذلك سببًا فى اعتباره لا يستطيع تحمل المسئولية. لاشك أن تفسير هذا الكلام شديد التعقيد. قبل نصف القرن كانت فكرة التمييز مستبعدة ومن الصعب إثباتها. ولكن عند بداية القرن الحادى والعشرين، عندما يشير كتاب أعمدة محترمون مثل فاروق جويدة إلى أناس عاديين يستحقون الفرص نفسها مثل أولئك الذين لديهم القدرة على الوصول إلى مناصب عليا بعينها ويكتبون عن عار رفضهم لا لشيء إلا لأن وضعهم الاجتماعى يعتبر غير مناسب" (الأهرام ويكلى ١٢- ١٨ مايو ٢٠٠٥ ص ٥).

ويتضح لنا أن حبشى كان يعتبر دخيلاً على طبقة المهنيين. لم يكن حتى ابنًا لأحد أعيان الريف، فقد كان من الممكن لهذا الانتساب أن يحقق له مكانة طيبة.

أخلاقه تمت صياغتها على يد قساوسة مارون غرسوا فيه مؤثرات ذهنية وأخلاقية تعده ليكون شابًا مفيدًا فى الحياة. إذ يمكن للمرء أن يتخيل أن هذه الخصال لابد من أن تكون متحققة فيه إلى جانب سجله الأكاديمى. فى التقسيم الاجتماعى كان تائهًا بين طبقتين.

لقد انتظر عامين لكى يعين فى أول وظيفة رسمية كمفتش بمصلحة الآثار، تجاهله هذه الفترة الطويلة كان مهينًا. أما فى الريف فكان يحظى بمكانة خاصة باعتباره أحد أقارب الناظر. فى المدرسة نال الاحترام بوصفه شقيق مدرس الرياضيات كما عومل بحزم واحترام من الرهبان المارونيين، وفى هيئة الآثار لم يستطع أن يفعل شيئًا لكى يدافع عن نفسه ضد تشويه سمعته. لقد خطر على باله أنه كان هناك تمييز ضده لأنه قبطى؛ ولكنه أسقط هذه الفكرة لأن بعض أترابه، ومنهم على سبيل المثال متى جرجس الذى أرسل فى بعثة للدراسة فى باريس وأكسفورد، ومكرم الله الذى تعلم بمدرسة فرنسية وأصبح مفتشًا - كانا قبطيين.

سواء أكانت دوافعه الطبيعية قد تأثرت بسبب الفترة التى ذهب فيها إلى مصر العليا كمفتش فى أسوان، أو أن الموت الذى طال والده قبل فترة قصيرة قد أثر فيه بأكثر مما يعترف (فى أواخر أيامه أخذناه ليعيش معنا فى القاهرة ولكنه كان مهمومًا ولم يحب أن يكون معتمدًا على أحد، وكان شديد الإحساس بخيبة الأمل من جهتى لأننى لم أستمع إليه وأصبح مدرسًا للرياضيات". حياة حبشى المهنية الباكرة هى سجل غير سعيد من الفرص الضائعة. "كانت مسئوليتى أن أفتش عن منطقة تبلغ حوالى ٥٠٠ كيلو متر تتضمن المئات من مواقع الحفر على كلا ضفتى النيل من أرمنت جنوب الأقصر إلى أددنان على الحدود السودانية"، "بمهمة من هذا النوع وكنت قد انتظرت مدة طويلة ليتم التعيين، قد يتصور المرء أننى كنت قد قبلت التحدى بحماسة ولكنها كانت سنوات سعيدة خلوّ من الهم. وأود الاعتراف بأننى كنت أقضى معظم وقتى مع الزملاء والأصدقاء نشرب ونمزح ونلعب الورق ونأكل سمك النيل اللذيذ. وكان الراديو قد وصل قبل قليل إلى أسوان

وتصادقت أنا وزملائى مع عامل الراديو. وقد سمح لنا باللعب فى المفاتيح وكنا ننصت إلى محطات العالم ونستمع إلى لغات غريبة لم نكن نعلم من أين يأتى الناطقون بها".

بهذه الروح المرحة والساخرة ضاعت عليه فرصة أكثر الاكتشافات أهمية من الناحية التاريخية فى النوبة. لقد تسلم تقريرًا يفيد بأن لصوص المقابر قد دخلوا إحدى الربوات الصغيرة التى تقع فوق المقابر القديمة فى بلانة وهى تكوينات شبه صخرية فى جنوب أبو سمبل، كان علماء الجيولوجيا يظنون أنها طبيعية. "كان يجب أن أذهب إلى هناك وأقوم بالتفتيش بنفسى، ولكننى بدلاً من ذلك أرسلت تقرير الشرطة إلى والترإمرى الذى كان يقترب من إنهاء عامه الثالث فى الحفر لكى أحذره من الأنشطة غير القانونية، ونتيجة لذلك ضاع منى اكتشاف مدفن ملكى يخص ملك قبيلة النوبوداى الذى أصبح اسمه معروفًا فقط من تمثيلات المقبرة. بعد ذلك بوقت طويل شاهدت التاج الفضى الضخم الذى كان موضوعًا على رأس مومياء الملك والكثير من الأشياء الأخرى والعقود الخرز القرنفلى والكوارتز والكريستال واليشب التى أخذت من حول عنقه. كان الملك مدفونًا مع زوجاته وحاشيته من الخدم. تصور، لقد فاتنى هذا الاكتشاف الكبير لأننى لم أشأ أن أذهب. لم يكن لدى عذر، ربما تذكرت ثلاث ليال غير مريحة قضيتها مرة فوق سرير من جريد النخيل فى أبو سمبل منتظرًا السفينة البخارية لكى تحملنى، وأردت التأكد من أن مثل هذه التجربة لن تتكرر. ولكن إذا كان علماء مثل دى مورجان يمكنهم قضاء أسبوع كامل فى المقبرة لكى يحرسوا شخصيًا المجوهرات الذهبية الخاصة بالأميرة سيت حتحور فى دهشور لكنت قد تابعت تقرير لصوص المقابر فى بلانة. والحقيقة هى أننى عندما أستعيد ذكرى سنواتى الباكرة كمفتش فى أسوان، أرى أن الشهادة التى تقدم أوراق الاعتماد الضرورية لهذا المركز لم تملأ صدرى بالحماسة".

على ضوء إدراك ما حدث، يتضح أن اهتمام حبشى بأسوان والنوبة، وهو ما سوف يلعب دورًا مهمًا فى حياته فيما بعد، نابع من تعرفه المبكر على هذه المنطقة. وعلى الرغم من تعليقاته المحبطة فإن مذكراته التى كتبها بخط يده تبين أنه سافر كثيرًا بطول الشريط النيلى بين الشلالين الأول والثانى فى جولاته التفتيشية، وكان على دراية بالثروة الأثرية الضخمة فى النوبة. فى كل مكان كان هناك دليل على الوجود المصرى. المناجم والنقوش والمقابر والمعابد. "كانت النوبة أرضًا قاحلة ولكنها غنية بالمصادر المعدنية، ورغم محدودية مالديها من نحاس وذهب فإن لديها فائض زراعى، وعندما كان النوبيون يحتاجون إلى إمدادات الغذاء كانوا يتجهون نحو جيرانهم الشماليين وكان المصريون على استعداد للاستجابة مقابل حقوق التعدين وممر تجارى منتظم مع كوش والسودان وبونت وربما الصومال". كان تعاطفًا مع الناس الودعاء الذين كانوا يحتالون على العيش فى أرض لا يسقط عليها المطر"، وكان يلاحظ موجات الاستمرارية الثقافية. "ألا تعتقد أنه من الغريب أن الأقباط المصريين استطاعوا أن يظلوا متمسكين بعقيدتهم ولكنهم فقدوا لغتهم، بينما تحول النوبيون إلى الإسلام وظلوا متمسكين بلهجتهم إلى اليوم؟"، كان يطرح هذا التساؤل.

انتهى عمله بأسوان فى ١٩٢٣ وهى السنة التى أنهى فيها هوارد كارتر تسجيل كنوز مقبرة توت عنخ آمون، وكانت هناك فرصة أمام حبشى خلال رحلاته إلى الأقصر لمشاهدة الأثرى الإنجليزى وهو يسجل الأشياء،"كان شديد الدقة فى عمله، غيورًا على المقبرة وشديد الغطرسة". وعندما كانت آخر شحنة للسفينة التى تحمل الكنوز التى يبلغ عددها أربعين كرتونة جاهزة للإرسال إلى القاهرة، طلب إليه باعتباره مفتشًا فى مصر العليا أن يشرف على التحميل وأن يصاحب القطار إلى مقصده، وصحبه ضابط شرطة كبير وحامية مكونة من ستة من رجال الشرطة، شاهد حبشى الكراتين وهى تحمل فى أربع عربات ملحقة بقطار الركاب الذى تحرك فى نصف الليل، وقد أغلقت أبوابها تمامًا وختمت بالشمع الأحمر.

"وفى كل محطة كنا نتأكد من أن الأختام سليمة. فى تلك الأيام كان خط السكة الحديد يمتد من محطة القاهرة إلى المتحف المصرى وكان أمينه ركس أنجلباتس فى انتظار العربات عندما وصلت إلى مقصدها، وعندما مد يده مطالبًا بالقوائم التى كانت تصحب المحتويات والتى أعطاها لى هوارد كارتر مع تعليمات مشددة بأن أعطيها له، اكتشفت فزعًا أننى كنت قد تركتها فى الأقصر: لك أن تتخيل المأزق الذى كنت فيه، انهمر العرق من جبهتى ليغرق رقبتى، وأتذكر أننى كنت أكلم نفسى وأنا أفتش جيوبى متمنيًا أن تظهر بمعجزة، وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟ لحسن الحظ فإن إنجلباتش كان رجلاً عطوفًا عدة مرات وعلى خلاف كثير من الأثريين كان يحاول أن يفهم المصريين وتعلم اللغة العربية وقد سنحت لى الفرصة عدة مرات لاستشارته فى عملى.

حينذاك، كان حبشى البالغ من العمر ٢٨ عامًا فى وظيفة ذات مكانة اجتماعية ودخل منتظم مع سنتين من الخبرة الميدانية ولكنه كان ينقصه التوجه. حقيقة أنه نقل نحو ١٥ مرة خلال العشرين عامًا التالية فى مناطق بمصر العليا ومصر السفلى لم تساعد على تحسن الأمور، وعلى أية حال فإن القليل من علماء المصريات المصريين تعرضوا لهذا القدر من التنقل بين المواقع والخبرات. كان فى بهو الأعمدة الكبيرة بالكرنك بينما كان المعمارى الفرنسى هنرى تشيفرييه يوازى ١٥ طنًا من العوارض المرتكزة على الأعمدة، وفى تانيس عندما كان پيير مونتيه يستخرج نتفًا دقيقة من ورق الذهب من قناع محطم وجد فى مقبرة ملكية من الأسرة الثانية والعشرين وفى الكاب عندما كان چان كاپارت يقوم بحفائره لحساب المؤسسة البلچيكية المصرية التابعة لجامعة الملكة إليزابيث (وهو عالم رائع ومحترم فعل الكثير ليثير الاهتمام بالآثار المصرية) وفى إدفو يشهد اللغوى البريطانى دبليواتش فيرمان وهو يترجم النصوص فى معبد إدفو الذى كان قد تم تجديده حديثًا. (عندما نظر إلى مذكراتى طلب منى أن أزيد اهتمامى باللغة الهيروغليفية).

لاحظ حبشى بانتباه أيضًا مواطنيه يقومون بحفريات فقد كان زكى سعد يحقق شهرته وهو يحفر عند المقبرة الملكية فى حلوان (زكى سعد ١٩٤١ – ١٩٤٢) وتوفيق بولس يعمل فى الشيخ ناصر والدير بالقرب من أبيدوس (بولس ١٩٣٧) وأحمد بدوى فى سقارة (بدوى ١٩٣٧) وسامى جبرة فى تونة الجبل فى مصر الوسطى (جبرة ١٩٣٩) فى لحظة تأمل فى أواخر حياته، أما لبيب حبشى فيعلق أنه ربما كان أكثر حظًا من زملائه: "بينما كانوا يقضون عدة سنوات فى موقع واحد كنت أنا أشارك بقدر من كل شيء، حتى إننى شاهدت أيضًا الأثرى اللامع بمصلحة الآثار أحمد (الحاج) يوسف وهو يصلح القناع الذهبى للملك أمينوفيس الذى وجد فى تانيس. (أحمد ١٩٤٧)، والدكتور بول غليونجى وهو يقوم بدراسة طبية حول ما كان يعتقد أنه مومياء إخناتون (غليونجى ١٩٤٧). لقد تنقلت جيئة وذهابًا بين الأقصر والقاهرة وإدفو والدلتا والفيوم، ثم العودة ثانية إلى الأقصر وبعدها أبيدوس وسوهاج والزقازيق وطنطا، وذات مرة قال عنى العالم الفرنسى چاك ڤانديه: "إذا كنت تريد أن تجد لبيب حبشى فى مصر العليا ابحث عنه فى مصر السفلى، وإذا أردت أن تستشيره فى مصر السفلى اذهب إلى مصر العليا".

الفصل الثالث

تجسير الهوة

إن تحول لبيب حبشى من مفتش جوال إلى عالم مصريات متبصر حدث ببطء، وبينما كان ينتقل من وظيفة إلى وظيفة طور نهمه الحاد للمعرفة فأصبح مصباحًا لاكتشاف الدلائل الأثرية، وعينًا لاكتشاف أى خروج على القياس سواء كان ذلك تغيرًا دقيقًا فى لون التربة أو تلًا رمليا فى أحد الحقول أو شيئًا خارج السياق. وبينما كان مركز عمله فى القاهرة، كان أحيانًا يذهب إلى شمال سقارة حيث كان والتر إمرى القادم من كلية جامعة لندن يعمل فى جبانة كبيرة مهجورة لمقابر الأسرة الأولى والثانية مبنية من الطوب على حافة جرف. على كل حال كان حجمها تقريبًا ضعف حجم المقابر الأخرى التى اكتشفت فى أبيدوس فى تسعينيات القرن التاسع عشر وأكثر تعقيدًا فى بنائها يقول: "كانت مثيرة بشكل كبير لأن مقبرة سقارة كان المعروف أنها موجودة قبل الحرب العالمية الأولى ولكن العمل فيها كان متقطعا ولم يستأنف قبل مرور ٢٠ عامًا، وقد استمعت إلى إمرى ورفاقه وهم يتناقشون حول ما إذا كانت المقابر نصبًا تذكارية وأضرحة لفراعنة دفنوا فى أبيدوس أو كانت مقابر ملكية (فى الفترة الأخيرة فقط اعتبرت مقابر سقارة خاصة بالنبلاء الذين كانوا يقومون بالأعمال المدنية فى ممفيس، بينما كانت المقابر الملكية فى أبيدوس) وأثارنى أن أرى كيف كانت تعدل الأفكار السائدة كلما ظهر دليل جديد، وكانت مناقشاتهم عن مختلف طبقات المجتمع كما تدل عليها أنماط المقابر التى بنيت فى الأسرة الأولى تثير ذهولى. كانت المقابر الكبيرة التى يوجد بها مخازن لمؤن الحياة الأخرى مخصصة للطبقات العليا، أما المقابر الأصغر القريبة من المقابر الملكية فكانت مخصصة للفنيين والعمال فى بلاط

الملك، بينما كان للطبقات الفقيرة مقابر بسيطة مغطاة بالرمال، مثل هذا التنظيم كان منذ خمسة آلاف عام"، وكان يقدر الكشوف الأثرية التى كانت تتطابق مع فهمه للمجتمع المعاصر.

وعندما عين فى الكاب على الضفة الشرقية للنيل شمال إدفو حيث بداية طريق القوافل الذى يقود إلى مناطق الذهب بالصحراء الشرقية، كان يقدر عمل چان كاپارت البلچيكى الذى كان يقوم بالحفائر لحساب المؤسسة البلچيكية المصرية التابعة لجامعة الملكة إليزابيث، وقد راقب عالم اللغويات البريطانى هــ.و. فيرمان وهو ينقل النصوص فى معبد إدفو الذى كان قد تم تجديده. فى البداية قبل أن يكون ماهرًا فى العمل الميدانى حول صلاته الحميمة بالأثريين الأجانب إلى مزية، كما أن روحه المرحة بطبيعته وحب الاستطلاع والحماسة جعلت منه صديقًا مقبولاً.

لقد طور حبشى مبكرًا شعورًا قويًا بالبناء الاجتماعى لانغماسه بعمق فى التراث الأدبى لوطنه واتساقه مع وجدان مواطنيه. كان ينظر إلى ما هو أبعد من الآثار والأشياء التى تكتشف عنها ومكانها فى التاريخ. كان يفهم النظام الطبقى فى العصور القديمة مع اختلافاته فى المكانة والمستوى والهيبة لأنه كان قد تعرض له بشكل يومى عندما كان طفلاً، فالعمدة فى المناطق الريفية مثل الرؤساء بالوراثة فى العصور القديمة، كان لديه مسئوليات اجتماعية وقانونية، كانوا رجالاً جديرين بالاحترام لعبوا دورًا حيويًا فى كل نواحى الحياة الاجتماعية من الميلاد حتى الدفن، كما كان الأمر فى العصور القديمة، وكذلك لأنه كان ملمًا بالتقارب الاجتماعى بين المسلمين والمسيحيين فى المجتمعات الزراعية، حيث شاهد المشاركة فى الأعياد والولائم فى المجتمعات الزراعية واحترام القديسين والأولياء لدى كليهما، واستطاع تقدير كيفية عبادة نفس الآلهة تحت أسماء مختلفة فى المعابد البطلمية أو اعتبارها تجليات للإله الواحد، يقول: " لابد من أن تعرف أنه كما كان قدماء المصريين يقيمون الصلوات للإله الذى يؤمنون بأنه الأقدر على تحقيق رغباتهم، فإن المتدينين هذه الأيام يقيمون الصلوات أو يكتبون نصوصًا سحرية إلى أى عدد من القديسيين والأولياء".

لقد أمده الاكتشاف الذى تم فى كوم الوسط فى الدلتا بما كان يسميه دليلاً قاطعًا على ما يسمى خداع الكهنة فى الأزمنة القديمة. يصف تلين كانا يقعان على بعد قرابة كيلو متر ونصف الكيلو كلاهما عن الآخر حيث أراه الخفير بعض الأشياء. كانت تشكيلية قديمة: أربع كتل من الحجر الجيرى وجسم من البرونز على شكل برج معدنى، وجزء من أسطوانة طولها مترين وثلاثين سنتيمترًا كانت تشكل قاعدة وغطاء من البرونز بحواف مرفوعة إلى أعلى مكونة شكل قمع. كان جى برونتون فى المتحف فى ذلك الوقت وأخذ الأشياء إليه. أشرف على تنظيفها ووجد أن الأجزاء متوافقة، أى أن الأداة البرونزية التى على شكل البرج المعدنى كانت قاعدة لتمثال، أما القمع فقد كان يمتد من القاعدة إلى كتل الحجر الجيرى. لم يستطع برونتون أن يفسر ماهيتها فيما عدا أنه تصور أن قاعدة التمثال والقمع المرتبط بها كانا من أجل جواب الآلهة من خلال الوسطاء.

"عرفت بالسليقة أنه كان على صواب، حيث أستطيع أن أتخيل أحد المصريين القدماء يقدم قربانًا أمام أحد التماثيل المقدسة ويسأل ثم يستمع إلى الأجوبة التى تأتى من القمع بواسطة كاهن متوار خلف كتل الحجر الجيرى"

تذكر حبشى أنه وهو طفل كان قد زار قرية طماى لحضور مولد الشيخ عبد الله بن سلام، وأخذ إلى غرفة ذات سطح مقوس حيث يقال "إن كثيرًا من الصالحين كانوا يظهرون كظلال مقلوبة عند قمة القبة" وقال إن أتباع الشيخ الذين يؤمنون بقدراته قد يطلبون ظهور شيخهم الخاص الذى قد يظهر بعد ذلك فيمكن التعرف عليه، ثم يقعى الأتباع على ركبهم ويرفعون أيديهم فى سرور. ولكن الظلال لم تكن إلا ظلال الناس الذين يمرون بالقبر وقد انعكست من خلال فتحة صغيرة عند قبة الغرفة. إن من السهل خداع عقول المؤمنين كما أن الظهورات معتادة فى مصر وفى غيرها من الأماكن، ويمكن للأبرياء والأتقياء أن يروا هذه الرؤى كما يمكن سماع أصوات الموتى. قد تكون تلك حيلاً، ولكننى لا أرى أن ذلك لا يتماشى مع العقيدة الدينية المخلصة، وكان كهنة مصر القديمة، مثل الناس الأتقياء فى هذه

الأيام، يؤدون واجبا. كانوا يخدمون جمهورًا مؤمنًا. من خلال الوسطاء كانوا يقدمون لهم الإجابات التى يريدون أن يسمعوها سواء من قمع مخفى خلف تمثال، أو من غرفة مخفية مثل تلك الموجودة بين الهيكلين فى معبد كوم أمبو المزدوج، حيث يمكن للحجاج أن يقدموا أسئلة إلى أحد الإلهين حورس أو سوبك أو عن طريق ظلال تظهر على السقف المقوس للمسجد.

وقد قادته رحلاته التفتيشية لاكتشاف أشياء غير متوقعة أو لكى يجد نفسه فى مواقف غريبة. وعندما أراد الفلاحون فى قرية العرابة المدفونة فى أبيدوس بناء مسجد بجوار مساكنهم، تم اختيار قطعة من الأرض ولكن كان على مصلحة الآثار أن تؤكد خلو الموقع من الآثار القديمة، وطلب من حبشى أن يشرف على حفر سلسلة من الخنادق، "فى تلك الأيام كان يمكن استئجار اثنى عشر عاملاً لمدة ستة أيام بتكلفة مقدارها خمسة جنيهات فقط" وأثناء الحفائر تم العثور على مقبرة للكلاب من عهد الأسرة الأولى، فدون ملاحظاته ونشرها فى ١٩٣٩ (حبشى ١٩٣٩)، وفى مناسبة أخرى كان يحول من منطقة أتريب بالقرب من بنها عندما طلب منه أهالى قرية قصر الدير – وكان عدد سكانها قرابة ألف شخص – إزالة ما وصفوه بأنه تمثال ضخم لجمل من أساسات أحد المبانى. "افترضت أنهم ربما كانوا يقصدون هيكلاً عظميا ولكنهم أصروا على أنه كان تمثالاً حجريا فزاد فضولى. بالطبع القرويون لا يعترفون عادة بوجود آثار فى أراضيهم لسبب واحد هو أن القطع الصغيرة لها قيمة سوقية، والسبب الآخر هو أنهم يريدون تدخل موظفى الحكومة. سألت كبار السن فى القرية وأقروا بأنهم كانوا عادة ما يجدون آثارًا فى أراضيهم ولا يبلغون عنها. ولكن الأمر كان مختلفًا هذه المرة كما قالوا. وحيث إنهم وجدوا الجمل وأعادوا دفنه حدثت كارثة فى القرية. كثيرون من أفراد العائلة ماتوا الواحد بعد الآخر فتأكدوا أن ذلك التمثال الشرير كان هو السبب".

قام لبيب بعرض الحفريات، ووجد كثيرًا من القطع الأثرية وكتلاً من الحجارة عليها نقوش. "ولست فى حاجة إلى القول بأننى لم أجد تمثالاً لجمل. ربما

يكون القرويون قد أخطأوا وظنوا أن القمة المستديرة لقطعة كبيرة من الصخر أو الحديد سنام جمل، ولابد من أن أضيف أننى عندما عدت مرة أخرى إلى (قصر الدير) بعد عدة سنوات لقيت ترحيبًا حارًا تعبيرًا عن الشكر، لأن اللعنة كانت قد زالت، ورزقت العائلة بمواليد كثيرين، ولم تحدث حالة وفاة واحدة.

يدين حبشى لجى برونتون بتعليمه الأساليب الأحترافية فى مجال الآثار، (برونتون التلميذ النجيب للعالم فلندرز بترى حصل على امتياز بالحفر فى الضفة الشرقية للنيل بين أسيوط وسوهاج حيث تعرف على المجتمع الزراعى المبكر فى مصر العليا) "وعندما عينت مفتشًا فى مصر الوسطى كنت ألتحق بفريقه كلما استطعت، وتعلمت كيف أميز الطبقات الأرضية وأسجل الأشياء وهى فى الموقع قبل رفعها من التربة؛ ولم يكن هناك اهتمام كاف بمثل هذه الأشياء فى الجامعة".

لم تلق الدلتا اهتمامًا كبيرًا فى تلك الأيام، وللأسف الحروب خربتها فى الفترة المتأخرة منذ حوالى سنة ٦٠٠ ق. م، وقد غاصت طبقاتها تحت الطبقات الأحدث بفعل رواسب الفيضانات حتى وصل العمق إلى ٣٠ مترًا. كانت بعض أجزائها أرضًا مألوفة بالنسبة إلى لبيب حبشى الذى عين مفتشًا فى رشيد سنة ١٩٤١، "قضيت شهورًا عديدة فى تلك المدينة الجميلة ذات المنازل العالية المحاطة بحقول الأرز والبساتين، وكان من أول الأشياء التى قمت بها الذهاب لمشاهدة قلعة سانت جوليان التى يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر، حيث تم العثور على حجر رشيد". كانت تقع على بعد حوالى ستة كيلومترات شمال المدينة، وكان داخل جدرانها بعض قوالب الطوب التى كانت مستعملة فى المبانى الفرعونية، وكانت تحمل نقوشًا بأسماء فراعنة الأسرة السادسة والعشرين وعجبت لذلك. شعرت أنه لابد أن تكون هناك مبانٍ أخرى فى المدينة، ولذلك قررت أن أقوم برحلة بحث عن صيد الكنوز فكنت أجول فى الشوارع وأحدق فى أماكن كثيرة وأخيرًا كنت أبحث فى الصهاريج وجدت منــزلين كبيرين فى بعض الحوارى الجانبية، حيث كان يتم تخزين الماء لوقت الحاجة. وجدت أن الأسقف كانت محملة على كتل حجرية، كان

أحد أوجهها على الأقل مصقولاً ومنقوشًا بالنصوص التى تعود إلى الفترة نفسها. بالإضافة إلى تلك التى كانت فى القلعة، استطعت أن أتعرف على ثماني عشرة كتلة"

قسم حبشى الكتل إلى مجموعات حسب طبيعة نقوشها ودرسها واستنتج أنها كلها، ودون استثناء، أخذت من الآثار التى أقامها الملوك الذين كانت عاصمتهم فى سايس (صا الحجر)، وكانت مركز عبادة الإلهة نيث فى غرب الدلتا وأحد أعظم المعابد فى البلاد. لم تكن قد تمت فيها أية حفريات جادة لأنها بقايا قليلة من المدينة القديمة التى كانت ضخمة فى الحقبة الفارسية عندما كتب عنها هيرودوت. قام بعض علماء القرن التاسع عشر بعمل مساقط ورسموا أجزاء من الموقع تبين حوائط مبنية بالكتل الحجرية الضخمة التى تطوق مباني كبيرة ولكن الكثير منها كان قد ضاع عندما رأى مارييت وبروجش وغيرهما هذا الموقع، واستنتجوا أن الكتل المأخوذة من المعابد المخربة قد نقلت وأعيد استخدامها فى مناطق أخرى، ربما الإسكندرية. "على أية حال فإننى أعرف الآن من بحثى حول رشيد أن الكثير قد نقل إلى هناك". ويضيف: "لا أعرف عددها ولكننى لم أفكر فى ذلك طويلاً، حيث كان للقدر تصاريفه فبعد قليل من إكمال عملى فى رشيد وجدت نفسى فى سايس".

يقول حبشى: "كان معظم المدينة القديمة مغطى بقرية حديثة، حتى بقايا التل كانت قد دمرت تمامًا على أيدى السباخين، ولكننى وجدت أحجارًا من المعبد الرئيس مستعملة هنا وهناك. وجدت واحدًا منها على عتبة مسجد وعليه الملك بين اثنين من الآلهة، حجر آخر كان فى بناء مرحاض فى المسجد نفسه وعليه أوزوريس. بحثت فى المناطق المحيطة، وبخاصة حول المستنقع العميق شمالى القرية والذى كان مشبعًا بالماء معظم السنة، ومن المحتمل أيضًا أن تكون منطقة البحيرة المقدسة.

وهناك وجدت كتلاً أكثر مدفونة فى الأرض، وأظهرت النقوش أن كل ملوك الأسرة السادسة والعشرين بلا استثناء قد أقاموا آثارًا فى سايس. كل ما كان علىَّ

هو الذهاب إلى الإسكندرية لمعرفة ما إذا كان ماربيت وبروجش كانا على صواب فى معظم ما قيل عن أن معظمها كان قد نقل إلى هناك".

مرت سنوات عديدة قبل أن يعود حبشى إلى الساحل الشمالى مرة أخرى، وعندما حدث ذلك وعاد إلى الإسكندرية ووجد فرصة لدراسة كتل الأحجار المأخوذة من المعابد القديمة التى ضمنت فى مبان جديدة، لم يفاجأ عندما لم يجد حجرًا واحدًا من سايس، "كانت معظم نقوشها تبين أنها قد جاءت من هليوپوليس ونقلت عن طريق الفرع الكانوبى للنيل" ومن المؤكد الآن أن كميات كبيرة من الأحجار من معبد سايس قد نقلت إلى رشيد، وعرف حبشى أنه كان عليه أن يحدد مكان عدد كاف منها لكى يؤكد فرضيته، "ولكن مصلحة الآثار كانت لديها خطط أخرى من أجلى. لقد نقلت إلى مواقع فى الدلتا واحدًا بعد الآخر ولكن ليس من بينها رشيد. تنقلت من الشرق إلى الغرب وعدت مرةً أخرى. وأنا أحلم بأن أعمل هناك"، "وعندما ذهب أخيرًا إلى رشيد وقد اتسعت رؤيته وتركز انتباهه وجد أن الكتل المتوقعة متناثرة فى أرجاء المكان" لم يكن هناك شارع واحد بالمدينة لا يوجد فيه أحجار. منها معظم المنازل والمساجد خصوصًا تلك التى بنيت أثناء أيامها المزدهرة من أواخر القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر كانت تحتوى على كتل حجرية من سايس. لم يكن من الصعب نقلها عبر فرع رشيد من النيل. وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن تكون هناك مدن أخرى بطول المجرى المائى بها كتل من الأحجار التى تتضمن نقوشًا من نفس المصدر.

وعندما أصبح شخصية معروفة فى رشيد كان الفلاحون يصحبونه فى جولات بحثه. وجد كتلاً من الأحجار فى قرى ديبى وفوةَ والنهارية، ووجد ما لا يقل عن خمسين حجرًا كلها عليها نقوش. "عندما أخبرنى فلاحو النهارية أن سكان طنطا قد أخذوا أعمدة مسجد مهجور قبل نحو خمسين عامًا، لإعادة استخدامها لبناء جامع لهم مخصص على اسم السيد أحمد البدوى الولى الشعبى، خطر فى بالى أن يكون بعض هذه الأحجار قد أخذ من سايس إلى رشيد ثم استعمل

مرة أخرى فى مكان آخر" وتمت مكافأته فورًا، ففى برما التى تبعد ثمانية كيلو مترات شرق النهارية وجد كتلة ضخمة على عتبة مسجد مهجور، كما كانت كتلة أخرى عتبة باب مسجد آخر فى قرية طرانة المجاورة، "وقد مثل ذلك مشكلة، ذلك لأن النهارية لاتقع على فرع رشيد ولكنها أبعد منه قليلاً" وظهر دليل يؤيد ظنه فى الجو الهادئ لمكتبة المتحف المصرى. كان لبسيوس قد زار النهارية وسجل التلال الممتدة لمسافة نصف ساعة من السير بالقرب من قرية تسمى الضهرية، مما يوحى بكون هذه القرية هى الانعطافة القديمة للنهر "وجدت كتلاً هناك وتأكدت أن الأمر كان كذلك".

لقد أحدث مرور السنوات الماضية إحساسًا بالتكامل فى شخصية حبشى. تجارب مثل تلك فى رشيد وسايس والإسكندرية، التى أخرجته من مجال الآثار المحدد، صقلت مهاراته وموهبته، وبينما كان يلعب لعبة (ابحث واستكشف) بحرفية وسعادة اكتشف إمكانات الدلتا الهائلة، كانت مليئة بالمواقع الأثرية المتناثرة ومع ذلك لم ينفذ هناك سوى القليل من الدراسات الجادة، وذلك لأسباب كثيرة، أولها الاعتقاد السائد بأن الفرص هناك قليلة لاكتشاف أى شىء بسبب رواسب الطمى على مدى آلاف السنين، كما أن الحفر كان صعبًا ومرتفع التكلفة. الكثير من المواقع تحت مستوى الماء أو مدفون تحت طرق ومبانى ومقابر حديثة. وحيث كان على علم بالأخطار التى تهدد الواقع الباقية بسبب الظروف البيئية غير المواتية ولصوص الآثار وهدم المبانى لاستخدام الأحجار فى أماكن أخرى، عزم حبشى على جذب الانتباه نحو مصر السفلى قبل أن تفوت الفرصة هناك أيضًا. كان فى الحقيقة صاحب دور فعال فى تشجيع متحف بروكلين، وكلية الفنون الجميلة فى جامعة نيويورك، لتنفيذ عمليات حفر منهجية فى منطقة منديس تمويز المستمرة على أيدى رعاة عديدين إلى اليوم.

وقد تذكر حبشى فى أواخر حياته، أنه تسلم مرة تقريرًا من بعض الطلاب بمدرسة محلية بأنهم وجدوا كتلاً من الجرانيت عليها نقوش بالقرب من المنصورة:

"وأنا طفل كنت قد مررت بمعبد إيزيس فى بهبيت الحجر على بعد حوالى عشرين كيلومترًا غربى المدينة ورأيت تلاً عاليًا من كتل الجرانيت من المعبد المنهار، وبذلك تأكدت أن ذلك لابد من أن يكون مصدرها، وذهبت فيما بعد لرؤية طلبة المدرسة لأهنئهم على تقريرهم، وأتحدث معهم قليلاً عن تراثهم وأهمية ماقاموا به وأهديت كلاً منهم كتابًا شعبيًا عن السحر والبحث عن الكنوز وكنت واثقًا من أن ذلك سيسعدهم".

يقول هارى سميث، أحد العقول المتعمقة فى علم المصريات الحديث: "إن التاريخ يلقى خدمة أفضل بالتمسك بالدليل، وبينما قد يكون ذلك هو الأسلوب الذى كان يعتد به فى النصف الأول من القرن العشرين، فإن هذا القيد قد يكون عائقًا" قد يمضى بعالم المصريات فى المسار البطىء كما تبين ملاحظات حبشى عند تل الضبعة بالقرب من قرى الختانة وقنطير فى شرق الدلتا. كان حبشى قد فتش عن هذه المنطقة فى ١٩٤٢ ووجد خرائب الآثار الكبرى بما فيها ركائز تماثيل ومسلات: "كانت كلها موضوعة فى بيئة مناسبة تمامًا مع الوصف الذى كتبه كاتب قديم – مكان رائع به برك لصيد السمك، ومساحات مائية للطيور ومروج بها كل أنواع الفاكهة وقصور فخمة – وكنت متأكدًا من أنها كانت أفاريس عاصمة الهكسوس" كان مونتيه مقتنعا بالطبع بأن تانيس كانت هى عاصمة الهكسوس، وأنها تطورت فيما بعد إلى مدينة الرعامسة أو بيت، وعنها كتب حبشى تقريرًا عن ملاحظاته إلى مصلحة الآثار: "ولكن أحدًا لم يهتم ونصف الرعامسة" كان مونتيه عالمًا محترمًا خبيرًا بشئون تانيس، ولذلك كان من الصعب تغيير عقليته أو عقليات نظرائه. كان مقتنعا بأنها بنيت بأحجار مغتصبة من الجيزة وأبو صير وسقارة وممفيس ومناطق تمتد إلى هوارة واللاهون. صدقنى أنه من الصعب تبديد استنتاج راسخ لقى آذانا رسمية صاغية، إن ما وجده مونتيه فعلا فى تانيس كان آثارًا تم اغتصابها من عاصمة الهكسوس فى تل الضبعة فى منطقة قريبة إلى الجنوب.

وبعد إعداد دراسة مفصلة عن طبوغرافية المنطقة وما يحيط بها بواسطة مانفريد بيتاك من المعهد النمسوى للآثار فى الثمانينيات من القرن العشرين تأكدت افتراضات حبشى. لقد كشفت بعثة بيتاك عن أن العاصمة الحقيقية للهكسوس كانت بالفعل هى تل الضبعة ذات الموقع المثالى فوق تل جنوبى بحيرة تستمد ماءها عن طريق قناة من الفرع البيلوزى للنيل حيث كان يوجد ميناء.

وكانت هذه المنطقة ذات أهمية استراتيجية يحميها نظام ضخم للصرف كان يمدها برابط مائى: البحر الأبيض المتوسط، ويبدو أن الفرع البيلوزى للنيل عندما بدأ يمتلئ بالطمى، نتجت عن ذلك مشكلة للسكان القدماء الذين حاولوا تجريف النهر فأقاموا تلالاً ضخمة من الطين الذى جرفوه ولكن ذلك لم تكن له فائدة، ولذلك هجرت المدينة وأصبحت تانيس هى مدينة الحد الشمالى الشرقى. ولم يعش مونتيه طويلاً حتى يرى أن تانيس لم تكن سوى بناء ثانوي من الحجارة وعناصر أخرى جمعت من مواقع أخرى.

وفى سنة ١٩٤٣ وصلت إلى مصلحة الآثار أنباء بأن العمال كانوا يعملون بنشاط فى تسوية الأرض لبناء طريق عسكرى عبر تل بسطة (المدينة القديمة لعبادة الإله بوباستيس) وهى فى مكان استراتيجى حيث يلتقى الفرعان البيلوزى والتانيتى بوادى الطميلات. أرسل إتين دريوتون الذى كان مديرًا عامًا آنذاك المفتش لبيب حبشى للتأكد مما جاء فى التقرير. وصف حبشى الموقع بأنه كارثة واكتشف أن الطريق العسكرى المعلم لربط بورسعيد بالإسكندرية عن طريق ميت غمر كان تحت الإنشاء وأنه قطع نحو ثلاثة أفدنة من الموقع. وأفاد بأن المعبد كان كتلة من أعمدة البردى المكسورة وأعمدة وعوارض أفقية وكتلاً من الأحجار عليها نصوص منقوشة مغروزة فى الأرض، كما أبلغ بأن التل يستنفد بأخذ المواد الخام منه لعمل قوالب الطوب لبناء المنازل على امتداد المناطق السكنية المحيطة به، أما بالنسبة لأنشطة السباخين، فأفاد بأنهم لا يهتمـون بالآثـار إلا إذا كانت من الذهب أو الفضة. وأعطى دريوتون تعليماته لحبشى بتسجيل الموقع، ونتج عن ذلك كتابه: "تل بسطة" الذى نال عنه جائزة الدولة.

كانت مدينة بوباستيس القديمة عاصمة إحدى المديريات الرئيسية فى الدلتا مكرسة لعبادة الإلهة "باستيت"، وهى نقطة كانت تنطق منها الإرساليات التجارية إلى سيناء للبحث عن التركواز والنحاس ونقطة انطلاق أيضًا للبعثات العسكرية إلى آسيا عن طريق البر أو البحر، وقد بلغ نفوذها السياسى ذروته بين عامى ٩٤٥ و٧١٤ ق.م. عندما كتب هيرودوتس قائلاً: "لاتوجد معابد أخرى أكبر وأغلى أو تسر النظر أكثر من هذا المعبد". كان الموقع القديم مزارًا يأتى إليه الدارسون الذين صحبوا حملة نابليون، ووصفوا المعبد وصفًا جميلاً سواء عن طريق الملاحظة الشخصية أو متابعة السجلات، وكرروا عبارة هيرودوتس فى وصف المهرجان السنوى بأنه الأعظم فى البلاد، وذكروا أن آلاف الحجاج يحضرون الاحتفال فى سرور، وذكروا كميات الطعام والخمر التى كانت تستهلك. هذه الصورة للعاصمة القديمة رسمها أيضًا چون جاردنر ويلكنسون عالم المصريات والرحالة البريطانى الذى زار تل بسطة سنة ١٨٤٠، ولكنه ذكر أن المدينة القديمة المترامية الأطراف التى كانت تغطى مساحة نحو مائة وخمسين فدانًا كانت فى ذلك الوقت خربة فى معظمها. بعد حوالى ٤٠ عامًا وفيما بين عامى ١٨٨٧، ١٨٨٩ نفذ عالم المصريات السويسرى هنرى إدوارد نافيل مسحًا أثريًا لتل بسطة وتتبع المراحل المختلفة لتطوير المعبد الرئيسى. كان معظم معالمه قد بنى أثناء حكم الأسرة الليبية فى القرن التاسع قبل الميلاد، ولكنه ذكر أن بعض الكتل كانت تحمل أسماء ملوك الأسرة الرابعة. قد استخرج نافيل قطعًا جميلة لتماثيل أرسلت إلى المتحف البريطانى، ووجد فى شمال الأرض المحيطة مقبرة ضخمة للقطط تحتوى على حيوانات محنطة بالآلاف، مع تماثيل برونزية صغيرة للقطة المقدسة، وقد صدرت هذه الآثار إلى متاحف فى أنحاء العالم ومجموعات هواة جمع التحف.

لقيت مدينة بوباستس مصير العديد من مدن الدلتا القديمة، فاستخدمت آثارها الضخمة كمحاجر جردت من الحجر الجيرى لتشييد المبانى الحديثة، وفى الأزمنة الأحدث نهبها اللصوص لحساب تجار، والسباخون بحثًا عن السماد، والتجار

المحليون الذين كانوا يبيعون الآثار علانية عند محطة السكك الحديدية فى الزقازيق. كتب ألفريد لوكاس الذى عمل لحساب مصلحة الآثار من منتصف العشرينيات إلى الأربعينيات أن تجار الآثار كانوا دائمًا هناك لمقابلة المسافرين فى محطة السكك الحديدية، ويعرضون عليهم أشياء من تل بسطة لكى يشتروها.

الشكل رقم ٨: خـرائب الصـالة الـرئيسية فى معبد الإلهة باستيت فى مدينة بوباستيس القديمة فى ١٩٤٣

وقد انتشرت فى الزقازيق الحكايات عن الذين أثروا من خلال اكتشاف أو اكتشافات جرت فى الخرائب، وهناك بعض الحقيقة فى هذا الكلام. أما القرار الذى اتخذ سنة ١٩٠٤ بعمل وصلة للسكك الحديدية تربط ما بين القاهرة والمنصورة وبلبيس فكانت تعنى اقتطاع جزء كبير غرب تل بسطة، وبعد عامين من بدء العمل وجد العمال الذين يعملون بالسكك الحديدية كنـــزين من الذهب والفضة على بعد حوالى ١٦٠ مترًا غرب المعبد الرئيسى. أخفى العمال الكنز حتى حلول المساء لكى يقسموه بينهم، وعندما وصلت الأخبار إلى مصلحة الآثار لم تستطع سوى أن تسترد جزءًا منه يتضمن إبريقًا له يد على شكل عنزة، وهو الآن فى المتحف المصرى؛ وبعد شهر اكتُشف كنز آخر على بعد أمتار قليلة من الأول وفى هذه المرة كانت السلطات مستعدة، واستولت على العملة المكتشفة وهى الآن فى المتحف المصرى؛ وقد قام س. إدجار كبير مفتشى آثار مصر السفلى بفحص هذا الاكتشاف، ولكنه لم يحدد مبنى قريبًا تكون قد أخذت منه هذه العملات واستنتج أن يكون الكنزان قد أخفيا فى مكان سرى ليتم استرجاعهما فيما بعد. وجدت أشياء أخرى من الذهب والفضة يعود تاريخ معظمها إلى سايت (الأسرة السادسة والعشرين) على الرغم من أن بعضها يعود إلى عصر رمسيس الثانى. وفى سنة ١٩٢٥ عندما كانت مصلحة السكك الحديدية مستمرة فى مد الخطوط عرف أن هناك ثلاث غرف مملوءة بالكنوز تم اكتشافها على بعد حوالى ٢٢٠ مترًا جنوب شرق مقابر الأقباط التى تقع شرق مقبرة القطط. إما أن تكون أخبار الاكتشاف قد تأخر فى وصولها إلى مصلحة الآثار أو أن تكون المصلحة قد تأخرت فى التعامل مع الأخبار، لأن إحدى الغرف وجدت فارغة وكل ما تبقى من الغرفتين الأخريين كان عبارة عن تابوتين حجريين، أحدهما تم كسره حديثًا وترك فى مكانه، والآخر الذى يعود إلى فترة حكم الرعامسة ويحمل بعض التماثيل المهمة، نقل إلى المتحف المصرى.

بالنسبة لنا اليوم يبدو من غير المعقول أن يترك مثل هذا الموقع الأثرى مهجورًا كل هذه المدة، فى البداية بدأ حبشى دراسة المعبد الرئيسى الذى سجله نافيل بغرض إعادة إنشاء رسمه الأرضى ووصف الكتل الحجرية التى لم يكن قد تم تسجيلها تسجيلاً كاملاً بمعرفة عالم المصريات السويسرى. وقد وجد خارج جدران المعبد بعض تماثيل وآثار معبد رومانى بالإضافة إلى آثار للأسرة العشرين. وعكف على أسماء الآلهة الخاصة بهذه المنطقة والمنقوشة على الحجر واستنتج أنها كانت مأخوذة من مواقع أثرية أخرى. وبعد أن تحرك بعيدًا عن المعبد الرئيسى ووجد أن حوالى ٣٧ فدانًا من الموقع الأثرى الذى حدده نافيل كانت قد سلمت إلى بلدية الزقازيق لتطوير الأرض الزراعية وعمل تجهيزات صرفة لإنشاء مزرعة. كما وجد أن هناك ثمانية أفدنة قد تم تحديدها لنقل مقابر مسلمين. وتقرير حبشى السريع إلى مصلحة الآثار عن التعدى على موقع أثرى، ترتب عليه أول خطوة جادة لحماية المنطقة، وتم صرف النظر عن مشروع المقبرة الإسلامية وحصل هو نفسه على تمويل لحفر الآثار الباقية وتسجيلها.

ركز حبشى اهتمامه على منطقة تبلغ مساحتها حوالى ١٤٠ مترًا غرب معبد باستيت عبر طريق بورسعيد – الإسكندرية، ولاحظ وجود كتلة ضخمة من الحجر الجيرى يبلغ طولها نحو ٦ أمتار فى ١٦٠ سنتيمترًا وارتفاعها ١٠٠ سنتيمتر قال له الفلاحون إن عمال الطريق هم الذين أخرجوها. هذه الكتلة وغيرها لم تكن مصقولة فى أى جانب من جوانبها، ومن الواضح أنها كانت فى أماكنها؛ وعندما أخلى المنطقة المحيطة كشف عن نحت بارز للملك بيبى الأول حاكم المملكة القديمة مع بعض الآلهة، وكان ذلك اكتشافًا مهما لأن المعروف فى تلك الأيام عن معابد المملكة القديمة أو الوسطى – بصرف النظر عن الآثار الجنائزية المرتبطة بالمقابر الملكية – كان قليلاً، وحين تشجع للقيام بمسح المنطقة المجاورة وجد حبشى على بعد حوالى ٦٠ مترًا شمالاً على نفس المحور، أعمدة ذات أربعة جوانب من نفس المادة مازالت قائمة، بعضها يحمل خطوطًا رأسية من النقوش مع

خرطوش الملك بيبى، مما جعله يستنتج منها أنها كانت جزءًا من بناء ضخم يعود إلى الأسرة السادسة، ونتيجة لتقريره عن ذلك كانت هناك منحة إضافية للاستمرار فى الحفائر، وشكل حبشى فريقًا يضم عبد الفتاح عيد لالتقاط صور للموقع، وأحمد صدقى وموريس فريد لتصوير النقوش الظاهرة (وتسجيل النقوش الأخرى عند ظهورها) وفوزى إبراهيم لعمل خريطة للمنطقة ومساقط للآثار، وفى سنة ١٩٤٤ قدم تقريره إلى مصلحة الآثار.

كان أثر بيبى معبدًا للكا كرس لروح الملك. وعلى الرغم من أن مثل تلك الآثار كان معروفًا من الأزمنة المتأخرة فلم يكن معروفًا أن هناك أثرًا من هذا النوع منذ حكم الملك بيبى، كان كبيرًا جدًا وبدا أنه كان معبدًا مستقلاً وليس ملحقًا بأثر آخر. كان لابد من إخلاء المنطقة ودراستها ولكن حبشى قال: "نقص الوقت والتمويل والمال جعل عملى يقتصر على حفر خندقين بالقرب من حرم المعبد، وقد وجدنا أساس مبنى من الطوب المجفف فى الشمس مكونًا من ثمان حجرات صغيرة ذات أشكال مختلفة، وجدنا فى بعضها عظام حيوانات وقطع فخار معاصرة للمعبد أو بعده بقليل. ولسوء الحظ فإن المياه الجوفية التى أغرقت المنطقة كلها أثرت فى هذه العظام. وقررت عمل معالجة أولية لها قبل نقلها وكتبت إلى المتحف الزراعى بالقاهرة بأن يكلف أحد علمائه بتولى الأمر، وجاء عبد الرءوف طنطاوى رئيس قسم مصر القديمة بالمتحف مرتين وقام بتصنيف الموجودات، وفيما بعد أرسل لى تقريره." وفى تل بسطة وجد أيضًا آثار معبد رومانى وقبر عائلة من الأسرة العشرين، كان قد اكتشف على تل يقع على بعد حوالى مائتى متر تقريبًا شمالى المعبد الرئيسى. "قام دريو تون بزيارة الموقع مرارًا، وشجعنى على المضى فى تسجيله، وقام البروفيسور فيرمان بقراءة نهائية لعملى، ثم قدم أخيرًا للنشر لدى مصلحة الآثار".

لا يمكن التقليل من أهمية تل بسطة، لقد كشفت الأبحاث الحديثة لعالم المصريات الألمانى جونتر درايير عن أن الاستقرار كان قد حدث فى هذه المنطقة قبل ما هو معروف بكثير، وكان استقرارًا مهما فى نهاية فترة ماقبل الأسرات وقبل توحيد القطرين. ولكن لم يتضح لنا حتّى الآن ما جرى، عندما فقدت تل بسطة أهميتها، أو عندما خربت خلال إحدى الهجمات التى حدثت فى الدلتا. كل ما نعرفه هو أنها انهارت، وأثناء العصر الرومانى لم تكن أكثر من مدينة صغيرة. وعندما أصبحت بلبيس (تقع على بعد حوالى ٢٠ كيلو مترًا إلى الجنوب) مدينة مهمة كان يتم السطو على الأحجار المتبقية فى خرائب بوباستس. هذا الموقع الأثرى يعطينا مثالاً للكيفية التى يمكن أن تخرب بها عاصمة قديمة مهمة بطريقة بطيئة ومنظمة مع الوقت، حتى تصبح بقايا صغيرة بين ثنايا الامتداد العمرانى للزقازيق. وفى السبعينيات عندما كانت جامعة الزقازيق تقوم بالحفائر حول البقايا التى كانت ما تزال موجودة وتم العثور على مقبرة للقطط فى الشمال، برزت فكرة أهمية إقامة متحف مجمع ولكن التطور الزراعى والاتساع العمرانى أثرا كثيرًا على المنطقة الأثرية المستنزفة.

كان لبيب حبشى مختلفًا عن زملائه، لأنه كان يدرك أهمية ما قد يراه الآخرون عديم القيمة. كان فهمه لموقع ما والبحث فى تاريخ حفائره وملاحظاته الشخصية وسليقته، كل ذلك كان يرفد نظرة عقلية جعلت عمله يصبح بؤرة للاهتمام. علاوة على ذلك، فإنه بسبب عدم استعلائه وتكبره على المجتمعات الزراعية، فإن بعض عمله البحثى فى الآثار جاء نتيجة صلاته الدائمة بهذه المجتمعات، لأن الفلاحين فى الدلتا كانوا يعرفونه ويشعرون بتعاطفه معهم مما شجعهم على مساعدته فى البحث عن تلك الأشياء ذات الأهمية بالنسبة له.

وعلى الرغم من أن حبشى كان يدون مذكرات متقنة حول جميع حفائره وملاحظاته واكتشافاته فمن الجدير بالتسجيل أن أول دافع له للنشر فى ثلاثينيات القرن العشرين، كان نقل جزء من نص كان قد تم توثيقه فى الفيوم، وكان يعتبره

علامة بارزة فى مسيرته. "هذا المنخفض الخصيب فى الصحراء الغربية يتضمن مواقع أثرية من جميع العصور متناثرة على مساحة تقدر بمئات الكيلومترات المربعة". ويضيف: "فى الأسرات الباكرة ظلت الفيوم دون أى تطور لأن جزءًا فقط من مياه الفيضان من ترعة بحر يوسف كان يتدفق إلى المنخفض، وكان معظمه يذهب إلى البحر الأبيض المتوسط؛ ولكن المهندسين المصريين قبل أربعة آلاف سنة قرروا معالجة هذه الخسارة فبنوا نوعًا من القناطر، ووجهوا المياه إلى حوض يحتفظ بالمياه حيث يمكن تنظيمها من أجل الرى. كان مشروعًا ضخمًا لاستصلاح الأراضى كما فى ثروتنا الخضراء اليوم وتطلب ثلاثة عهود لاستكماله، افتتحت القنطرة الضخمة فى عصر أمنحوتب الثالث الذى... (وتباطأ قليلاً ثم أكمل بابتسامة جذابة) حصل على قرض من أجل المشروع كله وهو شىء يلجأ إليه قادتنا البارزون حتى اليوم".

كان يصحب حبشى دائمًا مفتش الرى على شفيق عندما كان يقوم بمسح المناطق الأثرية فى الفيوم.

"كان يشغل منصبًا أهم حتى من حاكم مديرية، كان مهتمًا جدًا بالآثار القديمة كما كان يتطلع لزياراتى". وفى إحدى المناسبات، وهما بالقرب من المدينة الحديثة التى تسمى كيمان فارس فى الجزء الجنوبى الشرقى من المنخفض صادفا خرائب ما مكان بوابة لمعبد كبير وقد تناثرت الأحجار حولها "وظهرت كما لو كانت أعمدة لوتس محفور وقد تساقطت بسبب زلزال وتحطمت. "ويواصل حبشى: "ولكن الفحص عن قرب أظهر أن الأقسام كانت ذات حجم منتظم وكان من الواضح أنها قد قطعت عن قصد، ربما لاستخدامها فى مبنى ما".

وفحص حبشى السجلات ووجد أن العديد من العلماء قد نقل أقسامًا من النصوص التى على الأعمدة، ولكن لم تجد لها دراسة منهجية. وفى الزيارات التالية قام الرجلان بقياس الأجزاء، وحسب حبشى أبعاد عمود كامل واستأجرا

عمالا محليين لتصنيف الأقسام حسب الحجم. "واتضح أنها كانت كلها أربعة عشر عامودًا وكل منها عليه نقوش هيروغليفية".
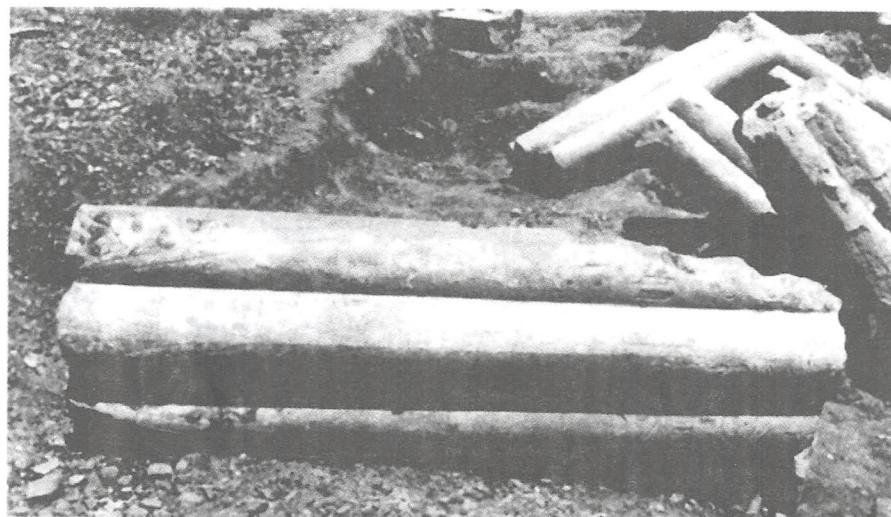
شكل رقم ٩: أعمدة من كيمان فارس مقطعة بنفس الحجم لإعادة استخدامها

"قمت بمقارنة النصوص على كل قسم واستطعت تجميع النص الكامل على كل عمود. وكان دارسون سابقون قد استنبطوا اسم حورس للملك أمنمحعت الثالث، ولذلك عرفنا أنه هو بانى بهو الأعمدة ولكن لم يستطع أحد، لا جولينشيف ولا بروجش ولا شافير ولا وورنجر ولا حتى فلندرزبترى، أن ينقل ماهو أكثر من أسماء ونعوت الملك. ولكن سطور النص التى تلت ذلك فوق كل عمود كانت مثيرة للاهتمام لأنها كانت تصف المبنى نفسه، ورصيفًا من الجرانيت الأحمر، وأبوابًا هى خليط من الذهب والفضة، ولابد من أنه كان أثرًا عظيمًا، قال حبشى وقد أشرقت عيناه وهو يتذكر: "فجأة وجدت فرصة لإضافة شيء إلى كتابات الأدب المصرى القديم".

نسخ الأعمدة الثمانية التى يتكون منها النص بعناية، ثم ذهب للقاء أستاذه القديم ڤلاديميرجولينيشيف. "كان آنذاك يعيش فى منزل من ألواح الخشب حيث استقر مع زوجة واحدة ليكرس حياته للبحث". ووصف حبشى البقعة وكيف تتبع جولينشيف النص،"كنت متشوقًا للحصول على موافقته ولكن بعد انتظار طويل كان كل ماقاله هو: خذه إلى جوتييه". كان هنرى جوتييه حينذاك هو المسئول عن مصلحة الآثار ومعروف بأسلوبه المنظم فى نقل النصوص خصوصًا أسماء الملوك. ست محافظ ضخمة هى شهادة على إنجازاته، وهى تحتوى على كل الأمثلة المعروفة من الأحداث التى تخص كل ملك مع الأشكال المختلفة لاسمه.

شكل رقم ١٠: النص الذى نقله لبيب حبشى عن الأعمدة التى وجدت فى كيمان فارس

أما اقتراح جولينشيف بأن يحمل لبيب حبشى عمله إلى جوتييه فكان عبارة عن موافقة صامتة، "وعندما كنت أهم بالرحيل أوقفنى جولينشيف بمنعى عند الباب. وقال شيئًا مهمًا، وهو أن البروفيسير موريه سأله ذات مرة عن رأيه فى شخصى فقال له: إننى نشيط جدًا ومتمكن. ثم قال: قل لى يا لبيب لماذا استغرق إنتاجك وقتًا طويلاً حتى يظهر؟"

كطالب، كان حبشى قد وجد أن الدارس الفرنسى كان صعب المراس نوعًا ما وأنه من الصعب أن يتعامل معه، "ولكن لابد من أن أقول إن مسيو جوتييه كان مشجعًا وشديد الانتقاد، فقال إننى قمت ببعض العمل الملفت للنظر ولكن يبقى الكثير الذى يجب عمله، وإنه سوف يساعدنى وكانت تلمذة طويلة، ولكنه شجعنى وكان يثنى على جهودى ويوجهنى باستمرار"، وفى النهاية قبل جوتييه النص الذى نقله حبشى وطبع سنة ١٩٣٧ فى نشرة هيئة الآثار بعنوان: *"Une vast salle d'Amenehat III à Kiman Fàres"*، وفى نفس العام مولت هيئة الآثار أولى رحلاته للخارج، فقضى حبشى ثلاثة أشهر ونصف الشهر فى اليونان لدراسة مجموعات فى متحف أثينا وزيارة مسينى وكورنث وإبيداوروس ونوبليون.

كانت الهوة بين علماء المصريات المصريين والأجانب تضيق باستمرار. كان سليم حسن هو الشخصية الاستثنائية، وكان من الجيل الأول تلميذ أحمد كمال الذى تعطل عمله أثناء الحرب العالمية الأولى ليعود إلى التدريس بالمدرسة الثانوية، وفيما بعد عين سليم حسن أمينًا مساعدًا فى المتحف المصرى قبل أن يكمل دراساته فى باريس بالمدرسة الخاصة بالدراسات العليا، وعند عودته عين أستاذًا للمصريات بالجامعة المصرية فى ١٩٢٨. وكان أول مصرى يعين فى هذا المنصب، وقد فرح سليم حسن عندما عين هيرمان يونكر الذى كان قد التقاه أول مرة فى رحلته لزيارة المتاحف فى أوروبا، مديرًا لمعهد الآثار الألمانى بالقاهرة وقال ليونكر إنه كان راغبًا فى متابعة دراساته بالخارج. شجعه يونكر وساعده وحصل سليم حسن على الدكتوراه من جامعة فيينا سنة ١٩٣٥، وعند عودته إلى

مصر عين نائبًا لمدير مصلحة الآثار ورأس بعثة حفائر الجيزة لحساب الجامعة المصرية وكانت تساوى فى حجمها أى بعثة أجنبية فى ذلك الوقت. ونظرًا لأنه تحيز ضد لبيب حبشى عند بداية تعيينه، وكان من بين أولئك الذين منعوه من المشاركة فى عمليات إنقاذ آثار النوبة فى الستينيات من القرن العشرين، فربما يكون من الملائم أن نتناول عمل سليم حسن مع بعض التفصيل.

وكان جاستون ماسبيرو قد أعطى امتيازات لبعض الدارسين ممولة عن طريق المعاهد الأجنبية للإشراف على عمليات إزاحة الرمال عن مقابر الجيزة، وكانت ضمن هذه البعثات الكبيرة تلك التى قام بها جورج ريزنر الذى عمل فى هرم منقرع ومدينة الأهرام، ويونكر الذى عمل فى حقول المصطبة الكبيرة فى شرق وجنوب وغرب هرم خوفو. أخذ سليم حسن الحقل الأوسط بين مجازات هرمى خوفو ومنقرع بما فيها أبو الهول وقام بالحفر عدة مواسم، وأخلى حول المقابر التى على شكل مصاطب والمقابر الصخرية أولاً تحت إشراف يونكر الذى كان دارسًا متعدد الاهتمامات وإن كانت المصريات على رأسها، وبعد وقت مناسب أصبح سليم حسن نفسه يقوم على تمرين خريجى الجامعة الذين أصبحوا مفتشين.

ثم وجه اهتمامه إلى أبو الهول، وهو الأثر الصخرى الضخم الذى على شكل أسد له رأس فرعون، وقد أخليت الرمال من حوله جزئيًا ودعمه المعمارى والأثرى الفرنسى إميل بارايز من سنة ١٩٢٥ إلى ١٩٣٤. كان عمل سليم حسن هناك فى الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ هو الذى أعطى لأبى الهول والمعالم المتصلة به مظهرها الحالى. وذكر أن الملامح المعمارية الأساسية للمعبد الذى كان قائمًا أمام قدمى أبو الهول كانت مشابهة لمعبد الوادى المجاور الذى يخص الملك خفرع. وكان فى كليهما أعمدة من الجرانيت الأحمر مبنية حول بهو أوسط يشبه كلاهما الآخر فى الأسلوب والمادة المستخدمة، واستنتج سليم حسن، بناء على ملاحظاته، أن أبو الهول يعود إلى الفترة نفسها مثل معبد الوادى، وأن هناك صلة بين الأثرين (حسن ١٩٣٦).

وضع الدارسون الأجانب الذين كانوا يعملون على نفس الهضبة استنتاجاته موضع المساءلة، إلى أن قام ريك وسكوت اللذان كانا يعملان لحساب المعهد السويسرى للآثار بالقاهرة فى ١٩٦٥ بدراسة متعمقة للعناصر الموجودة للمنطقة وسلما بأن سليم حسن كان على صواب، بعد ذلك انتقل سليم حسن إلى ما كان يظن أنه هرم ناقص بين مجازات هرمى خفرع ومنقرع. فحصها سليم حسن واستنتج أنها لم تكن مقبرة على شكل هرم مطلقًا، ولكنها كانت بناء على شكل تابوت حجرى محمل على قاعدة مربعة، ومعبد جنائزى صغير مكون من غرفتين محفور فى الجزء الجنوبى الشرقى، وكان يخص خنت كاوس التى كانت حاكمة عند نهاية الأسرة الرابعة كما يؤكد اسمها المكتوب على البوابة الجرانيتية الضخمة فى مدخل المقبرة.

ظهرت نتائج عمل سليم حسن فى الجيزة فى عشرة مجلدات، وكانت إضافة إلى المادة المعروفة، ونشر ٥٣ كتابًا ومقالاً عن موضوعات فى المصريات بالإنجليزية والفرنسية والعربية وحصل على لقب (بك)، وقد لعب هذا العالم النشط الكثير الإنتاج دورًا مهمًا فى تطوير مجال علم المصريات بجامعة فؤاد الأول وهو تراث مستمر إلى اليوم.

وقد نفذت كلية الآداب بالاشتراك مع بلدية الإسكندرية ومصلحة الآثار دراسة مشتركة فى الأشمونين (هرموبوليس الكبرى بالقرب من مدينة ملوى الحديثة) تحت إشراف سامى جبرة، والذى كان فى الأصل طالب حقوق قاده اهتمامه بالمصريات للدراسة تحت إشراف أحمد كمال، وقد أرسل جبرة إلى جامعتى ليفربول والسوربون فى منحة دراسية وأصبح أمينًا بالمتحف المصرى فيما بين عامى ١٩٢٨ و١٩٣٠. بعد ذلك عين أستاذًا للتاريخ المصرى القديم بالجامعة المصرية. ولما كان جبرة شغوفًا بالعمل الميدانى والحفائر، أصبح مسئولاً عن إثارة الاهتمام بالموقع بما فى ذلك مركز عبادة الإله تحوت والمقبرة القريبة فى تونة الجبل، وتم اكتشاف الموجودة تحت الأرض التى كانت تحتوى على المقابر

الضخمة.. مومياوات الطائر أبيس وقردة البابون المكرسة لعبادة الإله تحوت، وبالإضافة إلى مكان لعلف الحيوانات الحية مع منطقة إدارية ملحقة بها لعدد من الموظفين والكهنة والكتبة، كما اكتُشف أيضًا مركز للتحنيط للحيوانات المقدسة وجرة مملوءة ببرديات ديموطية[1] من بينها نسخة من كتاب فى القانون العام ذات أهمية عظيمة بالنسبة لتاريخ المعاملات القانونية القديمة والعادات الاجتماعية (جبرة ١٩٤١). كرس جبرة معظم سنواته الوظيفية للدراسات فى تونة الجبل ونشر أعماله بتشجيع دريوتون، وكان مسئولاً عن إنشاء متحف ملوى الكبير الذى حفظت به هذه الأشياء.

أما أحمد بدوى فقد كان نشيطًا فى ممفيس القديمة (ميت رهينة)، حيث وجد موقعًا بين بساتين النخيل كان مرتبطًا بحياة وعبادة العجل أبيس المقدس الخاص بمدينة ممفيس (*JEA 1948, Vol. 34*). أثناء البحث عن مكان مناسب لتخزين النفايات الناتجة عن الحفر، عثر فريقه مصادفة على خمسة ألواح من الحجر الجيرى، اتضح أنها كانت غطاء تابوت حجريًا، كان قاعه عبارة عن كتلة ضخمة من الجرانيت الأحمر. لقد كانت شاهدًا تذكاريًا لأمنحوتب الثانى مسجلاً عليه نص مهم: ٣٤ سطرًا بالهيروغليفية، تخص حملة الفرعون الآسيوية فى السنة السابعة من حكمه، ووُجد تحتها موقع آخر للدفن: مقبرة كاملة سليمة لأمير من الأسرة الطيبية الثانية والعشرين. وكانت غرفة الدفن منقوشة بنصوص من الأدب الجنائزى من كتاب الموتى.

---

(١) مكتوبة بالخط الديموطى القديم الذى كان يستخدمه قدماء المصريين فى حياتهم اليومية.
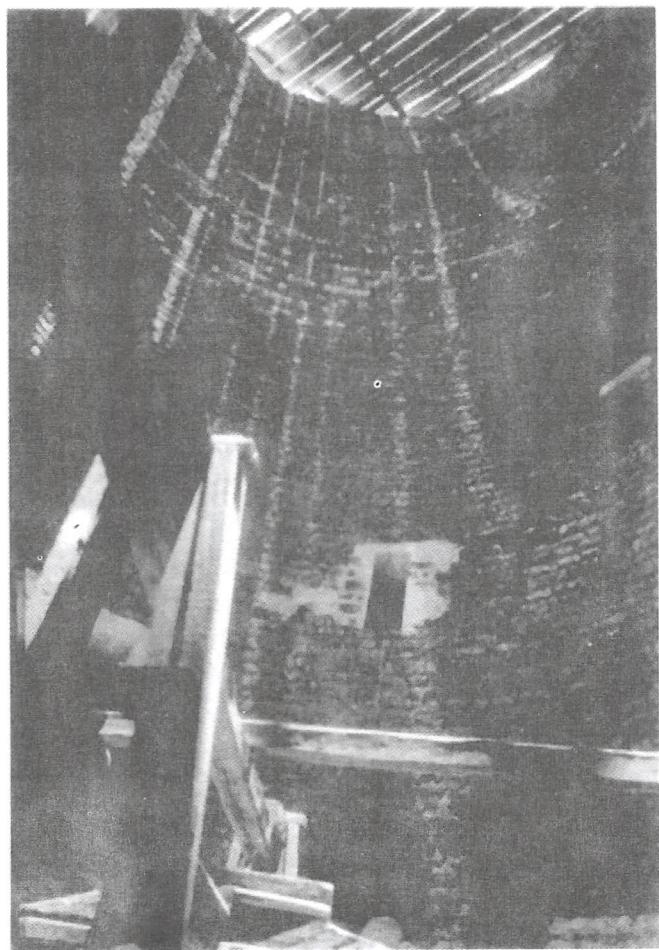
الشكل رقم ١١: بئر عميقة تستخدم لأغراض طقسية فى تونة الجبل
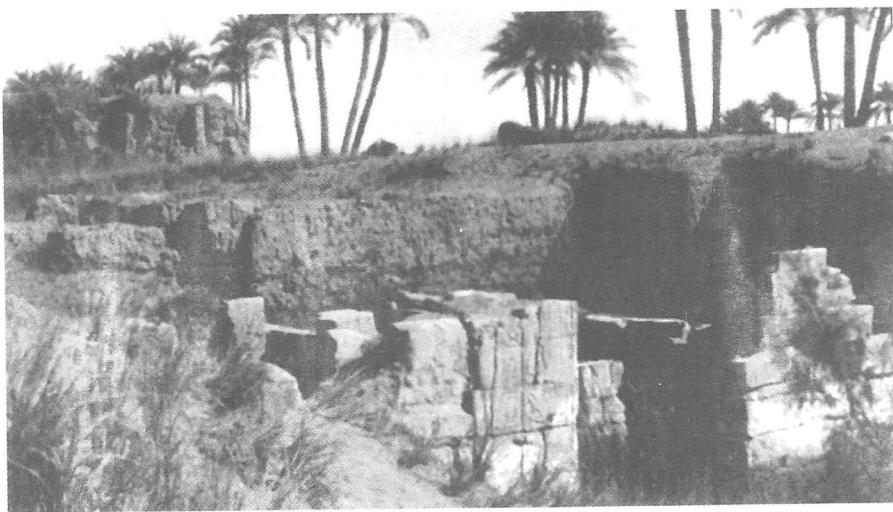
الشكل رقم ١٢: (خرائب معبد صغير للإله بتاح فى ميت رهينة تحت طبقات من الطمى تكونت فى العصور الوسطى) .

كان للأمير الصغير مدفن غنى حيث تم الكشف عن أربع جرار لحفظ الأحشاء مصنوعة من المرمر، ومئات من تماثيل الشوابتى ومجوهرات من بينها قطعة من حجر اللازورد الموشى بالذهب.كان ذلك أحد مدافن الفترة نفسها (*ASAE* *40,1941: 181-244*).

فى حلوان، على الضفة الأخرى للنيل، أحدث اكتشاف زكى سعد لمقبرة من الأسر الباكرة فى عزبة الوالدة ضجة كبيرة فى الدوائر الأثرية، حيث كشف عن أكثر من عشرة آلاف مقبرة لأفراد من الطبقات الإدارية الدنيا، وعدد كبير من الأثاث الجنائزى فى مقبرتين كبيرتين. كانت المقبرة متطابقة مع التخطيط والترتيبات العامة للمنشآت الضخمة فى سقارة. واستنتج من ذلك أنه وجد مقبرة لأفراد من الطبقة الوسطى من عصر الأسرة الأولى التى ربما قد تكون جبانة موتى ممفيس القديمة. عمل سعد فى حلوان أكثر من عشر سنوات واكتشف دليلاً قاطعًا، على نقش بارز شكل يدل على وجود إيزيس وأوزوريس فى سياق الأسرة الأولى. هذا الكشف يوحى بأن الصلة بين الإله الملكى حورس وأوزوريس رمز مملكة الموتى ربما يكون لها أساس تاريخى.

تم إحياء الاهتمام بمواقع ما قبل الأسرات بين القاهرة والمعادى التى اكتشفت قبل الحرب العالمية الأولى وأصبحت معروفة فى تقرير للمؤتمر الدولى للجغرافيا فى ١٩٢٥. اكتشف عالم المصريات الشهير ألفريد لوكاس هذه المنطقة سنة ١٩٢٨. وميز فيها ثلاثة مواقع استقرار محددة، وفى العام التالى قررت جامعة فؤاد الأول أن تبدأ مشروعًا تجريبيًا فى المعادى تحت إشراف مصطفى عامر وأو. منجين بتوصية من يونكار. وكان عامر الذى حصل على وظيفة مدير عام بمصلحة الآثار بعد الثورة قد حصل على دبلوم فى التربية من المعلمين العليا بالقاهرة سنة ١٩١٧ ودرس الجغرافيا فى جامعة ليفربول وعين أستاذًا للجغرافيا بجامعة فؤاد الأول. وعندما ترك منجين البعثة بعد ثلاثة مواسم، أشرف عامر على المشروع لمدة ثمان سنوات تالية، وخلالها تمت مراجعة الكثير من النتائج الباكرة

عن الموقع. كان يعتقد أولاً أن المعادى كانت مركزًا تجاريًا باكرًا بسبب وجود كميات من النحاس وكذلك منتجات جيدة من أحجار مختلفة، وأيضًا لأن الجرار ضيقة العنق التى وجدت فى الأقبية كانت تشبه تلك الموجودة فى فلسطين وليس لها مثيل فى وادى النيل. كان من بين محتوياتها أيضًا زيوت عطرية وأشياء أخرى مستوردة من الشرق. كشفت حفريات عامر فى المستوطنة المكونة من ٢٤ فدانًا أن المعادى لم تكن مجرد مركز تجارى، وإنما كانت مجتمعًا مستقرًا يعمل بالزراعة وتربية الحيوانات وصناعة الفخار والأوانى الحجرية. كانت المنازل والأكواخ مركزة فى وسط المستوطنة، بينما كانت أماكن التخزين حول الأطراف. قبل انتهاء المشروع كان قد تم اكتشاف ٤٦٨ مقبرة، وذلك عند نشوب الحرب العالمية الأولى فى ١٩٣٩ ولكن نتائج البحث الذى أجرى لحساب الجامعة نشرت فيما بعد فى أربعة مجلدات بواسطة المعهد الألمانى للآثار، أما "بيت الحفر" الذى استخدم كمستودع لحفظ ذلك العدد الكبير من الموجودات المكتشفة فقد تم تكبيره وتحويله إلى متحف.

إبراهيم رزقانة الذى كان مساعدًا لعامر، تولى المسئولية للعناية بالمتحف وأعد دليلاً، لم ينشر رسميًا، وأهمل الموقع لعدة سنوات.

إن العمل الذى قام به كل من حسن وجبرة وبدوى وسعد وعامر، فى الجيزة وممفيس وحلوان كان نتيجة إسهامات رئيسية فى البحث فى مجال المصريات.

الفصل الرابع

نقطة تحول

كانت سنوات الفوران السياسى فى الثلاثينيات من القرن العشرين (عندما ظهر إسماعيل صدقى باعتباره رجل السياسة المصرية القوى وأبطل الدستور وأعد مسودة دستور يعزز سلطة الملك وكون حزبه الخاص "حزب الشعب") - سنوات تحمل لعلم المصريات الكثير من التوهج الثقافى والنشاط الشديد فى مجال الآثار. استمرت جمعيتا ***IFAO*** و***EES*** البريطانيتان تعملان بنشاط مرتفع. المعهد الألمانى للآثار أنشأ فرعًا فى القاهرة، الملكة إليزابيث ملكة بلجيكا (التى فتنتها زيارتها لمصر بصحبة چان كابارت أمين المجموعات الأثرية المصرية بالمتحف الملكى فى بروكسل) أنشأت ما أصبح مركزًا مهمًا للأبحاث وهو : ***The Fondation 'Egypt ologique de 'la Reine 'Elizabeth***وكان من بين المطبوعات التى صدرت تحت رعايته مجلة ***Chronique d' Égypte*** من التى كانت مختلفة عن دوريات مثل ***ASAE*** التى أنشأها ماسپيرو، ودورية كمبردچ للتاريخ القديم ***JEA*** والنشرات التى تصدرها الجامعات الأمريكية، وذلك لأنها كانت تستهدف جمهورًا أوسع من القراء غير المتخصصين.

وسرعان ما أصبح علم المصريات شعبيًا، كما أن كتاب چيمس بريستد: ***Development and Thought in Ancient Egypt*** كان يقرأ على نطاق واسع، كما ترجم كتاب أدولف إرمان ***The Literature of the Ancient Egyptians*** إلى اللغة الإنجليزية وكذلك حقق كتاب أرثر ويجال انتشارًا واسعًا مثل الكتب الأخرى التى ألفها ألفريد لوكاس واليس موراى، كما كتب واليس بادج من المتحف البريطانى كتابًا ضمنه بعض الفصول عن علم الآثار المصرية كما صدرت الطبعة الثامنة

عشرة من كتاب كارل بيديكار ***Egypt and the Sudan*** إلى غير ذلك من الكتب التى أكدت تزايد الاهتمام بعلم الآثار المصرية بين الأجيال الناهضة.

فى أبريل سنة ١٩٣٦ مات الملك فؤاد وخلفه ابنه فاروق الذى كان فى السابعة عشر تقريبًا عندما تزوج فريدة الجميلة وربما الأصغر منه، ووصف حفل الزفاف بأنه كان نموذجًا للبذخ منقطع النظير منذ احتفالات الخديوى إسماعيل بافتتاح قناة السويس، وكلف سليم حسن بكتابة مقال يستعيد فيه ممارسات الزواج السعيدة على أيام الفراعنة، ووصف بمشاركته الشعبية الزيجات الملكية الباكرة التى كانت تهدف إلى حفظ حق الوراثة للذرية، ولذلك كتب عن زواج الملك الطفل توت عنخ آمون من الأميرة الأصغر منه عنخ سيمبا آتين كمثال، وذكر أن الفراعنة على الرغم من أنهم كانوا أحرارًا فى اختيار شريك الحياة، فقد كانوا يفضلون ابنة أحد أعضاء البلاط. كتب عن زواج بيبى الأول بابنة أحد كبار المسئولين، وزواج الملك أمنحوتب الثالث من الملكة تى ابنة يويا أحد موظفى القصر، ووصف كيف أن الحدث الأخير كان شديد الأهمية لدرجة أن الفرعون أمر بتسجيله على جعران، كما ذكر أن أمنحوتب كان أول فرعون يذكر اسم ملكته مع أسماء والديها ونقل النص الهيروغليفى لقرائه.

أما الاكتشاف الذى جرى فى تانيس سنة ١٩٣٩ على يد عالم المصريات الفرنسى بيير مونتيت للمقابر الملكية السليمة للملوك الليبيين من الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين (٩٥٠ – ٧٢٠ ق.م.) – فقد كان اكتشافًا عظيمًا، لقد جاء بأكبر عدد من الكنوز التى لاتقدر بثمن منذ اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون. كان هناك ست مقابر كلها فى غرف تحت الأرض وليس فوقها طبقات أخرى والملوك يرقدون فى توابيت مزخرفة تحيط بها تماثيل صغيرة وكنوز جنائزية. كانت مقبرة شيشنق الثانى (حوالى ٨٩٠ ق.م.) تحتوى على تابوت فضى نادر على شكل رأس صقر، والمومياء التى بداخله بحالتها الأصلية مسجاة بين الجواهر

المبهرة التى دفنت بها، ولدى سماع هذه الأنباء قرر الملك فاروق أن يشاهد الكنوز دون إبطاء.

كان لبيب حبشى فى تانيس أثناء الحفر، "عندما وصلت الأنباء بأن الملك كان قادمًا، لك أن تتصور مدى الهلع"، يقول حبشى:"أخليت الممرات، واختفت تلال الأنقاض وبالطبع اختفت معها بعض الأشياء، وعندما وصل موكب الملك لمشاهدة كنوز الملوك الليبيين اندفع بعض العمال الذين لم يجدوا وقتًا للخروج من الموقع للاختفاء خلف أعمدة ومسلات رمسيس الثانى"، كان من شأن هذا الاكتشاف العظيم أن يتصدر عناوين الصحف، لو لم تغطِ عليه أخبار وظلال الحرب العالمية الثانية. استخرج مونتيه الكنوز وأرسلها إلى المتحف المصرى لترميمها. لم يكن هناك مكان لعرضها، ولذلك أخليت غرفتان صغيرتان خلف مجموعة توت عنخ آمون. هذه الكنوز الرائعة المجهولة تقريبًا لم يقم أحد بتوفير مكان مناسب لعرضها. وفى ثمانينيات القرن العشرين فقط عند إعادة تنظيم المتحف المصرى توافرت مساحة مناسبة للعرض ولقيت كنوز تانيس الاهتمام الذى تستحقه.

أثناء الحرب أغلقت الكثير من البعثات الأثرية الأجنبية مراكزها الرئيسية. وبعد الحرب ترك بعض مواطنيها مصر للحفر فى مواقع أخرى. ذهبت مونتيه للحفر فى بيبلوس فى لبنان، كانت مصلحة الآثار مازالت تحت سيطرة الفرنسيين إلى حد كبير، ولكن المتحف المصرى أصبح مؤسسة مستقلة، وانفصل رسميًا عن *ASAE* وتم تعيين محمود حمزة الذى كان أمينًا له كأول مدير مصرى للمتحف. تولى سليم حسن العمل الضخم الخاص بعمل كتالوجات للكنوز التى جاءت من تانيس بالإضافة إلى الآثار غير المسجلة فى بدروم المتحف. وفى سنة ١٩٤١ التحقت ضياء أبوغازى أول امرأة تحصل على دبلوم فى المصريات من جامعة القاهرة للعمل بالمتحف.

مما يؤسف له أن نظام خفراء مصلحة الآثار الذى كان قد أقيم وتم تطويره فى المواقع الأثرية منذ أيام مارييت انهار خلال سنوات الحرب الحرجة. وتم نهب بعض المقابر والمعابد الجميلة وتهريب ألواح النقوش البارزة خارج البلاد،

وانتزعت الصور الفردية فى سراديب معبد حتحور فى دندرة، انتزعت من الحوائط، بذلك خربت الزخارف المتعلقة بها كما لقيت مقابر النبلاء فى مدافن طيبة المصير نفسه. شهرًا بعد شهر كان علماء المصريات المصريون من بينهم لبيب حبشى وأحمد فخرى يسجلون ما حدث من دمار. كان فخرى الذى قام بإخلاء وترميم العديد من المقابر من قبل يعرفها جيدًا وأدرك أن بعضها كان قد خضع لترميم حديث، الذى حدث وعرفهم أحمد فخرى. ويبدو أن بعض اللصوص قد عرفوا أساليب الإصلاح من علماء المصريات وبذلوا جهدًا لإخفاء عملية إزالة الصور الجميلة مثل تلك التى يظهر فيها الملك مينا بإعادة دهان المساحات التى دمرت، وعرف فخرى فيما بعد أن بعض خفراء المقابر الذين كانوا عاجزين عن وقف مثل تلك الهجمات الهمجية لتخريب الآثار ونهبها بالجملة، ويعرفون أن اللصوص كانوا وراء المناظر الجميلة والجيدة الحفظ - قرروا أن ينفذوا هذا التشويه المحدود لكى يردعوا اللصوص، ومنها مقبرة الملك مينا، وكاتب الحقول المشهورة بجمال مناظرها ومناظر وجه النبيل التى يظهر فيها هو وعائلته وهم يصيدون السمك والطيور فى أجمات البردى، وقد نزعت كلها من الجدران ودهن مكانها بالجص، "لقد حزنت أنا وفخرى عندما رأينا العمل الرهيب الذى قام به المخربون، والمحاولات البائسة التى قام بها الخفراء الشرفاء لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من اللوحات الباقية."

عين حبشى كبيرًا لمفتشى آثار مصر العليا فى سنة ١٩٤٦، وفى البداية كان مقره الأقصر، وكان مسئولاً عن التفتيش على النشاط الأثرى من قنا فى الشمال حتى أسوان فى الجنوب بما فى ذلك وادى الحمامات بين قفط والقصير على ساحل البحر الأحمر، عندما كان يتذكر هذا المنصب القصير كان يذكر إرساليتين من المعهد الفرنسى إلى: ميدامود (الطود) جنوب الأقصر، ودير المدينة عند مقابر الأقصر. "كان الأول هو موقع معبد بطلمى من المملكة الحديثة على الضفة الشرقية للنيل وكتل حجرية من المملكة الوسطى وقد نزعت من أساسها بمعرفة مصلحة

الآثار ووضعت محلها الخرسانة"، "فى تلك الأيام كانت المعلومات المعروفة عن المملكة الوسطى قليلة وذلك من الآثار الموجودة بمصر، حتى ترتيب ملوك الأسرة لم يكن معروفا جيدًا، كان ذلك هو الوضع عندما أصبحت مهتمًا بدراسة هذه الفترة". وكان المعهد يقوم فى دير المدينة بحفر مستوطنة كبيرة للعمال المهرة الذين يعملون فى بناء المقابر الملكية وزخرفتها فى وادى الملوك.

شكل رقم ١٣ (أ): لبيب حبشي (إلى اليمين) فى طود سنة ١٩٤٧
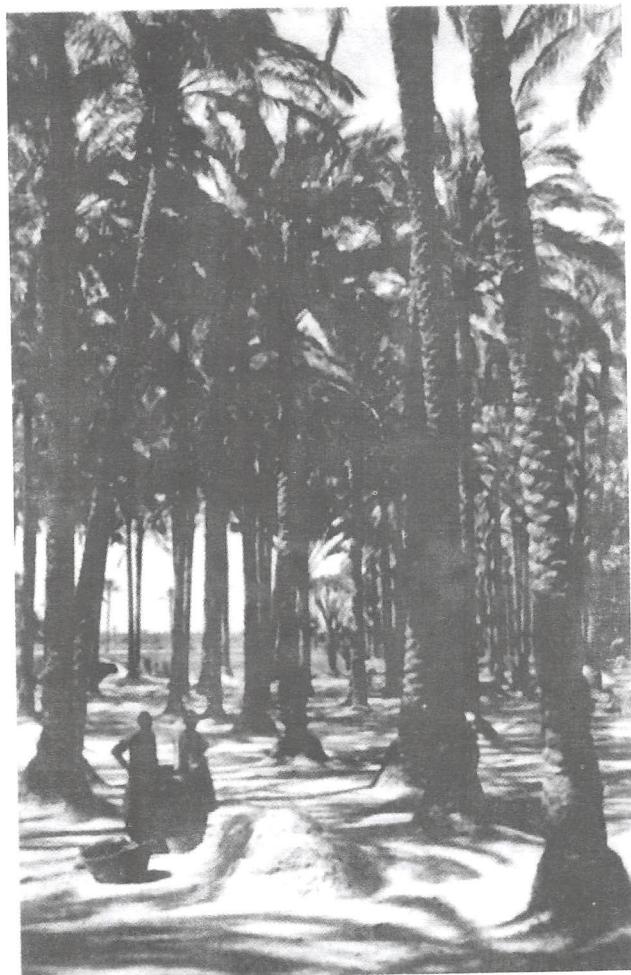
الشكل رقم ١٣ (ب): بساتين النخيل فى عنيبة قبل غرقها بعد الانتهاء من بناء السد العالى.

كان الضوء مسلطًا على حياتهم الشخصية، وعلى الدليل على تنظيم واجباتهم ومسئولياتهم، وكذلك اعتزازهم بعملهم وقد انعكس ذلك كله فى النصوص الباقية. كانوا يبذلون جهدهم فى الوادى الملكى لمدة عشرة أيام، وينامون فى ملاجئ مؤقتة فى الممر الجبلى فوق قريتهم إلى أن تنتهى نوبة عملهم. كان هناك تشديد على الحضور والغياب، وكان من يتغيب منهم لابد أن يشرح سبب ذلك، كانت هناك أعذار، فقد كتب أحد العمال أنه كان عليه زيارة حماته، وكان آخر مضطرًا لإحضار إمدادات طارئة من السوق، وكان المرض يمثل معظم الأعذار، "ما لفت اهتمامى بشكل خاص هو أن سلسلة نسبهم كان يمكن تتبعها على مدى أجيال".

وأحس حبشى بالسعادة عندما نقل بعد أسبوعين إلى أسوان، ويحمل ذكريات طيبة عن أول منصب مهم تقلده هناك، فى سنة ١٩٣٠. كان هناك شىء كان متشوقًا لأن يمعن النظر فيه، عندما ترك مصر العليا مع آخر رسالة من كنوز توت عنخ آمون سنة ١٩٣٢ سمع أن خلفه إدوارد غزولى كان قد اكتشف أثرًا كبيرًا على جزيرة فيلة. عبر الماء من أسوان الحديثة، ويبدو أن فلاحى النوبة الذين كانوا يحفرون من أجل السباخ عند الطرف الجنوبى للجزيرة وجدوا بعض الآثار، فأوقف غزولى أنشطتهم، وقام بالحفر فى الموقع لمدة تزيد على ثلاثة أسابيع ليكتشف أربعة أضرحة كبيرة ونحو خمسين قطعة وضعت فى متحف فيلة (كان فى الأصل المبنى الخاص بالمهندسين الذين بنوا خزان أسوان الأول). قام إميلى بارايز كبير مهندسى مصلحة الآثار بتقوية الأضرحة وأقام حائطًا وقائيًا ليمنع الأنقاض من التساقط فى المنطقة التى كان قد تم حفرها.

وأعد غزولى تقريرًا موجزًا لمصلحة الآثار. أما حبشى الذى كان متشوقًا لمدة طويلة لمشاهدة الموقع والأشياء التى فى المخازن، كانت لديه فرصة الآن لذلك بعد مرور حوالى أربعة عشر عامًا ولاستكمال العمل الذى بدأه غزولى، ولم يكن فى ذلك الوقت مدركًا أن الأضرحة التى اكتشفها غزولى لم تكن سوى جزء صغير مما قد يكون كشفًا كبيرًا.

إن هيكل هيكايب كما أصبح معروفًا بهذا الاسم، وشخصية النبيل الذى بنى لأجله بعد مائتى عام من وفاته هو الذى سيشغل حبشى حتى آخر العمر. ذلك الذى كان يعتبره أعظم اكتشافاته سيكون أيضًا هو الاكتشاف الذى سيعانى بسببه خيبة أمل كبيرة، عندما يتأخر نشره باستمرار! ويتحدى استنتاجاته أحد الدارسين الغربيين!

عندما عاد فى ١٩٤٦، قبل أن يبحر إلى فيلة، قام حبشى بجولات تفتيشية فى أسوان وما حولها بما فى ذلك محاجر الجرانيت على الضفة الشرقية للنيل ومقابر قبة الهواء فى الغرب، ثم أبحر عبر النوبة ليعاود زيارة المواقع المعروفة ويفحص حالتها: كلابشة أكبر معبد قائم بمفرده فى الموقع الذى يضيق عنده مجرى النيل، ولذلك أطلق عليه اسم "باب الكلابشة" وكوروسكو وهى ميناء مهم، حيث كانت ألوف القوارب تقوم بنقل المنتجات فى "العيد الكبير" وهو أكبر الأعياد الإسلامية، وبساتين النخيل فى الدر وعنيبة حيث "كان النوبيون يعملون بنشاط لرى حقولهم بواسطة الساقية البدائية" وهى عجلة مائية تستعمل للرى ومثبت بها سلسلة من القدور التى ترفع الماء من النهر. ويتذكر حبشى: "وفى أبو سمبل حيث كان الملك وزوجته الجميلة هناك دائمًا لتحيتى ومصاحبتى، كنت أقوم بدراسة النقوش البارزة ليلاً على ضوء مصباح يجعل الظلال تبدو واضحة مثل: رمسيس فى عجلته الحربية، ورمسيس وهو يقهر الأعداء، ورمسيس مع أسده الأليف؛ وكنت عندما أشعر بالتعب أجلس على حافة الصخرة فى الليل الذى تضيئه النجوم اللامعة، وأنا أشعر بالبرد الشديد فى "انتظار الفجر وشروق الشمس".
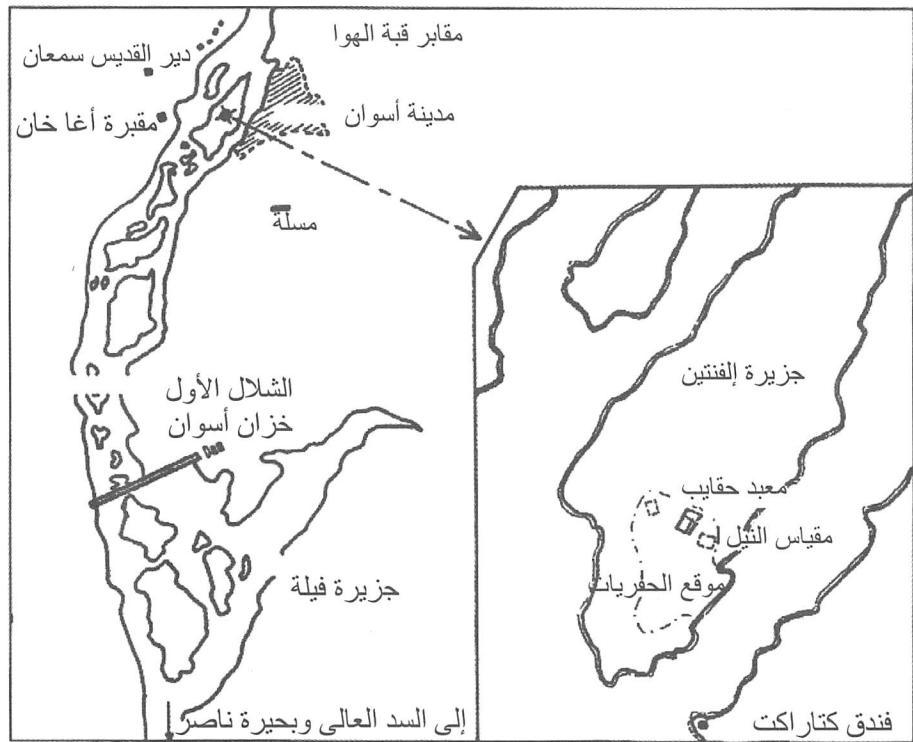
الشكل رقم ١٤: خريطة نهر النيل عند أسوان

كان حبشى يقطع الصحارى بحثًا عن النقوش ورسومات الصخور فى الوديان غير المطروقة وكذلك الزراف والفيل والعقيق اليمانى (كانت الصحراء مليئة بالأحجار البيضاء والجماجم البشرية، وفى بعض الأحيان كان من الصعب معرفة الفرق).

وكما زار بيوت النوبيين "ذات الواجهات المختلفة عن بعضها بعضًا والجدران المنقوشة من الداخل والخارج بواسطة النساء كن يرسمن بأصابعهن الأشجار والكتاكيت والعقارب والأعلام والرموز المقدسة بألوان زاهية".

وبعد انتهاء أعمال التفتيش فى النوبة، وجه حبشى اهتمامه إلى جزيرة فيلة، واستغرق الأمر أيامًا عديدة لكى يخلى جزءًا من المنطقة المحيطة باكتشاف غزولى، والتى كانت تبدو أولاً مثل أى موقع آخر محفور ومهجور.

شكل رقم ١٥: لبيب يتمشى نحو استراحة هيئة الآثار على جزيرة إلفنتين

كانت الرمال والأنقاض تغطى معظم المنطقة، الآثار الحجرية تبدو فى حالة مزرية. كثير من القوائم الخشبية المستخدمة لتدعيم المبانى كانت هى الأخرى فى حالة مؤسفة؛ وبمجرد إزاله الأنقاض أدهشه حجم الآثار التى كانت مغطاة بنصوص منقوشة وفى حالة جيدة. كان أحدها يواجه الجنوب واثنان فى مواجهة الغرب، ويشكل الثلاثة ركنًا". كان وضعها يوحى بأنه لابد من أن يكون هناك معالم أخرى مواجهة، وأن الأثر كان مربع الشكل أو مثلثًا. كانت أسماء فراعنة المملكة الوسطى سيرنيوت الأول والثانى.

وعندما فحص الأشياء التى كان غزولى قد وضعها فى المخزن أدهشه أن تكون كلها، وليس فقط تماثيل أصحابها (معظمها يقترب من الحجم الطبيعى) وإنما كل الأشياء الأخرى كذلك كانت تنتمى إلى المملكة الوسطى. لم تكن تحمل فقط ألقابًا أو نقوشًا تبين تاريخها "ولكن التماثيل لم يكن من السهل أن تكون عرضة للخطأ لأنها كانت تحمل السمات الفنية المميزة للفترة التاريخية نفسها. كانت فخمة ومهيبة كما هو الحال فى المملكة القديمة، ولكن أكثر واقعية كانت صورًا حقيقية لأناس حفرها فنانون يعرفونهم.

كانت الجفون ثقيلة مع خطوط فوق الجباه تدل على الإجهاد، وعلى سيماهم دفء إنسانى". قرأ حبشى النقوش ولاحظ أن الكثير من الأشياء يأتى على ذكر "هيكاب" وتحمل عبارات من قبيل: "أقيمت على شرف" أو "محبوبة" هيكاب.

فى مواقع المدن القديمة مثل فيلة التى كانت مشغولة لآلاف السنين، ليس من غير المعتاد أن تجد كتلاً متنوعة من الأحجار أو التماثيل المكسورة التى تعود إلى فترات مختلفة ومختلطة بعضها ببعض ومغطاة بالأنقاض. إن تجمع مثل هذا العدد الكبير من التماثيل والأشياء الأخرى من فترة واحدة على جزيرة فيلة، هو شىء غير عادى، كما أنه من غير العادى كذلك أن يكون الكثير منها ينسب لرجل اسمه "هيكايب". "قليلون هم الأفراد الذين كانوا يؤلهون ويعبدون كآلهة ولم يكونوا ملوكًا، إلا إذا كان لهم بعض الصلات الخاصة" كما يقول حبشى "لقد اقتنعت باكرًا بأهمية

هذا الاكتشاف ولكن ربما تكشف الحفائر المتواصلة عن معنى ذلك كله، وهنا كنت أمام مشكلة، إذ دون هدف واضح، كيف أستطيع أن أقدم حجة مقنعة إلى مصلحة الآثار كخطوة نحو الحصول على تمويل للحفر ؟"

كان إتيين دريوتون الذى تولى منصب المدير العام لمصلحة الآثار لمدة ستة عشر عامًا معروفًا بتشجيعه للمفتشين ومساعدتهم فى تقاريرهم الميدانية، وكان قد عين حبشى للتفتيش فى تل بسطة وساعده فى توثيقه للموقع، ولكن فكرة الاتصال بدريوتون مباشرة من أجل التمويل ملأت حبشى بالقلق؛ وعلى الرغم من علاقته بالعديد من علماء المصريات الأجانب فى البلاد، كان يعرف أنهم مجموعة من المهنيين - أثريون ومؤرخون وعلماء لغة ومعماريون وفنانون - وهم لديهم أفكار راسخة عن المشروعات التى يعتقدون أنها تستحق التمويل. لجنة الترميم (لجنة الدندى أو الديك الرومى كما أطلق عليها المفتشون المحليون لأن ديكًا روميًا مشويًا كان يعد دائمًا ليكون وليمتهم الأخيرة) ستبدأ حالاً جولتها التفتيشية السنوية فى مصر العليا فى أسوان، ووجدها حبشى فرصته لعرض مسألته. كان المتبع أن تتناول وجبة فى الاستراحة الحكومية فى جزيرة فيلة بعد نهاية جولتها، لكى تراجع العمل الذى يتم لتحديد الآثار التى تتطلب الحفر والترميم، وتقرر الأولويات بالنسبة للموسم القادم، وكان من الطبيعى أن يصحب حبشى العلماء بصفته كبير مفتشى مصر العليا وذلك أثناء جولتهم التفتيشية وأن يستضيفهم فى فيلة. مع مرور الأيام كان عليه أن يفكر فى أفضل طريقة لعرض قضيته، أما ما حدث بعد ذلك فقد كان واحدًا من أكثر القصص إثارة فى تاريخ لبيب حبشى الوظيفى.

كان حبشى يعرف أنه إذا كان لابد من أن يفتح موضوعًا حساسًا مثل موضوع النقود، فإن الجو المناسب الذى يشيع مزيدًا من الظرف سوف يزيد إمكانية الحصول على رد إيجابى، ولحسن الحظ فإن نشأته الريفية أعطته أسلوبًا جيدًا للسيناريو الذى اختاره. يرحب باللجنة، يطعمهم، يحتفى بهم ثم بعد ذلك يتحدث فى العمل. فى الريف كان شاهدًا على فشل كثير من الصفقات بسبب إهمال

المجاملات الاجتماعية، وكان يدرك أن التوقيت مهم جدًا. كان يعرف أن من العبث أن يحاول مقاطعة إحدى جلسات اللجنة الصباحية، لأنه ينبغى الالتزام بجدول الأعمال. يتبقى إذن فترة بعد الظهر فى الاستراحة فى فيلة، أو فترة المساء فى فندق كاتاراكت فى أسوان.

مترددًا فى أن يقحم عنصرًا جديدًا فى المراجعة المهنية، مع الحرص على عدم المخاطرة بترك الموضوع إلى اليوم الأخير إذ قد ينفد المبلغ المخصص للتمويل، استقر رأيه على أن الوقت المناسب هو اليوم قبل الأخير وقرر حبشى ألا يترك شيئًا للصدفة، فأخبر الطباخ النوبى بأهمية المناسبة وقررا معًا إعداد وجبة خاصة بهذه المناسبة: ديكين وليس ديكًا واحدًا.
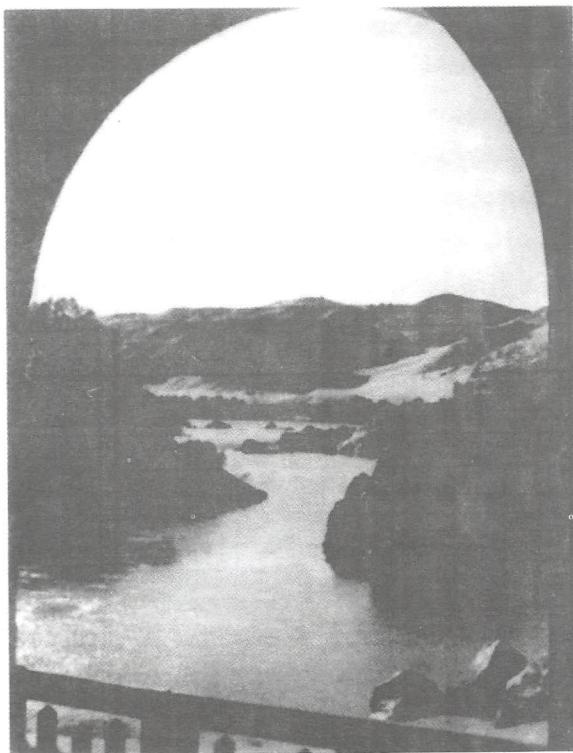
شكل رقم ١٦: أحد أقواس استراحة فيلة يطل جنوبًا

كما أصدر تعليماته "للسفرجى" بأن يرتب المائدة بعناية، وأن يتأكد أن الكئوس تكون دائمًا مملوءة بإنتاج كروم جانا كليس. "وخططت أن أقدم لهم طعامًا ونبيذًا يليق بالآلهة" كما يقول.
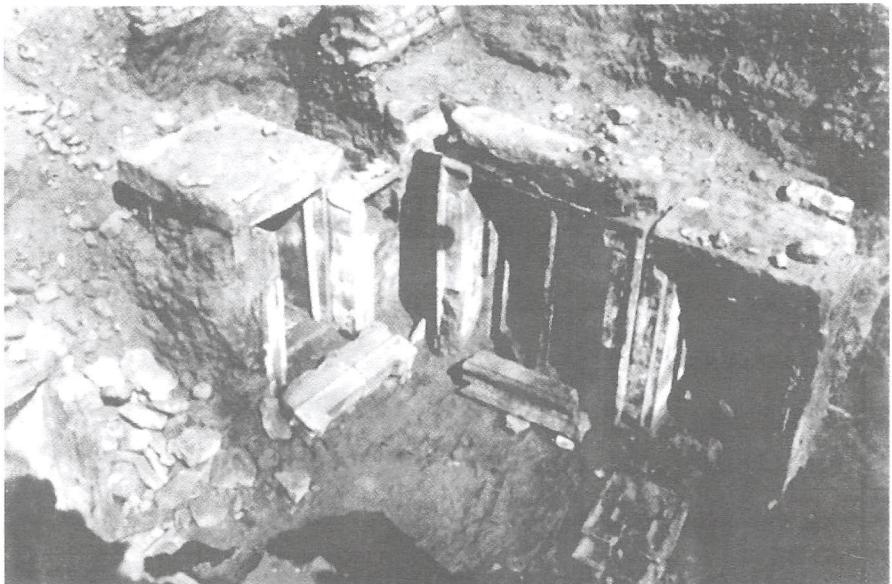
شكل رقم ١٧: ركن الموقع الذى حفره إدوارد غزولى فى ١٩٣٢.

وفى اليوم المحدد استقبل حبشى اللجنة على الرصيف، واصطحب الأعضاء إلى الاستراحة على الطرف الجنوبى لجزيرة فيلة، وأرشدهم إلى المائدة فى الشرفة، حيث اتخذ إتيين دريوتون موقعه على رأس المائدة وزملاؤه على الجانبين ولبيب حبشى عند الجزء الأدنى منها. نحيل البنية مع جبهة مستديرة عالية وشارب صغير ولمعة المرح تشع من عينيه خلف نظارة مستديرة، كانت رباطة جأشه تكذب قلقه. يتذكر أن المائدة "كانت تشرف بوجود سيدتين جذابتين هما: مدموازيل لامونت فنانة العهد الفرنسى الموهوبة، وكريستيان نوبلكور وهى متخصصة فى الفن المصرى". كان دريوتون فى حالة معنوية طيبة اتكأ فى كرسيه إلى الخلف وابتسم ابتسامة عريضة لزملائه وأصدقائه. كانت أباريق الماء المثلج قد وضعت على المائدة ومعها المقبلات كما تم تقديم النبيذ. كانت جلسة الصباح قد انتهت بشكل إيجابى. وقدم هنرى شيفرييه ملخصًا عن ترميماته فى معبد الكرنك الذى كان يعمل به منذ عشرين عامًا والمتوقع أن يستمر لمدة عقد آخر. وكذلك فإن چان فيليب لاور المهندس المعمارى الفرنسى الذى كان يحفر ويرمم منشآت الهرم المدرج فى سقارة منذ ١٩٢٧ سيستمر فى العمل هناك (دريوتون وآخرون - ١٩٥١)، أما زكى سعد فسوف يستمر فى العمل فى مقابر الأسرات الباكرة فى حلوان (سعد ١٩٤١ - ٤٥- ١٩٤٧، ١٩٥١) ويواصل عمليات الترميم لبعض المصاطب فى سقارة، واختتم عثمان رستم مدير مصلحة الهندسة المعمارية بخطط لتجميل الأقصر وكيف أن مساكن وضع اليد حول معبد الأقصر سوف يتم إزالتها وتوفير منازل جديدة لأصحابها.

ثم تشعب الحديث الودى كما يتذكر حبشى: "أتذكر أننا تحدثنا عن فيلة. عندما كان الدارسون يتجمعون فى تلك الأيام كانوا يتحدثون دائمًا عن فيلة، كان بعضهم يؤيد الرأى القائل بأن الحجر الجيرى يتصلب فى الماء، وأن ماء النيل الذى يفيض ويغطى معظم الموقع بعد تعلية خزان أسوان للمرة الثانية بين عامى ١٩٢٨، ١٩٣١ ربما كان له تأثير فى حفظ الحجر، وكان آخرون يؤكدون أن

التيارات قد تكون مدمرة بالنسبة للنحت البارز، وكان هناك أيضًا هؤلاء الذين يقولون إن طبقات الطمى التى ترسبت حول المعابد كانت مدمرة مثل الرمال تحملها الرياح". لم يكن أى من المجتمعين يتوقع أنه عندما يبنى السد العالى فى ستينيات القرن العشرين، ويتم تفكيك فيلة تمامًا ويعاد تركيبه على جزيرة أجالكيا المجاورة باستخدام نفس المعدات التى استخدمت فى السد العالى، أن الزمن سوف يثبت أن الحجر الرملى يتصلب فى الماء وأن الطمى فى الحقيقة كان يحمى النحت.

أعطى حبشى إشارة إلى الجرسون فأعيد ملء كؤوس النبيذ، ثم وضعت الصينية وعليها الديكان المشويان بلونهما البنى الدهنى بجوار كمية كبيرة من الأرز". كانت هناك زفرة رضا من دريوتون الذى رفع ذراعيه فى إشارة كبيرة على الاستحسان"، كما يقول حبشى "ثم انتقل الحديث بشكل طبيعى إلى الخصب العجيب الذى تتمتع به التربة المصرية. كان على الأجانب أن يعترفوا بأننا ننتج طماطم أشد حمرة وخيارًا أكثر خضرة وقثاء أكثر نضارة من أى مكان آخر فى العالم، وحتى إذا كانت ديوكنا الرومية ليست هى الأكبر فمن المؤكد أنها هى الأحلى طعمًا". مع حسن التوقيت وبينما كان الانتباه مركزًا على الغداء دخل حبشى فى الموضوع الذى يهمه على نحو غير مباشر، ومثل غالبية المصريين كان يستمتع بالحكى ويجيده. كان يرش عليه "الملح والفلفل" لأنه كما كان يقول دائمًا "حتى القصة تحتاج قليلاً من البهارات". كانت نغمة صوته الودية تعكس طيب معشره: "ألا ترون أنه شىء غريب أن معظم الحفائر التى حول أسوان قد نفذت بأيدى غير المحترفين؟ فكر فى اللورد جرينفيل الأرستقراطى الإنجليزى الذى كشف عن معظم المقابر فى قبة الهواء؟ كان فى طريقه لشن حرب فى السودان عندما قرر التوقف عن الأعمال الخاصة بالدولة ليذهب للحفر، وكذلك زوجة لورد سيسيل لا شك أنها كانت وهى تبحث عن مهرب من ملل واجبات زوجها المهنية ذهبت لتكشف عن المقبرة الوحيدة التى تنتمى إلى المملكة الحديثة فى أسوان. تخيل سيدة إنجليزية مبجلة تمسك بقبعتها المصنوعة من القش فى يدها وتصارع المنحنى

المنحدر، ممسكة فى يد بقبعتها المصنوعة من القش وترفع جونلتها الطويلة بالأخرى، ويدفعها بالطبع من الخلف حارس يساعدها. والحقيقة هى أن فيلة دون سائر المواقع الأثرية فى مصر، قد أهملت طويلاً. لم تلقَ اهتمامًا جديًا إلا عند بداية القرن عندما بدأت الفرق الألمانية والفرنسية البحث عن قطع الفخار (الأوستراكا) وأوراق البردى".

نظر حبشى حول المائدة ولاحظ وهو راض أن كل واحد قد تلقى خدمةً، وكما لاحظ أن الجميع كانوا راضين تمامًا حيث إنهم تركوه يحتكر الحديث بينما هم يتناولون غداءهم، واستمر فى حديثه: "من الغريب أن هاتين البعثتين حفرتا فى موقع كان مشغولاً، دون انقطاع، على مدى آلاف السنين، وبعد موسمين انصرفتا عنه. ثم جاء الفلاحون يجمعون السماد لحقولهم، أما المدينة القديمة التى كانت تقف ذات يوم على ارتفاع ٣٠ مترًا فقد تقلصت إلى نصف حجمها. حتى ذلك الاكتشاف.. ذلك الاكتشاف غير المتوقع الذى قام به إدوارد غزولى قبل أربعة عشر عامًا لم يثر أى اهتمام. تصوروا، لقد وجد ٥٠ أثرًا فى الأسابيع الثلاثة، ٥٠ قطعة مهمة بما فيها تماثيل بالحجم الطبيعى ولا تبعد أكثر من ٥٠ مترًا من حيث نجلس الآن... ثم فى الأسبوع الرابع نسى كل شىء، الأضرحة الحجرية المنقوشة بالنصوص والمزينة بالنحت البارز والمذابح والعوارض وموائد القرابين وتماثيل الأشخاص جالسين وراكعين وواقفين، كلها تم تخزينها وطواها النسيان، كل منها كنز من كنوز المملكة الوسطى... الكثير من تماثيل المملكة الوسطى.

استطاع فى النهاية أن يجذب انتباه اللجنة، ومتظاهرًا بالدهشة سأل فى براءة: "ولكن لابد من أنكم تعرفون طبعًا ما أتحدث عنه؟" كان يعرف أن عددًا قليلاً من أعضاء اللجنة قد رأوا التماثيل وأن السجل القصير لحفريات غزولى كان موجودًا فى مكان ما بمصلحة الآثار وأن التكاليف غير المعقولة قد امتصتها منذ زمن طويل المصاريف النثرية. وأن شائعة اكتشاف بعض التماثيل فى فيلة قد ماتت بسبب عدم الاكتراث، وبعد كل شىء فإنها لم تكن تماثيل ملكية! واستمر

حبشى: "حسنًا! تعرفون أن كل شىء بدأ مع پيير لاكاو..." وهكذا، بينما كان أعضاء لجنة الترميم مستمرين فى تناول وجبة الغداء فى شمس الشتاء الدافئة، روى لهم لبيب حبشى قصة عن مواطنهم مدير مصلحة الآثار ما بين عامى ١٩١٤، ١٩٣٥.

"كما تعرفون جميعًا فإن لاكاو كان مديرًا ممتازًا، وماهرًا، ومقبولاً، تستحوذ الهيروغليفية عليه تمامًا، وكان يتنقل بين القاهرة وأسوان جيئة وذهابًا فى قاربه البخارى، ليسجل النصوص الموجودة على الآثار بطول مجرى النيل، واكتسب سمعة طيبة بأنه مدير جيد يحتفظ بسجلات دقيقة، ولكن الحقيقة أنه كان يكره الواجبات الإدارية. كان المفتشون يقولون إن إجراءاته المبسطة كانت من أجل الإسراع بأعمال الروتين المضجر وتريحه نسبيًا لكى يتابع اهتماماته الشخصية. كان يخرج دائمًا مع مساعده، الذى نسيت اسمه، وكان شابا قديرًا لديه معرفة جيدة باللغة الهيروغليفية، ولابد أن أضيف أيضًا: ومعرفته بكتابات رئيسه. وذلك بسبب ما أشيع من أن لغة لاكاو الهيروغليفية وربما فرنسيته كذلك كانت سطحية، هذا إذا كانت مفهومة، بحيث لم يكن يستطيع أن يقرأها سوى مساعده ويعيد كتابتها بوضوح، وعلى أى حال فإن لاكاو كان عليه أن يوقف قاربه البخارى حسب حالته النفسية، كان يتجه نحو الأثر وينقل النصوص حتى يحل الظلام ولايرى شيئًا. كان شديد التدقيق وقادرًا على أن يقوم بتصحيح وكتابة وإعادة كتابة النقوش أكثر من مرة، ويقال إن الرياح كانت تبعثر ما يكتب ويضيع أحيانًا ما قام به فى أسابيع أو شهور، ولكن عزيمته لم تهبط أبدًا، بل كان يعود فى العام التالى وينسخها من جديد". ولابد أن دريوتون شبيهه، كان سعيدًا بما يقوله المفتش المعين حديثًا عن الشخص الذى شغل الوظيفة قبله.

"كان كل شخص على طول مجرى النيل يعرف صوت قاربه البخارى"، ويواصل حبشى: "عندما كان لاكاو يتوقف كان يحيط به المفتشون المحليون والخفراء، ولدى كل منهم مشكلة تتطلب الحل، ولأنه كان رجلاً عطوفًا ومتعاونًا

و"خفيف الدم"، ولأنه كان يريد أن يعود إلى الآثار والنقوش، حقق لنفسه سمعة لم تكن عادية بين مديرى مصلحة الآثار، وهى أنه كان قادرًا على حل المشكلات المهنية والشخصية بأقصى سرعة. وهذا ما حدث عندما وصل قاربه إلى أسوان سنة ١٩٣٢ ليجد نفسه محاطًا بمجموعة من النساء النوبيات يصرخن ويتدافعن للاقتراب منه، يتوسلن ويشتكين ويعبرن بالإشارة وكان ضابط البوليس يترجم السيل الجارف من كلماتهن. يبدو أن أزواجهن كانوا قد تركوهن للبحث عن عمل فى القاهرة وكانت المحاصيل قليلة. منذ تعلية الخزان قل ورود الماء المشبع بالطينة والطمى الذى يجعل الأرض خصبة. وكن فى حاجة إلى سباخ للحقول قبل دخول الشتاء ولم يكن لديهن رخصة بذلك، ويواصل لبيب: "وكما هو متوقع استخرج لاكاو بنفسه الرخصة لهن للحفر بحثًا عن المخصبات فى فيلة، وحدد لهن موقعًا غرب معبد ساتيس شمال بوابة الإسكندر فى معبد خنوم، وعين خفيرًا للإشراف على أنشطتهم ويتأكد من أن أية آثار يتم العثور عليها تسلم إلى مصلحة الآثار. بعد ذلك بأسبوع واحد، فى ٧ أكتوبر ١٩٣٢ بالضبط ظهرت أشياء أرسل الحارس رسالة إلى إدوارد غزولى وأثناء فترة الحفر الخاصة به وكانت ثلاثة أسابيع، وجد حوالى ٥٠ أثرًا كلها عليها حفر بالهيروغليفية. لم يرها لاكاو، كان قد انطلق بقاربه، ولو أنه كان قد بقى فترة أطول فوق الجزيرة ليرى تلك الآثار الثمينة، فلربما كان قد ترك رحلاته النيلية وبقى فى المكان. تم تنظيف الأشياء ووضع بطاقات عليها ثم تخزينها، أما أجزاء الأضرحة التى كانت على وشك الانهيار فقد ثبتت فى أماكنها بالأسمنت، والتماثيل الكبيرة التى كان يصعب تحريكها بقيت فى مواقعها". أشار حبشى إلى الجرسون ليرفع الأطباق. لم يلحظ أحد أن طبقه لم يمس وواصل كلامه: "مثل هذا الكشف كان لابد من أن يكون شديد الإثارة لأنها كانت كلها من آثار المملكة الوسطى، ولكن ذلك لم يحدث لأن الحفر لم يستأنف. بعد فترة صمت جاء رد الفعل المتوقع: "لابد أنها كانت مخبأ مثل ذلك الموجود فى الكرنك حيث كانت تدفن الأشياء المكسورة أو غير ذات الأهمية". "نعم ! كانت مجرد مقلب للنفايات"، "معظم الآثار المهمة من المملكة الوسطى توجد فى

الأراضى الأجنبية وليس فى مصر". "كيف تعرف أنها كلها آثار من المملكة الوسطى؟". "أود أن أرى التماثيل"، ومع هذه الملاحظة الأخيرة من دريوتون عرف حبشى أنه كان يتقدم، حتى وإن كان بعيدًا عن النقطة التى يستطيع عندها أن يقترب من الموضوع الدقيق للتمويل. تم تقديم القهوة التركية والفطائر المصرية، وازدحمت معدة أعضاء اللجنة بالطعام الجيد والنبيذ، وربما أصبحوا يريدون العودة إلى القيلولة المعتادة. ولكى يتلافى أى ابتعاد عن الموضوع، أسرع حبشى قائلاً "الموقع قريب من هنا، خلف الاستراحة مباشرة، بالقرب من المتحف". وأضاف: "نستطيع الذهاب إلى هناك ونحن فى طريقنا إلى القارب، وقال موجهًا كلامه إلى دريوتون: "مفتاح المخزن معى".
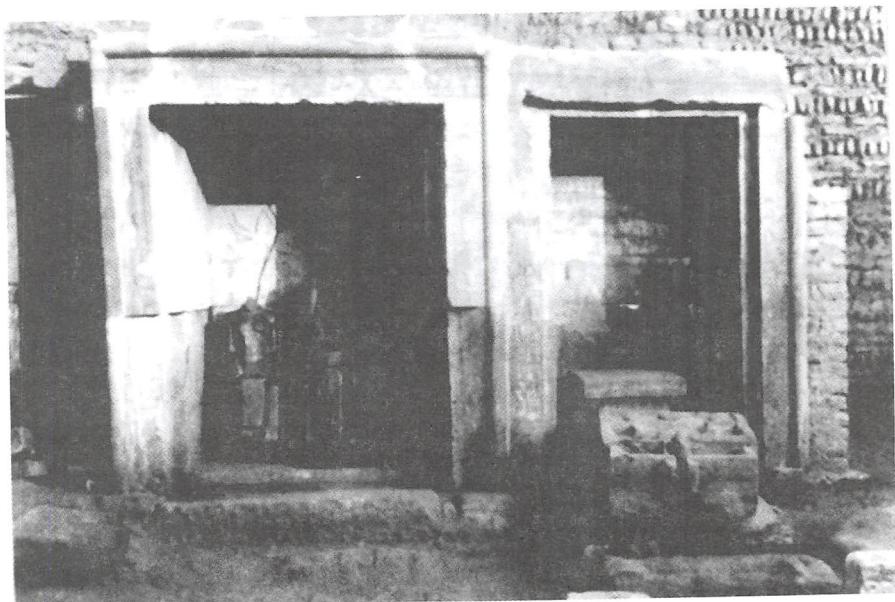
الشكل رقم ١٨:

ركن الموقع الذى حفره إدوارد غزولى فى ١٩٣٢

الشكل رقم ١٩: التمثال الجالس لسيرنپوت الأول وكان أحد القطع ذات الحجم الطبيعى التى أخرجت من الحفائر سنة ١٩٣٢ ووضعت فى متحف فيلة.

الأضرحة التى أقامها سيرنبوت الثانى من أجل هيكايب المؤله (إلى اليمين) ولنفسه (إلى اليسار) بعد أن قام بترميمها إدوارد غزولى، ويشتمل الأخير على تمثال سيرنبوت المصنوع من الجرانيت بالحجم الطبيعى وتمثال أصغر منه لرجل يسمى أنخو؛ وأمام ضريح هيكايب تم إعادة مائدة القرابين إلى موضعها الأصلى أمام المذبح المصنوع من الحجر الرملى.

كانت الخطوات المتثاقلة لبعض أعضاء اللجنة تؤكد أنهم لم يكونوا كلهم متحمسين لرؤية الموقع المهجور، وأمام تلك الظروف لم يكن هناك ما يستطيعون عمله سوى أن يسيروا وراء دريوتون؛ وعندما اقتربوا من الربوة التى تطل على المنخفض كان لبيب يشعر بأنه يسير فوق أرضه بثقة. كان قد أخلى بعض الأنقاض وأعد الموقع للمناسبة، ثم أشار إلى مظهره المثلث الذى يصنعه الضريحان الموجهان للجنوب، والضريحان المواجهان للغرب مع الحائط الواقى الذى بناه إميلى بارايز ممتدًا من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى. و"تعالوا" قال وهو يقود أعضاء اللجنة فى ممر من خلال فتحة فى الحائط إلى واجهة الأضرحة.

يمكنكم رؤية كيف أن الأحجار قد دعمت بالقوائم الخشبية، هناك نحن أمام الأضرحة الكبيرة لسيرنبوت الثانى وخيما التى تواجه الجنوب، انظروا كيف أن لكل ضريح عضادتان للباب تنفتحان إلى الخارج وفوقهما عارضة أفقية من الحجر. فى الداخل كلاهما مبلط والجدران مغطاة بالنقوش، وهنا فى مواجهة الغرب يوجد ضريحان آخران، بناهما سيرنبوت الأول، وهذا الضريح الثانى الأصغر إلى اليمين، ويوجد به المذبح، بنى لشخص كان اسمه "هيكايب"، له واجهة ضيقة، وضحل من الداخل، وأصغر من ضريح سيرنبوت المجاور، ولكن بناءه ليس أقل جودة".

بعد أن اتخذ الخطوة الأولى، ووضع ضريح هيكايب فى السياق التاريخى للمملكة الوسطى بالإشارة إلى الأضرحة الشهيرة ومقابر أسرة سيرنبوت واصل:

"نستطيع أن نتغاضى عن القول بأن ذلك كان حفرة لوضع الأشياء المقدسة أو حتى حمايتها مثل المخبأ الموجود فى الكرنك، ولكن من الواضح أن الأضرحة مبنية بشكل منتظم، ومن المؤكد أيضًا أن أمامها بالقرب من المكان الذى نقف فيه كانت توجد صالة رئيسية كبيرة. فى هذا المكان بالتحديد وجد غزولى خمس عشرة قطعة. ووجد فى "الرديم" هنا حوالى ثلاثين أخرى. لم تكن الأضرحة مبانى عشوائية، فقد بنيت لهدف. لأن هذا مكان مقدس من نوع خاص"، ثم انتقل عرضا لقراءة النقوش الموجودة على واجهة ضريح سيرنپوت الأول "الأمير والحاكم... الشرف على الأراضى الأجنبية... المحبوب من الأمير هيكايب المبارك".

وبعد إطراء للنبيل الفقيد، أكمل بصوت أعلى: "وبعد أن وجدته فى حالة شديدة الخراب، أعدت بناء هيكل الكا الخاص بالأمير الوريث هيكايب". والآن أليست هذه حالة مثيرة من حالات الترميم ؟"

وخشية أن يفتر اهتمام اللجنة قال: " تعالوا الآن لتروا المخزن". "كان حبشى يعرف وهو يفتح الباب أن الآثار ستتحدث عن نفسها ومع ذلك لم يترك شيئًا للمصادفة. ومثل مرشد الرحلة قاد المجموعة إلى تمثال سيرنپوت الثانى الجالس وحاكم فيلة وحول عنقه خيط طويل متعاقب من الخرز الطويل والقصير محفور وحلية متدلية عند الوسط، لكن شكل الرسم الهيروغليفى يدل على القلب. كانت ملامح سيرنپوت واضحة، العينان محددتان والتعبيرالناطق من الحجر هوتعبير الحزن. التمثال يصور رجلاً يحمل حملاً، وكان من نمط تماثيل المملكة الوسطى. "ثم قدتهم إلى تمثال الوزير إيميرو نفركار الجالس القرفصاء فى وضع الكاتب وجسمه قد انحنى للأمام، وقد أمسك بإحدى يديه طرفًا مفتوحًا من طوية بردى المبسوط يضع عليها اليد الأخرى كما لو كانت فى وضع الكتابة" ويليه تمثال تابع الملك نيتى، وقد انثنى الطرف العلوى من سترته كما كانت الموضة فى تلك الأيام بالنسبة للموظفين ذوى الأهمية، وقد ظهر له كرش بارز. ثم وجد أعضاء اللجنة أنفسهم أمام تمثال يصنف اليوم بين التحف التى لا تنتمى إلى الطراز الملكى فى

المملكة الوسطى وهو تمثال خيما، النبيل الشاب وهو جالس ويده اليسرى على ركبته. الباروكة محفورة بخطوط متوازية وأطراف مدببة تصل إلى الأكتاف القوية وقد ارتسمت الابتسامة على وجهه المصنوع من الجرانيت الرمادى شديد اللمعان، وهو من أفضل التماثيل العظيمة والسليمة التى اكتشفت، ولم يضع منه إلا جزء صغير من اللحية.

قرر حبشى أن يجعل اللجنة تستوعب التأثير الكامل للتماثيل قبل أن يعرض قضيته، فتراجع إلى ركن ملاحظًا المخزن أنه حتى أولئك الذين كانت قد بدت عليهم علامات الإرهاق أو الملل كانوا الآن منتبهين. تنقل كثير من أعضاء اللجنة بين موائد القرابين، يعلقون على النقوش ويقرأون العناوين ويلاحظون من طقوس وأساليب الموت والدفن أنها كانت حقًا أشياء تنتمى إلى المملكة الوسطى. بقى دريوتون بالقرب من تمثال خيما. كان معه عثمان رستم رئيس المعماريين وأمين مصلحة الآثار، وقد كان له اهتمام خاص بالجسور والترع القديمة والخنادق (رستم ١٩٥٨) وكان هو المتحكم فى الإنفاق الخاص بالترميم. "إننى أتذكر الرجلين وهما يتحركان حول التمثال مذهولين من مستوى صنعته وحالة السلامة التى ظهر بها، ثم اتجه باقى الفريق نحوهم، وبعض أجزاء من الحديث عن نحت المملكة الوسطى، وأشاروا إلى التجاعيد العميقة على جبهة خيما، وتحدثوا عن الفنانين الذين كانوا قادرين على تصوير من يعرفون الحزن وخيبة الأمل. وقد تحدثوا عن نهضة المملكة الوسطى التى حفزت على إنتاج الأعمال العظيمة، ولم يكن هناك شك فى اهتمامهم".

الشكل رقم ٢٠: منظران لتمثال خيما من (المملكة الوسطى) وهو مصنوع من الجرانيت الرمادى،أما النص على كلا جانبى المقعد فيقول إن ابنه المحبوب الحاكم سيرنپوت هو الذى صنعه.

وبقى حبشى بعيدًا ورأى أصابع تشير ورؤوسًا تومئ، ثم رأى دريوتون يستدير نحو رستم. "كانا يتحدثان فى هدوء. هل كان فى الإمكان أن أحصل على التمويل الضرورى دون حتى أن أطلبه؟. هل كانت رغبتى الشفوية التى فكرت فيها أن تكتب ثم تعاد كتابتها وتحفظ عن ظهر قلب لن تكون هناك حاجة إلى عرضها مطلقًا ؟ لقد مسح رستم غرفة المخزن وفى اللحظة التى جاءت فيها عينى فى عينه، عرفت أننى سأحصل على التمويل الذى كنت أحتاجه بشدة. التوتر الذى لم أكن أدرك أنه بداخلى، خرج فى تنهيدة ارتياح تكاد تكون مسموعة. أنا واثق من أن الجميع سمعوها".

ظـل لبيب حبشى لمـدة شهـرين يتابع جولة الرسميات التى كانت تبدو بلا نهاية للحصول على رخصة للحفر لحساب مصلحة الآثار: طلبات، وتفسيرات، وموافقات، وأختام، وتوقيعات، وتصديقات. كان يعرف جيدًا طبيعة البيروقراطية المصرية سواء تحت الحكم التركى، أو الفرنسى، أو الإنجليزى وكان يوازن طلباته بجرعات حرة من العلاقة الشخصية الجيدة، يسأل عن صحه وأحوال كل موظف وأمه وزوجته وأطفاله وأولاد الأعمام والأخوال الذين يتشكل منهم جيش ضخم وأولاد العمات والخالات الذين يشكلون أسرة كبيرة. هذه الرسميات الطقسية لها أهمية كبيرة. ومع الفسحات الزمنية بين الرحلات كانت هناك رحلة أخرى ختامية فقد استطاع أخيرًا أن ينهى سلسلة (بكرة) التى لم يكن من الظاهر أنها سوف تنتهى وذلك للحصول على الرخصة. وحصل على منحة ٤٠٠ جنيه مصري للقيام بالحفر على جزيرة فيلة وفى الفترة المتبقية من الموسم الشتوى لسنة ١٩٤٦ – ١٩٤٧.

بعد اجتياز هذا العائق أرسل حبشى رسالة إلى محمد عويس رئيس فريق من العمال من الفيوم، وكان فى انتظاره عند سد اللاهون. وعبر الرجل الفيومى عن سعادته لرؤية حبشى مرة أخرى أمسك به من يده وانحنى لكى يربت على ظهره وهو يكرر عبارة: أهلاً أهلاً وسهلاً، وهو الترحيب الذى قد يعنى فى هذه الحالة أنه يكن له الدفء والإخلاص. ولاحظ حبشى أن عويس كان قد زاد وزنه

منذ رآه آخر مرة، ومر بخاطره أن حفارى قفط، هم أكثر نشاطًا وأخف حركة وكانوا قد تدربوا على يد الأثريين الفرنسيين والألمان وكلهم فى نحو الخمسين أو الستين من العمر ربما يكونون أكثر مناسبة للعمل فى فيلة. ولكن عندما سار الرجلان فى الممر المؤدى إلى القرية، وكان عويس خلف حبشى بخطوة واحدة، لاحظ حبشى أن خطوات الفيومى كانت واسعة جدًا مع عمره الذى يناهز الواحدة والخمسين، وكان سريع الحركة كما كان دائمًا. حتى أثناء سيرهما كان حبشى يتحدث عن المشروع، وظهر أن عويس كان مستعدًا ومتشوقًا لصحبة فريق إلى الجنوب.

كان عالم المصريات (حبشى) والحفار قد تلقيا تدريبهما تحت إشراف الأثرى البريطانى جى برونتون قبل عشر سنوات. وقال حبشى: " قابلت برونتون لأول مرة عندما كان يتمشى حول الموقع القديم فى نيخين حيث كان يحفر هناك مع بترى. وفيما بعد عندما حصل على امتياز فى الضفة الشرقية لنهر النيل بين أسيوط وسوهاج بقيت فى تلك المنطقة، وكانت الفرصة سانحة لملاحظته أثناء العمل، وقد شدتنى حفائره فيما كان يطلق عليه اسم المجتمع الزراعى والرعوى القديم فى مصر العليا.

تطوعت بالالتحاق بفريقه كلما سنحت الفرصة، وتعرفت على أساليبه الميدانية الخاصة، وتعلمت كيفية عمل مسح الأسطح، وملاحظة طبقات التربة، وتسجيل الأشياء فى مواقعها، ونقلها من التربة. مثل هذه الأعمال لم تكن تدرس فى الجامعة. "ويضيف": فى نفس الوقت كان عويس وأعضاء أسرته الآخرون قد وصلوا من الفيوم بمعرفة برونتون وتدربوا على مهارات حفر المواقع القديمة. "كانوا حتى ذلك الحين فلاحين غير مدربين، ولكن مع كثرة رحلاتى فى مصر الوسطى كنا نلتقى كثيرًا وكنت سعيدًا وأنا أرى سرعة تعلمهم حتى وصلوا إلى المستويات المطلوبة. وأقسمت حينذاك أننى لوقمت بالحفر ذات يوم لحسابى فإننى أستخدمهم قبل حفارى قفط المدربين.

ويضيف: "إنهم مغرورون. أهل الفيوم دمثون وجديرون بالثقة. كنت مستقرًا على أن فريقى فى فيلة سيكون مكونًا منهم. نعرف بعضنا الآخر. نفهم بعضنا الآخر، والأهم من ذلك هو أننا نحب بعضنا بعضنا. " أما تفضيل حبشى لعمال الفيوم على عمال قفط فمن السهل فهم سببه بالرجوع إلى بداية حياته. كان الفيوميون فلاحين مزارعين، من الذين كان حبشى يستريح لهم. عمال قفط كانوا من الأعراب. ولكن على الرغم من أن حبشى وضع ثقته الكاملة فى حفارى الفيوم - عويس وأولاده وأصهاره وإخوته وأولاد أعمامه - لم يجعل أعضاء الفريق جميعًا من القرية. "لقد استدعيت عمالاً نوبيين من غرب أسوان للالتحاق بالفريق تحت إشراف عويس بالطبع". واستحدث حبشى قسمًا فى وظيفة الحراس فى مواجهة إمكانة التعرض للسرقة على يد اللصوص"، ليس لأننى لم أكن أثق فيهم، وإنما ببساطة لإبعاد الإغراء، عندما تجمع رجالاً من قرى عديدة للعمل معًا فإنك بذلك تمنع الخداع والمخاتلة". وعلى وهذا بدأ حفر هيكل هيكايب فى فيلة، وهو ما يمثل العمود الفقرى فى السيرة الحياتية للبيب حبشى.
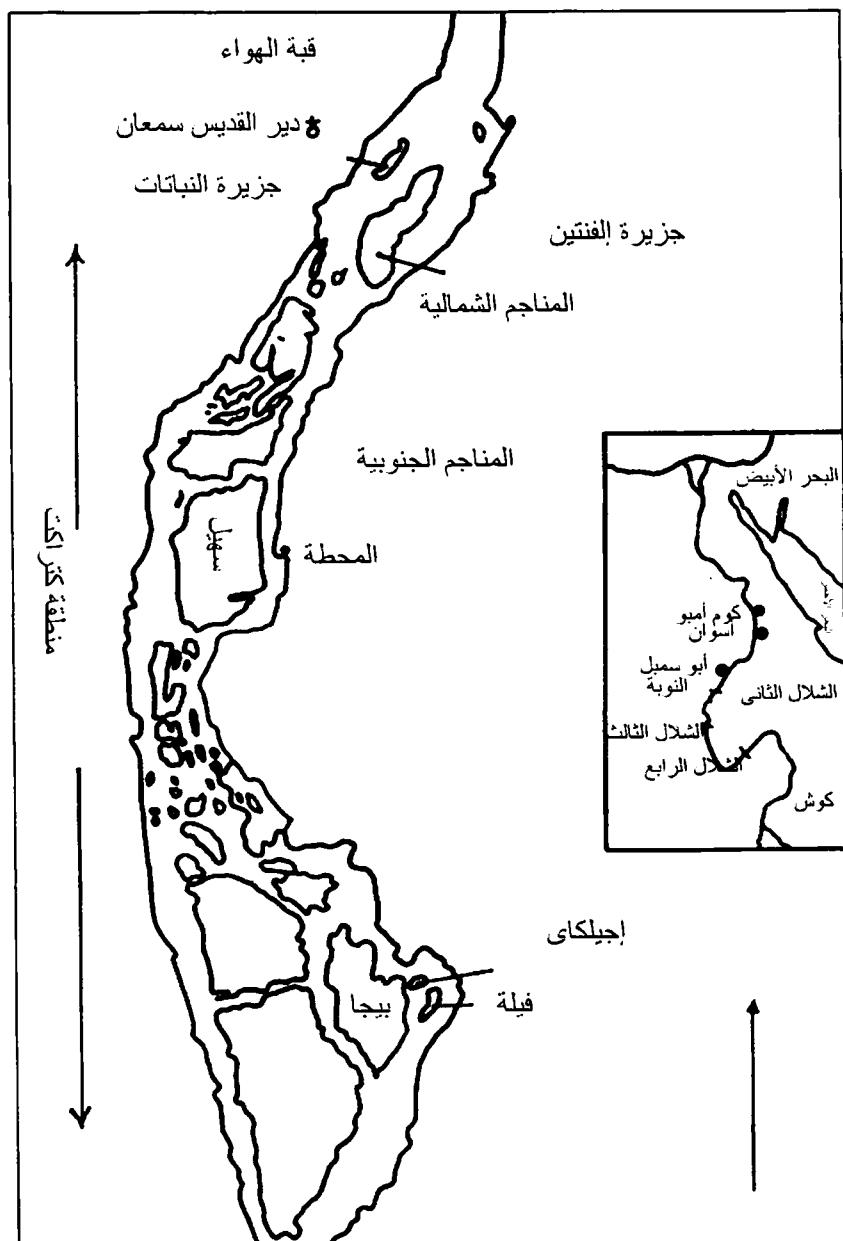
الشكل رقم ١٤: الخريطة التاريخية للشلال الأول عن أسوان

الفصل الخامس

الحفر والاكتشاف

كانت حفائر لبيب حبشى فى جزيرة فيلة وقبة الهواء فى شتاء ١٩٤٥ – ١٩٤٦ وحسب الوصف الذى نقدمه هنا قد كتبت حسب الحديث عنها بالأسلوب الشعبى الذى قررته بناء على اكتشافاته. وقرأ حبشى النص وقدم بعض الاقتراحات والإضافات للوصف(١).

"بدأنا العمل فى جزيرة فيلة فى ٢٩ يناير ١٩٤٦. وكنت أراقب العمال وهم مصطفون أمامى تحت عين محمد عويس الواعية، وكل منهم يحمل "غلق" له يدان قويتان. وهناك أيضًا الفأس التى يحملها العمال المختصون بالعزق فى مواقع الحفر، كانوا يستخدمون، ومازالوا، أقدم أداة استعملت فى الزراعة فى وادى النيل" وكان حبشي يتذكر الأحداث كما كانت قبل ثلاثين عامًا، واتكأ إلى الخلف على المصطبة فى شرفته وترك لعقله العنان. "كان كل رجل يضرب بفأسه الأرض ويجرف التربة فى "الغلق" أمام قدميه. ثم يأتي فريق من حاملى هذه "الغلقان" يمسك الأول "الغلق" الممتلئ بناتج الحفر من إحدى يديه، بينما يمسك الذى يليه فى الصف باليد الأخرى ويساعده فى رفع "الغلق" بحركة واحدة سهلة لتستقر على كتفه. كانوا يتحركون بين موقع الحفر والمنطقة المخصصة لتفريغ "الغلقان" ثم إعادتها مرة أخرى بطريقة منتظمة، كانوا يعملون بإيقاع وأتذكر أنهم يهمهمون بعبارة متسقة مع حركتهم "المشي عامل لي حرقان"، وعلى الرغم من تكرار العبارة وارتفاع جهارة الصوت، كان من الصعب تبينها، فكلمات الأغاني التي نستمع إليها في مواقع البناء

---

(١) لم ير هذا الكتاب ضوء النهار، فقد كان المفهوم هو أننى لن أنشر قصة اكتشافه قبل نشر عمل حبشى نفسه ذلك الذى نشر سنة ١٩٨٥ أى بعد عام من وفاته.

وبين عمال حفر الطرق أو فى الحقول فى أوقات الحصاد. لا تمت بالضرورة للعمل الذي يقومون به، وأحيانًا يكون من الصعب فهم معناها.

كان العمال الذين جاءوا من الفيوم قد سافروا إلى أسوان بقطار الليل. قليل منهم كانوا قد سافروا إلى أقصي الجنوب من قبل، وبدأ حبشى الرحلة معهم فى عربة الدرجة الثالثة، وقد قوبلت هذه اللمحة بارتياح من عويس، فعندما جلس الرئيس المتعلم إلى جانب "الريس" كبير عمال الحفر، كبر الأخير فى عيون رجاله. كان حبشي الذي يتعامل بسهولة مع الطبقة العاملة قد جهز رجاله قائلاً:"تعالوا يا إخوتى وأبناء أصدقائى، سأحكي لكم عن أسوان. سنذهب إلى الجنوب إلى طرف مصر الجنوبى، وسترون أن الله قد فصل أرضنا عن أراضى إخوتنا النوبيين بصخور سوداء كبيرة تلك التى تبرز من النهر وربما عبر الأراضي. أرضنا في جانب وهى أرض خصبة وحقول خضراء، وعلى الجانب الآخر توجد النوبة وهي أرض جافة وصخرية مع جزء صغير من الأرض الصالحة للمحاصيل؛ لذلك يجيء النوبيون للعمل فى مصر لتوفير النقود لإعالة أسرهم، وقد رأيتموهم وهم يسيرون القوارب مرورًا بالفيوم وهى تحمل المنتجات شمالاً إلى القاهرة. إنهم بحارة مهرة وعمال نشطون، وفى أسوان ستجدون أنهم خفراء الآثار.

إنهم أناس طيبون وشرفاء ويعرفون الله. عندما نصل أسوان سنعبر النهر إلى جزيرة تسمى فيلة، وهي جزيرة كبيرة مثل الجزيرة القريبة من القاهرة ولكنها أكبر. قرابة مائة وخمسين فدانًا. الجزء الذى يعيش فيه النوبيون ويزرعون محصولهم تربة صلصال مثل تلك التى تجدونها فى الفيوم، ولكنها جافة وصلبة لأن الأرض لم يصل إليها الفيضان منذ فترة طويلة.

الهواء صاف وجاف والشمس أدفأ منها فى الفيوم، وعندما تبدأ رياح الخماسين فى الربيع يصبح الهواء كالنار، ولكن لا تخافوا يا إخوتى قبل ذلك إن شاء الله سيكون عملنا قد تم وعدتم إلي الفيوم".

أثناء الليل نام بعض الرجال مستندين الي جوانب العربة وقد لفوا الشيلان حول رؤوسهم، بينما كان آخرون يتحدثون بصوت خفيض، وكلما توقف القطار فى إحدى المحطات كانت تدخل إليهم من الشبابيك أكواب الشاى الشديد الحلاوة والبسكويت عن طريق الباعة على الرصيف، بين الفينة والفينة كان أحد الرجال يقفز من الشباك ويختفى فى الليل حتى يبدأ القطار فى التحرك إلى الأمام ببطء، ومع صيحات "ياللا ياللا" قد يعود الشبح ويقفز قفزات واسعة على الرصيف، وهو يرفع الجلابية، ليظهر تحتها سروال فضفاض. وتمتد الأيدى إلى بعضها بعضًا وتجدها، وفى اللحظة الأخيرة ينجح الشبح فى الصعود من خلال الشباك مع الضحكات العالية.

حبشى الذي كان يجلس بمفرده فى مقصورته لم ينم "تخيل كم كنت منفعلاً. كان لدى موقع، ولدى الأموال، ولدى عمال الحفر!" بالقرب من نهاية الرحلة تحدث إلى العمال القادمين من الفيوم مرة أخرى: "على جزيرة فيلة سنجد أنتيكة رائعة. سنحفر فى الأرض الجافة السوداء عند الطرف الجنوبى للجزيرة، لأن المدينة القديمة كانت فى ذلك المكان وسنجد أشياء رائعة أكثر مما وجدتم من قبل" إن المبالغة من الصفات التى تميز الأسلوب العربي، وحقيقة أن حبشى كان يتوقع بالفعل أن يجد آثارًا رائعة، وصلت إلي الرجال" سوف تسألونني، كيف أعرف عن هذه الأشياء الرائعة؟ حسنًا!، دعوني أخبركم. قبل زمن طويل عندما كان صديقي"الريس" وأنا أحدث سنًا، وجدت بعض الأضرحة فى جزيرة فيلة، وكانت الأضرحة يبنيها القدماء للحفاظ على تماثيلهم. وكانت التماثيل بالحجم الطبيعى وكانت تصنع للوجهاء مثل الوزراء (المسئولين) فى الحكومة". أثناء حديثه سحب مفكرة وقلمًا رصاصًا من جيبه وتقارب عدد من الرجال لكى ينظروا من فوق كتفه وهو يرسم الموقع. "ضريحان" وبداخلهما تمثالان يواجهان الجنوب، هكذا واثنان آخران يواجهان الغرب يكونان ركنًا، وهنا - وخدش قلمه عبر الصفحة - بنى حائط لحماية الأضرحة، كما ترون". ونظر إلى الوجوه من حوله، "لم ينته الحفر

أبدًا. لم يتم اكتشاف كل الآثار المفروض اكتشافها. ولهذا نحن ذاهبون إلي فيلة. سوف نعمل هنا، علي الجانب الآخر للحائط ورسم صليبًا كبيرًا، وقال:"إن شاء الله سنجد المزيد من الأضرحة والتماثيل".

"ألن نقوم بعمل عدة حفر أولاً لكى نتأكد أننا لانهيل التراب فوق مقبرة ما؟ جاء هذا التساؤل من ابن عويس الأكبر محمد توفيق بينما بدا عويس مزهوًا بابنه عندما أومأ لبيب برأسه مؤكدًا خبرة الشاب" "نعم سنحفر عدة حفر أولاً ثم نحفر من أجل الآثار". هكذا خلق روح الفريق قبل أن يصل القطار إلى أسوان، وأصبح الرجال واثقين ومتشوقين لأنهم عرفوا ما يتوقعونه وما كان مطلوبًا منهم. بسرعة استقروا فى أماكن إقامتهم البسيطة المعدة فى فيلة بالقرب من مخزن المتحف، أما حقائب حبشى فنقلت إلى الاستراحة الحكومية.

بدأ العمل فى صباح اليوم التالى وكان أول شىء هو البحث عن منطقة مناسبة لإلقاء ناتج الحفر. تم حفر حُفر عميقة يبلغ حجم الواحدة منها مترين مربعين وعمقها ثلاثة أمتار فى عدة مواقع محتملة، قبل اختيار واحدة فى الشمال الغربى من مواقع حفر غزولى السابقة. المهمة الثانية كانت إزالة حائط الوقاية الذى أقامه بارايز. بعد ذلك نظم عويس فريقه وبدأ الرجال فى إزالة الأنقاض من موقع الحفر، وهم يغنون "المشي عمل لى إمساك"!".عندما استمعت إلى الأغنية للمرة الأولى سألت أحد الرجال عما إذا كان الكلام صحيحًا، وأن المشي يتسبب فى عسر الهضم فقال: لا... إنها مجرد أغنية. نحن نحب المشى"، وهكذا كان أحد الأطعمة التي يعرفونها في الفيوم سببًا في زيادة حيويتهم أثناء الحفر!

وكان اختيار حبشى للموقع اعتمادًا على مواقع الحفر السابقة. وإذا كانت الأضرحة الأربعة التى تشكل ركنًا تواجه فناء مربعًا أو مثلثًا، معنى ذلك أنه سيجد أضرحة مماثلة على الجانب الآخر من الحائط. كان الفريق يعمل من الساعة السادسة والنصف كل صباح حتى الرابعة، مع فسحة قصيرة لتناول الغداء. ومر يوم، ثم آخر، ولم يخرج شىء إلى النور. كان ذلك مخيبًا للآمال ولكن حبشى لم

يكن بالرجل الذي تثبط همته بسهوله ثم جاء اليوم الثالث ومضى، هنا كان بالفعل مندهشا، كان غزولى قد استخرج أشياء من الموقع بمجرد أن بدأ العمل، فلم ليس حبشى؟ لا يوجد أي دليل على وجود أي حفر غير قانوني سابق. كانت الأرض سليمة ومتماسكة وعندما تحرك اليوم الرابع ولم يظهر شيء كما يتذكر حبشي، كان يشعر بعينى عويس وهما ترمقانه ولاحظ أن خفيرًا نوبيًا كان يركل كومة من الأنقاض بلا هدف. ما كان يبدو في البداية إيقاعًا متناغمًا، أصبح أشبه بالعمل الشاق.. اضرب، اجرف، ارفع، اقلب، وبدلاً من أغنية المشي، كانت "هيلا هوب".

"لم أستطع أن أفهم، ولكننى فى الحقيقة كنت متأكدًا من أننى كنت أحفر فى المكان الصحيح كانت أيام ثمينة تضيع ولا نجد شيئًا. شعرت بخيبة الأمل، ولابد من أن أعترف بأننى لم أكن متأكدا مما يجب أن أفعله، فكرت ما إذا كان يجب أن أبدأ الحفر فى مكان آخر، ولكن أين؟" للتخفيف من ثقل مرور الساعات اتجه حبشي نحو التوابيت التي كانت في حالة جيدة التي كان قد أراها لأعضاء اللجنة.

شكل رقم ٢١: الحائط الداخلى لضريح الأمير هيكايب الذى يصوره وهو ممسك بالصولجان والعصا مع سيرنپوت (بمقياس رسم أصغر) يقدم له القرابين.

عندما وقعت عينه على النقوش الموجودة على واجهة التمثال الكبير لسيرنبوت الأول ذهل لروعتها ودقتها. "كان هناك على العارضة الأفقية اسم الملك وعلى عضاءة الباب الأيمن نص يقول: خادمه المحبوب والممدوح والمدلل سيرنبوت رئيس كهنة الحاكم". وفى داخل الضريح على الحائط الجنوبى رسم بارز للرجل النبيل واقف وهو يمسك صولجانا بيده اليمنى وعصا طويلة فى يده اليسرى ثم تأتى أجيال عديدة من أسرته. على الحائط الأيمن كانت هناك زوجته النحيلة وابنه الأكبر وقد ظهرا معًا فى سجل واحد، ثم ابنتاه يتبعهما ابناه الثانى والثالث، وفي الجهة المقابلة يظهر سيرنبوت مرة أخرى. وفى هذه المرة بصحبة ثلاثة أجيال من أجداده مع زوجاتهم وهم اثنان اثنان، وقد كتبت أسماؤهم للتعريف بهم.

يقول حبشى: "أستطيع أن أتتبع فقط ثلاثة أجيال من عائلتى وبصعوبة، ولكن ضريح سيرنبوت سجل ثلاثة أجيال من أجداده، يلى ذلك أمه وأسرته هو، وبالطبع جاء بعده سيرنبوت الثانى الذى صنع ستة أجيال من عائلة واحدة.

شكل رقم ٢٢: الحائط الشمالى من ضريح سيرنپوت يبين عائلته فى سجلين: زوجته وابنه الأكبر (فوق) تلى ذلك ابنتاه ويليهما ابناه الثانى والثالث (أسفل).

جذب الضريح المجاور لضريح سيرنپوت اهتمام حبشي كذلك، وكان قد بني لتكريم شخص مجهول اسمه هيكايب، كان اسمه مدونا أيضًا على واجهة ضريح سيرنپوت الثانى حيث يصف نفسه على كلا جانبى المدخل بأنه المحبوب من الأمير "هيكايب توفى". والاسم مكون من مقطعين "هيكا"وتعني "قوى" وشجاع، و"يب" وتعني "قلب". كان القلب بالنسبة للمصرى القديم هومركز الوعي، القوة الدافعة التي يعمل بموجبها، ويستطيع المرء أن ينقش نصوصًا عن قلبه الذى أرشده فى أعمال معينة. وأن يكون جميل القلب يعنى أنه طيب، وإذا قيل عنه إنه ضيق القلب فإن ذلك يعنى أنه ضيق الأفق، "وأنا واثق أن اسمه هنا كان يعنى الشجاعة: ***Heqa-ib*** فمن يسيطر علي قلبه، لابد من أن يشير إلى الشجاعة والتحكم فى الذات اللذين يمتلكهما أو على الأقل يريد أن يمتلكهما صاحب هذا القلب".

أشك أن يكون حبشى كان على دراية بكثير من التفاصيل التى قدمها وهو يعيد هذه الحكايات، وعندما قرأ مسودتى التى تحمل وصف تلك الأيام الأولى من الحفر، واكتشافاته فيما بعد "والمناقشات المثيرة" التى جرت فى الاستراحة كان يسألني باستغراب "كيف عرفت ذلك؟" ويعلق:"هنا أنت تركت شيئًا، دعينى أشرح لك. دعينى أذكر لك تمامًا كيف كان ذلك بالضبط".

وفى صباح أحد الأيام كان يصف لى بوضوح:"كنت أسير مقابل المتحف نحو الرصيف لأراقب القرويين الذين كانوا ينتظرون نزول البعض قبل أن يصعدوا هم. وكانت القوارب تجىء بانتظام ذهابًا وعودة بين فيلة وأسوان. شىء غريب كما تعلمين أن قليلاً من المسافرين هم الذين يدفعون أجر رحلتهم. وربما كان هناك مبلغ شهرى يدفعه من يتنقلون بانتظام. ومن المؤكد أن صاحب القارب لم يكن مثل المراكبى الذى وصفه الفلاح الفصيح فى نص مصرى قديم بأنه ينقل أولئك الذين يدفعون الأجرة.

كان بعض الشبان يساعدون النساء اللائى يحملن "أجولة" ضخمة على الرصيف ربما كانت مملوءة بالدقيق أو السكر، وهنا رأيته، كان رجلاً طويلاً مفرود الجسم يرتدى جلبابًا وقد عزل نفسه من الزحام، وكان يمشى بخطوات واسعة عبر الممر. وجفلت عندما عرفته؟ إنه عبد الرحمن "السواق" رئيس حفارى قفط. ماذا كان يريد فى فيلة؟

لم يكن من حقه أن يوجد هناك، ولابد أن يكون فى مكان آخر يشرف على الحفارين العاملين معه. لا أعرف ما إذا كان قد ضايقه أننى لم أطلب منه عمالاً للحفر. وربما كان يعتبر المنطقة كلها جنوب قفط أرضًا خاصة به. كان التوقيت سيئًا، وقد يعرف من بطء سير عمليات الحفر أن الأمور لم تكن على مايرام، ولم تكن لدى رغبة فى رؤية عينى ذلك القفطى المتعجرف تنظران باحتقار إلى عمال الفيوم الذين كانوا يعملون معى. عويس يعرف كيف يتعامل معه، وقد يكون قادرًا على إرضاء حب استطلاع السواق دون أن يكون غير مخلص، ولكننى تهربت من المواجهة.

ملاحظات حبشى عن حفارى قفط والفيوم شديدة الإثارة، لأنه حتى اليوم توجد عدم ثقة تصل أحيانًا إلى حد الاحتقار بين الفلاحين وأبناء القبائل البدوية الذين يعيشون على أطراف الصحراء فى القرنة فى الأقصر ونزلة السمان بالقرب من هضبة الجيزة، وبين مربى الخيول بمحافظة الشرقية فى الدلتا،"وحتى عندما يتفاخر هؤلاء الأعراب بانتمائهم العربى وأنهم ليسوا من الفلاحين، وأنهم ذوو انتماء نصف قروى فهم مازالوا يمارسون نوعًا من حياة البداوة والترحال.

وجد نفسه خارج المخزن ودفع الباب دفعة أحدثت صوتًا فانفتح. بعد ضوء الشمس اللامع كان هناك ظلام بالداخل ولكن حتى قبل أن تعتاد عيناه الظلام، كان يعرف أنه هنا على الأقل قد أصبح أخيرًا "بين أصدقاء". لم يكن قد مضى سوى شهرين منذ أشرف على تنظيف الأشياء من أجل اللجنة، ولكنها سرعان ما غطاها التراب.

"هناك فى مواجهة الحائط كان يقف التمثال المفتول العضلات الذى يمثل سيرنبوت الثانى مع القلادة التى على شكل القلب التى تتدلى على صدره، وبالقرب منه تمثال خيما الرائع مرتديًا باروكة تصل إلى عنقه. لاحظت الثقوب الصغيرة على كلا جانبى الباروكة وتعجبت مما حدث للعقد الذى كان مثبتًا بها فى وقت من الأوقات، ثم وقعت عينى على مقعد سنببيو المكعب. آه! كم كان قدماء المصريين يحبون التناسق! كانت النصوص تبدأ عند منتصف ظهر التماثيل وتجرى فى اتجاهات متعاكسة وتستكمل على الجوانب واجهة القاعدة، ثم انتهت بنقش متسق مع النصين. رائع! كان تمثال سنببيو منحوتًا من الحجر الجيرى الأسود، وكان يرتدى تنورة قصيرة ذات ثنيات. كانت يده اليسرى على ركبته".

تذكر حبشى أنه فى الأيام التالية قضى وقتًا أطول فى حجرة المخزن أكثر مما قضاه فى الموقع، وفى النهاية عندما تم اكتشاف بعض الآثار كانت هناك خيبة أمل شديدة. مقارنة بالأشياء الموجودة بالمخزن فإن التماثيل الثلاثة التى تم إخراجها من نهاية الأسبوع الثالث من فبراير، عاشر أيام الحفر، كانت فى حالة يرثى لها كما يقول. "لم تكن موجودة فى أضرحة كما وصفت لعمال الفيوم فى القطار، ولم تكن على أرضية مرصوفة بالأحجار التى يمكن اعتبارها أضرحة. كانت مجرد تماثيل مكسورة وبلا رؤوس وملقاة على الأرض وكأنها كسرت عمدًا، "وهو يراقب الرجال وهم يضعون الأشياء بعناية فى السلال نصف المملوءة بالتربة لكى يؤمنوها من الحركة، ثم يحملونها كما لو كـــانت كنوزًا لا تقـــدر بثمن، أدرك أنـــه لا جدوى من الاستمرار فى الحفر فى نفس المكان، وربما كان عليه أن يسترشد بخط الحفائر الأسبق، وأن يتبع الحائط الخارجى إلى الجنوب بدلاً من الحفر على الجانب الآخر للحائط الحديث الذى بنى لحماية الأضرحة. "كانت المشكلة على ما أذكر هى أننى أردت أن أندفع يمينًا إلى قلب الموقع وأحفر لكى أصل إلى تماثيل كثيرة مثل الغزولى".

نظر حبشى إلى أعلى عند سماعه بعض الأصوات فرأى عويس والخفير النوبى يتحدثان معًا". لم أستطع أن أسمع ما كانا يقولان ولكن كان هناك بعض الشك أنهما يتحدثان عن الموقع، وربما كانا يتساءلان عن اختيارى، ورأيتهما يشيران فى اتجاه الأضرحة غير مدركين أننى كنت هناك. تحركت بسرعة لأخرج عن مجال رؤيتهما وتسلقت تلاً من الأنقاض وتحركت فوق الخرائب جنوبًا"، وتوقف حبشى قليلاً. ثم نظر إلى أعلى وثبت عينيه على المسافة المتوسطة، كما كان يفعل دائمًا عندما يستدعى الماضى، وواصل كلامه:"سمعت الأحجار وهى تتكسر تحت وطأة قدمى، استدرت نحو الشرق ومشيت بطول الممر الضيق المحيط بحديقة متحف فيلة. أذكر أننى توقفت عند مقياس النيل ونظرت إلى أسفل نحو الأحجار المنتظمة الشكل التى بنى بها المقياس حيث كانت تقاس زيادة الفيضان وانحساره فى الأزمنة القديمة، وبالطبع فإنك تعرفين أن بلوتارك قد سجل أن مستوى النهر قد ارتفع ذات مرة حتى بلغ ثمانية وعشرين ذراعًا عند فيلة، ولابد أن ذلك كان فيضانًا كبيرًا - قرابة أربعة عشر مترًا وسبعين سنتيمترًا - ولابد أنه اكتسح قرى بأكملها وعددًا كبيرًا من الماشية، وأذكر أيضًا أننى نظرت فى اتجاه بئر قديمة بالقرب من المتحف وأنا أفكر فى العالم إراتوستينيث، وأحد الأثينيين المنفيين، الذى جاء إلى أسوان فى القرن الثالث قبل الميلاد، ولاحظ أن أشعة الشمس تسقط عمودية ولاينتج عن ذلك أية ظلال فى وسط النهار خلال الانقلاب الصيفى، بينما كان ينتج عنها فى الإسكندرية ظل يبلغ ارتفاعه سبع درجات ونصف الدرجة، ومن هذه الملاحظة استطاع أن يحسب محيط الكرة الأرضية. والإغريق كان لديهم كل الإجابات. لابد أنه كان يعرف أين يجب أن نحفر. على كل حال لم يكن الوقت قد تأخر عن ضبط الأمور. استدعيت عويس وذكرت له أن الرجال يستطيعون أن يستريحوا بقية اليوم، وأننا سوف نبدأ الحفر صباح اليوم التالى جنوبى ضريحى سيرنپوت وهيكايب.

لم يكن العمل قد بدأ منذ فترة طويلة عندما أحس حبشى بتيار نشاط بين العمال، فأصبحت تحركاتهم أسرع مع ضم الصفوف بشدة. تحرك نحوهم ولاحظ أنهم كشفوا عن حوش هيكل به ضريح نقال منقوش عليه اسم إمينى إياتو، متتبعين خط الأحجار التى ظهرت، وجد العمال بابًا صغيرًا يؤدى إلى هيكل آخر، وهناك وجدوا أشياء مكسورة ومتناثرة من ضمنها تمثال لرجل جالس ومائدة قرابين. أظهرت النقوش أن الأشياء الثلاثة كانت تخص الشخص نفسه،"كان اسمًا أعرفه جيدًا من النقوش الموجودة على الصخور فى منطقة أسوان (إمينى – إياتو) كان رئيسًا لعشرات مصر العليا أى أنه كان ملاحظًا على مجموعة من العمال. وكان مصورًا كرجل مسن وقد تغضن وجهه بالتجاعيد. كان من الواضح أنه كان يقف يومًا ما فى هذا الضريح وأمامه مائدة القرابين. كان هيكلاً كبيرًا، أكبر بكثير من أضرحة عائلة سيرنبوت وبناؤه مختلفًا، كان مصنوعًا من كتلة واحدة من الحجر الرملى وليس مثل الآثار الأقدم التى كان كل منها مكونًا من عدة ألواح.كان له أيضًا إفريز مقعر بذل فى صنعه مجهود كبير، وعلى كلا الجانبين زخرف من الحبال على شكل خطوط متقاطعة. عندما تيسر لى الوقت لدراسة النقوش وجدت أن الضريح ذكر آلهة منطقة الشلال الثلاث ومعها هيكايب.

إلى الغرب من هذين الهيكلين المكتشفين حديثًا كان هناك بناء كبير مهيب" وأخيرًا وجدنا فى داخله تمثالاً فى موقعه الأصلى. إنه تمثال الحاكم والمشرف على الكهنة (كا – كاورى – سنيب).

شكل رقم ٢٣: التمثال الجالس الذى يمثل إمينى – إياتو ويظهر الوجه المنحوت بمهارة تجاعيد رجل مسن

من النظرة الأولى، لم يكن محفورًا بمهارة مثل الكثير من التماثيل الموجودة فى المخزن، لاحظت ذلك فى الحال. ولكن وجهه مع ذلك كان متجهما، تبدو عليه علامات الحزن، وقد شعر كل الفريق بالسعادة عندما أبلغهم عويس بأن ذلك كان هو الوزير" ثم اكتشف الجزء السفلى من تمثال آخر يمثل كا – كاورى – سنيب، وفى هذه المرة يظهر صاحب التمثال جاثمًا ويداه مبسوطتان على ركبتيه. وبمجرد أن أعاد الحفارون تنظيم أنفسهم، وجدوا أجزاء من تمثال آخر. كان الاثنان داخل الهيكل نفسه. كان حبشى فى ذروة حيويته الذهنية، فقد كان عقله يعمل بسرعة وفقد الإحساس بالزمن". كنت أتساءل بينى وبين نفسى عن نوعية العلاقة التى يمكن أن تربط بين الرجلين، ولكن لم يكن لدينا وقت للتفكير فى هذه الرابطة، ليس فى هذه المرحلة على الأقل، وفيما بعد اكتشفنا هيكلاً رابعًا ناحية الغرب"، لم يكن مزخرفًا، وكان به بعض الكتل من هيكل كا – كاورى – سنيب المجاور".

بدأت ساعات العمل الشاق،التى تدفعها الرغبة فى الإنجاز السريع، وكان ذلك من سمات العمل فى الحفر وبخاصة فى تلك الأيام عندما يكون هناك أعداد كبيرة من العمال تحت إشراف مشرف واحد. كانت الرغبة الخالصة فى العمل منتشرة بين الجميع. كان الرجال يهمهمون أثناء عملهم كما كان شعورهم بالرضا يتزايد لأن حبشى كان سعيدًا بهذا النشاط. كان على دراية بمهاراتهم وبكفاءة عويس الذى كان مثل الكثير من رؤساء العمال الذين تصورهم ألواح المقابر القديمة يمسك بعصا السلطة. فى ساعة الراحة كان لبيب يجلس مع الرجال، يشاركهم سندوتشات الفول والبصل ويستمتع بتعليقاتهم، "ألم أقل لكم إننا سنجد آثارًا عظيمة؟" ويردون: "أيوه يابيه. قلت لنا"، وعندما بدأ العمل مرة ثانية كان المش هو اللازمة التى يرددها العمال أثناء غنائهم على جزيرة فيلة. كان فريق من الأطفال النوبيين قد تجمعوا على تل صغير يطل على أعمال الحفر، التقطوا اللازمة وعندما أخذوا فى الغناء كانوا يدقون بأرجلهم ويحركون أذرعهم فوق رؤوسهم مثل الراقصين".

كان هنرى رياض أحد مفتشى مصر العليا، الذى صحب حبشى أثناء مسحه الابتدائى للموقع زائرًا منتظمًا. "إن مشاهدة لبيب فى الميدان تجربة نادرة. وإنه شديد الاخلاص وشديد التفاؤل". ربما كان رياض يرى فى حبشى الأشياء التى كان هو نفسه يطمح إليها، وكان فارق العمر بينهما كفيلاً بخلق شكل من أشكال عبادة البطل، وفيما كانت الخبرة المشتركة والاحترام المتبادل يعززان صداقتهما". "عندما كان لبيب يسرع من مكان إلى آخر، كان يفتش فى كلا جيبى البنطلون عن منديل، الذى كان لابد أن يكون فى الجيب الأيمن، لكى يمسح جبينه".

استمر الحفر من يوم إلى يوم من الفجر حتى الغسق، ولم يكن يمر يوم دون العثور على شىء، وأحيانًا عدة أشياء. أحد القطع الحجرية ذات الحجم الكبير كانت مذبحًا من الحجر الرملى أعلاه فجوة ضحلة، يوضح حبشى أنها "تخص أمنمحعت ابن ساتچينى الذى وجدنا جزءًا من تمثاله وكان اسمه على مائدتين للقرابين وقاعدة تمثال فى المخزن، وقد أعطى ذلك بعدًا جديدًا للكشف الضخم غير الملحوظ". ويضيف: "وأنه أصبح ذا قيمة أكبر بعد تنظيف النقوش من القذارة العالقة به، ووجدت أن نصًا جنائزيًا تقليديًا يقول:"الخبز والجعة، والثيران والطيور، والمرمر (الفازات) والملابس، وكل شىء طيب ونقى". لم يكن مقدمًا إلى خنوم وساتيس وأنوكيس الآلهة المحلية لأسوان فقط، وإنما إلى الأمير هيكايب كذلك..". واكتشفت أيضًا مائدتين للقرابين ومذبحًا وقاعدة تمثال أيضًا، وكلها باسم أمنمحعت ابن ساتچينى، وكان الأخير منها يحمل نقشًا يقول:"ليت الملك يقدم قرابين إلى الأمير هيكايب من أجل روح، كاتب الجيش، أمنمحعت".

قاس عويس اتجاه العمل وقسم فريقه بموافقة حبشى، واستمرت المجموعة الأكبر فى الحفر وغربلة التربة بينما قام فريق آخر بنقل الأنقاض بعيدًا، وأشرف ابن عويس ومعه اثنان آخران على الشبان النوبيين الذى جلبوا حديثًا من القرية المحلية التراب من النقوش وتنظيف الأشياء فى منطقة التخزين. كانت تلك العملية مقبولة مع توافر النظام بالنسبة للأشياء الكثيرة، وفى السبعينيات فقط استطاعت

الأساليب الأفقية للبحث عن الآثار، التى تتضمن إزالة طبقات من الأرض بعناية مع الأبحاث المتخصصة فى الموقع، أن تبطئ عملية الحفر.

كانت أخبار الاكتشاف قد انتشرت فى أسوان، عرف التجار وأصحاب المحلات والبوابون والشرطة المحلية وأصحاب الصنادل أن آثارًا كثيرة يتم اكتشافها فى فيلة، وذلك فى المقاهى والشوارع وكل أماكن التجمع وفى الحارات المزدحمة بالأسواق. وقد انتقل دفء النجاح الذى ساد فى فيلة إلى اليابسة فى شكل عبارات مثل: سعيدة يابيه، وأهلاً، واتفضل ومبروك يابيه. كان لبيب يسمع مثل هذه التعليقات حيثما ذهب. حتى النوبيون الصغار الذين كانوا يسبحون فى النهر يصيحون بملاحظات بالعربية بصوت مرتفع نحو مجموعات السائحين، بينما خرجوا فى طلب البقشيش واستغرقوا وقتًا لرفع أذرعهم وهم يخوضون فى المياه وهم يصيحون " يابيه.. يابيه.. لقيتوا إيه؟" أما حبشى الذى كان يشعر بالسعادة وهو يقبل الدعوات لشرب الشاى، فكان يشكر أصحاب التمنيات الطيبة ويلوح للأطفال النوبيين. مر شهر فبراير وتلاه شهر مارس والأشياء تظهر. استقر معدل سير عمليات الحفر. كان عملاً جماعيًا منظمًا بشكل ممتاز. ظهر بعد ذلك تمثال لرجل آخر يسمى هيكايب، قيل إنه ابن ساتچينى. كان هذا الرجل الثانى غير المعروف مرتكزًا على ركبتيه ويقدم القرابين فى فازات، وهو موقف محفوظ للملوك فقط ولذلك فهو نادر حسب قول حبشى.

شكل رقم ٢٤: تمثال هيكايب ابن ساتچينى، يصور رجلا هادئ الوجه، يقدم القرابين فى وعاءين.

عندما تغير اتجاه الحفر من "شرق - غرب" إلى "جنوب - شمال"، تحدد ركن المقصورة، وبعد ذلك ظهر سريعًا مدخل هيكل آخر كبير فى مواجهة الشرق. كان يتخذ شكلاً مائلاً من عند أضرحة عائلة سيرنپوت، وكان يخص رئيسًا آخر للكهنة هو أمينى سنيب؛ وعلى الرغم من أن الملامح كانت مشوهة إلى حد ما كان وجهه يكشف عن قوة عظيمة من خلال التعبير الرزين. قرر لبيب أن يتركه فى مكانه حتى لا يتعطل العمل. بعد ذلك بدأت أقابل اسم هيكايب كثيرًا. بدأ يلمع فى الذاكرة. "يبدو أنه كان اسمًا شعبيا متداولاً فى المملكة الوسطى. قام أحد أبناء هيكايب واسمه أمينى سينب بعمل تمثال له. ثم عمل ابن آخر له تمثالاً آخر واسم هذا الابن هيكايب عنخ، وهو الذى صنع تمثالاً آخر بمعرفة أخيه أمينى سنيب، ووجدنا إحدى عشرة قطعة أخرى تحمل نفس الاسم الذى كان قد تم اكتشافه، وكان من المغرى التوقف وعمل شجرة عائلة لمعرفة المزيد عن ذلك الجد الأعلى الشهير الذى كانوا يريدون أن يحاكوه.
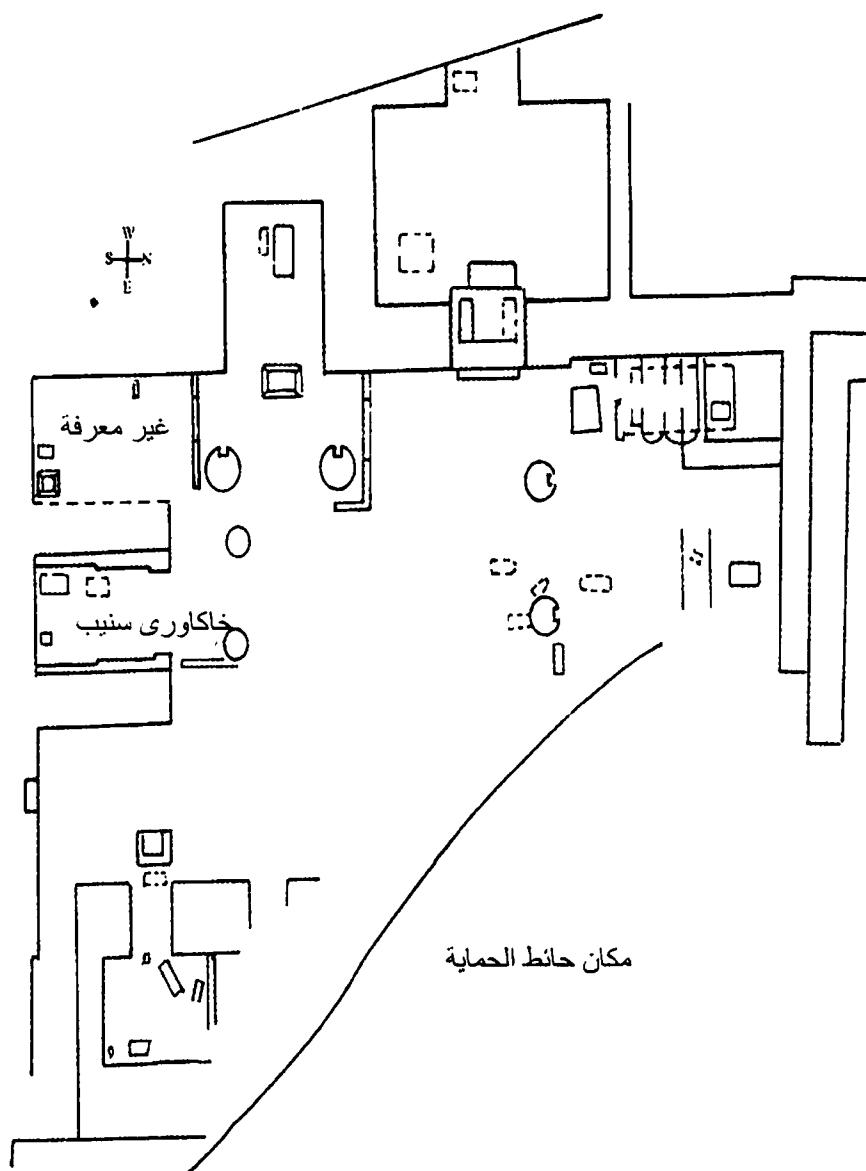
شكل رقم ٢٥: الموقع الذى قام بالحفر فيه لبيب حبشى عام ١٩٤٦ فى ما يتصل بعمليات الحفر الأصلية عام ١٩٣٢.

في المساء كانت استراحة فيلة مكانًا لتجمع أصدقاء حبشى وزملائه القادمين من أسوان، وكذلك الزوار القادمين من الأقصر والقاهرة. وكان حبشى يحب أن يحيط به الناس يأكلون ويضحكون ويتبادلون الأفكار. "وأقام معى فى الاستراحة چاك ڤانديبه مؤلف أحد الكتب المهمة عن الديانة المصرية القديمة (ڤانديبه ١٩٤٤) كما أن هيرمان ريكيه الذى كان يقيم فى "البيت الألمانى" أثناء قيامه بمسح للمعابد الرئيسية للإلهين خنوم وساتيس فكان زائرًا منتظمًا. على أية حال كان الجو مشابهًا لذلك فى السنوات الباكرة التى عملت فيها مفتشًا، الآن فقط كانت المناقشات العلمية الحية قد حلت محل النكات والقفشات. كان ولفجانج هيلك من هامبورج وإلمر إدل من بون، يعملان فى الأقصر ويترددان كثيرًا على أسوان وقد أطلقت عليهما لقب: توءم المتاعب، وليس لأنهما كانا متشابهين، ولكن لأن هيلك كان دائم الابتسام، أما إدل فكان نحيلاً وجادًا، وهما مختلفان حتى فى الجانب الفكرى. هيلك عالم غزير الإنتاج ذو ذاكرة عجيبة وإحساس مرهف بالمنظور التاريخى، أما إديل فإنه يركز طاقاته على التفاصيل الدقيقة للنص ودقائق النحو اللغوى. لم يكن لديه وقت للتأمل أو الافتراض. أما سبب إطلاقى لقب توءم المتاعب عليهما، فهو لأنهما كانا معًا دائمًا، واستمرا فى إقلاقى وطرح الأسئلة على، قبل أن أعرف الأجوبة.
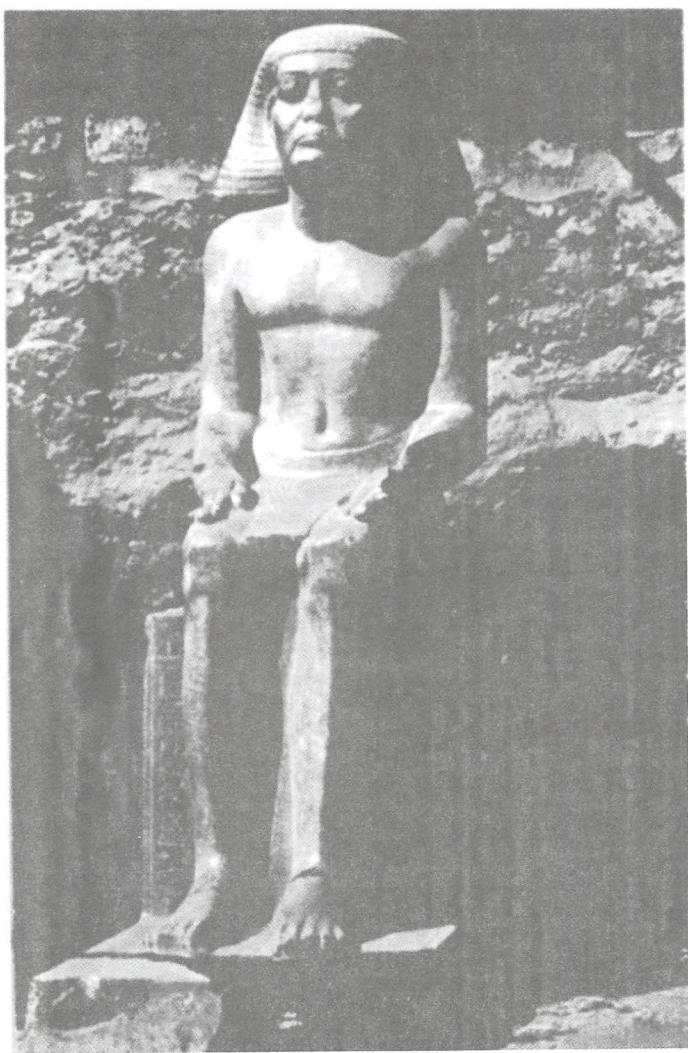
شكل رقم ٢٦: تمثال خا-كاورى سنيب جالسًا، لاحظ تعبير التجهم على وجهه.

استمر الحفر، وظهرت بقايا هيكل آخر لرجل آخر كان يحمل اسم هيكايب. فى الداخل كان يوجد لوح حجرى وكتب عليه "رغبة فى الحياة، لتكريم الأمير هيكايب اسم صاحب الهيكل الذى بنى لتكريمه". كتب "أنت يا من تعيش على الأرض وستمر بهذا الهيكل، لأنك تحب الأمير (هيكايب)... صل من أجل الحاكم هيكايب". يقول حبشى: "كان الأمر محيرًا لدرجة كبيرة، إشارات لرجال كلهم اسمهم هيكايب على تماثيل وأضرحة مختلفة، حتى موائد القرابين حيث يصف أصحابها أنفسهم بأنهم (أحباب الأمير هيكايب أو المكرمين من هيكايب)، وقد وجد أحد التماثيل راقدًا فى الأرض الخالية حيث سقط فى المنخفض أثناء الحفر، وكان يخص أحد كبار الكهنة المرتبطة أسماؤهم بـــ "هيكايب".

شكل رقم ٢٧ : شاهد قبر مراقب الصالة، سنيب هاناف، وقد نقش عليه نص يشير إلى إلهة منطقة الخزان و" الأمير هيكايب "

"وكنت في حاجة إلى وقت لدراسة الأشياء وتنظيم الاكتشافات، وعلاوة على ذلك كنت متشوقًا لترجمة النصوص"، يقول حبشى الذى كان لا يصدق أنه سيكون قادرًا على فصل الوجهاء الكثيرين الذين يحملون اسم هيكايب، وأحيانًا يكون بعضهم أعضاء فى نفس العائلة من نسل الجد الأعلى نفسه الذى بنى الهيكل لتكريمه. كانت هناك مائدة قرابين واحدة قدمها رئيس الكهنة هيكايب لأجل أبيه الحاكم هيكايب لكى يقبل هذه التقدمة من أجل هيكايب المحترم؛ وعلى الجانب الآخر من المائدة وجدنا نصًا يقول: "إن القرابين والصلوات المقدمة ليست من أجل هيكايب صاحب الضريح، وإنما من أجل هيكايب الجد الأعلى!"

فى صباح أحد الأيام استيقظ ليجد أن روبيتشون (كان قد رأس فريق الدارسين الألمان فى فيلة قبل ثلاثين عامًا للبحث عن الأوستراكا (شظيات من الفخار) التى تنسب إلى وجود يهودى على الجزيرة وكان أثناء حفائر حبشى يعمل فى ترميم معبد مونت بالكرنك) قام برحلة خاصة لرؤية الموقع وتسلق إلى قمة إحدى العارضتين الرأسيتين لبوابة الإسكندر الثانى. وتمكن من التقاط ٢٢ صورة فوتوغرافية تشكل بانوراما عظيمة للهيكل الذى تم اكتشافه ". وقام دريوتون أيضًا برحلة إلى فيلة وقدم مشورة قيمة، وكان دائمًا على استعداد لتقديم تمويل للمصريين لإتمام عملهم". وأما حافز الاستجابات الجديدة فجاء من العالم البلچيكى كونستانت دى ويت الذى عمل شرائح وصورًا وهو ما آلم حبشى كثيرًا، وجاءت كريستيان نوبلكور وزوجها چان كاپارت، وكذلك جاء مكرم الله مساعد غزولى خلال الحفر الأصلى سنة ١٩٣٢. جاء من القاهرة ليقدم لى تفاصيل الحفر القديم لكى أضمه إلى ما لدى". وكان هناك زائرون آخرون من بينهم وليم ستيڤنسون سميث من متحف الفنون الجميلة فى بوسطن الذى قضى وقتًا طويلاً فى حجرة المخزن يدرس التماثيل كما يقول حبشى. ووصف هيكايب فى كتابه: ***The Art and Architecture of Ancient Egypt*** بأنه "نوع من القديسين المحليين" (***Smith 1958***). وجاء أغاخان لرؤية الموقع وكذلك أعضاء المعهد الشرقى فى "بيت شيكاغو" بالأقصر "وفيما بعد عندما استكمل حفر الهيكل كنا نناقش مدلول الموقع"، وطرح حبشى عدة أسئلة من قبيل: ما الأثر الأقدم تاريخيًا؟ ولماذا بين الأربعة عشر أثرًا التى تحمل أسماء ملكية

لا يوجد ذكر لـــ هيكايب بينما كل الأشياء التى وجدها الرسميون كانت تحمل اسمه؟ ولماذا توقفت عبادة هيكايب عند الأسرة الثالثة عشرة؟"

وهو يتذكر هذه المناقشات، أشرق وجه حبشى بنور داخلى. وقال: " لدى ڤانديه تفسير للآثار الملكية التى لم يذكر فيها اسم هيكايب، قال إن الفرعون لم يكن يصف نفسه بقوله المكرم أو المحترم أو المحبوب من عامة الناس، وبصرف النظر عن أسانيده فإن هيلك علق على الغرض من وجود سلسلة من الحجرات التى حفرت فى شمال الهيكل عند الطرف البعيد للحفر، وقال إنها ربما كانت هى تلك التى أشار إليها سيرنيوت بقوله "مكان الشرب فى فيلة". أى مكان كان يقدم فيه الماء العذب ليستخدمه الناس فى الجو الحار مثل الزير المصنوع من الفخار. أعجبتنى هذه الفكرة وأعنى بها تقديم الماء العذب للناس. تحدثنا عن التمثال المزدوج الذى ينسب الأسرة إلى السابعة عشرة وهو موجود فى الهيكل ولماذا كان هناك بينما كل الأشياء تعود إلى المملكة الوسطى. لقد استنتجنا أنها كانت تخص المعبد المجاور (معبد ساتيس). كان حبشى قد عمل من قبل مع أفراد من الدارسين فى مواقع الحفائر فى مصر العليا ومصر السفلى وكذلك فى متحف القاهرة ولكنه لم يكن لديه فرصة من قبل للمشاركة الجادة فى محادثات بين متخصصين ينتمون إلى جنسيات مختلفة. "كان تبادل الأفكار يمثل حافزًا للمناقشة كانوا يقدرون أفكارى وكذلك نكاتى وقصصى. كانوا يجاملونى". ولم يكن لديه مانع من ضم بعض ذوى العقول اللماحة إلى رجاله، وكان من حسن إدراكه الشخصى لمدى الفوائد التى يمكن كسبها من مثل هذه العلاقات أنه فيما بعد كان يشجع على مثل هذه الاجتماعات بين الدارسين الأجانب والدارسين المصريين، وأن تكون منتظمة.

كان الحائط الغربى للهيكل يمتد إلى الشمال وكان حبشى يتوقع أنه ينتهى على خط واحد مع أضرحة سيرنيوت الثانى وخيما مكونًا بذلك موقعًا مستطيلاً. لدهشته وجد أنه كان يمتد شمالاً متجاوزًا هذه النقطة، وأصبح قلقًا لأن النقود المخصصة للحفر كانت تقل بالتدريج ولم يكن لديه فكرة عن كم العمل المتبقى.

"وتذكرت أن غزولى قد هجر هذا الموقع قبل أن ينهى عمله، وصممت على أننى ذات يوم سوف أكمل الحفر قبل انتهاء الموسم".

حتى أثناء تكون هذه الفكرة فى عقله وجد لوحة تخص "كاتب الختم نفرحوتب"، ثم اكتشف هيكلاً آخر حيث ما كان يعتقد أنه الركن الشمالى الغربى للمقصورة. كان هو الأصغر حتى الآن وكان يخص خادم قاعة العدالة أمينى، وفى داخله الجزء الأسفل من تمثال جالس تم نقله إلى موقع المخزن. وعندما كان يتوقع نهاية الحفر إذ به يصادف مفاجأة أخرى. كان أعظم الاكتشافات التى عثر عليها، كان قد اكتشف دليلاً من قبل على وجود قاعدة تمثال ضخمة من الطوب المجفف فى الشمس أمام هيكل كا – كاورى – سينيب وقد توقفت عملية إخلائها لحين وضع الحد المعمارى. الآن كان الوقت قد حان لرفع هذه المنطقة الوسطى. قال حبشى لعويس ما كان يريده ثم تحرك فى اتجاه المخزن. "كان لون وشكل شظية من تمثال اكتشفناه منذ قليل قد نشط ذاكرتى وشعرت بأننى متأكد أنها جزء من تمثال اكتشف فى وقت باكر. واهتديت إلى كيفية الوصل بينهما وسمعت عويس يصيح بأعلى صوته: "يابيه.. يابيه.. يابيه"، واندفع حبشى إلى الباب لكى يرى الفيومى يقطع المسافة بينهما بخطوات واسعة بقدر ما تسمح قدماه القصيرتان. هو ممسك بذيل ثوبه:"يابيه. إن أبنائى يحفرون ويستخرجون حجارة مستوية عليها كتابة.. إنها حجارة كبيرة.. كبيرة جدًا".

قال حبشى: "ألواح حجرية! إذا كان ما يخرج ألواحًا فإنها لابد من أن تكشف عن شخصية هيكايب وتعطينا تفاصيل عن "الهدف" من هذا الموقع. "كنت أصلى وأنا أجرى، وحفارو الفيوم يدخرون طاقتهم للعمل الذى فى أيديهم فتوقفوا، عن الغناء، وبدلاً من ذلك بدأوا يتنفسون أنفاسًا عميقة ويفلتونها كالشخير. لقد وقعوا فعلاً على لوح حجرى ضخم حول بناء من الطوب اللبن، وكان بارتفاع أكثر من متر وسميك وعريض، فى الحال أزال حبشى التراب من فوق سطحه مستخدمًا سعف النخيل، ونظر، فى الخانة السفلية رسم يصور سيرنپوت يقدم قربانًا لهيكايب.

كان الحاكم واقفًا، فى يده اليسرى فازة وفى اليمنى سلطانية. أما الخانة العلوية فكانت مغطاة بالنقوش. كان العمال منكبين على فصل لوح آخر وتخليصه من الأرض الصلبة ويبدو أنه كان كبيرًا مثل الأول. "هيلا هوب" صاحوا كلهم بصوت واحد وهم يخرجونه من الأرض. كان جزءًا من القمة مفقودًا ولكن النص لم يكن فى حاجة إلى تنظيف لكى نقرأ كلمات سيرنپوت:"أنا الذى بنى هيكل كا هذا لأجل هيكايب".
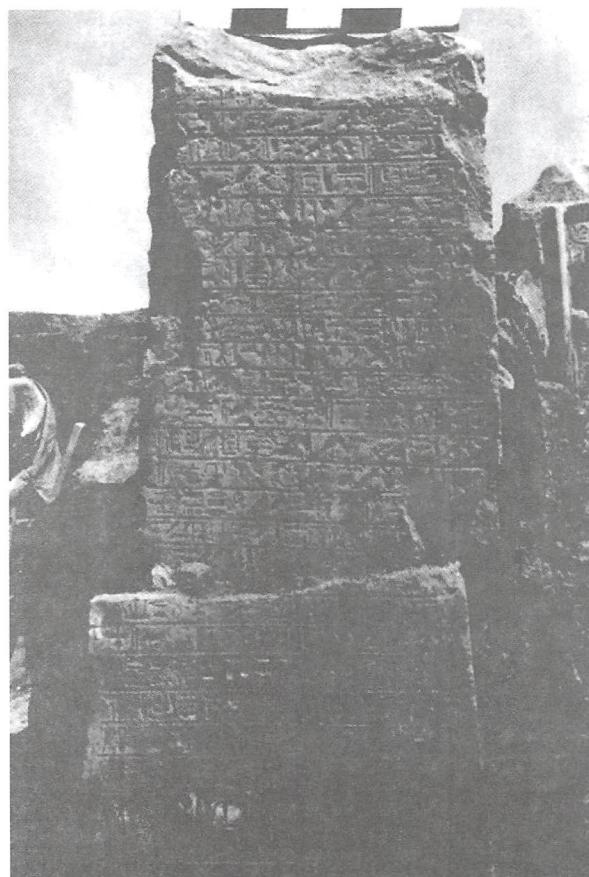
شكل رقم ٢٨: اللوح الأكبر الذى يصف مبنى الهيكل

كان صوت عويس منخفضًا وهو ينادى فى رهبة: "يابيه". حملق حبشى فى اتجاه الفيومى ليجد أن العمال كانوا يستخرجون لوحًا حجريًا آخر، كان الحجر فى موضعه تمامًا حيث كان قد أمر الفريق بالحفر. "لو لم ينفذ صبرى وواصلت إزالة طبقات الأرض لمدة يومين آخرين أو ثلاثة أيام على الأقل لوجدتها". أخذ يراقب عويس وهو يحشد أنشطة العمال قليلاً إلى شمال التل ومرة أخرى عاد عمال العزق إلى العمل وأخذ العمال فى تشكيل خط لرفع "الغلقان" الممتلئة بالتراب، وتجاوبًا مع سعادة حبشى ظهر قائد يقود الغناء عن نجاح "البيه" وراح العمال يرددون وراءه.

شكل رقم ٢٩ (أ)

لوح حجرى يصف الطقوس التى تؤدى بخصوص موائد القرابين وإشعال المشاعل.

(٢٩ ب)

شكل رقم (٢٩ ب) لوح حجرى عن القرابين والولائم

وتجاوب الكل مع الفكرة وسرعان ماتردد صوت الكورس، حتى وهو يراقب كل شيء رأى حبشى العمال وهم يستخرجون لوحًا حجريًا رابعًا.

كان حبشي يتعجب لحظة عندما تحول انتباهه فجأة إلى قناة طويلة ضيقة من الحجر، وأنبوب مفتوح يتلوى متعرجًا عبر المنطقة الوسطى من المقصورة. كانت مصنوعة من الحجر، وتبدو كما لو كانت تستخدم فى الصرف، وتمتد من أمام ضريح هيكايب شرقًا، وتعبر المبنى المقام بالطوب الأحمر من الوسط، وتستمر نحو هيكل أمينى سنيب غربًا. عرف حبشى معناها فورًا. "كانت تعنى أن سكب النبيذ لأجل هيكايب فوق ضريحه إلى الشرق فاض من خلال فم مائدة التقدمة إلى مائدة قرابين أخرى على مستوى ارتفاع أقل، ثم ينزل إلى القناة التى تحمله نحو هيكل أمينى سنيب، ثم شرح بكلمات أخرى" الكاهن الأعلى يبارك مرتين: لبناء مثل هذا الهيكل المثير للإعجاب وبه تمثال جالس ومائدة قرابين فى هيكل هيكايب، ولاستلام النبيذ المنسكب الذى تقدس، وكان ذلك دليلاً على أن هيكايب كان يعبد كإله ولم يكن مجرد حفيد ممجد، ولكنه يتمتع بقدرات مقدسة".
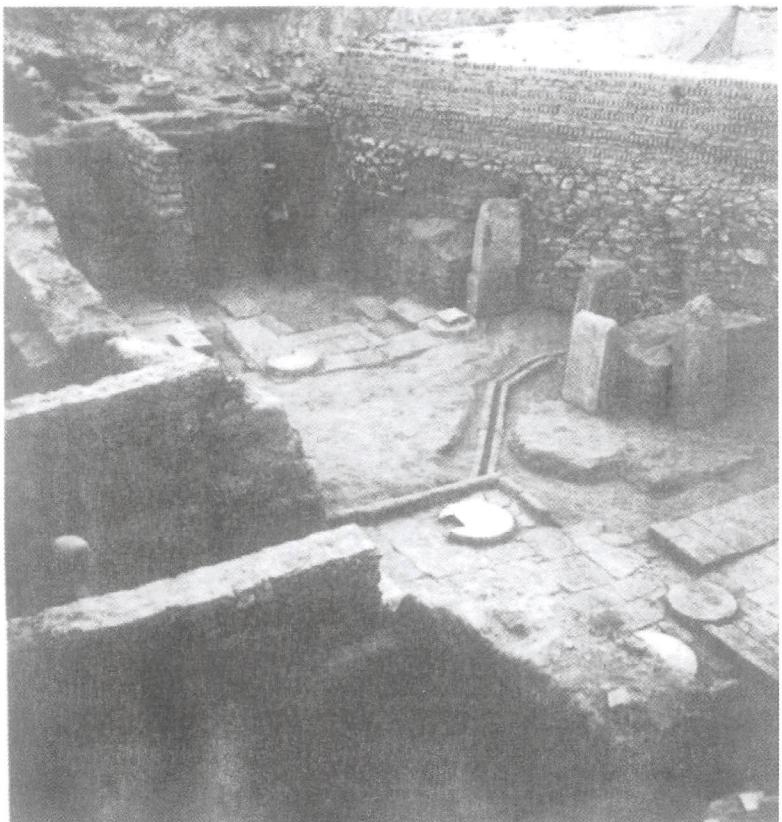
<u>شكل رقم ٣٠</u>: عندما أزيل الجزء الداخلى من المذبح، كشف عن قناة حجرية متعرجة عبر المنطقة الوسطى.

قلق حبشى لاستكمال الحفر قبل نفاد الاعتمادات المالية زاد بهذا الاكتشاف المتأخر، وطلب من عويس أن يجعل جزءًا من قوة العمل يخلون المنطقة الوسطى من المقصورة، وأن يقوم الباقون بإزالة الرمل المتراكم من أثر الحفر المحيط بالمنطقة.

"وحذرتهم لكى يكونوا مستعدين لظهور أية أشياء إضافية، والحقيقة أن كل ما وجدوه كان أنقاض حائط رفيع بنى قديمًا جهة الشرق لحماية المبنى، وسلسلة من الأوعية وجدت فى إحداها أداة خشبية، وفرشاة، وقطعة مستديرة من الفخار بها ١٤ تجويفًا، وكان هناك إلى الشمال بعض الخرائب التى كانت فيما مضى مباني سكنية بها حجرات عديدة تحتوى على قطع خزف مكسورة. "

أما المنطقة الخالية الآن فقد كانت مكونة حينذاك من عدة مبانٍ، ومساحتها حوالى ١٢ مترًا بعمق ثلاثة أمتار، وبداخل المساحة المحددة كان هناك ثمانية هياكل كبيرة وعشرة تماثيل بالحجم الطبيعى وأكثر من ٥٠ مائدة قرابين وأربعة شواهد قبور كبيرة، مع الأشياء التى استخرجت من حفائر غزولى، يوجد الآن أكثر من مائة قطعة مكتشفه فى هذا الموقع.
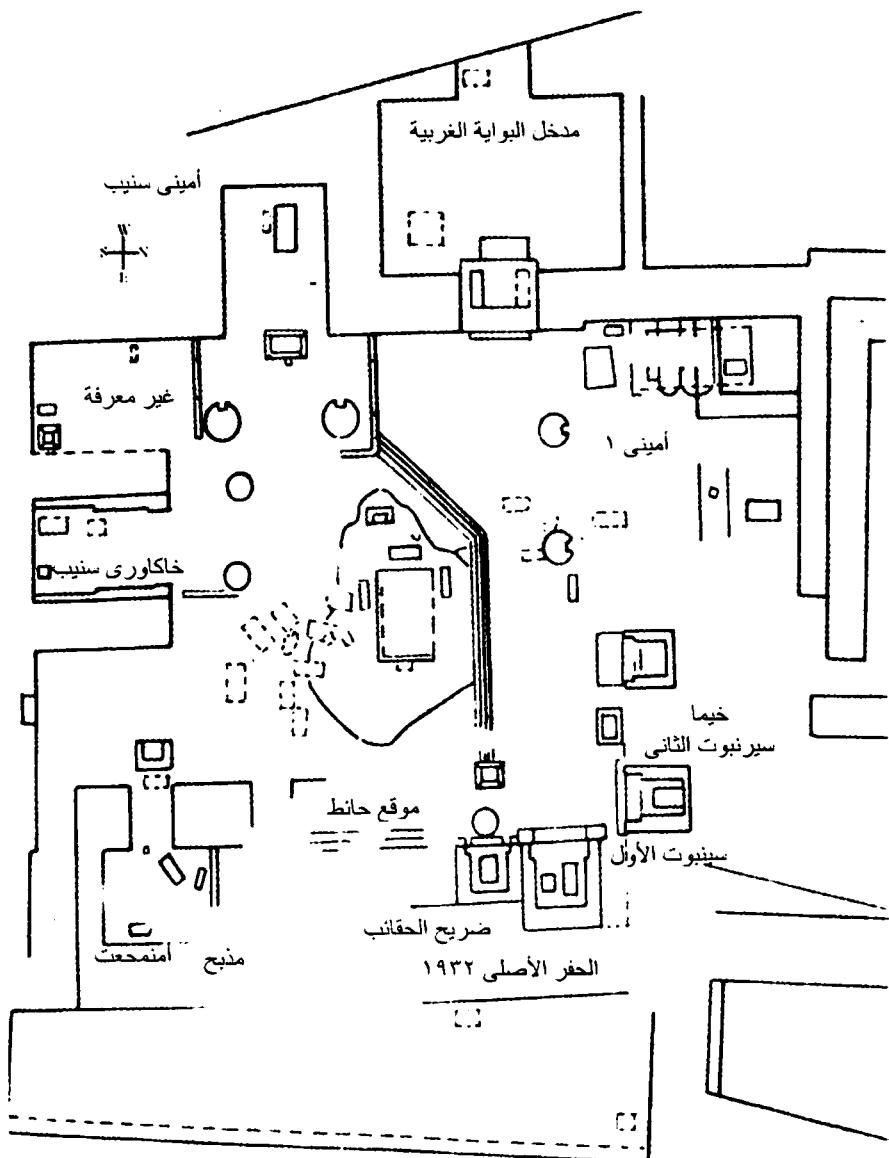
شكل رقم ٣١: مسقط أفقى للهيكل الذى اكتشف بكامله.

"منحتنى ضخامة الكشف السكينة. ووقفت عاليًا على الربوة حيث كنت قد استقبلت لجنة الخبراء عندما أريتهم الكشف الأصلى وأحسست بالسلام يغمرنى، سلام لم أنعم بمثله طوال الشهر الماضى".

شكل رقم ٣٢: لبيب حبشى (إلى اليسار) مع محمد عويس (فى الوسط) وهو ينظم فريقه

حتى أثناء ملاحظته حدث آخر الاكتشافات، فبالقرب من وسط الحائط الغربى للمذبح شمال هيكل أمينى سنيب تمامًا أزيحت كتلة ضخمة من الحجر عن الأرض. كانت أشبه بعارضة باب وبعد إزالة الرمال ظهرت العارضتان. كان هذا المدخل يؤدى إلى خرائب مبنى آخر على مستوى أعلى. اتضح أنه كان هناك مبنى أقدم أقل ارتفاعًا كان مستخدمًا كأساس لمبنى أحدث. كانت هناك أعمدة كثيرة مازالت ملقاة بالقرب من قواعدها، وقد لاحظت وجود بعض قطع الفخار بالقرب من سطح الأنقاض تغطى المنطقة بكاملها، وكانت مرصوصة بنظام كما لو كانت قد حملت إلى هناك بعد أن أصبح المبنى غير مستخدم ودفن تمامًا. كان ذلك الأمر غريبًا، لأن معناه أن المكان كان فى الذاكرة بسبب قدسيته بعد وقت طويل من الإهمال واختفاء كل أثر له. أذكر أننى كنت أفكر آنذاك ما إذا كانت أضرحة سيرنبوت الأول عبارة عن إعادة بناء لمنشآت قديمة كما ذكرت للجنة وأن أوانى الفخار قد وضعت هناك بعد انهيار البناء إلى أنقاض ودفنت تحتها، وثم قامت أجيال كثيرة بتكريم هيكايب. لم يكن حبشى يعرف أن افتراضاته حول هذه العارضة الأفقية والعارضتين الرأسيتين للباب اللتين كان يعتبرها مدخلاً للمذبح سوف يأتى چيرهارد هاينى مدير المعهد السويسرى فى ثمانينيات القرن العشرين ليعترض عليها. فقد قام هاينى بمسح هندسى للمذبح، قبل أن ينشر عنه المعهد الألمانى للآثار، عندما كانت كل الدلائل الموجودة غرب المدخل قد اختفت فى فترة الأربعة وثلاثين عامًا.

خلال الأيام الأخيرة من الحفر، وبينما كان عمال الحفر يكملون أعمالهم المحددة قبل العودة إلى الفيوم، طلب حبشى من النوبيين بناء قباب مقوسة فوق الآثار لحماية المنطقة المكشوفة، وكتب تقريره: "إنه بناء مؤقت تم بناؤه ليكون أقرب إلى البناء الأصلى".

شكل رقم ٣٣: منطقة حفائر مذبح هيكايب بعد أن تم حفرها وعلاقتها بالمتحف الموجود فى جزيرة فيلة مع بعض التماثيل التى مازالت فى موقعها (١٩٤٧).

الشكل رقم ٣٤: التمثال الجالس الذى يمثل أمنمحعت ابن ساتچينى الذى وجد مكسورًا إلى قطعتين.

الشكل رقم ٣٥: التمثال المصنوع من الجرانيت الرمادى للأمير ساحتحور مرتديًا باروكة وقميصًا طويلاً، وهو معروض على قاعدة مستطيلة الشكل ورجلاه مثنيتان تحته.

الشكل رقم ٣٦: مائدة قرابين للمحترم هابى اكتشفت بين الأضرحة التى تخص سيرنپوت الأول وسيرنپوت الثانى، أما الرغيف والقرابين فهى فى الجزء الأعلى البارز.
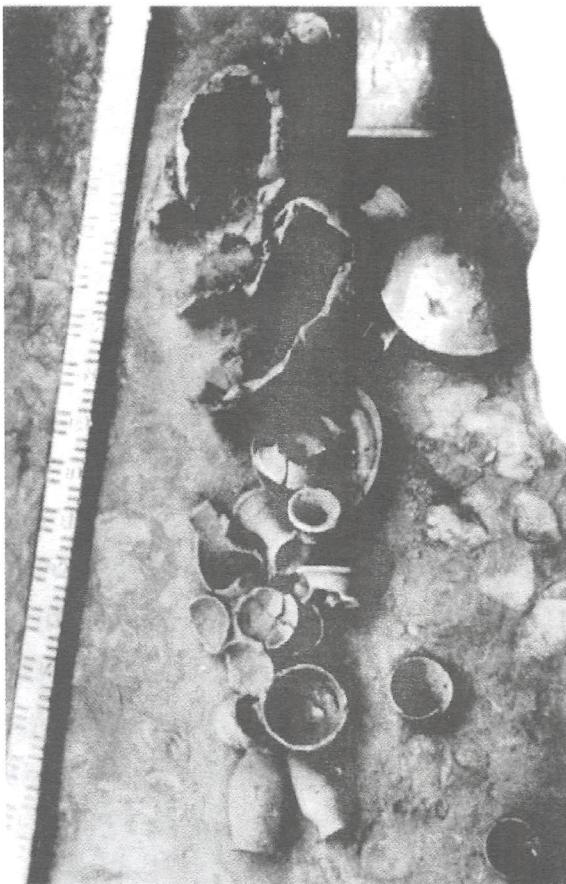
الشكل رقم ٣٧: كتلة من الفخار وجدت فوق طبقات الأنقاض التى كانت تغطى المنطقة التى غرب المذبح.

الشكل رقم ٣٨: حبشى وعبد الفتاح خفير الاستراحة فى فيلة.

فى البداية قمنا ببناء حوائط من الطوب الأحمر فوق تلك القديمة أو التى انهارت، ووضعت الأحجار المنقوشة فى مكانها، أما بالنسبة لغير المنقوشة فكانت تعرف بأنها رأسية للباب أو عوارض أفقية وقد استخدمت أيضًا للترميم ثم بنيت القباب من قوالب الطين لكى تصبح سقفًا للمبنى كله".

بعد انتهاء الحفر قضى حبشى أيامه فى غرفة المخزن الملحقة بالمتحف فى فيلة. جعل مقره بالقرب من المدخل حيث كان الضوء جيدًا فى منطقة مساحتها متران فى مترين، وبها مكتب خشبى صغير. كان همه الأول هو وضع الأشياء التى أخرجها من الحفر فى هيكل هيكايب بشكل منظم، وكان ذلك عملاً هائلاً.

كان الحيز ضيقًا والآثار ضخمة الحجم ولكنه واجه التحدى وهو يرتب أفكاره ويصنف الأشياء. التماثيل السليمة التى استخرجت من الحفريات وضعت بجوار الحائط. الأشياء الباقية قسمها أولاً إلى مجموعتين: المجموعة الأولى التى يسهل توصيفها وتلك المحيرة التى لا يظهر سوى جزء من اسمها أو تآكلت أو نصوصها غير مكتملة، وقد وضع هذه الأشياء فى جانب، بينما وضع الأشياء السابقة فى أربع مجموعات فرعية:

١. أشياء تخص أشخاصًا أسماؤهم وأنشطتهم معروفة من الحفائر السابقة.

٢. آثار متروكة بمعرفة أفراد أسماؤهم مجهولة.

٣. مجموعة تماثيل تحمل أسماء ملكية (وكان الموجود منها قطعًا قليلة). وأشياء تخص ٢٢ فردًا ترد أسماؤهم للمرة الأولى. حددت عملية توصيف هؤلاء الأفراد بأنهم من العامة كانت عملية أشبه برفع مجموعة آثار باستخدام البكر والحبال.

٤. قطع غير متناسقة مع قطع بالحجم الطبيعى، حيث طراز الحجر وخاصية التشغيل والألقاب إلى جانب العلامات المحفورة غير متناسقة.

"وتأكد هنرى رياض أن لدى عمالاً أكفاء ليساعدونى فى تحريك القطع بحيث أستطيع أن أتعرف إلى النقوش بوضوح". وبعد أن انتهى التصنيف، انتقلت أولويات حبشى إلى جبال من النصوص عكف على نقلها مع الاهتمام بكل التفاصيل.

كان الاهتمام كبيرًا بالبحث عن المعانى المحتملة للكلمات المحطمة والسطور غير المكتملة، ومحاولة استنباط المعانى وفهم التعبيرات الأدبية؛ وببطء استطاع أن يضيف تفاصيل إلى الوصف الأصلى الذى سجله بسرعة أثناء الحفر. وفى نهاية عمل اليوم كان عليه أن يعبر النهر للبحث عن الآثار الفنية التى قد تكون ذات صلة بالهيكل. "ذهبت إلى تجار الأنتيكات وتجولت فى مخازنهم المتربة باحثًا خلف أكوام من الفخار المكسور ومفتشًا فى أجولة الخرز وتماثيل الشوابتى الصغيرة المحطمة وغيرها". كان مهتمًا على نحو خاص بأجزاء التماثيل والكتل الحجرية التى تحمل نقوشًا، يقوم بتنظيف أسطحها بيديه العاريتين. كانت النقوش تظهر من خلال طبقات من القذارة والتراب.

وفى أحد الأيام لفت نظرى جزء من تمثال جالس، ليس لأنه كان قطعة جذابة-الجزء العلوى كان مفقودًا والذراعان محطمان-وإنما لأن اللون الرمادى نشط ذاكرتى. كنت متأكدًا أنه يشبه جزءًا من تمثال كان فى غرفة المخزن. قال صاحب المحل إن القطعة كانت موجودة فى محله لمدة تزيد على عشر سنوات ولم يمانع فى أن آخذها إلى فيلة لمعرفة ما إذا كانت مناسبة أم لا. واستطعت أن أحدد من النقش الكامل الموجود على ظهر التمثال، وأعرف أن صاحبه كان إلياور ديمى، وهو موظف رسمى لعب دورًا مهمًا فى علاقات مصر مع النوبة، كان قد نقش دعوة لشعب فيلة من الوجهاء والأفراد العاديين أن يصلوا من أجله لكى يسمع هيكايب تضرعاته، وعندما سألت الخفير فى فيلة ما إذا كان قد رأى هذه القطعة من قبل قال:"كان السباخون الذين حفروا بموجب رخصة من لاكاو سنة ١٩٣٢ قد حصلوا عليها".

وهو يعمل، كان حبشى يتذكر عبارات مسجلة فى نصوص قديمة، وعناوين على آثار غامضة وأفكارًا طرحت أثناء نقاشات مع معاصريه. لقد نشطت ذاكرته، وكان من غير الطبيعى أن يلجأ مرة أخرى إلى الرؤى غير الحقيقية، "عندما كنت أدرس العناوين التى على التمثال بدون رأس، لتابع الملك تيتى مثلاً وتذكرت تماثيل أخرى لنفس الرجل، وفيما بعد وجدت فرصة لفحص المصادر. ولا عجب فى أننى تعرفت على اسم تيتى، يوجد شاهدان له فى المتحف المصرى ثم وجدت شاهدًا آخر فى ڤيينا، وفى اللوڤر وفى المتحف البريطانى. أصبحت شديد الاهتمام بمهنة هذا الرجل البارز حتى أصبحت قادرًا على معرفة أنه كان يقيم أصلاً فى أبيدوس حيث وجدت أربعة من الشواهد الخمسة، ثم هاجر إلى أسوان حيث استقر مع أسرته. وترك شاهدًا وتمثالاً فى فيلة كتب عليهما صلوات لآلهة منطقة الخزان".

إن الحفر الناجح بمعنى وجود أشياء لا يعنى شيئًا فى حد ذاته. وبصرف النظر عن عدد الاكتشافات التى تظهر، أو قيمة مادتها، أو حالتها فإن أهميتها تكمن فى التحليل والتحقق والتفسير ومقارنة الاكتشافات الحديثة بما هو معروف ثم تكوين رأى عنها. "على مدى سنوات سفرى الطويلة التى قضيتها كمفتش تعلمت أن العديد من الاكتشافات تاهت فى زوايا النسيان، لأن الدارسين لم يسجلوا نتائج عملهم". وأثناء عمله بدأت قصص العائلات تتطابق مع المعطيات التاريخية وبدقة مثل صور روبيشون وعددها ٢٢ صورة. وعندما كان يحدد الأشخاص ويتابع وظائف الأفراد ظهرت الدراما القديمة بكل ما فيها من تفاصيل، ولكن هوية هيكايب كانت مراوغة بالنسبة له وأرقت عقله". وكان من سخرية القدر أننى كنت أعرف حياة عدد كبير من الأفراد الذين تركوا تماثيل فى الهيكل بينما لا أعرف شيئًا عن طبيعة العقيدة. لم أستطع أن أبتعد عن فكرة أن أى رجل عادى لا يحمل أية مزية خاصة يمكن أن يلقى تكريمًا مثل الآلهة"، "كلما كنت أعمل أكثر كنت أصبح أكثر إدراكًا بأننى عاجز عن معرفة هوية هذه الشخصية الفريدة. كان اسم

هيكايب فريدًا على الإطلاق ولكننى عجزت عن أن أحدد من هو أو متى عاش، ناهيك عن بدنه عملاً جعله يلقى هذا التكريم على مدى قرون".

فى إحدى الليالى وأنا أغادر القارب فى أسوان سمعت صوتًا ينادينى واستدرت لكى أواجه شابًا. وفي الضوء الخافت استطعت أن ألاحظ أن ملابسه كانت بالية. أما الكتب التى كانت تحت إبطه فكانت مربوطة بقطعة من الدوبارة. كانت عيناه مجهدتين، أخبرنى أن لديه تمثالاً وأنه كان إرثًا لدى عائلته على مدى أجيال، ذهبت معه إلى بيته وأرانى الجزء السفلى لتمثال جالس كان من الواضح أنه يحمل اسم "إيبى" ولقبه المشرف على قائمة الحساب، لم يكن إرثًا. كان من الواضح أنه مأخوذ من الهيكل. كانت عليه صلوات موجهة إلى آلهة منطقة الشلال الثلاثة وإلى هيكايب. قلت له إننى على استعداد لشرائه لحساب مصلحة الآثار وتم الاتفاق على الثمن. وأنا خارج واعدًا بأن يتم استكمال الصفقة قريبًا اكتشفت مدى حاجته إلى النقود. قلت له إننى أرحب به فى فيلة، حيث يمكن أن ألفت انتباهه إلى علم المصريات. أثبت أنه كان مفيدًا جدًا لى فى غرفة المخزن".

منذ أن شاهد حبشى ألقاب هيكايب منقوشة على الضريح فى الهيكل الذى بنى لتكريم هيكايب بمعرفة سيرنبوت الأول عرف أنها كانت ألقابًا من المملكة القديمة وراح يفكر فى احتمال أن يكون هيكايب المؤله فى المملكة الوسطى كان يعيش فى أوج الفترة الباكرة، "ولكننى أنا نفسى لم أكن أعتقد ولا أن أقول لزملائى أن مجرد رجل نبيل كان مهمًا لدرجة أن تبقى عبادته على مدى مائتى عام. ولاتوجد سابقة لمثل هذا الشىء ولكننى لم أستطع طردها من فكرى. كانت المملكة القديمة فترة ملوك عظماء وآثار ضخمة ونبلاء شجعان أقوياء. لقد بنوا المقابر فوق قبة الهواء وتركوا نصوصًا عن سيرهم الذاتية كشفت عن أنهم عاشوا عصر رواد وبناة عظام. إنه العصر الذى شهد فيه هاركوف قائد القوافل العظيم وهو يقوم بالبعثات الاستكشافية فى أواسط إفريقيا وسابنى الابن المخلص لأبيه ميكو، وقد قاد بعثة لاستعادة جسمان والده الذى اغتالته قبائل صحراوية، وبيبى نخت الذى أخمد

ثورة فى النوبة السفلى وعاد بأبناء قادتها رهائن. ولو أن هيكايب عاش فى المملكة القديمة فلربما كانت مقبرته فى انتظار من يكتشفه فوق قبة الهواء. هذه الفكرة التى ولدت أصبحت تحديًا، أرسلت إلى عويس فى اللاهون لكى يعود ومعه فريقه.

الفصل السادس

عقيدة هيكايب

استجاب محمد عويس بشوق شديد إلى دعوة لبيب حبشى للعودة إلى فيلة، كان هو وفريقه قد حملوا معهم إلى الفيوم أخبار هذا الاكتشاف الأخير على التربة المصرية، "نعم إننى أذكر" وكان يهز رأسه عندما قابلته فى اللاهون سنة ١٩٨٧؛ وأشك فى ذلك. لأنه كان رجلاً مسنًا هزيلاً ضعفت ذاكرته على أى حال فقد عرفت أنه أصبح أسطورة وسط عائلته الكبيرة. عندما عاد العمال من فيلة كان شباب القرية يجتمعون كل ليلة حول منزل عويس للاستماع إلى الخبرات التى كان يرددها مرة بعد أخرى.

ويبدو أنهم لم يملوا من التكرار. وهكذا عرف أهل الفيوم الكثير عن أسوان وأسواقها وجلود التماسيح والسلال الملونة المملوءة بالبلح وقبائل البشارية ذات الشعر الطويل المجعد التى كانت تحضر مئات الجمال من السودان، وعن النوبيين فى فيلة الذين كانوا قد أقسموا على ألا يؤجروا مساكنهم لغير النوبيين، إلا أنهم كانوا ودودين. وعندما كانوا يجتمعون كل مساء ليتحدثوا كانوا يقدمون السودانى اللذيذ غير المملح الذى يقولون إنه يحمص فى الرمل وسمعوا الكثير عن سمك النيل الكبير الحجم ورائحة التوابل فى السوق وعن الشتاء الأشبه بالربيع وعن النيل فى حالة غضب.

كانت من الحكايات المفضلة التى تضاف إليها تفاصيل فى كل مرة "الوليمة العظيمة التى كانت تعد قبل الرحيل. ويتذكر محمد توفيق ابن محمد عويس أن البيه اشترى خروفًا كاملاً "فكرنا عندما رأيناه وهو يقلب على نار الخشب والنسيم الذى

يدفع بالرائحة نحونا وظننا أنه كان من أجل أصدقائه من أسوان، المفتشين والموظفين والأجانب، ولكنه كان أيضًا لنا نحن أبناء الفيوم والنوبيين، وكنا نصفق ونغنى، وكان يأتى الموسيقيون ومعهم الطبلة والطمبورة ذات الأجراس الصغيرة والدربكة والزمارة، وتقوم النوبيات بطهى الأرز ويقوم أطفالهن بالرقص. وكنا أكثر من ستين شخصًا، كان احتفالاً عظيمًا". العجيب أن حبشى لم يجد صعوبة فى تجميع فريق مرة ثانية، وشرح أنهم هذه المرة لن يحفروا على جزيرة فيلة ولكنهم سيذهبون إلى البر الغربى للنيل ويبحثون عن مقبرة. "تجمع المتطوعون حول أبى وكان كل من فى القرية يريد أن ينضم للفريق، وشعر الكثيرون بالخذلان ماعدا شخصًا واحدًا كان يريد أن يكون فى المنزل ليحضر ولادة ابنه الأول، واختار البيه المجموعة نفسها.
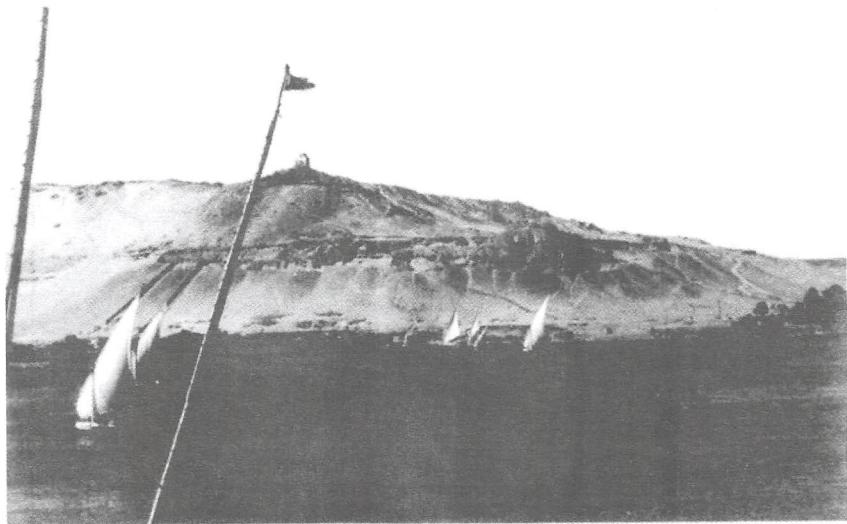
الشكل رقم ٣٩: قبة الهواء والتى تتخذ اسمها من بناء مبنى صغير مقبب على قمتها. والصخرة عليها مقابر منحوته فى الصخر على مستويين فى منتصف المسافة من الارتفاع الذى يواجه النهر.

على الرغم من اهتمامه الباكر بالتمويل، كان ما لدى حبشى الآن أصبح مددًا كافيًا للعودة إلى أسوان والاحتفاظ بالفريق عدة أسابيع، وإذا نفد ما لديه.... حسن! لن يفكر الآن فى هذا الأمر.
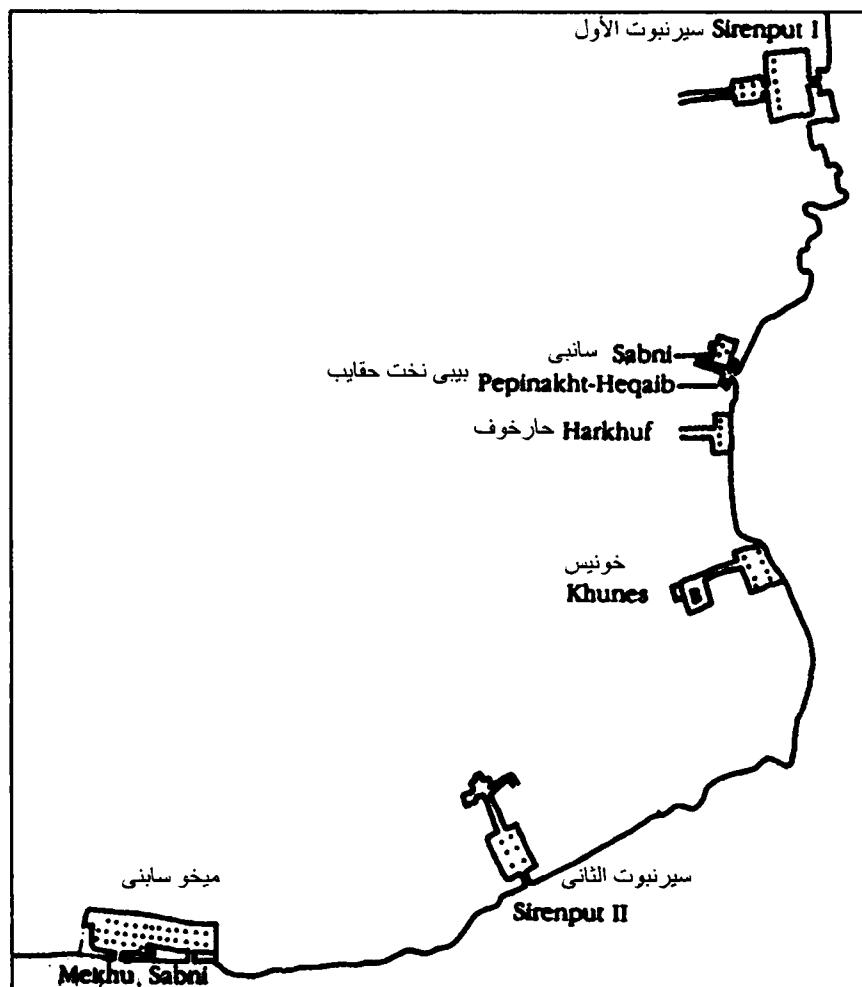
شكل رقم ٤٠: موقع المقابر على قبة الهواء.

كانت خطواته السريعة تجعله فى مقدمة فريق الحفارين على الضفة الغربية للنيل وهم يتحركون نحو قبة الهواء. كانت مقبرة سيرنپوت الأول موجودة عند المدخل الشمالى للمقابر. أما مقبرة سيرنپوت الثانى فكانت عند انحناءة التل فى الجنوب الشرقى، ومقابر المملكة القديمة كانت موجودة فى الشمال. هنا كان حبشى يأمل أن يجد فيه مقبرة هيكايب، الشخص المجهول الذى كرمته أجيال فيلة بعد موته. كان مدهوشًا كعادته أمام المناظر الرائعة التى يراها. "منظر النهر جميل من فوق قبة الهواء، تستطيع أن ترى القوارب النيلية وهى تنقل القرويين جيئة وذهابًا. وتجد دائمًا نوبيات يغسلن أوانى الطبخ عند حافة النهر وأطفالاً يسبحون، وعلى البعد تجد التلال بلون خام الحديد. الهواء منعش ونظيف. تمشينا بطول الشرفة الواسعة إلى النقطة التى بين صفى السلالم المتوازيين وبينهما معبر منحدر يمتد إلى النهر، فى الأزمنة القديمة كان التابوت الحجرى الذى يحمل المتوفَّى يأتى محمولاً على قارب ويضعونه عند قاع المنحنى، ثم يربطونه بالحبال يجذبونه عبر المنحنى بواسطة فريق من الرجال الذين يصعدون على السلالم، وعندما يصل التابوت وكل المعدات الجنائزية إلى القمة بسلام، يجرونها إلى المقبرة التى تكون محفورة فى الصخر ومزينة بألقاب المتوفى وسجلات إنجازاته".
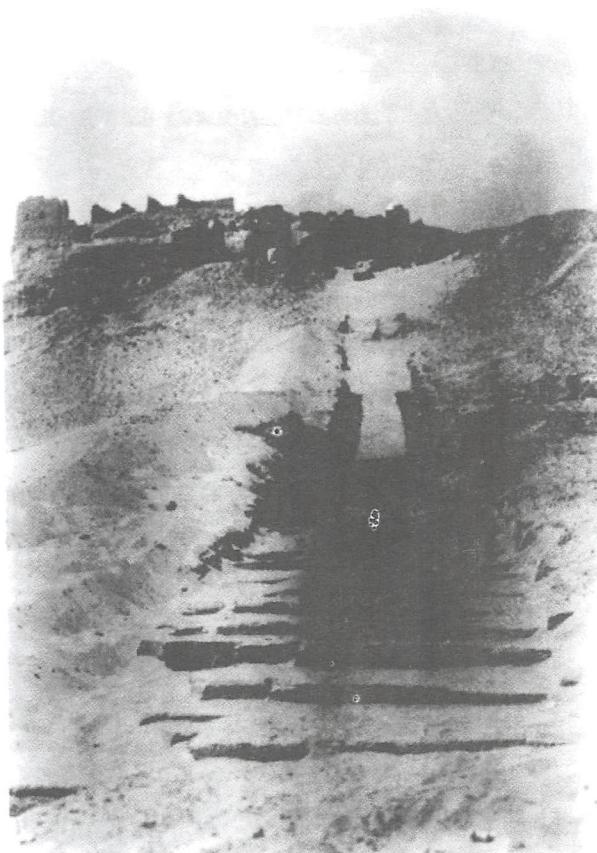
شكل رقم ٤١: مجاز إلى المعبر المنحدر المؤدى إلى المقابر على قبة الهواء.

كان بين المقابر ثلاثة يحمل أصحابها اسم هيكايب، وكلها كانت قد أخليت قرب نهاية القرن التاسع عشر، وكانت واحدة منها صغيرة (رقم ٢٨) عبارة عن حجرة واحدة ويوصف صاحبها بأنه "هكايب المحترم ابن إديب والمولود من إيبيت" ولكن لا حجم المقبرة ولا وصفها كان يوحى بأى تحديد أو تطابق مع اسمه فى فيلة". كما قال حبشى: لم يضيع وقتًا هناك. المقبرة الثانية (رقم ٣٠) كانت كبيرة ولكنها كانت مبنية مع الهيكل،"عرفت ذلك لأن صاحبها أقام معبدًا صغيرًا على فيلة، كما ترك تمثالاً ومائدتى قرابين؛ وعلى أية حال كانت هناك مقبرة أخرى (رقم ٣٥) تخص وجيهًا يسمى بيبى نخت كان اسمه الثانى "الاسم الجيد" هو هيكايب، وكان جديرًا بالاعتبار، لأنه مع طول عصر الفرعون بيبى الثانى حوالى سنة ٢١٨٠ قبل الميلاد كانت أسوان قد بلغت مكانتها السياسية وكان النبلاء كما نعرف من النصوص التى تحكى سيرهم الذاتية، كانوا من الإداريين (قادة قوافل) والسياسيين الأكفاء. وكان الوقت مناسبًا للتفاخر والمغامرة كما قال حبشى. "تخيل مستكشفين يسافرون بعيدًا إلى الجنوب، إلى مناطق قالوا إنها لم يسبق استكشافها من قبل، وهناك نبيل يدعى هاركوف استورد قزمًا راقصًا لحساب بيبى الثانى لإسعاد الملك الصغير الذى جاء إلى العرش طفلاً. كان حاكم فيلة فى وقت هاركوف هو بيبى نخت-هيكايب وكان مرشحًا مرجحًا للألوهية.

كانت مقبرة بيبى نخت-هيكايب قد جرى تعريفها أولاً بمعرفة چاك دى مورجان سنة ١٨٩٤. الألقاب المنقوشة على العارضتين الرأسيتين للباب تصف الرجل النبيل بأنه "ولى العهد والحاكم ومستشار ملك مصر السفلى والصديق الوحيد والكاهن القارئ وناظر البلاد الأجنبية"، أما نص السيرة الحياتية والمكتوب على العارضتين الرأسيتين للمقبرة فيكشف عن أن لمنصبه أربعة أوجه. أولاً: وصف نفسه بأنه مدير عادل وإدارى عطوف. "لم أقل شيئًا لأحد فى السلطة ضد أى شخص آخر لأننى رغبت أن يظل اسمى حسنًا لدى الإله الأعظم. لقد أعطيت خبزًا للجائع، وملابس للعريان، ولم أنصف أحد أخوين بطريقة تحرم ابنا من خيرات

أبيه"، ثم يأتى وصف لواجبه فى حراسة طريق التجارة فى النوبة السفلى حتى تعبر القوافل دون عائق إلى مصر. أما الوجه الثالث من عمله فإنه كان وسيطًا بين القبائل النوبية التى هزمت مؤخرًا فى الحرب، ويزعم أنه "أحضر رئيسى هاتين البلدين للإقامة فى سلام مع تقدمات من الماشية ذات القرون القصيرة والطويلة". وأخيرًا كان بيبى نخت هيكايب قد أرسل فى مهمة خاصة إلى ساحل البحر الأحمر حيث ثأر من هذه القبائل التى قتلت موظفًا رسميًا مصريًا أثناء تأدية عمله هناك، ووصف كيف أعاد الجسمان إلى وادى النيل للدفن.

كان حقًا رجلاً ضليعًا كما قال حبشى،"وأنا متأكد أن الملك قد مدحه، ولكن المشكلة هى أن هيكايب لم يكن النبيل الوحيد فى المملكة القديمة الذى يدعى أنه كان خبيرًا ومسؤلاً وكفئًا، فقد أطلقت هذه الأوصاف على عامة الموتى ضمن نقوش المقابر فى تلك الفترة، بالإضافة إلى أن هيكايب لم يكن له تمييز خاص يجعله يمتاز بتقديس خاص، بصرف النظر عن الألقاب المتشابهة، ويوجد دليل يربطه بالمذبح الموجود فى فيلة والعبادة التى تمارس هناك. تخليت عن كل النوايا والأغراض، ولكن الشىء الطريف هو أننى حتى لم أفكر فى البحث عن مقبرة أخرى غير مكتشفة تخص "هيكايب" آخر، لأننى تأكدت أن بيبى نخت هيكايب كان هو الرجل الذى أبحث عنه. أصبح لدى إحساس طبيعى بالهوية وإن كان هذا ليس كافيًا، فربما كان على أيضًا أن أجد دليلاً قاطعًا للربط بين صاحب المقبرة والمذبح فى فيلة، والحقيقة هى أننى لم أكن أعرف من أين أبدأ".

ولكى يعطى نفسه وقتًا طلب حبشى من عويس أن يقوم رجاله بإخلاء الشرفة شمال المقابر حيث كانت قد تكومت كميات كبيرة من الرمال فوق الأنقاض التى سقطت من التل فوقها، وفى نفس الوقت كان يجول من وإلى بطول الحافة البارزة فوق النهر ويدخل ويخرج أكثر من مرة فى مقبرة هيكايب التى كانت قد امتلأت جزئيًا بالرمال محاولاً أن يشغل نفسه بالمشكلة التى بين يديه. "نادرًا ما كنت أنظر إلى القنص وصيد الأسماك المرسومة على الجدران، وكان أحدها

يمثل معركة بين ثورين، وكان السبب الوحيد لدخولى المقبرة هو ألا أقف فى طريق العمال على الطرف الضيق. لاحظت منطقة مكسورة بالقرب من أسفل الحائط الشمالى، ولكننى لم أعرها اهتمامًا كبيرًا وظننت أنها مجرد ارتفاع صغير فى الأرض، ولكننى فى كل مرة كنت أدخل فيها المقبرة أجد عينى عليها، وأخيرًا جثوت لكى أفحصها وعندما لمست المنطقة تفتت بعض التربة، ونظرت عن قرب أكثر فظهر أنها كسر فى الحائط مسدود بالأنقاض، كشطت التراب بيدى وأدهشنى أنه كان يزول بسرعة وكشف عن شق، لم أصدق. دون أن أحول عينى خشية أن يختفى عن بصرى، بحثت عن السكين الذى أحمله وحفرت حول الفتحة فظهر شق غير مستو يشبه الشقوق التى يصنعها لصوص المقابر وتسارعت ضربات قلبى، إذ ربما كان يؤدى إلى غرفة مقبرة، وعندما أصبح الشق كبيرًا بما فيه الكفاية دفعت جسمى من خلال الثغرة ومع إحساس بالصدمة، وجدت نفسى أسقط من خلالها وأصطدم بالأرض فى الظلام."

ومدركًا أن من يستمعون إليه كانوا مبهورين وهو يحكى، كان حبشى يضيف بعض الملح والفلفل إلى قصتة: هل تتخيلون أفكارى؟ هل سقطت فى شق حفر لتجميع مياه الأمطار؟ لا ! إذ إن الماء يمكن أن ينصرف بسهولة من حافة الجبل، لابد إذن أنه كان فتحة لسحب معدات جنائزية من النهر إلى أرضية المدفن. ولو أن الأمر كذلك فلابد أنه متجه أسفل إلى النهر، لو نجوت من السقطة، فسوف أغرق ولن يجد أحد جثتى، شعرت بالفزع. هذه الأفكار برقت فى عقلى خلال الثوانى التى استغرقها هبوطى إلى الغرفة، التى كانت كبيرة وأكثر انخفاضًا من سطح المقبرة المحفورة فى الصخر فوقها. ولو لم يكن الرمل قد ملأها حتى المنتصف للحق بى ضرر من السقطة. وقفت على قدمى ونفضت التراب عنى وزعقت: (عويس.. يا محمد عويس هل تسمعنى ؟ يا ريس عويس.. هل تسمعنى؟ أحضر لى ضوءًا بسرعة، ظهر شعاع الضوء وهو يتراقص على الحوائط ورأيت أنها كانت مزينة برسوم بارزة ومختلفة تمامًا عن تضاريس المقبرة التى فوقها،

والحقيقة أنها كانت شديدة الاختلاف حتى إننى لم أحتج سوى إلى لمحة سريعة لإقناع نفسى بأننى لم أر مثيلاً لها من قبل. لم تكن حفرًا بارزًا مثل ذلك الذى فى المملكة القديمة، وإنما كانت رسومًا ملونة لحاملى القرابين.
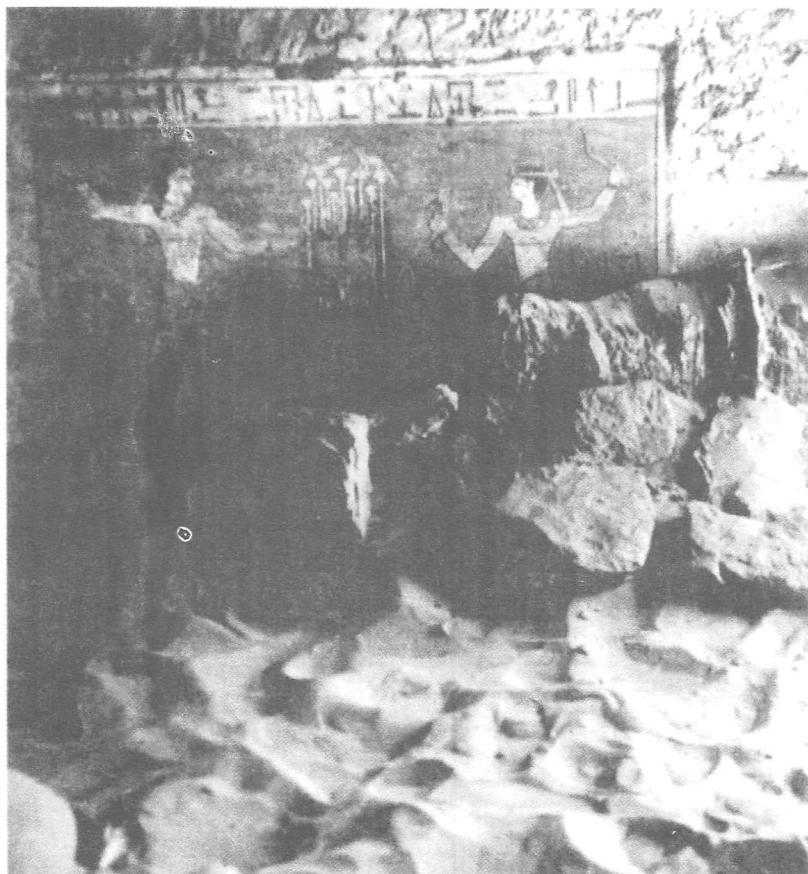
شكل رقم ٤٢: أحد الرسومات على قسم مربع من الحائط الجنوبى.

شكل رقم ٤٣: لم تكن كل مناظر حاملى القرابين قد اكتملت. لاحظ الشخص الذى لم يكتمل تصويره (إلى اليمين).

لم تكن هذه الصور فى الخانات العادية، ولكنها كانت مرسومة فى أقسام مربعة من الحائط الخشن وكان بعضها غير متقن. وبصرف النظر عن احتمالات غرقى أو إصابتى بكسور، فقد قمت باكتشاف، ومن الطبيعى أن أكون سعيدًا ومتلهفًا على رؤية النقوش البارزة على نحو أفضل لكى أرى إن كان ثمة علاقة لها بصاحب مقبرة بيبناخت - هيكايب العليا، وما إذا كانت تحمل مفتاحًا لحل لغز عقيدة هيكايب فى فيلة، ولكن المدخل من الشرفة كان مسدودًا تمامًا".

أمر حبشى بإخلاء المساحة التى أمام المدخل المفترض "كان الرمل ناعمًا وجافًا ومن السهل معالجته أفضل من السباخ الأسود فى فيلة" و"الحقيقة أن الحفر فوق التل أعطى الحفارين فرصة لدفع الرمل فوق الحافة البارزة لكى تذروه الريح. استمر عملهم ثمانية أسابيع بمعدل ١٤ ساعة يوميًا إلى أن ظهر مدخل مهيب". كان عبارة عن عمودين غير مزخرفين من الصخر يشكلان جناحى الباب، ربما كانا متصلين بالحائطين على جانبى إطار خشبى، لم تكن الواجهة مزخرفة ولكن كان على الحائطين الداخليين للمدخل رسوم كبيرة لبيبى نخت - هيكايب صاحب المقبرة المجاورة وممسكًا بصولجان السلطة وأمامه وخلفه رسوم لمسئولين رسميين بحجم أصغر.

شكل رقم ٤٤: عمودان منحوتان من الصخر على جانبى المدخل تم اكتشافهما.

شكل رقم ٤٥: نقوش بارزة تتحدث عن بى نوبت عند مدخل قاعة العبادة الخاصة بسابنى على قبة الهواء.

ويتذكر هنرى رياض دهشة حبشي وهو يشير إلى النقوش الهيروغليفية على الممر المؤدى إلى الغرفة التى سقط فيها. كانت مزخرفة بمناظر أناس يجهزون القرابين أو يشرفون على الطقوس ملقبين بـــ "مراقبى القاعة" وكان لبيب فى حالة بهجة كما يقول رياض "وأشار إلى أن تلك لم تكن غرفة جنائزية مثل الغرف الأخرى على قبة الهواء، وإنما كانت قاعة لعبادة النبيل الميت، ومضيفًا أن وجود شيء كهذا وسط مكان للدفن أمر غير عادى وربما فريد، لأن الملوك فقط هم الذين كانت لهم مراكز للعبادة أو معابد جنائزية".

أكد الأسلوب الفنى للنقش البارز أنها كانت محفورة فى نهاية المملكة القديمة، أو عند بداية الفترة الوسطى. فى الخانة العليا على الصف العلوى للحائط الداخلى القريب من المدخل كانت هناك صورة لپيپى نخت هيكايب مثل التى عند المدخل أكبر حجمًا، وفى مواجهته رجل مرسوم بمقياس رسم أصغر وهو يقدم له القرابين، معرف بأنه "الابن المحبوب ــ نى نوبت" ويبدو أن القاعة كانت قد بنيت بعد موت پيپى نخت هيكايب على يد ابنه الذى زينها بمناظر الطقوس الجنائزية المقدمة تذكارًا لأبيه.

"وعلى الرغم من الصور التى يقصد بها تكريم أب ميت كانت أمرًا عاديًا فى مقابر المملكة القديمة فإن وجودها فى قاعة للعبادة، إذا كانت تلك قاعة عبادة، أكد إحساسى بأن پيپى نخت - هيكايب كان نفس الشخص المعرف بـــ"الأمير هيكايب" فى مذبح فيلة" حسب قول حبشى. "كل ما كنت أحتاجه هو أن أجد دليلاً قاطعًا أو نصًا دامغًا ويفضل أن يثبت العلاقة بين الأسرتين".

استمرت عملية إزاحة الرمال قرابة عشرة أسابيع خلال الفصل الأثرى ١٩٤٧ــ ١٩٤٨ وقرب نهاية الربيع لم يعد الجو مناسبًا لأبناء الفيوم، يومًا بعد يوم كان الطقس يصبح أكثر قسوة. وكان حبشى قد حذر الرجال لكى يتوقعوا جوًا حارًا، ولكن الحرارة الخانقة المحيطة بهم بالإضافة إلى الشمس المحرقة كانتا أبعد

من أى توقع. كانت تمتص ماء الجسم قبل أن يصل إلى سطح الجلد. وتخترق مستنزفة الطاقة من الأطراف. وبدا النوبيون غير متأثرين بالحرارة مما كان يدهش أبناء الفيوم. أغلقت معظم البعثات الأثرية فى مصر العليا مقراتها مع بداية فصل الصيف.

عاد علماء الآثار والمعماريون والفنانون والمصورون إلى القاهرة ولكن حبشى وفريقه من أبناء الفيوم ظلوا فى مواقعهم، وقلق عويس عندما بدأ رجاله يتذمرون ليس مع بعضهم بعضًا، ولكن كان هناك نوع من الحديث بصوت خفيض غير مترابط ربما كان صلاة. "لاحظت أنهم أصبحوا يومًا بعد يوم أكثر تراخيًا وظهرت تعبيرات الجهامة على وجوههم. ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟" أثناء ساعة الراحة كان بعض الرجال يتجمعون، وقد سحبوا جلابيهم وشدوها حول أجسامهم للحماية من شدة الحرارة، كما يتجمع الأفراد حول النار فى يوم شديد البرودة، وآخرون كانوا يعتصمون بالوحدة وكنت تراهم جالسين فى خمول فى ظل صخرة، ولكن حبشى كان مستمرًا فى الحركة وكانت خطواته خطوات رجل مشغول الفكر قلق الروح.

وعندما صحبته فى رحلة إلى سقارة فى سنواته التالية عندما كان مهتمًا بمشروعاته البارزة ووجدته مهمومًا بما إذا كان سوف يجد الوقت لإكمالها خلال الباقى من حياته، وجدته يسير بالطريقة نفسها.

وفى النهاية عندما أظهرت الأيام أن العمل لن يتم قبل بلوغ فصل الصيف ذروته قرر أن يتوقف. "كنت أريد أن أعرف ما وراء القاعة ولكن العمل كان يحتاج إلى أسابيع أخرى لاستكماله. كان ثلث الغرفة ما زال ممتلئًا بالرمال وبعد ذلك غمر الأفق بقعة صفراء فى الجنوب الغربى. كانت رياح الخماسين تهب فى مكان ما بالصحراء، وبعد قليل ستصل إلينا، والحرارة سترتفع. لم تكن رياحًا عادية لأنها ستسوق ذرات من الرمال بقوة تجعلها تقطع الصحراء مثل منجل كبير. قد لا تهب لأكثر من يومين أو ثلاثة أيام متوالية، ولكنها خلال تلك الفترة من

المحتمل أن تحرك كثبانًا ضخمة بقوة عبر الممرات الصحراوية وقد تصبح الصحراء نفسها عارية من النباتات وقد تحولت إلى تبن.

كان الهواء ساكنًا فوق قبة الهواء، ويبدو أنه كان يمسك أنفاسه قبل هبوب العاصفة، وتستطيع أن تلاحظه بنفسك وهو يقترب بالفعل، فإن الحرارة التى تومض وتجعل وجه الصحراء أبيض تأخذ لونًا أصفر مع وصول الخماسين. أما نخيل أسوان الباسق بشموخ عظيم فسوف ينحنى حالاً بسبب قوة الريح، وأوراق السرخس (نبات صحراوى) ستصبح كالسياط، بعضها سينفصل عن الجذوع وتحمله الرياح بعيدًا".وقفت وتأملت التغيير فى لون السماء عندما شعرت بعويس بجانبى، وقفنا صامتين فترة طويلة ثم طلبت منه إبلاغ الرجال لكى يستعدوا للرحيل فى قطار المساء.

قضى حبشى الصيف بالقاهرة. قال إنه كان من أطول فصول الصيف التى عرفها فى حياته. اختار ألا يصحب أسرته خلال عطلتهم السنوية إلى مرسى مطروح على شاطئ البحر الأبيض. "تجحت بالعمل ولم يكن ذلك صحيحًا. كنت فقط أريد أن أختلى بنفسى. لم أستطع أن أواجه فكرة استمرار الأطفال فى الكلام وتجهيز وجبات الطعام وتقديمها بصوت صاخب و"رزع" الأحجار على الخشب وأقاربى يلعبون الطاولة". قضى حبشى الأسابيع الأولى القليلة فى مكتبة المعهد الفرنسى، درس آثار المملكة القديمة بالمتحف المصرى. وكتب خطابات إلى الدارسين. ووصلنى رد على أحدها بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٤٧ من داوز دانهام أمين متحف الفنون الجميلة فى بوسطون، ردًا على سؤال حبشى عن التماثيل التى من أسوان يقول: "بالنسبة لتمثال هيكايب فإن مستر هايز من متحف المتروبوليتان يقول لى إن هذه القطعة لا توجد لديهم فى متحفهم.

ليس عندهم أية منحوتات من أسوان تنتمى إلى الدولتين القديمة أو الوسطى". قام حبشى كذلك برحلات عديدة إلى الجيزة وسقارة "وفى الجيزة ذهبت إلى مقبرة تخص نبلاء من الأسرة الرابعة تقع قرب هرم خوفو، كانت

مزودة بطرق متقاطعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ولكن لم أجد هناك شيئًا نافعًا. جذبت سقارة اهتمامى أكثر، لأنه إذا ما صح افتراضى فإننى سأجد هناك مقابر تخص العصر الذى عاش فيه هيكايب، ولكنها لم تكن مجزية، وليس بها دليل على وجود قاعة للعبادة. مع مرور الأسابيع أصبحت أكثر قلقًا. كانت الليالى طويلة وحارة، ولم أذق النوم خلالها. كنت أسمع أصوات الحمير وهى تنهق منادية بعضها بعضًا عبر الشوارع، والجيران يتجادلون دائمًا. يتجادلون حتى الفجر عندما أسمع المؤذن يدعو للصلاة". وتوقف قليلاً ثم استمر: "بدأت أقوم بالمشى لمسافات طويلة بعيدًا عن شوارع شبرا الضيقة. هل تعرف أن كل تجارة لها الحى الخاص بها ؟

هناك مناطق للذهب، وللحوم، وللملابس، وللتوابل. ولكل منها روائحها الخاصة وأصواتها. فى الصيف تصبح طرقات الحارات امتدادًا للأحياء المأهولة لأن المبانى متلاصقة. الأطفال يلعبون الكرة والنساء تقشر الخضراوات والحلاقون يقصون الشعر. الباعة الجائلون يبيعون بضائعهم والغزالون يقومون بالغزل. يستخدمون امتداد الحارات لنشر شلات الصوف المصبوغ. وفى النهاية عندما وصلت إلى القاهرة الحديثة جنوبى محطة السكة الحديد، كانت الأشياء مختلفة، مشيت تحت بواكى شارع محمد على نحو فندق شبرد حيث كان يتجمع الملوك والمليونيرات. شوارع جيدة الرصف وعلى جانبيها صفوف الأشجار. فاترينات المحلات مليئة بالبضائع الفاخرة. الكاريتات التى تجرها الخيول تحمل وجهاء الرجال والنساء إلى حدائق الأزبكية أو نادى الفروسية أو دار الأوبرا التى تتميز بنخيلها الفريد". وفجأة توقف تسلسل أفكاره وسألنى: (هل تعرف أن الرايخ الألمانى امتد يومًا ما إلى حدود مصر ولكن العاصمتين الإسكندرية والقاهرة لم تتأثرا. الحقيقة أن الحرب سببت رواجًا اقتصاديًا وأصبحت مصر مركزًا رئيسيًا للإمداد بالنسبة للبريطانيين وجيوش الحلفاء فى المنطقة وامتلأت محلات القاهرة بالبضائع المثيرة للاهتمام وازدحمت شوارعها بالناس: أجانب ومصريين يرتدون البدل

الإفرنجية والطربوش والنساء يرفلن فى أحدث موديلات باريس، والآن يجلسون فى فندق شبرد تحت المراوح، ويخدمهم الجرسونات النوبيون بملابسهم الناصعة البياض، والقاهرة تمتلئ بالشوارع العريضة المشجرة والميادين والحدائق والمقاهى والنوادى الليلية وكازينو بديعة حيث نتراوح المتعة بين الذهاب إلى الأوبرا والرقص. فكرت فى الذهاب إلى أحد المقاهى التى يفضلها أصدقائى ولكننى عندما جلست معهم شعرت بالضجر وهم أيضًا. كنت وحيدًا، فجأة عرفت ما كنت أريد أن أفعله. سأذهب إلى اللاهون، قرية محمد عويس، وأستمتع بالريف".

واتخذ حبشى القرار وذهب للتسوق. ولأنه كان دائمًا رجلاً كريمًا ذهب محملاً بالبنبونى والكنافة والبسبوسة مع كمية من الشاى والسكر. ركب قطار الصباح ونزل فى محطة هوارة المقطع. كانت القرية بالقرب من النقطة التى تدخل فيها ترعة بحر يوسف منخفض اللاهون عبر منظومة (هويس) من الأقفال والفتحات التى تنظم نظام الإمداد المائى للفيوم. لم يكن قرار حبشى بالذهاب إلى القرية وزيارة رجل أمى فى قاع السلم الاجتماعى شيئًا غريبًا بالنظر إلى نشأته الباكرة فى الريف. لم يذهب إلى هناك من أجل خطاب اجتماعى. كان يريد أن يسترخى. عندما تتبعت العجوز عويس إلى تلك القرية سنة ١٩٨٧كان ابنه محمد هو الذى يذكر هذه المناسبة "جلس البيه مع أبى على المصطبة خارج منزله، وجلس هناك فقط فى هدوء وقدمت أمى الشاى"، أوضح محمد لى أن أباه تلقى تدريبه على يد الخواجة جى برونتون". لقد غير حياتنا، جدى وأبوه من قبله كانوا فلاحين، وكان من المؤكد أن أبناءهم أيضا سيصبحون فلاحين، ولكن الخواجة جاء وتحدث عن أهالى قفط الذين حفروا للفرنسين والانجليز والألمان، وأخذوا أيضًا من مصر ليحفروا فى ليبيا والسودان وفلسطين، ووعد بأنه سيفعل الشيء نفسه لنا نحن عمال الفيوم، وكذلك أبى وأنا وأخى مصطفى نعرف الأرض ولكننا أيضا نعمل مع الآثار. كان أبى يقول لنا دائما إن الخواجة برنتون ليس مثل الخواجات الآخرين الذين لا يهتمون بعمالهم، كان يتحدث إلينا، ويستمع إلى مشاكلنا ويقدم لنا النصيحة.

كان أبى يصف الصور الجميلة للملوك التى كانت "الست" زوجة الخواجة برنتون ترسمها. قال إنه قبل أن يرى هذه الصور كان يظن أن الخواجات مجانين لأنهم يحفرون بحثًا عن قطع الفخار والأحجار والقماش. ولكنه عندما رأى الصور..." كان محمد بالطبع يشير إلى الصور الملكية التى رسمتها بعناية السيدة وينفرد برونتون، بناء على دراسة المومياوات الموجودة والتمثيلات القديمة.

أما الكتاب الذى نتج عن ذلك واسمه: ***kings and Queens of Ancient Egypt*** فقد تم تحسينه بالنصوص التى كتبها بعض الدارسين المتميزين فى ذلك الوقت. وفى أواخر مساء يوم من أيام شهر فبراير ١٩٨٧ لاحظت القرويين وهم يقودون مواشيهم بطول المسار الضيق بجانب القناة، وظننت أنه من المحتمل ألا يكون ذلك مختلفًا عن المنظر الذى شاهده حبشى عند زيارته للقرية قبل عدة عقود، فالراكبون ترجلوا عن حميرهم وبغالهم عندما اقتربوا من منزل عويس.. علامة على الاحترام لمقام رأس العائلة.

وبعد انتهاء فصل الصيف عاد لبيب حبشى إلى أسوان فى سبتمبر ١٩٤٦ ومعه تمويل إضافى ليستكمل عمله فوق قبة الهواء. كانت روحه المعنوية مرتفعة، وبدأ إخلاء القاعة على فترات متقطعة ولكن سرعان ما نشطت الحركة، وبعد عشرة أسابيع كانت القاعة قد أخليت تمامًا وتم العثور على مقبرة، وكانت تفتح على الشمال ومدخلها الرئيسى من حوش القاعة. "من كان يظن أن هناك مقبرة يمكن أن تكون مختفية خلف قاعة العبادة. بالتأكيد لم أتوقع ذلك، والحقيقه أننى لو كنت قد تشككت فى وجودها لما تركت عمال الفيوم يذهبون". و"كانت مقبرة لم تكتشف من قبل، معنى ذلك أنه لم يحدث أن تعرف عليها من قبل أى دارس ولذلك كانت مملوءة بالرمال ومنسية.

شكل رقم ٤٦ : عويس الكبير يتخذ وضعًا مناسبًا للتصوير
مع ابنه (إلى اليمين) وحفيده (فى الوسط)
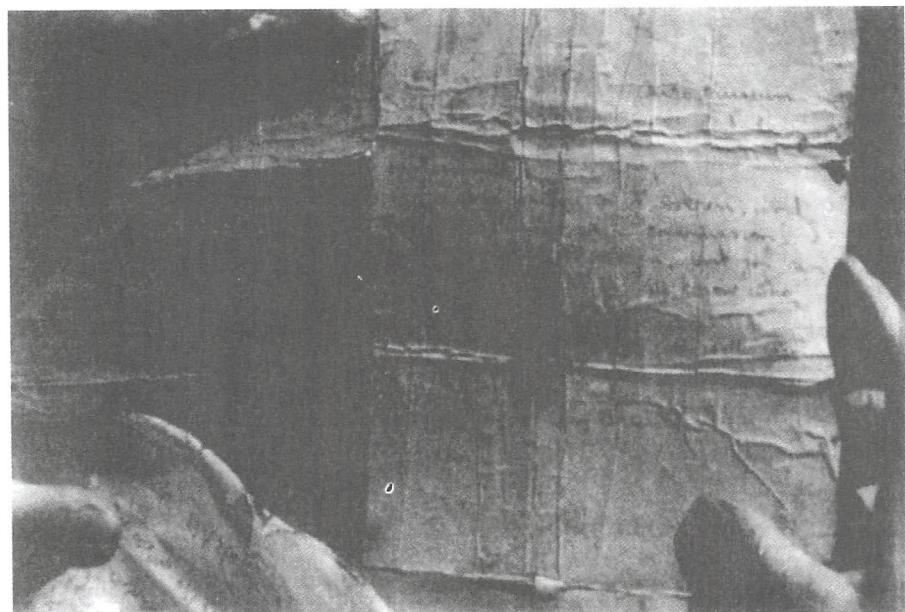
<u>شكل رقم ٤٧:</u> خطاب جى برونتون إلى محمد عويس يعترف أن العائلة تحافظ على عمله جيدًا.

كما أنها ليست المقبرة التى سقطت فيها. وكانت تخص رجلاً اسمه سابنى، وهو ليس سابنى ابن ميكو الذى سافر إلى النوبة السفلى لاسترداد جسمان أبيه المقتول. كانت المقبرة التى اكتشفت حديثًا تخص حاكم ومستشار ملك مصر السفلى الذى كانت له ألقاب كثيرة أخرى منها مراقب القاعة، والكاتب، وناظر عمال الكتان والحجارة، وقد صور على حائط المقبرة وهو يتقبل القرابين، وهناك عبارات كثيرة فى النص المصاحب تصف عطفه على المجتمع. كانت مقبرة جميلة تكشف عن أفكار تقليدية كثيرة حيث يظهر الرجل النبيل وهو يفتش عن الماشية ويصطاد فى المستنقعات. كانت هناك أيضًا بعض المناظر والنصوص غير العادية مثل إنجاز سابنى غير العادى فى بناء قاربين فى واوات، بالنوبة السفلى، لنقل المسلات من مناجم الجرانيت بأسوان إلى هليوبوليس. وهنا نجد النص، وقلب حبشى بين الأوراق على منضدته، واستخرج منها واحدة وقرأ:"أرسلنى سيدى لعمل مركبين كبيرين فى واوات لنقل مسلتين كبيرتين إلى هليوبولس شمالاً، ومضيت إلى واوات مباشرة مع مجموعة عسكرية مكونة من خمسة جنود".

كان الشيء الذى أسعد حبشى على نحو خاص هو أن المقبرة التى اكتشفت حديثًا كانت تفتح القاعة التى تخص بيبى نخت - هيكايب و"أكد ذلك وجود صلة مباشرة بين الرجلين، وأدركت إمكانة أن يكون هذا الشخص المسمى سابنى هو نفس الشخص الذى قيل عنه الابن المحبوب نى ـ نوبت الذى رأيت اسمه محفوراً فى القاعة المجاورة، وإذا ثبت ذلك فربما يكون هو أيضًا سابنى ابن هيكايب الموجود فى المذبح فى فيلة". وتجرأ حبشى على أن يأمل فى ذلك، وسرعان ما خاب أمله. وعند مقارنة الألقاب فى المقبرة عرف أن سابنى كان رئيس كهنة للملك مرن رع وهو ما أنهى علاقة الأب ـ الابن لأن بيبى نخت هيكايب كان رئيس كهنة تحت رئاسة الفرعون التالى، "وبالطبع فإن سابنى ربما كان هو جد بيبى نخت هيكايب، ولكننى لم أحقق شيئًا واضحًا".

أمر حبشى عويس بأن يدفع عماله إلى العمل لأنه كان متشوقاً لإخلاء الأنقاض من حول المدخل إلى القاعة أمام الأعمدة حتى يمكن التقاط صورة. كانت مكافأته هى مشاهدة المنظر غير المتوقع لسلسلة من المقابر الصغيرة على يسار المدخل ويمينه. كان شيئاً غير عادى كان من الواضح أنها مقابر أفراد الطبقة العاملة الذين لابد من أن يكونوا قد خدموا الرجل النبيل فى حياته، ورغبوا أن يبقوا إلى جانبه فى مماته.
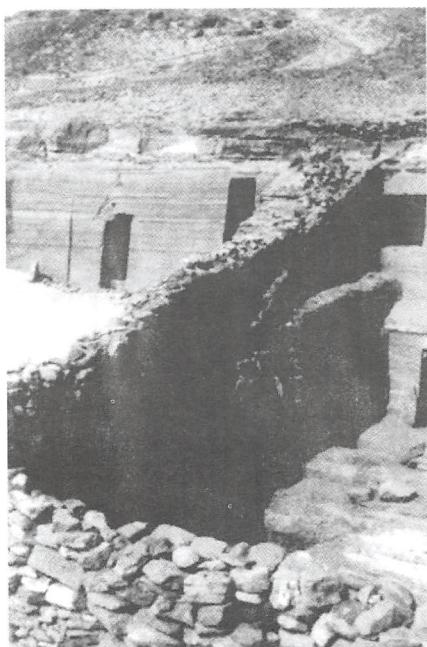
الشكل رقم ٤٨: منظران للمقابر الصغيرة المحفورة فى الصخر بواسطة أتباع المتوفى فى كل فضاء متاح أمام قاعة العبادة وعلى اليمين وعلى اليسار وحتى تحت المدخل

كانت المقابر تبدو بحالتها الأصلية وتحتوى على أوانى حجرية وقدور من الفخار، وبعضها منقوش عليه اسم صاحبه". فى الأسابيع التالية درس حبشى هذه الأشياء واستنتج أن القبور بنيت على التوالى على مدى فترة طويلة من الزمن.

"كان هيلك وإديل فى أسوان فى ذلك الموسم، وكنت متشوقًا لمشاركتهم أفكارى، ولكننى خفت أن يكون الرأى الذى كونته خلال هذه الأسابيع خطأ. وصل هيلك مشرقًا كالعادة يتبعه إديل. كان هيلك أقل اهتمامًا بالمقابر منه بالنصوص التى على الحائط الأيسر لمدخل المقبرة، التى تصف عملية نقل المسلات إلى هليوبوليس. ولكن إديل درسها بعناية وأكد أن النقوش وأسلوبها تبين أنها بنيت على التوالى الواحد بعد الآخر على مدى أجيال. بعد ذلك بزمن طويل وجدت دليلاً أوضح، كنت قد فشلت فى ملاحظته فى حينه: على الجانب من قاعة المدخل حيث يوجد رسم تى – نوبت فى الخانة العلوية، لاحظت أن الخانة السفلية كانت أقل مهارة. كان منظرًا لعشرة أشخاص على الأقل يقدمون قرابين، ويبدو أنها كانت قد حفرت بعد بناء القاعة وزخرفتها بوقت قليل، ربما بمعرفة الخدم المخلصين الذين دفنوا بعد ذلك فى المقابر الصغيرة خارج المدخل، أو ربما بعد ذلك بمعرفة الحجاج إلى تلك البقعة. لك أن تتخيل كيف كان شعورى عندما عرفت أننى كنت أقف فى الموقع نفسه الذى بدأت فيه عبادة "هيكايب"!

الشكل رقم ٤٩: فى الصف السفلى من الحفر البارز عند مدخل قاعة العبادة الخاصة بـــ "سابنى" منظر لحملة القرابين أقل اتفاقًا من الناحية الفنية.

أكدت المقابر الصغيرة لحبشى الأهمية غير العادية التى يتمتع بها پيپى نخت هيكايب أما مقبرة سابنى التى تؤدى إلى خارج القاعة فتوحى بإمكانة وجود روابط عائلية، صحيح أنه لم تكن هناك رابطة مؤكدة بين پيپى نخت ــ هيكايب الموجود فى قبة الهواء والأمير هيكايب الموجود فى فيلة، ولكن المفاتيح كانت تدغدغ الآمال. الاثنان كانا قائدين مشهورين، ومحاطين بأتباع كرموهما على مدى أجيال، أما ألقاب پيپى نخت هيكايب على واجهة مقبرته فوق قبة الهواء دون استثناء فهى متطابقة مع تلك الخاصة بالأمير هيكايب فى المذبح. "الاختلاف الوحيد هو أن النقوش فى المقبرة تشير إلى پيپى نخت - هيكايب على أنه ولى العهد وحاكم ومستشار الملك فى مصر السفلى والصديق الأوحد"، بينما تلك التى فى المذبح تشير دائمًا إلى ولى العهد الأمير هيكايب".

كان لبيب مفعمًا بالحماسة فى تلك الأيام" حسب قول هنرى رياض". دعنى أقص عليك ماحدث فى أحد أيام شم النسيم وكنا كلنا قد ارتدينا ملابسنا لتحية عائلات الأصدقاء والزملاء كما تعودنا عندما اندفع حبشى إلى الحجرة. كان مرتديًا بذلة ولكن الكرافتة فى جيبه لكى يرتديها فى اللحظة الأخيرة، وأصر على الذهاب إلى قبة الهواء لكى "يرينى شيئًا شديد الأهمية". كان مصممًا. لا أتذكر الشىء الذى أطلعنى عليه ولكننى أتذكر أننا عدنا إلى أسوان وثيابنا معفرة بالتراب".

كانت ابتسامات الحظ تشرق على وجه حبشى خلال ذلك الموسم، وبينما كان مازال يعمل فى إزاحة الرمال عن مقبرة سابنى للمرة الأخيرة، علم حبشى عن مقبرة أخرى على الطبقة السفلى من الصخرة كانت مليئة بالأنقاض حتى منتصفها" وبمجرد أن أخليت القاعة والمقابر التى حولها من الرمال المتراكمة أمرت عويس بأن يدفع برجاله ليعملوا فيها، كانت تخص موظفًا رسميًا يدعى سيتكا وكان هو أيضًا يحمل ألقابا من المملكة القديمة، وكان أحدها يشبه اللقب الأخير على تمثال من الحجر الجيرى من المذبح الموجود فى فيلة. كانت كل القطع واقعة فى أماكنها.

"هل تعرف مدى عظمة الدور الذى لعبته المصادفة فى علم المصريات؟" قال حبشى مندفعًا فى أفكاره بأحد استطراداته:"كثير من الاكتشافات العرضية التى حدثت فى القرن العشرين أصبحت اكتشافات مهمة".

الشكل رقم ٥٠: غرفة الدفن بمقبرة هيكايب فوق قبة الهواء

مخبأ المؤن الذى اكتشف فى الكرنك سنة ١٩٠٤ على سبيل المثال بدأ اكتشافه على يد چورج ليجران الذى وجد شيئًا واحدًا فقط، وبعد ذلك أدى الحفر التالى إلى الاكتشاف المذهل وكان ٧٨٠ تمثالاً وعشرات الآلاف من القطع الصغيرة. أما اكتشاف دى مورجان للمجوهرات الملكية للأميرة ست حتحور يونيت فقد كان غير متوقع كذلك، لأن مقبرة دهشور كانت عبارة عن شق فى الصخر وكان من الصعب توقع أنها تحتوى على هذه التيجان الذهبية المطعمة بالأحجار نصف الكريمة والعقود. ثم تكررت القصة نفسها فى ١٩٢٠ عندما كان فريق متحف المتروبولتان يخلى الرمال عن مقبرة من الأسرة الحادية عشرة فى طيبة، ولم يكن يتوقع أن يجد شيئًا جديدًا ولكنه وجد مخزنًا سليمًا ممتلئًا بنماذج من الصلصال لمنازل ذات حدائق ورجال نبلاء يستعرضون الماشية، ونجارين، وصناع الجعة، وقصابين أثناء تأدية أعمالهم، وكذلك تماثيل جميلة مزخرفة لنساء من حملة القرابين. ويدعى كثيرون من علماء المصريات بعد اكتشاف آثار الأشياء أنهم كانوا يبحثون طوال الوقت عما اكتشفوه مؤخرًا". وكنت أتساءل دائمًا عن هذه الادعاءات. وحتى هوارد كارتر ادعى أنه كان يبحث عن مقبرة توت عنخ آمون على الرغم من وجود دليل على أنها كانت مكتشفة. بعض شظيات ذهبية وصندوق خشبى مكسور يحمل اسمه واسم ملكته وجدت فى مقبرة ضيقة وصغيرة فى المدفن الكبير. الأكثر من ذلك أن متحف متروپوليتان قد درس بعض قطع الفخار المكسورة ولفائف من الكتان كان بعضها يحمل اسم توت عنخ آمون واستنتج من ذلك أن المقبرة التى وجدت فيها كانت مقبرته. كانت بقايا ضئيلة ولكن مقبرة غير مهمة لا يمكن أن تكون منبتة الصلة بالموت الباكر لتوت عنخ آمون وعلى أية حال عندما وقف كارتر على عتبة المقبرة لم يكن عنده ميل حول معرفة من تخصه لأنها كانت تحمل فقط خاتم المقبرة وليس خاتم توت عنخ أمون أو خليفته، وأظن أنها كانت مصادفة مثل سقوطى الذى كان أيضًا مصادفة فى قاعة پيپى نخت - هيكايب التى أدت بالصدفة أيضا إلى اكتشاف مقبرة سابنى، الذى كان من المفترض أن يكون ابنه، ولكنه ليس كذلك".

وأخيرًا وجد حبشى الدليل الذى كان يبحث عنه وهو أن بيبى نخت-هيكايب كان هو الرجل المؤله فى فيلة،" كانت أهم المناظر فى مقبرة سابنى المصورة عند المدخل الرئيسى تبين الرجل النبيل المنقوش على الجانب الشرقى وأمامة ثلاثة رجال وإحدى السيدات. وخلفه ثلاثة صفوف من مشرفى القاعة وخلفه ولكن فى السطر السفلى كما هو مصور رجلان آخران بدوا لى ذوى أهمية خاصة. كان لقب أحدهما هو طبيب القصر إيدو الذى يظهر لنا أن سابنى قد نال مثل هذا التقدير لدرجة أن ملكه قد أرسل طبيبه الخاص ليعتنى به، أما الشكل الثانى فكان يمثل امرأة نحيلة الجسم، ولم أهتم بالنص المنقوش إلى جانبها لأنه لم يبد لى مهمًا. وعندما قرأته وجدت أنه يصفها بأنها "ابنته ومحبوبته ميريت التى يحترمها الملك" ومرت عيناى على اسمها مرة ومرة لأنه كان نفس الاسم المنقوش على ضريح هيكايب فى مذبح فيكة حيث يوجد وراءه صورة لرجل وامرأة. الرجل ملقب بابنه سابنى والمرأة بزوجته المحبوبة ميريت، فهل يمكـــن أن تكون هى نفس أم سابنى أو ابنتة التى أصبحت زوجة هيكايب المصورة على الضريح؟"

كان حبشى يتابع علم الأنساب بالنسبة للعائلات التى تركت آثارًا فى المذبح وكانت كلها بدون استثناء خطوطًا مباشرة من التسلسل التى تبين أن الشخص يبدأ نسبه من اسم والديه وأحيانًا والديهما قبلهما، ثم يدرج اسم زوجته وأطفاله ثم أولادهما". ذهبت مرة أخرى إلى مقبرة سابنى ووجدت ان اسم ولقب ميريت قد تم التلاعب بهما، جزء من الحجر الذى يحمل شكلها ولقبها واسمها قد اختصر قليلاً وكأن الاسم الأصلى كشط ثم أعيد حفره، لم يسلم من هذا الكشط إلا النعت (ابنته المحبوبة). هل يعنى ذلك أن سابنى كان له ابنة يحبها بشدة وصورها أمامه كتشريف خاص؟. ثم هل شعر بأنه كان عليه أن يكرم وأمه بدفنها فى مقبرته؟" شحذ حبشى ذاكرته وهو يسترجع النصوص والآثار التى درسها. افتراضه أن يغير موقفه صاحب المقبرة رأيه لكى يضمنها الأم كانت هناك سوابق له. "على قاعدة تمثال إمينى إياتو الذى فى المذبح نجد أن صاحب المقبرة قد ذكر أسماء أربع من زوجاته ونحو عشرين من أقاربه، وبالتالى

فإنه لابد من أن يكون قد فكر فى منح أمه اهتمامًا أكبر من أقاربه الآخرين، لأنه حفر تجويفًا مساحته ٢×٤ سنتيمترات فى قاعدة تمثالة ووضع فيها قاعدة تمثالها الصغير. *(habachi, 1985:Plates 103,105)*

إننى متأكد من أن الشيء نفسه قد حدث فى حالة سابنى، ففى سنة ١٩٧٠ كتب هنرى فيشر مقالاً مثيرًا للاهتمام عنوانه: *The Mark of a Second Hand on Ancient Egyptian Antiquities.*

علامة يد أخرى على الآثار المصرية القديمة، مما يؤكد افتراضى".

أثناء قيامه بالحفر فى فيلة وقبة الهواء كان حبشى منهمكًا فى عمله حتى إنه لم يكن يهمه أن يكون كشفه معروفًا لفريق صغير من المتخصصين وفقط، وقد نشرت مصلحة الآثار تقريرًا عن النشاط فى فيلة (فصل ١٩٤٦) ربط بين أنشطة حفائر سنة ١٩٣٢ واكتشاف سنة ١٩٤٦، ذكر أن الأول لم يحظ بأى ذكر قبل ذلك وفيما بعد ظهرت حكاية أكثر شمولاً ودقة فى مجلة: *Chronique d,egypte (1950, rde7:188)* . وتضايق حبشى لأن كلا التقريرين قلل من شأن اكتشافه "خصوصًا الأول الذى وصف فيه المذبح بأنه كان مستودعًا حفظت به الآثار وليس بأنه كان مركز العبادة ويا له من سوء حظ كما يقول "بمجرد أن يستخدم علماء المصريات مصطلحًا معينًا لوصف شيء ما، حتى لو كان ذلك أثناء مناقشات شخصية، فإنه سرعان ما يزحف إلى التقارير الرسمية ويكون من الصعب زحزحته من موطنه. لم يشعر حبشى بأنه كان مضطرًا لنشر تقرير تمهيدى أثناء السنوات الأربع التى قضاها فى تصنيف وترجمة ودراسة الكتابات الهيروغليفية على التماثيل واللوحات وموائد القرابين والأشياء الصغيرة الأخرى "كنت متشوقًا لنقل ترجمة لكل النصوص وكتابة تقرير شامل".

وفى الوقت نفسه كان يجيء بالدارسين حول الموقع، ويدعوهم لنشر جوانب من الكشف تكون قد أثارت اهتمامهم الخاص". كان ذلك طبيعيًا، وبعد كل شيء

فإنه كان كشفًا مركبًا له عدة أوجه: تاريخية، وفنية، ودينية، وسياسية، وأثرية، وكان يسعدنى أن بعض العقول اللامعة التى شاركتنى فى أمسياتى فى استراحة فيلة وغيرهم من الذين زاروا الموقع كانوا متحمسين، وشرفت عندما جاء سير آلان جاردنر عالم اللغويات البريطانى إلى مصر فى شتاء سنة ١٩٤٨، وقال إنه كان على استعداد للاطلاع على مقارنتى بين النصوص فى الوقت المناسب، وقام بذلك فعلاً. أما چان كاپارت أستاذ علم المصريات البلجيكى المشهور فى جامعة لييج، فقد أبدى هو الآخر اهتمامًا عظيمًا، كان رجلاً مهيبًا غزير العطاء فى كتاباته ومأثورًا عنه قوله: طفل كل عام، وكتاب كل عام. أبدى قلقه لأننى لم أكن أتقدم بما فيه الكفاية فى تسجيل عملى، وكان يحثنى مرارًا بأن أكتب تقريرًا تمهيديًا، ولكننى لم أهتم كثيرًا بهذه النصيحة الطيبة وتراجعت حتى حينما ضايقنى بعض زملائى المصريين الأصغر منى سنًا. كان حسن بكرى يرفع حاجبه فى كل مرة يرانى ويقول:"هل أنت متأكد يا لبيب من أنك ستنشر أعمالك؟ هل أنت متأكد تمامًا؟"

كان حبشى يعرف من التجربة الحاجة إلى وضع تقرير عن عمله. ولكنه كان متشوقًا لذلك كما كان فى حاجة إلى الثناء. وأستطيع القول بأنه يمكن التخمين بأنه كان مترددًا حتى لا يجعل نفسه معرضًا للنقد بالكشف عن افتراضاته قبل الأوان. ربما كان تردده يرجع إلى خيبات أمله السابقة عندما رفض الدارسون الغربيون افتراضاته بأن رشيد وليس الاسكندرية كانت هى مكان استخدام كتل الأحجار المأخوذة من معبد سايس. وكذلك استنتاجه أن عاصمة الهكسوس أفاريس لم تكن فى تانيس كما كان يعتقد آنذاك، إنما موقع بعيد فى الجنوب عند تل الضبعة. وقد كان مذبح هيكايب أكثر تعقيدًا وبقيت عدة أسئلة بغير إجابة، منها على سبيل المثال: لماذا لم يوجد سوى تمثال ملكى واحد فى ذلك الموقع؟ من هم بالضبط كبار الكهنة الذين بنوا المعابد الأكبر؟ لماذا انتهت عبادة رجل تم تكريمه لعدة قرون فى الأسرة الثالثة عشرة؟ ومتى بدأت؟

كان أحد أساليب قياس إنجاز حبشى غير العادى هو معرفة مالم يستطع الآخرون إنجازه. كتب مذكرات كثيرة تتعلق بما كان يشك فيه وناقش أفكاره مع زملائه، ولكنه كان مقصرًا فى طبع هذه المذكرات، ولاشك أنه كان يخشى رفضها من قبل مؤسسة ذات أفكار راسخة. وربما كان رد هيرمان ريك السلبى على طلبه القيام بمسح أثرى لمذبح هيكايب عندما كانا يعملان معًا فى فيلة، وربما كان وراء عدم شعوره بالأمان. "ومرارًا وتكرارًا طلبت منه عندما كنت أقوم بالحفر أن يأتى ويبدى رأيه ويكتب تقريرًا ولكنه كان يرفض. حسنًا! لم يرفض تمامًا ولكنه لم يكن يرد على الرغم من أنه كان يعمل بجوارى، ويؤكد ملاحظته هذه جيرهارد هاينى من المعهد السويسرى "ناشد لبيب هيرمان ريك الذى سبقنى عدة مرات عندما كان الاثنان يعملان معًا على الجزيرة ولكن الآخر لم يستمع ولا أعرف لماذا".

ثم كانت يقظة قوية عندما وضع الدارس البلجيكى كونستانت دى ويت الذى كان قد زار الموقع وعمل له شرائح وصورًا ليعرضها على طلبته، كشف لبيب حبشى أمام المؤتمر الدولى للدراسات الشرقية فى باريس سنة ١٩٤٩: "فى البداية لم أصدق أنه فعل مثل هذا الشىء. لقد عرض معظم التماثيل ذات الأهمية التى وجدتها. لم تكن سرقة، فهو لم يسرق أفكارى وحاول أن يهدئ خاطرى بقوله "اعتبرنى سفيرك لأنه بدونى لم يكن العالم ليستطيع أن يسمع عن لبيب حبشى" وآلمنى ذلك بشدة. وفى خطاب من دى ويت بتاريخ مارس ١٩٤٧ اكتشف ضمن خطابات حبشى الشخصية نقرأ: "يسعدنى أن أرى أن اكتشافاتك قد نجحت (هكذا) - تماثيل فيلة وحدها كافية لكى تعطى استكشافاتك الشهرة... هل تسمح لى أن أتحدث مرة أخرى أمام الجمعية البلجيكية للدراسات الشرقية فى بروكسل؟ لو أعطيتنى قليلاً من المعلومات عن المقبرة التى اكتشفتها مؤخرًا فربما استطعت أن أضمها أيضًا إلى ما لدى. ولا يوجد ما يدل على أن حبشى رد عليه. ربما يكون قد أغفل طلبه أو نسى كل ما يتعلق به، لأنه عندما سمع عن عرض دى ويت استاء من مثل تلك المعاملة، خصوصًا أنها جاءت من أحد الدارسين الأوروبيين الذين كان معجبًا بهم. ويقدم لنا العرض الذى قدمه دى ويت لإنجاز حبشى مثالاً واضحًا على استعلاء كثير من الدارسين الأوروبيين على علماء الآثار المحليين فى النصف

الأول من القرن العشرين، فلم يكن دى ويت ليستطيع أن يعامل أحد تلاميذه بمثل هذا الأسلوب، ناهيك عن أن يكون أحد زملائه الغربيين، ولكن مع أحد المصريين فإن هذا الموقف لم يسبب له أى انزعاج. كانت هناك لوعة فى صوت حبشى وهو يقول: "لقد اغتصب لحظة فرحى" وبعد ذلك أصبح متوجسًا من أى شخص يبدى اهتمامه بمذبحه وأصبح شديد الغيرة على اكتشافه.

وفى شتاء سنة ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ذهب حبشى إلى إنجلترا برفقة هنرى رياض لكى يأخذ مسودة مخطوطه، وكان عنوانه: ***The Temple of Heqaip*** إلى كامبردج. كانت الدعوة بمبادرة من ***H.W. Fairman*** الذى كان مرتبطًا بالسفارة البرطانية بالقاهرة ما بين عامى ١٩٤٠ - ١٩٤٧. كان فيرمان يرى أن سير آلان جاردنر قد يكون مهتمًا ببعض النصوص والصور، ليس فقط بسبب اهتمامه بجزيرة فيلة بوجه عام، ولكن لأنه كان يجهز لطبعة ثانية من كتابه ***Egyptian Grammar*** ويرحب دائمًا بأى مادة جديدة بسبب الأفكار التى تقدمها له. تكفلت مصلحة الآثار بتمويل رحلة حبشى. "لقد أمضيت ثلاثة أشهر فى قراءة النصوص مع سير آلان والبروفيسور باتيسكومب جن. وأبدى سير آلان حماسة عظيمة وكان مشجعًا جدًا، وكنت أقضى عدة ساعات أسبوعيًا وأفدت الكثير من معرفته الواسعة، كان شرفًا عظيمًا لى أن أعمل بجانبه وأن أقبل انتقاده لغتى الهيروغليفية. قال إننى كنت فى حاجة إلى الكثير من التدريب واقترح على أن أذهب إلى المتحف البريطانى، وكان أمرًا محرجًا كما تعلمين أن يقال لى ذلك، ولكننى أتذكر قصة ذكرها الدارس التشيكى سيرنى وهدأتنى كثيرًا. لقد ذكر لى أن بداية انجذابه إلى علم الآثار المصرية جاءت بعد أن طلب منه مدرسه أن يعيد واجبه المنزلى مرة ثانية لأن خطه كان يشبه الهيروغليفية، وعندما رأى والده التعليق اشترى كتابًا لكى يرى ابنه ما كان يعنيه المدرس، وبذلك أدخله دون قصد إلى مجال رائع، ولذلك استمعت إلى سير آلان وذهبت إلى المتحف البريطانى وحسنت من لغتى الهيروغليفية".

تشارك سير آلان وحبشى فى الاهتمام بأسرة سيرنپوت، وقضيا عدة ساعات معًا لحل الألغاز المتعلقة بالنسب. "كنت قد وجدت تمثالاً لرجل يدعى أنكو عاش فى عصر سيزوستريس الثالث ما بين عامي (١٨٧٤ – ١٨٥٥ ق. م.) ولكننى لم أعرف أين كان فى الصورة لأنه وضع تمثاله الجرانيتى الرمادى داخل الضريح الذى بناه سيرنپوت الأول فى مذبح هيكايب. وساعدنى سير آلان فى التعرف إليه بوصفه عضوًا فى الأسرة، وعندما وضع أنكو مع والد سيرنپوت وهابى وجده نبفنچت وأحفاده تابعنا ما لا يقل عن تسعة أجيال من الأسرة.

كان سير آلان رجلاً لامعًا ولكنه كان كئيبًا، كانت حياته حزينة، كان شديد الحزن لمرض زوجته ووفاة خادمه بالسرطان. لقد كتب الكتاب العظيم الذى لا يمكن أن تكون مكتبة أى عالم مصريات مكتملة إلا به وهو كتابه المشهور ***Egyptian Grammar*** "النحو المصرى"، إلا أننى لاحظت أنه كان يرحب دائمًا بالتعليقات وأيضًا الانتقادات من زملائه مثل سيرنى ومساعده ريموند فوكنر الذى راجع معى مخطوطاتى. كان يصحح لى لغتى الإنجليزية كما ساعدنى بكثير من المراجع، بل وكتب بعض الأجزاء على الآلة الكاتبة".

بعد عودته إلى مصر فى سنة ١٩٥٠، استأنف حبشى مسئولياته كمفتش ولذلك تأجل عمله فى نقل النصوص الموجودة على الألواح الأربعة الباقية. كان يتلقى خطابات بانتظام من سير آلان بعضها كان دون تاريخ، يشجعه فيها على التقدم للأمام: "من فضلك اضغط من أجل سرعة طبع عملك عن هيكايب، أرجو ألا تكون قد فقدت الاهتمام بهذا الاكتشاف العظيم الذى حققته". وكان دريوتون وآخرون يحثونه كثيرًا على الإسراع بالنشر وكان يقول: إننى أحاول وقمت برحلات قليلة إلى فيلة وصحبنى محمود توفيق فى بعضها وهو نساخ مصلحة الآثار الذى قام بنسخ كل النقوش، وفوزى إبراهيم المساح الذى رسم خريطة المذبح. مسكين فوزى! فقد كنت طوال الوقت أحدق من فوق كتفيه للتأكد من كل سطر. كنت متشوقًا بالطبع لرؤية عملى منشورًا. ولكن الألواح كانت أهم آثار

الموقع من الناحية التاريخية، وبعد هذا الانتظار الطويل لم تكن لدى النية بأن يذهب العمل إلى المطبعة قبل الانتهاء من نقله".

أكبر الألواح كان قد أقامه سيرنبوت حاكم ورئيس الكهنة، تكريمًا لحفيده "الأمير هيكايب"، كان رجلاً صالحًا وعواطفه تغطى كل العصور:

(جاء ضوء النهار.. مثل الظلام قبل المصباح....... بنيته من جديد.. ما صنعته من أجله أكثر مما صنعه الحكام الذين سبقونى...... من الحجر بنيت ضريحًا له....... ومن الحجر سطحه. ومن أجله أقمت قاعة عريضه للعمل الأبدى ومزروعة بأشجار الجميز بطول كل ممراتها. بنيت على جوانبها الأربعة...... وضعت حوائطها حتى الأساس...... حتى حد الرمال. وأقمت بيتًا للكهنة ومكانًا لشرب أهالى فيلة. وبنيت لنفسى معبدًا صغيرًا غرب هذه المقبرة....... وبه تمثال واقف وتمثال جالس...... سعد القلب الذى عملت من أجله فهكذا هى عظمة حبى لما يستحقه، إظهار قدرته وسط مدينته، بناء بيته، ذبح ثور وإسعاد قلبه بغزال.)

"هذه الكلمات ليست فيها مبالغة". كما يقول حبشى فقد عثر غزولى على المعبد المبنى من الحجر والتمثالين الواقف والجالس، كما أن الضريح أيضًا كان مرصوفًا بالحجارة، كما أن إشارته إلى أشجار الجميز كان أمرًا عاديًا، لأن قدماء المصرين كانوا يزرعون الحدائقَ حول المناطق المقدسة، كذلك فإن كلمات سيرنبوت "حتى حد الرمال" يمكن فهمها حرفيًا، لأنه عند القيام بتنظيف أساسات المعبد المجاور للإلهة ساتيس بواسطة البعثة الألمانية ثبت أنه كان مبنيًا على طبقة من الرمال ومحدد من جوانبه الأربعة بجدران منخفضة من الطوب المصنوع فى الشمس.

هل تستطيع أن تصور سيرنپوت عندما بدأ العمل فى المذبح؟" ثم قال حبشى "لابد أن المبنى الأصلى كان فى حالة يرثى لها لأنه كتب يقول: "قمت بتجديد ما وجدته يختفى بعد أن كان فى حالة دمار تام. وكان لا يمكن التعرف عليه حتى برؤيته عدة مرات. كانت كل غرفة مملوءة بالأنقاض وبمجرد نزول المطر أصبحت مملوءة بالوحل وتفتتت مثل قوالب الطوب المحطمة". وأوضح أن السبب هو أن المبنى القديم قد انهار بشكل مؤسف بسبب صنعته الرديئة. وكتب "لم يكن الخلود فى الحسبان، كان العمل وكأن شخصًا أجنبيًا هو الذى قام به" والآن، أليست هذه العبارة غير عادية؟ إنها تعنى أن المصريين وحدهم هم الذين كانوا يبنون آثارًا جنائزية لكى تبقى إلى الأبد".

اللوح الثانى الذى أقامه سيرنپوت كان يصف القرابين بأنها كانت تقدم فى الأعياد المختلفة، والطقوس التى تتم لتطهير المذابح وإشعال المشاعل وإطفائها. وتبين أن النساء كثيرًا ما كن يشتغلن فى مثل هذه الأماكن المقدسة، كانت ساتچينى زوجة سيرنپوت مسئولة عن تعيين مناصب الكهنة فى الوقت المناسب فى منزل الأمير هيكايب وعمل الخبز الأبيض فى الوقت المحدد". وكان الطعام والقرابين يتم حراستها باستمرار بواسطة كهنة الكا الذين كانوا مسئولين عن الأضرحة وموائد القرابين، وكهنة "واب" الذين كانوا يفتشون على مواشى الضحية ويحرسون مخازن الطعام ويتأكدون من أن الطقوس الضرورية تم تقديمها. وأوضح سيرنپوت أنه ينزل اللعنة بكل من يأخذ القرابين، سوف يبتر ذراعه مثل الثور، ويمسكه من رقبته مثل الطائر، ويلغى موقعه، ولن يوجد مكان لمنزله ويلقى بأولاده فى النيران ولن يستريح جسده على الأرض". حتى هذه اللعنة الرهيبة لم تكن كافية، فقد حذر سيرنپوت من غيظه الشخصى من كل من يسىء استخدام القرابين. سأكون ضده مثل تمساح فى الماء أو ثعبان على الأرض ومثل عدو فى المقبرة".

كان حبشى سعيدًا عندما ظهرت الطقوس القديمة التى كانت تؤدى فى المذبح".لا شك أن هيكايب كان يعبد كإله. كتب هيرودوت إن الأشخاص لم يعبدوا فى مصر القديمة ولكنه كان على خطأ". حسب قول حبشى "فى هذا النص المأخوذ عن مذبح هيكايب ونجد هذه الكلمات:"هذا النبيل يحب حب المحسن إليه وعطف من يقوى بيته وسوف يسعد قلبه بما يعمل من أجله، وبعد موت من يرضيه فإنه سوف يسدد ديونه إلى الأبد.

إن الإله لاينسى أولئك الذين يساندونه"، وهناك مناشدة للأحياء، مكتوبة على حجر متروكة فى المذبح كتذكرة لأهالى فيلة بأن يقدموا أو أن يتلوا ما يقال عن تقديمها: يا من تعيشون فى فيلة. عندما تريدون أن تروا الأمير هيكايب صباح عيد سوكار، اذكروا صلاة ألف رغيف خبز مع الجعة". وكانت كل الأعياد قد تم وصفها على اللوح الثالث لسيرنيوت مع تفاصيل القرابين التى تقدم فى كل منها.

بعد إتمام هذا العمل كان حبشى يشعر بأنه استطاع أخيرًا أن يفهم أثر اكتشافه فى السياق الاجتماعى والسياسى، واستنتج أن عقيدة هيكايب فى المملكة الوسطى يمكن أن تفهم فهمًا أفضل فى علاقتها بالأنشطة السياسية فى النوبة، "فى المملكة الوسطى تقدم الجيش المصرى جنوبًا نحو أراضى بعيدة لكى يزود القلاع التى بنيت عند الشلال الثانى على بعد مائتى كيلومتر جنوبًا بالجنود. ولاشك أن اسم هيكايب الذى انتشر فى ذلك الوقت كان يرمز إلى الأوصاف التى كانت ضرورية فى زمن الغزو. كان هو وابنه سابنى قائدى حملات كما ذكر فى بعض ألقابهما مثل: "قائد طاقم السفينة" و"ملاحظ المترجمين"، وعبارة "الرجل الذى يزرع الخوف من حورس فى البلاد الأجنبية". ونعرف أيضًا أن هيكايب عندما مات، دفن فى قبة الهواء وأن المجتمع المحلى أقام الحداد على فقده. وقد أحضر الأقارب والزملاء والأصدقاء والخدم قرابين لكى توضع بجوار مقبرته. وربما كان منظر العدد كبيرًا من الحزانى وهم يقدمون التكريم لمقبرة أبيه، كان أول من أوصى لابنه سابنى بفكرة بناء قاعة بجانبها كتذكار. لم يسبق بناء مثل تلك القاعات بجوار مقبرة

أحد النبلاء بقدر علمنا، ولكن قدماء المصريين لم يكونوا بغير أفكار ابتكارية. إذا كان سابنى يريد أن يكرم أباه بطريقة خاصة، فلم لا يفعل ذلك؟ أستطيع أن أتصور جنود مصر والمتجهين جنوبًا، موجهين أعينهم نحو مقبرته فى قبة الهواء وهم يصلون فى صمت طلبًا للبركة من الجد الأعلى "هيكايب"، الذى يعنى اسمه "ذو القلب القوى"، الذى قدم هذا المثل".

بعد سبع سنوات من الحفر والبحث، كان مخطوط حبشى عن حفائره وكشفه عن مذبح هيكايب جاهزًا للنشر.

شكل رقم ٥١: لبيب حبشى (فى الوسط) مع روزاليند موس وأحمد فخرى (إلى اليمين)

الفصل السابع

لبيب حبشى وأحمد فخرى

يستدعى تطور الحياة الوظيفية لدى كل من لبيب حبشى وأحمد فخرى المقارنة، لقد ولدا فى السنة نفسها، وتقاسما حب بلادهما وشعبها. وكانا من بين أوائل خريجى علم المصريات فى جامعة القاهرة سنة ١٩٢٨ ولكليهما اهتمام بالغ بحفظ آثار مصر القديمة. وكانا من أكثر الدارسين المصريين غزارة فى الإنتاج، وأكثرهم احترامًا دوليًا فى مجال المصريات فى القرن العشرين، وكتبهما هى الأكثر مبيعًا.

كتاب حبشى: "المسلات: ناطحات سحاب الماضى".

Obelisks: Skyscrapers of the Past

وكتاب أحمد فخرى: واحات مصر. ***The Oases of Egypt***

إلى هنا وينتهى التشابه لأنه بصرف النظر عن اختلاف مجالات الاهتمام فإن حياتهما تدل بوضوح على التمييز الطبقى، المثل الأعلى كما كان يمارس فى النصف الأول من القرن العشرين. سار تطور الحياة الوظيفية للبيب حبشى ببطء لأنه، كما ذكرنا، كان ينتمى إلى نهاية السلم الاجتماعى فى المجتمع الطبقى المصرى، بينما انطلق مسار أحمد فخرى؛ فهو ابن على فخرى وجليلة عباس، وهما ينتميان إلى عائلة من كبار ملاك الأراضى فى الفيوم.

بعد التخرج بينما كان حبشى ينتظر أول تعيين له كمفتش آثار، حصل أحمد فخرى على منحة للدراسة فى برلين تحت إشراف كيرت سيث أحد علماء فقه اللغة صاحب الاكتشافات العديدة فى فروع تخصصه، وتبع ذلك ذهابه إلى بروكسل حيث استكمل دراسته تحت إشراف چان كاپارت أمينا للمجموعات الأثرية الملكية، ثم إلى ليفربول تحت رئاسة الأثرى وعالم المصريات إريك بيت. وعندما عاد إلى مصر وبيده الدكتوراه فى سنة ١٩٣٢ (نفس السنة التى أكمل فيها حبشى أول عمل له كمفتش فى مصر العليا.) عين فى مصلحة الآثار وبدأ حفائره فى الجيزة بإشراف سليم حسن، وهناك تعلم أساليب البحث الميدانى عن الآثار، وبعد ذلك وبتشجيع من إتيين دريوتون كتب دراسة عن عمله. بعد ذلك نقل إلى الأقصر، ونتيجة لعمله كتب فخرى مقالاً هناك عن "التلاتات" وهى كتل الأحجار المزخرفة المأخوذة من المبانى المدمرة للفرعون أخيناتين التى وجدها فى الكرنك.

وفى سنة ١٩٣٦، بينما كان حبشى مازال يتحرك حول القطر بوصفه مفتشاً كان أحمد فخرى قد عين كبيرًا لمفتشى مصر الوسطى وواحات الصحراء الغربية. حبشى الذى لم يكن لديه أية وثائق تدعمه كان يقوم بالمزيد من الجولات التفتيشية فى مصر الوسطى والعليا، وكان فخرى قد أعيد تعيينه كبيرًا لمفتشى الدلتا سنة ١٩٣٨ .

"وفى أحد أيام صيف ١٩٤٢ بعد أن أنهيت حفائرى لهذا الفصل فى الواحات البحرية قررت البقاء لمدة عشرة أيام أخرى لعمل دراسة عن السكان" كما كتب فخرى فى كتابة: ***The Oases of Egypt*** (واحات مصر)، ووصف كيف كان يتحدث مع صديق عندما رأى مجموعة من نحو أربعين جملاً تقترب، وقرر أن يعود معهم إلى وادى النيل، وسخر منه صديقه قائلاً إنه لن يفعل ذلك، لأنه حتى أثناء الشتاء كان العبور مرعبًا فما بالك بالصيف (كنا فى يوليو) والبدو أنفسهم يتجنبون مثل هذه الرحلة. لم يتخوف فخرى، بل صمم على المضى قدمًا، أرسل سيارات النقل أولاً مع مساعديه وطباخه واستعد لرحلته، وعندما حان الوقت لم يجد براذع مناسبة للجمال ولا حتى مظلة.

"كان الوحيد الذى يملك مظلة هو القاضى وكان قد أخذها معه عندما ذهب فى إجازة إلى القاهرة"، ولكن على الرغم من هذه الصعوبات فإنه مضى مع ثلاثة جمال ورجلين كان أحدهما بدويًا يعرف الطريق والآخر من سكان الواحات وكان على دراية بمسالك الصحراء.

وعند منتصف اليوم الأول وخلال العديد من مراحل الرحلة التى استغرقت ستة أيام كان فخرى يفكر فى العودة لأنه لم يكن هناك نسيم، وكان على وشك الانهيار على الرغم من أنه كان يركب جملاً، بينما كان الآخران يسيران وقد غطيا رأسيهما بتلفيحتين للحماية من الشمس؛ وفجأة بدأ أبو هشيمة البدوى فى الغناء. فأسرعت الجمال فورًا. بعد الأغنية الأولى جاءت الثانية والتقط فخرى الإيقاع "مثل معجزة" وبدأ يشعر بالتوحد مع البيئة المحيطة. ودون خيام ولا أكثر من بعض الشيلان أو البطاطين توقف هو ورفيقاه لتجهيز وجبة العشاء. كان فخرى قد أصر منذ البداية على أنه لا يريد أية مؤن خاصة. "كانوا كل مساء يخبزون رغيفًا كبيرًا فى الرمل. ويطبخون العدس بالبصل والزبد، وكنا ثلاثتنا نأكل من الطبق نفسه، وبعد الطعام كان عمل الشاى، وفى الساعة التالية أو الساعتين يكون الحديث الذى كان فى معظمه يدور حول تجارب الصحراء".

استكشف فخرى كل صحارى مصر. وتنقل كثيرًا من مريوط ومرسى مطروح شمالاً إلى واحة سيوة البعيدة على الحدود الليبية، ومن منطقة وسط سيناء إلى الصحراء الشرقية والغربية. تتبع طرق القوافل بين الينابيع المختلفة وتتبع الطريق من سيوة إلى الواحات البحرية (مرورًا بالزيتون وواحة الأرج وسترا والبحرين وكلها غير مأهولة) والطريق الذى يربط سيوة بوادى النيل الذى يمر عبر منخفض القطارة إلى وادى النطرون مع فرع يصل إلى الفيوم. "هذا الطريق كان يربط سيناء بعاصمة مصر القديمة ممفيس" كما كتب فى المجلد الأول من كتابه (*The Oases of Egypt*) ذاكرًا أن هذا الطريق استخدمه الإسكندر الأكبر عند عودته إلى وادى النيل بعد زيارته لاستشارة كاهن فى سيوة".كل شىء فى سيوة

فريد، منقطع النظير، ابتداء من عمارة لمنازلها المعاصرة إلى لغة أهلها وملابسهم وقسمات وجوههم، حتى موقفهم من الأغراب مختلف عن سائر الواحات الأخرى".

كما سمع هانى زينى.. الچيولوچى المعروف ورئيس شركات السكر فى نجع حمادى الذى كان يعرف كلاً من حبشى وفخرى معرفة وطيدة ويتذكر الأخير وهو يقول: "كان هذا هو شعورى عندما وضعت قدمى لأول مرة فى سيوة سنة ١٩٣٨، وهى لم تتغير".

حقق فخرى لنفسة سمعة طيبة بأنه لا يتعب وذو ضمير حى ورجل ماهر فى العمل الميدانى، نجح فى أن يكون له اهتمام خاص بالصحراء الغربية. وبتوصية من دريوتون أنشأت الحكومة المصرية بمصلحة الآثار قسمًا لأبحاث الصحراء وكرئيس لها بدأ فخرى استكشافاته وحفائره الاستكشافية، فكان ينتقل من واحة إلى أخرى كلما عن له أو بناء على أخبار عن استكشاف عرضى وأصبح سلطة رائدة يقوم بنشر تقارير مبدئية فى سنة ١٩٣٩ (*ASAE 609- 25*) "لسوء الحظ فإن قليلاً من المصريين هم الذين شاركوه حبه لثقافة الصحراء"، كما يقول زينى، "كان موظفو الحكومة يترددون فى قبول العمل فى الواحات وعندما كانوا يجبرون على ذلك كانوا يؤدون عملهم بشكل آلى. كانوا يكرهون الصحراء حيث كان أحمد فى بدايته".

لاحظ فخرى أنه على الرغم من أن سكان الواحات كانوا يختلفون اختلافًا ملحوظًا عن سكان وادى النيل، فإن هناك عادات وتقاليد مشتركة بينهم، ومنها على سبيل المثال تلك التى بين الواحات البحرية والفرافرة ومحافظات الفيوم والمنيا وأسيوط، وبين واحتى الخارجة والداخلة وقرى فى سوهاج وقنا وحولهما، وبينما كان يحل ألغاز التاريخ المعقد لمختلف الواحات ويتابع الاحتلال من العصر الفرعونى إلى العصر الإسلامى بدأ يبلور خطة طموحًا لتسجيل الآثار والتاريخ والحياة الاجتماعية لسكان صحارى مصر السبعة؛ وقد ساعده دريوتون فى مراجعة افتراضاته وأرشده فى عمله. وكتبه" : الاستكشافات الحديثة فى واحات الصحراء

الغربية (١٩٤٢)، المجلدات الأولى من كتابه "الصحارى المصرية: البحرية" (١٩٤٢) وكتابه "واحة سيوة" (١٩٤٤) حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة، وتبع ذلك تعيينه أستاذًا لتاريخ مصر القديمة والشرق الأدنى، وبالمقارنة نجد أن إسهام حبشى الوحيد فى المصريات فى تلك المرحلة كان اكتشافه عند كيمان فارس الذى نشر فى ١٩٣٧.

أما سنة ١٩٤٧ فقد شهدت فخرى فى اليمن وهو يقوم بمسح أركيولوچى لحساب مصلحة الآثار، وكما شهدت حبشى وهو يعمل بجد لاستكمال توثيق مذبح هيكايب، وكان ذلك فى شتاء سنة ١٩٤٢ قبل أن تقوم مصلحة الآثار بتمويل رحلة حبشى إلى كمبردچ لقراءة نصوص هيكايب مع سير الآن جاردنر قبل نشرها.

ومن المثير حقًا مقارنة السنوات الباكرة لهذين العالمين المصريين اللذين كانا بالمصادفة عالمى أنثروپولوچيا اجتماعية قبل أن يتطور هذا الموضوع ويصبح مجالاً مستقلاً بفترة طويلة. وكان حبشى قد تربى فى الريف وراقب المجتمعات الزراعية فى الدلتا وبطول وادى النيل وسار من قرية إلى أخرى طفلاً لحضور الموالد الإسلامية وأعياد القديسين المسيحية واستمع إلى الفولكلور المحلى. فهم وتعاطف مع من كانوا يكدحون فى الأرض، أما فخرى فكان يجلس فى أملاك فخرى عائلته فى الفيوم عند قدمى عم السيد وكان عبدًا أسود محررًا من واحة سيوة (كانت ملامحه سوداء وبشرته سوداء مثل الغراب) كما وصفه فخرى نفسه. ذكريات حياة فخرى الباكرة التى (كما هى مسجلة فى مقدمة كتابه واحة سيوة) تكشف كيف أنه كان يصغى لحكايات البدو – المغامرات وقصص الحب والمعارك – ويراقب قوافل الجمال أثناء عبورها الصحراء، وكيف أن كلمة "صحراء" بالذات كانت تشعل خياله وتملأه بإحساس غامض، وعلى الرغم من مظهرها، لم يكن فخرى يعتبر الأرض الجرداء بحرًا واسعًا من الرمال يمتلئ بقوى غامضة غير مرئية"، والحقيقة أنه منذ سن صغيرة "اكتشف جمالها وحيواناتها وطيورها وحياتها النباتية وأحبها". وأثناء سفرياته من واحة إلى واحة كان يلاحظ كيف يتأقلم السكان

مع البيئة المحيطة بهم، وفيما بعد درس وكتب عن أصولهم وطعامهم وملبسهم وحياتهم ومجوهراتهم، وبينما كان فخرى يركب جملاً ويتحدى الصحراء كان حبشى يستكشف الطرق والممرات فى الدلتا ويراقب الفلاحين وهم يحفرون بحثًا عن السباخ ويخرجون الآثار التى يبيعونها فى السوق العلنية.

كان حبشى وأحمد فخرى يعرفان الإمكانات الأثرية الغنية لبلادهما وزاد اهتمامهما بالمحافظة عليها. ورأى حبشى الأضرار التى تلحق بالآثار بسبب التوسيع العمرانى المستمر، والطرق والسكك الحديدية فى الدلتا، وبالإضافة إلى نهب المواقع الأثرية، وبذل كل جهد ممكن لجذب الانتباه إلى أهمية الحفر والتسجيل "قبل أن يصبح ذلك متأخرًا"

أما فخرى من جانبه، فقد وجد أن الصحراء مغطاة بصخور سطحية بالإضافة إلى المعابد والمقابر والمدن القديمة والحصون كما أنه واجه مشكلة من يستطيع تمويل البعثات المنظمة المطلوبة لإنقاذها.

أما هانى زينى فقد وصف فخرى بأنه أكثر الاثنين مغامرة: "كان أحمد إلى حد ما شخصية قلقة بطبعه لا يتحمل كثيرًا تمضية وقت طويل فى الصحراء، لديه دائمًا مشروعات جديدة وينتقل من واحة إلى أخرى. حبشى كان لديه قدرة أكبر على البقاء ويستطيع أن يركز فى شىء واحد، أثر أو نقش حتى يصل إلى صميمه، ودراساته فى الدلتا وأسوان نماذج تحتذى، وكما ينبغى ألا ننسى اهتماماته بنقوش الصخور والجدران ورسومها".

كان حبشى مفتونًا بالنقوش التى صنعها الموظفون الرسميون المصريون، وكان معظمهم من نواب الملك الذين حكموا النوبة فى المملكة الحديثة منذ أول تعيين له فى أسوان. كان هناك قرابة ستمائة نقش محفور على صخور الجرانيت حول أسوان وعلى جزيرة سهيل من التى تحتوى على أكبر مجموعة تزيد على مائتى نقش. وهناك نقوش أخرى على طول الطريق بين فيلة والشلال، والكثير

منها - إن لم تكن كلها - قد درست ونشرت بمعرفة السياح والدارسين السابقين"، كما يقول حبشى:أحد النقوش الذى وجدته مهمًا على نحو خاص كان يشير إلى محاصر المسلات بواسطة شخص يدعى هيومان، ملاحظ بنائى أمون، المسئول عن الإشراف على نقل ست مسلات ضخمة من أسوان. هيومان يزعم أنه المراقب اليقظ الذى لم ينم وكتب ألا أحد يضارعه. "ويبدو أن الملك كان على علم بكفاءته لأن هيومان كوفئ بمنحه قطعة أرض وسبيكتين من الذهب والفضة. وعشرين عبدًا لخدمته"، كما كتب حبشى. (*hibachi, 1950*)

"أحد أهم النقوش التى رأيتها كان على الصخرة الموجودة على الجانب الجنوبى الشرقى لمنزل حديث مقابل فندق كتراكت"، ويبين بيك كبير النحاتين للفرعون إخناتون تذكارًا لزيارته إلى أسوان، كتب أن الملك كان يعلمه فى عمله، وهذا نص مهم لأنه يبين أن إخناتون كان شخصيًا منغمسًا فى ذلك الفن الفريد لما يسمى بفترة العمارنة. "كنت مهتمًا دائمًا بأن أجد دليلاً يقودنى إلى أشخاص من ذوى الأسماء المعروفة. على سبيل المثال رأيت فى الحديقة العامة بالقرب من فندق كتراكت نقوشًا خاصة بعدد كبير من فراعنة المملكة الوسطى ومن بينهم سنوسرت، ورمسيس الثانى يستقبل نائبه فى كوش. وفى موقع قريب وملاصق للنيل كان هناك نقش للملك سينموت أفضل رجال بلاط الملكة حتشبسوت الذى جاء إلى أسوان، ليشرف على استخلاص المسلات العظيمة للملكة من المحاجر. ومن المحتمل أن تكونا هما المسلتين اللتين أقامتهما الملكة فى الكرنك، والباقى منهما الآن فى مكانهما هو القاعدتان، ووجدت كذلك نقوشًا بطول الحائط القديم الممتد على الضفة الشرقية التى تربط الميناءين اللذين على طرفى الشلال الأول الذى لا يستخدم للملاحة بين أسوان وفيلة، وهى مسافة نحو سبعة كيلو مترات.

شكل رقم ٥٢: حبشي يسجل النقوش والرسوم على الضفة الشرقية للنيل.

كان حبشى يفضل البحث عن النقوش بالقارب، وذلك بأن يبحر فى منطقة الصخور حيث بنى النوبيون منازلهم فى خلجان صغيرة على شواطئ النهر وفوق الجزيرة: "راقبت الأطفال النوبيين وهم يلعبون ويبحرون بقواربهم الصغيرة المصنوعة باليد. كانوا يضحكون كثيرًا وكانت أسنانهم بيضاء فى مثل بياض عيونهم. كنت أبحر كثيرًا إلى جزيرة سهيل الجميلة بقراها النوبية النمطية ونخيل الدوم المميز وجذوعه المشقوقة. كنت أستطيع من فوق الجرف رؤية المياه وهى تزأر بين الصخور، وقد درس الدارسون الأوائل فى النصف الأول من القرن العشرين الكثير من النقوش ونشروا الكثير منها ولكن كان هناك الكثير الذى يكفينا جميعًا".

تحدث هانى زينى عن صديقيه بمودة عظيمة، وكان يبتسم وهو يذكر أن حبشى وفخرى كليهما "كانا قصيرى القامة ومتقاربين فى الميول بطبيعتيهما وكلاهما يتميز بروح المرح". وصفهما بأنهما صديقان طيبان "وتهيأت لهما الفرصة للعمل معًا فى مناسبتين مرةَ عندما أزالا الرمال عن الجانب الشرقى من معبد الأقصر فى الثلاثينيات من القرن العشرين، والثانية كانت بعد الحرب العالمية الثانية عندما تعرضت جبانة طيبة للسلب. كان فخرى يجد سهولة فى التواصل مع الناس" وعندما كان يقع فى مشكلة مع المسئولين مثلاً كان يستطيع أن يتخلص من الموقف بالضحك ويغير الموضوع، وكان معتادًا على التعامل مع مجتمع القاهرة ومن هم على دراية بشئون الحياة والمتنورين سياسيًا أكثر من حبشى، كما كان هو الأكثر ثقة بالنفس. كان من الصعب على لبيب أن يقوم بالخطوات الأولى، ويعتقد الكثيرون أنه كان يتميز بأسلوب متحفظ، والحقيقة أنه كان خجولاً وقليل الثقة وكانا إذا اجتمعا معًا يتشاجران، على المستوى الفكرى طبعًا، ولكن صحبتهما كانت مبهجة. وعندما كان يوجد خلاف فى الرأى كانا يتجادلان بالساعات، كانا يستمتعان بذلك. كان لهما مناقشات حامية حول طرق التجارة القديمة التى كانت تربط مصر وليبيا وحول المسافرين الذين كانوا يقطعون طريق درب الأربعين بين

الواحة الخارجة والسودان على مدى ألف عام. كانا يتبادلان المعلومات حول المشاكل التى يواجهها كلاهما مع مصلحة الآثار ويحذر كلاهما الآخر من الخفراء غير الجديرين بالثقة خاصة فى مصر الوسطى. عندما تعرضت المعابد والمقابر لانتهاك حرمتها على يد بعض من كانوا يبحثون عن تحف ليبيعوها فى السوق كان سخط فخرى بلا حدود، وهو نفس الأمر بالنسبة لحبشى الذى كان يقول دائمًا:"لابد من أن نفعل شيئًا، ويجب ألا نستسلم".

لم يكن لأيهما توجهات سياسية، وأشك فى أنهما كانا على دراية أو اهتمام خاص فيما يتعلق بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ المصرية البريطانية التى أحدثت تغييرًا فى العلاقات المصرية البريطانية، على الأقل على الورق. ولكن عندما تدهورت العلاقة بين الملك فاروق والسفير البريطانى، وحدثت سلسلة من الأزمات قبل نشوب الحرب العالمية الثانية مع توالى الحكومات الفاشلة، وهو مانتج عنه اضطربات عمالية ومظاهرات طلابية وقمع - تنبه حبشى وفخرى، ومع أنباء زيادة سلب ونهب الآثار عرفا أن شبكة الخفراء والمفتشين كانت تنهار. وكانت صدمة لكليهما عندما علما بنزع وسرقة كثير من النقوش من جدران بعض أجمل المقابر والمعابد مما ترتب علية تدمير أجزاء أكبر من تلك التى أزيلت.

ابتعد فخرى عن المشهد المصرى فى سنة ١٩٤٧ عندما أشرف على المسح الأثرى فى اليمن جاذبًا انتباه العالم إلى مملكة سبأ، وعند عودته إلى القاهرة عين رئيسًا لمشروع دراسات الأهرام فى سنة ١٩٥١ قبل قيام الثورة. إلا أنه كان من المتوقع من مثل هذا الدارس الرفيع المستوى أن يلمع فى عالم الآثار الأثرى بعد الثورة خصوصًا بعد أن تسلم المصريون مصلحة الآثار من الفرنسيين، ترك فخرى مصر مرة أخرى حيث عمل أستاذًا زائرًا فى الخارج فى جامعة بروان، وجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة، وجامعة بكين فى الصين. كما قام برحلات لإلقاء المحاضرات فى أوروبا، والشرقين الأدنى والأقصى وأمريكا الشمالية والوسطى، وساعد فى بناء برامج علم المصريات فى الخارج وعمل الكثير لتطوير الاهتمام

بمصر القديمة عندما صحب أول بعثة لمعرض توت عنخ آمون فى جولتها بالولايات المتحدة سنة ١٩٦١-١٩٦٢.

هكذا كان فخرى من أوائل علماء المصريات المصريين الذين أغوتهم الشهرة والمكافآت المالية فى الغرب، وفى مقدمة كتابه واحة سيوة: ***Siwa Oasis***. يقول: "لقد أنهيت جزءًا كبيرًا من مجلد سيناء ومريوط سنة ١٩٦٤، ولكننى عرفت أن إنجاز خطتى الأصلية كان يتطلب وقتًا أطول مما كان لدى. ولما كنت بعيدًا عن مصر معظم الوقت فى الفترة ما بين عامى ١٩٦٤، ١٩٦٨ فإن ذلك كان يمثل عائقًا أمام الاستغراق فى البحث. ونتيجة لذلك عدلت خطتى على الأقل فى وقتها، وقصرتها على الواحات الخمس فى صحراء مصر الغربية". الجزءان الأول والثانى من سلسلة واحات سيوة والبحرية والفرافرة صدرا فى موعدهما، أما الجزء الثالث عن الواحة الخارجة فلم يكن كاملاً عندما حدثت المأساة. مات أحمد فخرى بنوبة قلبية فى باريس سنة ١٩٧٣، وهو فى طريقة إلى القاهرة بعد أن قدم سلسلة من المحاضرات بجامعة بنسلفانيا. كانت صدمة وفاة أحد أشهر علماء المصريات المصريين شديدة الوقع حول العالم. كان هنرى فيشر مع حبشى عندما سمعا الخبر، يقول لبيب إنه " انخرط فى البكاء علنًا".

أما حبشى الذى كان قد بدأ فى تأليف كتابه: ***The Obelisks of Egypt*** (مسلات مصر) فقد تحرك الآن نحو مرحلة أعلى. ولا شك أن زوجته عطية قد شجعته وكانت قد رأت فى وفاة فخرى غير السعيدة فرصة لزوجها ليملأ الموقع الذى خلا ليكون أعظم علماء المصريات وانطلق حبشى. بدعم چورچ هيوز وچون ويلسون وديڤيد أوكونور تم استكمال الكتاب وطبع بالإنجليزية سنة ١٩٧٧، ثم تَرجم إلى الفرنسية والألمانية. "كان هناك بعض الكتب الممتازة التى كتبت عن المسلات التى نقلت إلى روما، وعددها ثلاثة عشر كتابًا، وإلى مدن أخرى، ولكن معظمها كان يهتم بتاريخها فى مواقعها الحالية"، كما يقول حبشى "أما كتابى فيصف إنتاج هذه الآثار الضخمة الرشيقة ومعناها والسبب الذى جعل الفراعنه يبنونها،

وركزت على المسلات فى هليوبوليس وممفيس وطيبة وبى - رمسيس وروما واسطنبول وباريس ولندن ونيويورك، ولكن الكتاب لا يغطى كل المسلات".، "لقد حـذفت المســلات الأصغــر حجمًا التــى لا تحمل نقوشًا مهمة، وفيما بعد سأكتب دراسة أكثر شمولاً عن مسلات مصر بعنوان (المسلات فى الداخل - *Obelisks at Home*).
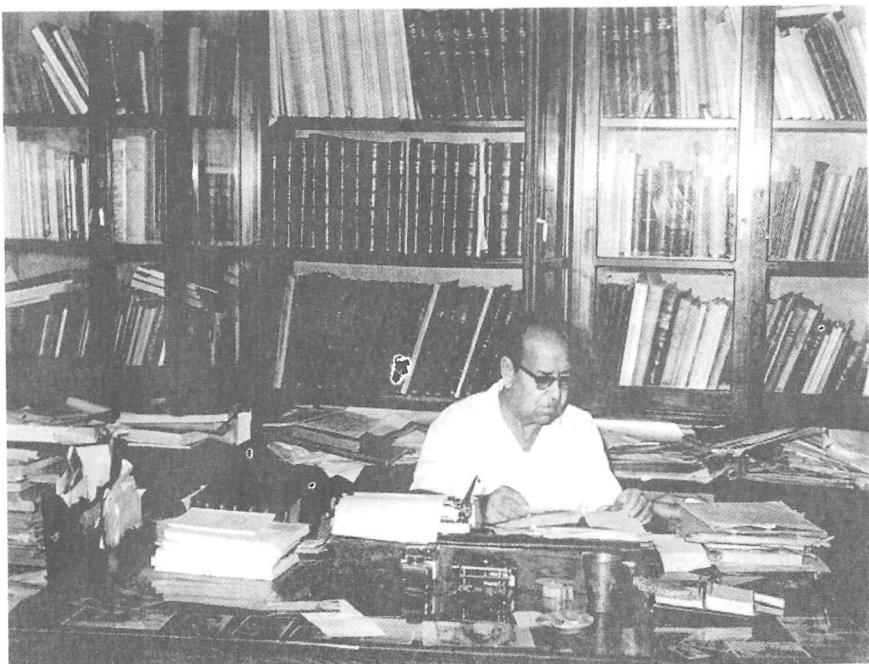
الشكل رقم ٥٣: حبشى فى مكتبته فى منشية البكرى - هليوبوليس

بعد أن قرر حبشى ألا ينتظر طويلاً لكى ينشر كتابه: (هيكل هيكايب: *Sanctuary of Heqaib*) وبدأ العمل فى كتابة عدة مقالات منفصلة "عدد من الموظفين المهمين الذى خدموا عائلة نفرحتب كما تكشف عنها ثلاثة أشياء فى هيكل هيكايب) و"أضواء جديدة على الوزير إيميرو" و"أضواء جديدة على عائلة نفرحتب الأول كما كشفت النقوش فى منطقة كتراكت". و"مقال لتكريم داوس دونهام نشر سنة ١٩٨١ بقلم: حبشى بمجلة متحف الفنون الجميلة - بوسطن ١٩٨١.

ونشرت المقالات الثلاث الأولى الأخرى فيما بعد ضمن كتاب حبشى الصادر فى ١٩٨١ بعنوان: "ستة عشرة دراسة عن النوبة السفلى"

وفى مقدمته، بعد أن شكر الأصدقاء الكثيرين والزملاء الذين شجعوه على نشر المونوجراف، أضاف حبشى: "دعونى آمل أن يثير الكتاب الحالى اهتمام زملائى، خصوصًا أولئك الذين شاركوا فى إنقاذ تراث النوبة قبل أن يختفى، وأتمنى كذلك أن يغرى أولئك الذين يحتفظون بتقاريرهم لكى يخرجوها لزملائهم" وهذه الملحوظة الأخيرة جديرة بالتسجيل، لأنه عندما أدرك فى أواخر حياته أنه لن يكون قادرًا على استكمال مشروعاته البارزة العديدة قرر نشر مذكراته ووثائقه.

ترك الكثير من المصريين بصماتهم على علم المصريات فى القرن العشرين، ولكن أحدًا لم يقدم أكثر مما قدمه لبيب حبشى وأحمد فخرى. كانا حقًا أغزر الدارسين إنتاجًا وكلاهما فتح مجالات جديدة للبحث. تراث فخرى يعيش فى واحات الصحراء الغربية، وتراث حبشى يعيش فى المناطق الكثيرة التى فصلناها فى الببليوجرافيا الخاصة به. أما إذا كان إسهام حبشى الأعظم فى المجال من حيث غزارة الإنتاج يمكن تجاوزه لو لم يمت صديقه فى سن الثامنة والستين، فإن ذلك يظل سؤالاً مفتوحًا.

الفصل الثامن

عهد جديد

فى الساعات الأولى من يوليو ١٩٥٢ قام الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر ورئاسة اللواء محمد نجيب بالاستيلاء على السلطة فى مصر. سيطروا على المنشآت العسكرية والإذاعة والمطار والاتصالات، وأنشئ مجلس قيادة الثورة تحت قيادة اللواء ولكن السلطة الحقيقية فى عملياته اليومية واتخاذ القرار كانت فى يد البكباشى الشاب جمال عبد الناصر الذى برز فى النهاية بصفته القائد المعروف وأعلن مصر جمهورية فى يونيو ١٩٥٣.

فى ذلك العام سلم حبشى ملفًا بنى اللون بعنوان "معبد هيكايب" إلى مصلحة الآثار. كان - أخيرًا - قد دقق مادة الهيكل الموجود على جزيرة فيلة وكتب تعليقاته. فيما بعد قال:"كان توقيتى فى منتهى الدقة" مواطن مصرى يحكم مصر بعد آلاف السنين، وليس أفضل من ذلك سبيل لبدء عصرنا الجديد فى مجال الآثار وهو نشر اكتشاف مثل اكتشافى. سيكون ذلك نموذجًا لما يستطيع المصرى إنجازه. عندما عينت، ومعى أربعة عشر زميلاً أعضاء فى المعهد الألمانى للآثار فى برلين فى ذلك العام، شعرت بالثقة فى أننى عندما أعود سأجد أخبارًا طيبة بأن الكتاب كان فى الطريق للنشر". وكان مخطئًا. لم يكن التوقيت ملائمًا بالمرة، حيث إن إتيين دوريوتون الذى شجع حبشى فى بداية حياته الوظيفية وكان يوافق على تخصيص التمويل لحفائره فى فيلة، كان قد استقال من منصبه كمدير لمصلحة الآثار، وعليه فإن الرجل الذى كان يمكن أن يساعد فى دفع المخطوط للنشر لم يعد له وجود؛ والحقيقة أن كل المادة التى قدمت لمصلحة الآثار للطبع بعد يونيو ١٩٥٣ قد أوقفت لمدة السنوات الثلاث الأولى للجمهورية. كان مخطوط حبشى بين تلك المادة.

كان أحد أهداف قادة الثورة القضاء على الاستعمار الأجنبى وقد تحقق ذلك عندما أنهى جمال عبد الناصر آخر آثار الاحتلال بتوقيع المعاهدة البريطانية المصرية فى ١٩٥٤، التى نصت على الانسحاب التدريجى للقوات من قناة السويس. وللمحافظة على سياسة عدم الانحياز، فإن الرئيس الشاب وهو شخص موهوب صعد إلى العظمة بذكائه، رفض أن يرتبط بالتحالف العسكرى الغربى وهو حلف بغداد. طلب أسلحة من الغرب وبعد تكرار الرفض اتجه شرقًا وعقد صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا فى سبتمبر ١٩٥٥، وكان لهذا العمل الجرىء أصداء عنيفة، فقد كانت مصر قد دخلت بالفعل فى مفاوضات مع البنك الدولى لتمويل بناء السد العالى فى أسوان، ولكن عندما سحبت الولايات المتحدة عرضها للمساعدة، رد عبد الناصر بتأميم قناة السويس لتكون مصدرًا للتمويل المطلوب. وكان خطابه الذى أعلن فيها تلك الخطوة الجريئة قد جعلته محبوبًا من الشعب المصرى، الـــذى أعلـــن رفضه للضغط الغربى وتصميمه على مواصلة طريقه. إلا أنه أحدث رد فعل عنيفًا فى أوروبا وكان مقدمة للمواجهة مع بريطانيا وفرنسا، ما أدى إلى "العدوان الثلاثى" من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وحرب السويس سنة ١٩٥٦ التى انتهت فقط من خلال تدخل الأمم المتحدة والاتحاد السوفيتى.

وبرز عبد الناصر كرمز للكرامة العربية الجديدة فى مواجهة الاستعمار، وأعطاه الهجوم على الأراضى المصرية الأسباب للجوء إلى العزلة ثم تأميم الممتلكات والمصالح الأجنبية فى مصر، وشمل ذلك مصلحة الآثار التى كانت فى أيدى مديرى عموم فرنسيين مثل ماربيت وماسبيرو وجريبو ودى مورجان ولاكاو ودريوتون منذ إنشائها، وأصبح للمصريين السيطرة على المؤسسة تحت اسمها المعدل "مصلحة الآثار المصرية" أو باختصار: "مصلحة الآثار". كان علماء الآثار المصريون يفترضون بالطبع اختيار واحد منهم للمنصب الرفيع وهو المدير العام، وكانت ضجة كبيرة عندما عرفوا أن مصطفى عامر (١٨٩٦- ١٩٧٣)، وهو أستاذ مساعد للجغرافيا بجامعة الإسكندرية هو الذى تم تعيينه. كان اختيارًا موفقًا لأن عامر كان مؤهلاً أكاديميًا، وبرهن على كفاءته الآثارية فى دراسة مواقع ما قبل

الأسرات فى المعادى، بالإضافة إلى أنه كان يتمتع بشخصية قوية وكياسة، وهى صفات كانت مطلوبة فى أول مصرى يتبوأ مثل هذا المنصب الرفيع. أما المتخصصون فى الآثار المصرية فأصيبوا بالإحباط، وأخذوا ينتقدون عامر عندما فشل فى تعيين أى شخص فى الإدارة الجديدة، وربما كان ذلك أحد أسباب نزف الأدمغة الذى حدث فى هذا الحقل. تابع أحمد فخرى عمله خارج مصر. أما إسكندر بدوى (١٩١٣-١٩٨٦) المهندس المعمارى وعالم الآثار الذى حفر فى تونة الجبل وقصر قارون فى الفيوم، وقام بتدريس التاريخ القديم بجامعتى القاهرة والإسكندرية، فقد أصبح أستاذًا لتاريخ العمارة فى جامعة كانساس، وأستاذا للتصميم الفنى والتاريخ بجامعة كاليفورنيا. "دون استثناء تقريبًا فإن علماء المصريات كانوا يتحدثون باستخفاف عن "مجموعة الضباط" الذين حكموا البلد "وكما يتذكر جمال مختار وكيل الوزارة للآثار والمتاحف فى سنة ١٩٦٨، ورئيس مجلس إدارة الهيئة المصرية للآثار من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٧، ويضيف "كان البعض أكثر صراحة، فكانوا يقولون إنهم جماعة من الأغبياء".

كان من أولى الخطوات التى اتخذتها هيئة الآثار نزع ملكية الأراضى والمبانى من الطبقات الغنية وتحويلها إلى الدولة، وأصبحت الكنوز المعمارية العظيمة التى أقيمت خلال القرن التاسع عشر فى حالة مزرية على مدى نصف القرن التالى كما كانت تلك المبانى والقصور حلاً لأزمة عدم وجود مبانٍ للمدارس. ودون أى اعتبار لقيمتها التاريخية والمعمارية تم تحويل استراحات ملكية وقصور مثل تلك التى فى شبرا إلى مدارس. استراحة الملك فاروق فى المنتزه وحدائقها الواسعة استولى عليها النظام الجديد، أما طرف خليج سميراميس فتم تحويله إلى استراحة صيفية للرئيس ووزرائه، البلاجات والشواطئ الرائعة تحولت إلى منتجعات خاصة مجهزة بكبائن صيفية فخمة للطبقات الحاكمة الجديدة. وفى القاهرة فإن نادى الجزيرة الذى كان مقصورًا على الضباط البريطانيين قد تـم تـأميمه، وسرعان ما أصبح موقعًا لاستعراض أحدث السيارات والفساتين القصيرة أو حتى الحيوانات الأليفة.

وظهرت طبقة وسطى مصرية جديدة تتردد على فنادق هيلتون وشبرد، وانفتحت شهيتها على أشياء مثل السجاد الفارسى والأثاث الغربى واللوحات الفنية وأدوات المائدة المصنوعة من الفضة، تلك التى لم يمنعها الفكر الاشتراكى الجديد حتى بين أعضاء مجلس قيادة الثورة.

وعندما صدر قانون يسمح بسرعة التخلص من مقتنيات المجموعات الفنية التى تخص الارستقراطية المعزولة، لقى انتقادًا شديدًا من المثقفين المصريين الذين كانوا يحضرون المزادات فى المنازل الفخمة والقصور وهالهم رؤية المقتنيات الثمينة وهى تتحطم. وأدركوا أن الدولة المصرية كانت تضيع فرصة نادرة لكى تمتلك كنوزًا ثقافية من أمم عديدة وحزنوا لخسارتها. ثم سرت شائعة بأن خطوات سوف تتخذ لتشديد مواد قانون الآثار لضمان عدم خروج التحف الفريدة من مصر. لم تكن هذه النزعة لاعتبار الأشياء التى تنتمى إلى مصر القديمة ملكية قومية نزعة جديدة، بل إنها نبعت من روح قومية حقيقية، وإن كانت قد لقيت انتقادات من المؤسسات المعنية بالآثار فى أنحاء العالم. صاحب ذلك شكوك كبيرة عندما صدر مرسوم ينص على أن الآثار المصرية لن تكون ملكًا لأفراد وإنما هى ملك للدولة، وتناقص عدد البعثات الأثرية الأجنبية التى كانت تسعى للحصول على امتيازات للقيام بأعمال الحفر.

كان لبيب حبشى يعمل فى الأقصر خلال الفترة ما بين عامى ١٩٥٤ و١٩٥٨، وكان معه محمد حماد (الذى أصبح مديرًا للأشغال فى الكرنك بعد رحيل شفرييه) يقومان بإخلاء الصرح الأول لمعبد الكرنك وناقشا إمكانة إعادة إقامة تمثال ضخم من الجرانيت لأحد كبار كهنة القرن الحادى عشر قبل الميلاد "پاندچيم"، وشكلا فريقًا من العمال وأنجزوا العمل، وهو قائم الآن أمام البيلون الثانى "وجدنا لوحًا ضخمًا سليمًا أعيد استخدامه كقاعدة تحت التمثال، واتضح أنه ما يعرف الآن باسم اللوح الثانى الذى يخص كاموس، ملقىً على وجهه المنقوش فوق طبقة من الرمال، كما لو كان الذين أعادوا استخدامه كقاعدة للتمثال كانوا

يريدون الحفاظ على النص المقدس من تأثير رطوبة الأرض"، كما يقول حبشى، مضيفًا: "كان أثرًا ضخمًا يبلغ حجمه حوالى مترين فى متر وهو بحالته الأصلية تقريبًا باستثناء جزء صغير فى قمته مساحته خمسة عشر سنتيمترًا مفقود. وصنع حماد نسخًا مبدئية من النص الذى تم نشره بالفاكس وبدأت فى نقله" وقد اتضح أنه وثيقة تاريخية مكتوبة على ثمانية وثلاثين سطرًا من الكتابة الهيروغليفية التى احتفظت بمادة الصباغة الزرقاء الأصلية، وهى تروى قصة حرب التحرير ضد قبائل الهكسوس التى جاءت من جهة سوريا وحكمت مصر ما بين عامى ١٦٥٠، ١٥٥٠ ق.م. لم تعانِ مصر أزمات شديدة أخرى خلال الثلاثة آلاف سنة من تاريخها القديم، وقد تحقق التحرير أخيرًا على يد أخوين من طيبة هما كاموس وأحمس. نصب الأول اللوح الذى أعيد استخدامه فى الكرنك. "أرسلت خطابًا إلى چورج هيوز مدير بيت شيكاغو أخبره بالاستكشاف الرائع وجاء ليراه بنفسه".

"اكتشفت اللوح الأول لكاموس الأولى سنة ١٩٠٨ عندما وجد هوارد لوحة حجرية تقدم الدليل التاريخى على أن الفرعون كاموس هو الذى أشعل حرب التحرير" كما شرح حبشى. "ووجدت قطعتين أخريين مكسورتين فى سنة ١٩٣٠، عندما كان شيڤرييه يقوم بتقوية أساسات السيلون الثالث وعليهما سجلات غزو كاموس. عندما بدأت العمل على الأثر المكتشف حديثًا اتضح أنه كان سجلاً شديد الأهمية، لأنه يقدم خطوة إلى الأمام عن اللوحة الأقدم والشظيات".

كان النص يصف الأحوال المروعة فى أڤاريس عاصمة الهكسوس. "اختفت النساء فى رعب وتم الاستيلاء على العجلات الحربية، مع كل المراكب المحملة بالبضائع المستوردة، وكشف ذلك عن كيف كان ملوك الهكسوس يعاقبون وتحرق قصورهم، ووصفت السطور السفلية العودة المنتصرة إلى طيبة والشكر للإله آمون رع الذى وهب النصر".

كان اللوح مقلوبًا فى القاعة الكبرى، ويتذكر حبشى كثيرًا من الأمسيات التى كان يقضيها أمامه چورج هيوز الذى ساعد "فى توضيح علامات المسارات الصعبة". هيوز الذى وصف حبشى، وهو مفتش شاب كان يصحبه دائمًا فى

رحلاته الميدانية، كتب: "قضينا ساعات طويلة منكبين على اللوح الكبير، بل إننا زحفنا فوقه لكى نتبين منطقة محطمة فى النص". وهذا الوصف يستحق التسجيل لأنه بينما يعتبر العمل الميدانى جزءًا من التدريب بالنسبة للأثريين الغربين ويعتبر مسلمًا به فإن البحث عن "الآثار القذرة" كان يعتبر آنذاك فى المجتمع المصرى وإلى حد كبير فى أيامنا هذه أمرًا مهينًا. والحقيقة أن الكثير من المصريين من جيل حبشى كانوا يعتبرون أن درجة التخرج فى علم الآثار المصرية خطوة نحو العمل بالتدريس، ويفضلون عدم تلويث أنفسهم فى الطين مثل عمال الزراعة.
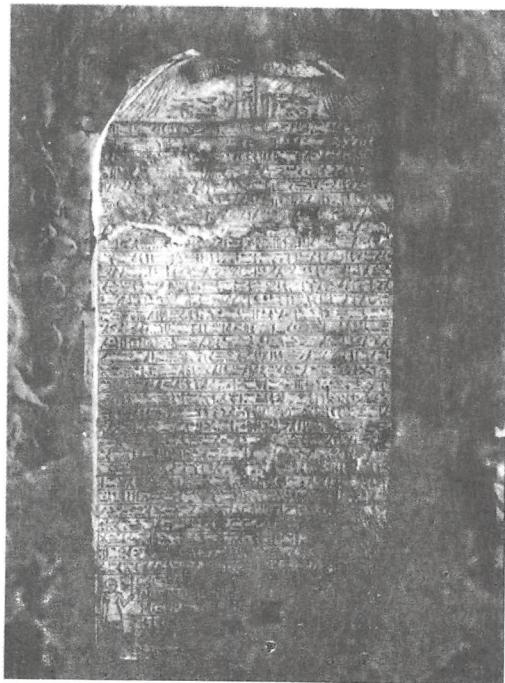
الشكل رقم ٥٤: اللوحة الثانية ذات الأهمية التى تنسب إلى كاموس

"كان البروفيسور هيلك يأتى إلى أحيانًا فى الكرنك ليشاهد اللوح ويضيف خبرته عندما خرج النص إلى النور".

أما بيت شيكاغو، وهو الاسم الشعبى لرئاسة المسح الخاص بالكتابات المنقوشة على التماثيل بجامعة شيكاغو فى الأقصر، والذى أنشأه جيمس بريستيد، فقد فتح عالمًا جديدًا أمام حبشى فى المبنى المتعدد الحجرات حول الفناء شمال معبد الأقصر وقد أدهشته عظمة العمل الذى تم تنفيذه، ولاحظ كيف قام المصورون بالتقاط سلسة من الصور للنقوش على حوائط المعبد وقاموا بتحميضها فى طبعات مكبرة تظهر البروزات والنقوش، ثم قارنوا بينها بوصة بوصة وبين ما هو على الجدران. وأخيرًا يتم وضعها فى مسحوق التبييض وإخراجها بينما أعطت الرسومات الخطية المتبقية تفاصيل أكثر مما كان يمكن رؤيته بالعين المجردة. كان يصف كل مرحلة من مراحل العملية، ثم يضيف بابتسامة واضحة: "لابد أن أقول إن الأمريكيين يعرفون كيف يعيشون جيدًا، أما الأثريون البريطانيون فهم راضون بالعمل فى أشد الظروف قسوة... حتى حفارونا يندهشون مما يتحملونه. ولكن الأمريكيين فى الأقصر يعيشون ويعملون فى أحد المعاقل الأخيرة من الطرز الاستعمارية الموجودة فى العالم: خدم يلبسون الطرابيش والأحزمة العريضة على الوسط، ويتناولون الغداء فى القاعة المركزية الجميلة وقت الظهر فى شمس الشتاء ويتناولون الشاى فى الخامسة تمامًا، ولديهم بيانو كذلك".

كتب أحد زوار بيت شيكاغو قائلاً: "أخذنى چورچ هيوز أولاً لزيارة لبيب بك حبشى، المفتش المحلى المسئول عن آثار منطقة الأقصر، وهو شخص مرح ومشغول وأحسن أصدقاء هيوز، إن تداول السلطة ليس من مواصفات الخدمة المدنية المصرية، ولذلك كان على لبيب أن يشرف ويوقع ويرتب كل شيء بنفسه. وحياته معرضة دائمًا للمقاطعة المستمرة من قبل فريق من السكرتارية أو المساعدين، ولا يجد راحته إلا فى السير إلى بيت شيكاغو ليستخدم المكتبة ويتناول كوبًا من

الشاى فى هدوء". هيوز نفسه وصفه حبشى بأنه رجل "يبدو أنه لاينسى شيئًا رآه على مدى حياته التفتيشية فى أرجاء مصر".

"بفضل چورچ هيوز رتبت لى مؤسسة روكفلر السفر إلى أوروبا لمقابلة مختلف الدارسين للتشاور، وفى أوكسفورد التقيت مرة أخرى بالسير آلان جاردنر المعروف باهتمامه بكاموس والكفاح ضد الهكسوس. وفى أوپسالا تباحثت مع سافسودربرج وهو مرجع معروف عن فترة الهكسوس. وفى باريس جددت الاتصالات مع إتيين دريوتون الذى ساعدنى فى توضيح بعض النقاط الملتبسة فى ترجمتى الأخيرة". أسلوب حبشى الدافئ والتلقائى والسهولة التى يتشاور بها مع الدارسين الغربيين وتقديره الحقيقى لملاحظاتهم جعلته قريبًا منهم".

فى الوقت نفسه كانت النجوم الناهضة من الجيل الثانى من الأثريين المصريين قد بدأت تأخذ أماكنها فى مراكز مهمة فى البلاد، بين أكثر المتميزين كان هناك عبد المنعم أبو بكر صاحب الشخصية الكاريزمية الذى حصل على الدكتوراه من برلين فى ١٩٣٨، وغمر طلبته بجامعة القاهرة بحبه الشديد، ومتى جرجس الذى حصل على الدكتوراه من أوكسفورد فى ١٩٤٦ وتخصص فى الهيراطيقية والديموطيقية ونشر دائرة المعارف القبطية ***The Coptic Encyclopedia***، وأحمد بدوى الحاصل على الدكتوراه من برلين أيضًا، وتقلد عدة مناصب جامعية قبل أن يصبح مديرًا لمركز التوثيق بالقاهرة فى سنة ١٩٥٦، ومحرم كمال الذى درس فى الخارج قبل الالتحاق بمصلحة الآثار وتقلد مناصب إدارية مختلفة بالمتحف المصرى ومركز التوثيق. وظل زكى سعد المشهور بحفائره عن مقابر الأسرات الباكرة يعمل بنشاط، ومحمد أنور شكرى الذى تسببت الحرب العالمية الأولى فى قطع دراسته فى ألمانيا، وقد تقلد منصبًا فى المتحف المصرى قبل أن يقوم بدور نشط فى عمليات إنقاذ النوبة.

الشكل رقم ٥٥: حبشى (إلى اليسار) بصحبة سير آلان جاردنر وهما يشاهدان النقوش بجزيرة سهيل.

كان النظر إلى السد العالى باعتباره الحل لكثير من المشكلات المعقدة التى تواجه البلاد، وليس أقلها مساعدة الانفجار السكانى الذى وصل إلى ٢٣ مليونًا سنة ١٩٥٦ (بمعدل زيادة نصف المليون فرد سنويًا) يعيشون على مساحة ٤٥ مليون فدان من الأرض الصالحة للزراعة، ولن يكون ذلك سدًا عاديًا، فقد صمم ليكون بمثابة جدار أمام النيل، جبل صناعى ضخم من الطين والصخر فوق قلب من الأسمنت ويمتد أعلاه على كلا جانبى النهر عند أسوان وفى الصحراء الصخرية وبذلك يغلق الفتحات الطبيعية للصحراء الشرقية والغربية. وبارتفاعه إلى نحو ١١٤ مترًا يكون خزانًا ضخمًا (بحيرة ناصر) لها قدرة تخزينية تقدر بـــ ١٥٧ بليون متر مكعب من الماء، وممتد لمسافة ٢٥ كيلومترًا فى السودان، أما النوبة فسوف تغمرها المياه وتضيع.

تم استدعاء سليم حسن باعتباره وكيلاً لوزارة الثقافة لكى يقوم بعمل مسح للنوبة وكتابة توصياته لمصلحة الآثار حول أفضل الطرق للتعامل مع التراث الأثرى فى الأراضى التى ستضيع. صحبه حبشى كرئيس لمفتشى آثار مصر العليا فى جولته التفتيشية، وهما ينتقلان من بقعة إلى أخرى، من المعابد المحفورة فى الصخر مثل بيت الوالى وأبوسمبل إلى المناجم القديمة والمدافن، أبدى حبشى رأيه قائلاً إن مصر لن تستطيع أن تقوم بهذا العمل بمفردها، ويتذكر: "ولكن سليم لم يستمع إلى تقريبًا، وقرر أن يرسم صورة وردية للمصريين وكونهم قادرين تمامًا على إنقاذ التراث النوبى كله بمفردهم، ولم يكن هناك ما يمكن أن يغير تفكيره، ولحسن الحظ فإنه عندما نشر كتابه الذى كان مكونًا من ٤٨٠ صفحة بالعربية والإنجليزية والفرنسية، كان قد أجرى المزيد من البحث وجرت مناقشات كثيرة وتم إدراك ضخامة المهمة تمامًا".

بدعم من اليونيسكو أسس مصطفى عامر مركز دراسة وتوثيق تاريخ فنون وحضارة مصر القديمة بمساعدة كريستيان ديزروش-نوبلكور من اللوفر، أما عبد المنعم أبو بكر الذى كان قد عين قبل فترة قصيرة أستاذًا للمصريات بجامعة

القاهرة فقد عين ممثلاً للجانب المصرى، وعين أحمد بدوى الذى كان يقوم بالتدريس فى جامعتى القاهرة وعين شمس مديرًا، وشغل شكرى الذى كان أمينًا بمتحف القاهرة منذ ١٩٥٢ منصب المدير المساعد.

اجتمع أبو بكر وبدوى وحسن وشكرى، ليشتركوا فى تشكيل لجنة من ثلاثة عشر وزيرًا وخبيرًا من ثمانى دول ولجنتين فرعيتين إحداهما لمصر والثانية للسودان. كانت اللجنة الفرعية لمصر تضم والتر إمري من جامعة لندن، وساڤى سودربرج من جامعة أوپسالا، وكريستيان ديزروش- نوبلكور وچون أوتيس برو من متحف پيبودى وچين فركوتيه من ليل، كممثل أجنبى. وكانت مهمة الفريق المصرى هى بحث كيفية التعامل مع الحفائر فى النوبة، أى الآثار يجب أن يحافظ عليها فى موقعها وأيها سيتم نقله بأمان ولمن ستعطى امتيازات التوثيق والتسجيل وإنقاذ الآثار والمواقع المهددة، وكم يتم تقدير التكلفة ومن سيتحملها، وتقرر أن تجتمع اللجنة بانتظام لتحديد مدى التقدم والتوصية بحلول المشكلات التى تظهر فى حينها.

وافق المعهد القومى الفرنسى للجغرافيا على القيام بمسح تصويرى كأساس لإعداد خرائط النوبة العليا والسفلى تتخذ القرارت بناء عليها، كما تم الاتفاق على أن تصدر من وقت لآخر كتيبات تحتوى على نقوش كل أثر.

كان حبشى يوقع، بكل ثقة، أن يطلب منه أن يكون ضمن اللجنة الفرعية، كما كان على ثقة من أن معرفته بالنوبة وإلمامه بالآثار المعروفة سيكون له قيمة بحيث يطلبون رأيه؛ ولكن عندما ذهب وفد علماء المصريات إلى النوبة للاطلاع على ثراء التراث القديم، لم يكن بينهم. "لم ينل فرصة" كما قال جمال مختار،"ولم يكن فقط مفتقدًا للوضع الأكاديمى، لم يكن أكثر من مجرد مفتش للآثار، لم يكن جزءًا من الشلة". ويضيف مختار:"عندما يحقق المصريون امتيازًا أكاديميًا يصبحون مراكز قوة، وصدقنى، هذا ليس إلا بيروقراطية مشبعة بالمحاباة. لقد كان

ضمن هذه اللجنة علماء آثار أجانب كثيرون يعرفون قيمة حبشى، وكان يمكن أن يكونوا أكثر من راغبين أن يكون بينهم، ولكنهم كانوا يسترشدون بقرارات مضيفيهم".

يتركز الإحساس المصرى بالتمييز الطبقى الصارم فى مهنة البحث عن الآثار، والحقيقة أنه على الرغم من الدعوة الثورية إلى المساواة، فإن القادة الجدد لم يكونوا أقل وعيًا بالطبقية من سابقيهم تحت الحكم الملكى. ربما لايكون هناك غرابة فى ذلك لأن الكثيرين بدأوا وظائفهم فى ذلك المعهد، فعمل سليم حسن فى الجيزة على سبيل المثال حقق له تكريمًا ملكيًا، فقد منحه الملك فاروق لقب باشا وطبعت تقاريره الآثارية تحت اسم سليم بك حسن، وبصرف النظر عن مثل هذه الألقاب التركية - وكان قد ألغى بعد الثورة - فإن ألقابًا مثل "بيه" و"باشا" شاعت مع غيرها مثل لقب "دكتور" (إشارة إلى المؤهلات الأكاديمية) و"أكسلنس" (التى تلفظ كما هى فى الفرنسية وتشير إلى النفوذ السياسى). كانت ألقابًا بلا معنى ولكنها مازالت مستخدمة. فى مجتمع يحتاج فيه كل من يتطلع إلى الرقى إلى قشرة من الثقافة الغربية، كان حبشى يفتقر إلى الدهاء. المصريون المتميزون الأنيقون الذين اختيروا للجنة الفرعية الخاصة بالنوبة كانوا يعتبرونه غير لائق اجتماعيا، وقد لخص هانى زينى صديق لبيب حبشى الموقف هكذا:

"كان لبيب رجل العمل الميدانى وليس الكوكتيل"، وعندما كان يضطر لارتداء رابطة عنقه كان يقول "سأختنق"، لم يحاول أن يكون مجاملاً اجتماعيًا". تعليق جمال مختار يلقى الضوء على سوء حظ حبشى الشخصى. يقول: "لم يستطع أن يدرك لماذا كان مهمشًا".، "ولكن اشتراكية عبد الناصر كانت تكافئ الابتكار. مُثل لبيب حطمها نظراؤه الممتعضون، خوفًا من أن يحقق خطوات ابتكارية أو من تعريض مواقعهم للخطر. وبالطبع كانت هناك أيضًا ضغائن شخصية. إذا لم تكن مولودًا داخل المنظومة، سيكون أمامك احتمالان: أن تتملق فى السلطة، أو تتزوج زيجة غنية، وعمومًا فإن لبيب لم يكن الشخص الذى يمكن أن يتملق".

شعر بالامتنان عندما طلب منه أن يصحب بعض المشاهير إلى النوبة. وكان من بينهم سلطان اليمن، والرئيس الإندونيسى سوكارنو وليزلى جرينر مؤلفة كتاب: ***High Dam Over Nubia*** وجوردون جاسكيل من مجلة ريدرز دايجست. "كانت زوجة جاسكيل معه وقضيا شهرًا بالقاهرة قبل مغادرتنا إلى النوبة لكى يجمع معلومات لمقاله الذى كان سيكتبه عن حملة اليونسكو". ويتذكر حبشى: "انطلقنا من الشلال عند منتصف الليل على أحد العوامات الحكومية المريحة المقطورة بزورق. وفى اليوم التالى زرنا معابد بيت الوالى وجرف حسين، وقضينا الليل مقابل وادى السبوع"، لم يكن حبشى بالرجل الذى يمكن أن يضيع فرصة للبحث عن دلائل أثرية، فأخذ ضيوفه إلى قرية قريبة. "مررنا ببقايا معبد صغير بناه أمينوفيس الثالث وجدده رمسيس الثانى، حيث قال لى الخفير إنه كان هناك جزء من تمثال غارق فى الرمال، فطلبت منه أن يأخذنا إلى المكان وبدأ فى إزاحة الرمال. بعد ربع الساعة وجدت تمثالين على قاعدة واحدة، كان جاسيكل فى منتهى السعادة". وفى رسالة إلى ثروت عكاشة وزير الثقافة بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩٥٩ كتب جاسكيل عن حبشى:"لم يكن هناك اختيار أفضل من ذلك بالنسبة لنا. إن حبشى لم يكن غزير المعلومات عن كل صخرة فى كل مكان زرناه فحسب... ولكنه كان قادرًا على التواصل معنا ليس فقط عن طريق علمه الغزير بل أيضًا من خلال حماسته الشديدة، ونجح مقال جاسكيل المنشور فى ريدرز دايجست (يوليو ١٩٦٠) وكان عنوانه ***SOS from the Temples of Nubia*** "نداء استغاثة من معابد النوبة"، كان المقال ناجحًا لدرجة أنه أدى إلى جمع مليون ونصف المليون دولار لإنقاذ معبدى رمسيس فى أبو سمبل.

انتعشت آمال حبشى قليلاً عندما طلب إليه أن يصحب الرئيس عبد الناصر لعمل مسح بالهليكوبتر للأرض المقرر لها أن تختفى للأبد، ولما كان سعيدًا ومتشوقًا ليستعرض كل معلوماته عن النوبة أمام رئيس الجمهورية، اعتبرها فرصة هيأها له الله لعرض قضيته بالإسهام الشخصى فى عمليات الإنقاذ. كان

موقفه كلاسيكيًا فى طريقة البيروقراطية المصرية. إن المسئولين يركزون على أكبر قدر من السلطة فى أيديهم مما قد يتطلب أحيانًا تخطيهم واللجوء مباشرة إلى "المدير"، الرئيس بما يضمن لهم الانتقال سريعًا إلى منصب المدير. صنع القرار يمكن أن يأتى فقط من القمة. أن يكون حبشى بمفرده مع "الريس" فى طائرة هليكوبتر فكيف يفشل لبيب؟" يتذكر حبشى:"حدث ارتياح وألفة بيننا مباشرة".

كلاهما كان من أولاد البلد، عنيد ولكنه عاطفى. وكلاهما كان لديه الإحساس العميق بالمصريين. يقول حبشى: تركت معلوماتى انطباعًا جيدًا لدى الرئيس عبد الناصر وتباسط معى كصديق، فانتهزت الفرصة لأقول له إننى أتمنى أن أعين ضمن اللجنة التى تشرف على عمليات الإنقاذ". ولكن إذا كان حبشى قد عقد أى أمل أو وهم بخصوص تأثيره على عبد الناصر فلابد من أن يكون مخطئًا.

شكل رقم ٥٦: سلطان اليمن يستمع إلى حبشى عن قرب فى رحلة إلى النوبة سنة ١٩٥٩

"وانتظرت وانتظرت ولم أعين": "وبذلت كل جهدى لجذب انتباه أعضاء اللجنة واحدًا واحدًا إلى مواقع فى النوبة لم تحفر من قبل خصوصًا فى المنطقة ما بين كلابشة وأبوسمبل. حاولت أن أجذب اهتمامهم إلى نقوش الصخور بالقرب من جرف حسين وبخاصة تلك التى نقشها وزير رمسيس الثانى (سيتاو) ولكن كلماتى كانت تقع على آذان صماء".

شكل رقم ٥٧: حبشي مبتسما (إلى اليمين) وخلفه الرئيس جمال عبد الناصر فى صحبة الرئيس سوكارنو (إلى اليسار) فى زيارة لوادى الملوك.

كلما كان الطرق يزيد على الحواجز التى يضعها صناع السياسة، كان الطريق أمامه يزداد وعورة، وفى السنوات الأخيرة، كما اعترف، "ربما كانت انتقاداتى قد زادت للأسلوب الذى كانوا ينتهجونه فى تناولهم لحملة النوبة".

بعد أن أصبح اهتمام العالم مركزًا على النوبة، بدأ حبشى ينشغل بمستقبله فى مصلحة الآثار، وتزايد قلقه عندما بدأت تظهر مقالات فى الصحف المحلية تتحدث عن الحفائر الناجحة التى يقوم بها زملاؤه. اكتشاف زكى سعد لمقابر الأسرة الأولى بحلوان كتبت عنه الصحف اليومية العربية والإنجليزية والفرنسية. وعمل أحمد فخرى فى المعبد الجنائزى للفرعون سنفرو من الأسرة الرابعة فى دهشور، قامت الصحافة أيضًا بتغطيته. ثم تصدرت الصحف فى عناوينها الرئيسية أخبار الكشفين الجديدين: هرم ثان مدرج فى سقارة اكتشفه زكريا غنيم، وهو عالم آثار شاب كان قد عمل فى الجيزة تحت سليم حسن، وساعد فى الإشراف على حفائر معبد أوناس الجنائزى فى سقارة، وقارب ملكى عند قاعدة الهرم الأكبر فى الجيزة على يد كمال الملاخ، وهو مهندس معمارى وعالم آثار كان يعمل مع مصلحة الآثار. كان كمال الملاخ يزيل الرمال عن المنطقة عند قاعدة هرم خوفو، عندما وجد تحت سطح الأرض مباشرة كتلاً من الحجر الجيرى كانت موضوعة الواحدة إلى جانب الأخرى مع عدم وجود فراغات بينها تقريبًا. طلب من عماله حفر ثقب صغير فى إحدى الكتل، ثم استخدم مرآة الحلاقة الخاصة به ليعكس بها أشعة الشمس داخل الظلام، ووقع الشعاع على منظر غير عادى، فقد وجد قاربًا خشبيًا ضخمًا يملأ حفرة الصخر وقد تناثر على سطحه حبل ومجاديف. كان أمرًا مثيرًا.

كذلك أثار اكتشاف غنيم ضجة بالغة، لفت انتباهه بناء مستطيل ضخم على بعد ما يقرب من مائة متر جنوب غرب هرم زوسر المدرج، وشجعه چان فيليب لاور المهندس المعمارى الفرنسى الذى حفر الموقع لإزالة الرمل الذى ذرته الرياح من أركان الموقع الأربعة. وجدوا تابوتًا أصفر من المرمر له حاجز منـــزلق فريد فى غرفة الدفن تحت الهرم المهدم. وكان الحاجز محكم الإغلاق، وبقايا ما كان

غنيم يظنه أزهارًا جافة (عرف فى ما بعد أنها كانت لحاء شجرة وأخشابًا متحللة) موضوعة فوقه. كان متأكدًا من أنه اكتشف تابوتًا سليمًا مازال يحمل بقايا صاحبه، ومع أن علماء المصريات الآخرين حذروه من أن المحتويات قد سرقت إلا أنه أثار ضجة إعلامية، ودعى كبار رجال موظفى الدولة والصحفيين والكتاب وصناع السينما لمشاهدة افتتاح ما أعلن أنه كان اكتشافًا متفردًا: مومياء ملك من الأسرة الثالثة، ولكن خيبة الأمل التى كشف عنها التابوت الفارغ لم تقلل من الاهتمام بالاكتشاف. لقد أثار غنيم اهتمامًا إعلاميًا وأبقى عليه " أليس من الأمور التى تثير السخرية أن أكتشافًا مثل هيكل فيلة الذى وجد فيه ما يزيد على مائة وخمسين أثرًا مهمًا من المملكة الوسطى قد تم تجاهله بينما أُعطى تابوت واحد فارغ مثل هذه الدعاية الكبيرة". واصل حبشى حديثه بصوت مثقل بالسخرية "لقد بنى هيكل هيكايب لتكريم رجل عادى، أما حكومتنا الثورية التى ألغت الملكية فقد استمر اهتمامها بالاكتشافات الملكية!" ولم يكن رد فعله على التهليل لغنيم يستهدف غنيم شخصيًا الذى كان صديقه وإنما مصلحة الآثار. لم يلحظ أن اكتشافه هو الذى تم بمساعدة أجانب قبل الثورة ولم يكن تقديرًا للوطنية المصرية كما كان يريد أن يعتقد.

ثم كانت شائعة غير مريحة، سرعان ما تأكدت، مفادها أن اثنين من المصريين غير المعروفين خارج مصر تم اختيارهما لعمل جولة فى الولايات المتحدة والظهور فى التليفزيون والحديث فى الإذاعة لإبلاغ الجمهور الأمريكى عن التقدم فى مجال المصريات منذ قيام الثورة.

"ولقد أغفلونى!" وكانت هناك مرارة فى صوت حبشى. خبرته الميدانية، سهولة تعامله مع الدارسين الأجانب، إلمامه بالمواقع الأثرية فى أنحاء البلاد، يبدو أن كل ذلك لم يكن يعنى الكثير، تراءى له أنه كان هناك تمييز ضده لأنه قبطى. وبعد تأميم معظم تجارة التجزئة وتفتيت أو مصادرة ملكية البنوك والشركات والمتاجر الكبرى أو وضعها تحت الحراسة، هاجر الكثيرون من المصريين وبينهم

أقباط بحثًا عن فرص أفضل، بينما كانت الشكوك تساور آخرين بسبب عدم تعيين غير المسلمين فى المواقع الحكومية المهمة.

كان الأقباط جزءًا ظاهرًا وفعالاً من المجتمع منذ الاستقلال فى ١٩٢٣، ولكن عبد الناصر كان ينظر إليهم فى أحسن الأحوال بحيادية ولامبالاة، وقد انعكس ذلك على حبشى، وهو الذى لم يكن يفرق منذ طفولته بين قبطى ومسلم ويرى المجتمع المصرى نسيجًا متجانسًا. لم يحدث أن اعتبر أن ما يعانى منه كان دينيًا مثلما كان التمييز الأكاديمى والاجتماعى. متى جرجس وهو قبطى محترم جدًا ومعاصر لحبشى أرسل فى بعثه حكومية إلى باريس حيث درس فى السوربون والمعهد الكاثوليكى، وحصل على الدكتوراه من "كوينزكولدج" فى أكسفورد وكان عالمًا لغويًا محترمًا. سامى جبرة الذى تخصص فى الدراسات القبطية أصبح عضوًا مؤسسًا بمعهد الدراسات القبطية فى ١٩٥٣.

ونجحت رحلة زكريا غنيم إلى أوروبا نجاحًا عظيمًا ونال مديحًا كبيرًا فى أمـــريكا، ودعـــى لتنظيم جـــولة لإلقاء المحاضرات ولقى التشجيع لعمل كتاب عن اكتشافه. وقد ترجم فيما بعد إلى لغات عديدة وقد تحدثت عنه مجلات مثل:

Life – National Geographic – The Times –The New York Times and Paris Match.

أما كتابه "الكنز المدفون": ***The Buried Treasure*** (الذى أعد بمعاونة ليونارد كوتريل) فأصبح من أحسن الكتب مبيعًا. وانطلق عمله. كان غنيم تحت الأضواء كما كان مدركًا لأهمية الإعلام ليكون هناك دائمًا. كان باستمرار مستعدًا لعمل المقابلات والحديث عن الاكتشافات وتقديم تفاصيل العمل الجارى تنفيذه.

كان بشوشًا وجعل هناك اهتمامًا بعلم الآثار المصرية على المستوى الشعبى. ثم فجأة وقع حادث وضع نهاية مأساوية لوظيفته، فقد اتهم (دون حق كما اتضح فيما بعد) بسرقة إناء أثرى كبير، كان قد عثر عليه كيبل ولاور فى هرم زوسر المدرج قبل عامين، وأجبر غنيم على أن يعانى من المضايقات وضياع الوقت فى

التحقيقات بمعرفة البوليس. وقد أعلنت براءته عدة مرات وهو متأكد من أن القطعة موضع التساؤل كانت قد أخذت إلى المتحف، وقد جرى البحث عنها دون جدوى. ولقد دمره هذا الاتهام فأقدم على الانتحار ووجد ميتًا فى النيل. أما لاور الذى لم يشك فى براءته أبدًا فقد استمر فى البحث فى المخازن بالمتحف حتى وجد القطعة المفقودة، وتحت هذه الظروف غير السعيدة فقدت مصر واحدًا من أكبر علمائها فى المصريات. زكريا غنيم مات، وأحمد فخرى وإسكندر سيقضيان معظم فترة عملهما فى الخارج، عبد المحسن بكير، وهو عالم لغوى موهوب، شغل عملاً بحثيًا فى جوتنجم بالسويد فى ١٩٥٨، وفى أكسفورد فى ١٩٧١ و٧٢، وفى كمبردج حتى ١٩٧٩.

توقفت أنشطة البحث عن الآثار فى مصر منتصف الخمسينيات من القرن العشرين إلى حد بعيد، والآن فإن ثروت عكاشة وزير الثقافة يعلن عن أن حكومته ستمنح امتيازات للبحث عن الآثار فى مصر لأية دولة مشاركة بعد انتهاء مهمة النوبة، وذلك لتشجيع الإسهام فى عمليات الإنقاذ فى النوبة، كما أعلن عن أن مصر سوف تسمح للدول الراعية لهذه البعثات بأن تتسلم آثارًا من مخزون الدولة. وكانت الاستجابة كما كان متوقعًا، تقدمت عشرات الدول بإسهامات مالية أو بعلماء فى الآثار ومهندسين وخبراء فى مجالات عدة.

استمر استدعاء لبيب حبشى لإرشاد ومرافقة علماء المصريات، والدبلوماسيين، والزائرين الأجانب للمواقع المهددة. وتذكر إحدى المرات عندما اصطحب فريقًا كبيرًا من الدارسيين الدوليين إلى معبد الدر " حيث أخذتهم لرؤية جانب من مقبرة دبيرا التى كانت قد اكتشفت حديثًا ولم يكونوا يعرفون شيئًا عنها. قدتهم إلى الوديان والمقابر البعيدة، وفى متحف وادى حلفا دعا صديقى حسن ثابت، كبير مفتشى الآثار فى السودان، الفريق كله لرؤية الآثار شمال السودان".

كان حبشى أحد الذين اختيروا عندما وجهت الأكاديمية الروسية دعوة إلى ثلاثة مصريين لزيارة موسكو ولينينجراد وإريفان وتبليسى. كان متأكدًا أنه عند

عودته سيجد أنه تم تعيينه مستشارًا ميدانيًا فى النوبة. مرة أخرى خاب أمله. كانت القائمة التى تضم أفضل علماء المصريات المؤهلين للمشاركة، التى كتبها شكرى وقدمت إلى عكاشة، لا تتضمن اسمه. يقول جمال مختار:"أصيب حبشى بخيبة أمل" وكانت هذه الواقعة هى الأكثر إيلامًا لأنه كان يعتقد أنها كانت مسألة وقت وشريطًا أحمر. كان مقتنعًا بأن أوراقه كانت تحت الدراسة وأن أخبار تعيينه ستظهر سريعًا أو فيما بعد. ولكن الحقيقة هى أنهم كانوا جميعًا ضده وخصوصًا أنور شكرى وشحاتة آدم الذى أصبح فيما بعد رئيسًا للمكتب الذى يشرف على العمليات. كانا أهم صناع القرار مع عبد المنعم الصاوى وهو دبلوماسى محنك وأبو بكر من جامعة القاهرة، ولم يكن أى منهم يريد لبيب.
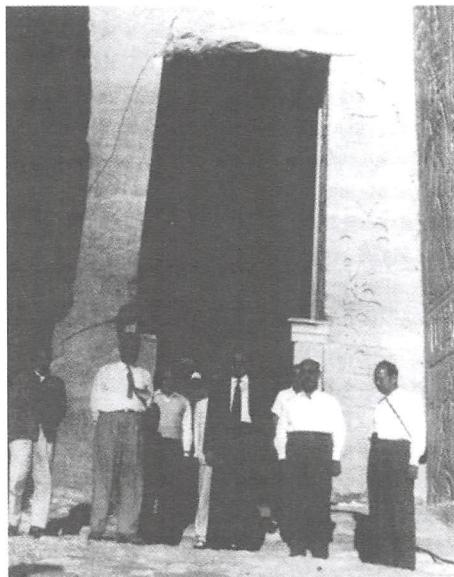
الشكل رقم ٥٨: وزيرالثقافة ثروت عكاشة (مرتديًا البذلة فى الوسط) يزور أبو سمبل وإلى يمينه شحاتة آدم وأنور شكرى مع طه الشلتاوى ولبيب حبشى إلى يساره

كان يقف فى مواجهة تحالف قوى. هذا الفريق المختار من المصريين الذى تقلدوا مواقع قيادية فى عمليات النوبة كانوا يستمتعون بالأضواء الإعلامية، ولكنهم كانوا يعانون من التفاهة والأحقاد التى كان لها آثار سلبية على مهنيتهم.

أما عن لبيب فهو كما يقول مختار "كان يعتقد أن خبرته ومعرفته ببلاد النوبة تؤهلانه للانضمام إلى صفوف الفريق، إن لم يكن إلى صانعى القرار. ولثقته بجدارته كعالم آثار كان يسعده أن يواجه أى تحد ولكنه لم يعط الفرصة. لم يكن له سلطة لتقديم الاقتراحات لرؤسائه وإذا توخينا الحقيقة لعرفنا أنه كان هناك تخوف حقيقى بينهم من أن يتفوق عليهم. إن الشخص الكفء مستهدف دائمًا فى أى بلد لا تكون فيه الكفاءة هى المعيار".

وعندما عين لبيب حبشى أخيرًا فى سنة ١٩٥٨ رئيسًا لبعثات الحفر فى مصر كان يرى ذلك باعتباره مصافحة ترضية. وقال: "لقد عينونى لإزاحتى من طريقهم". تعليقه هذا فى السنوات الأخيرة كان صائبًا ومثيرًا لحالته المعنوية ويشير إلى الحزن والقنوط الذى كان يشعر به آنذاك. هذا التعيين أبعده عن المدار الذى كان يريد أن يكون فيه، وكان بداخله شعور بالظلم". تعاطفت مع كمال الملاخ عندما أرسلوه فى جولة محاضرات بالولايات المتحدة فى السنوات الخيرة بينما كان ينسب الفضل لآخرين لاكتشافه مراكب الشمس فى الجيزة". هل تعلم أن النشرة الرسمية بعنوان:قوارب خوفو ***The Cheops boats*** لم تذكر اسمه مرة واحدة؟ لقد تجاهلته مصلحة الآثار كما فعلوا معى. وبينما كان اهتمام العالم مركزًا على إنقاذ آثار النوبة تركت لكى استأنف عملى القديم متنقلاً من موقع أثرى إلى موقع آخر ومعظمها فى الدلتا. إنهم لم يتركونى أستقر فى مكان واحد لمدة معقولة. كنت أدور حول نفسى مثل عسكرى على رقعة الشطرنج، ووضعوا حظرًا على طبع مخطوطى عن هيكايب".

كان مختار واحدًا من المصريين القلائل فى جيله الذين عرفوا قيمة حبشى المهنية، وكان شاهدًا على ما أسماه "الموقف العنيف من حبشى" أثناء حملة النوبة، وكان يعتبر الحظر المفروض على طبع مخطوطه عن اكتشاف فى ألفنتين غير مبرر تمامًا. بصرف النظر عن تضخم الأنا إلى حد ما، لم يرتكب حبشى خطأ، ولكن أنور شكرى أصدر أوامر بألا يدخل مصلحة الآثار. وقد كان. والحقيقة أن تعطيل الإفراج عن مخطوطه دليل على ضخامة أية مشكلة فى الحكومة تتضمن إلغاء قرارات أصدرها من شغلوا الوظيفة من قبل. وهذا هو ما استنتجه مختار، وقد عبر عن ذلك الچيولوچى رشدى سعيد بطريقه مختلفة: "إن إزالة أنقاض الإدارة فى مصر أصعب من بناء الأهرام، ففى جزء كبير منه، يعتمد ذلك على افتقاد التعاون بين الإدارات المختلفة وكذلك على عدم الاستعداد للتعاون مع الرؤساء الجدد وفاء للسابقين".

كان حبشى يتلقى رسائل تشجيع من جاردنر الذى كتب له فى أبريل سنة ١٩٥٦ يقول: (إننى أكرر ندائى مثل الببغاء: "إننى أريد الكتاب الخاص بهيكايب"). وفى يوليو من نفس العام:"لا تقوم بحفائر أكثر ولكن اكتب، اكتب، اكتب". وكتب له سيرنى فى ٣ مايو ١٩٥٨ "لا تتخلَّ عن هيكايب" و"دعنى أعرف كيف ومتى يمكن أن أكون مفيدًا لك". وفى خطاب آخر دون تاريخ من جاردنر يقول: (على مدى الأيام القليلة الأخيرة، كنت أدرس النقوش التى نقلتها عن هيكايب من جديد، ووجدت أنها شديدة الصعوبة من حيث المكان، وقارنت النسخ التى كتبتها بخطك على قدر استطاعتى ووجدتها شديدة الدقة". مرة بعد أخرى كان حبشى يذهب إلى مصلحة الآثار ويطلب عمل شىء لطبع المخطوط، وكان يبدى الاستياء الشديد من "بطيئى التفكير" و"الكسالى" وأوجد لنفسه عددًا كبيرًا من الأعداء داخل الدوائر الرسمية. يقول مختار:"إن صراحة لبيب أضرت به"، " كان البعض يعتبره مصدر إزعاج، بينما يعتبره آخرون غير مهذب. كان كمن يحاول الصعود واكتشف أنه يتسلق كثيب رمل، خطوة إلى الأعلى وخطوتين إلى الأسفل".

لا شك أن حبشى قد أرسى فى أحد تجاويف عقله العميقة إحساسًا بعدم الأمان، كان الكامن وراء أسلوبه الطريقة الشديدة المتشددة فى التعامل، وقد كان بعض خلصائه من الأصدقاء قريبين من الحقيقة عندما كانوا يعتبرونه غير لبق. "لم يحاول أن يمارس الدبلوماسية" كما قال مختار "ولم يعرف كيف، وعلى أية حال كان يستمتع بالمواجهات". كان حبشى يواجه بالازدراء فى أسوأ الأحوال وباللامبالاة فى أفضلها، وبدد طاقته لكى يضع عمله المهنى على المسار. لقد عبث بفكرة الإفراج عن مخطوطه من مصلحة الآثار ليطبعه فى مكان آخر "ربما كان لذلك آثار كارثية على عملى، وكنت مازلت أرى مستقبلى مرتبطًا بمصلحة الآثار".

وبعد اختفاء حبشى من مصر العليا، كان كارل هـ. كرايلنج مدير بيت شيكاغو قلقًا حول ما إذا كان فى مقدور حبشى "أن يساعد فى مقبرة خرويف"، وهى مقبرة فى طيبة وهى لإحدى وصيفات الملكة العظيمة تاى التى تنتمى إلى الفترة الحرجة للأسرة الثامنة عشرة، قبل أن يتمكن إخناتون من إقصاء كهنة آمون عن العرش. كان المعهد الشرقى قد ثمن عمل حبشى فى الكشف عن المقبرة وتخليصها من أكوام الرمال، وكانت مكان دفن عائلات عديدة ارتبطت بعقيدة آمون بين الأسرتين الحادية والعشرين والثالثة والعشرين (١٠٨٠ – ٧٥٠ ق.م.) وكان حبشى قد اكتشف مدفنًا ثانويًا فى غرفة تحت حائطها الشمالى، كان يحتوى على مومياء سليمة فى داخل صندوق من الكرتون "لسيدة المنزل سيهيبون خونسو". كانت مدفونة مع مومياء أحد كهنة آمون (ربما كان زوجها) وابنته التى كانت فى مرتبة "منشدة آمون" ***(Habachi ,ASAE 55 (1958b): 338- 40)***

كتب كرايلنج إلى حبشى: "من وجهة نظرى يبدو مهمًا قبل استئناف العمل أن تحصل على موافقة صريحة (ربما مكتوبة) بالمسئول المباشر عن الحفر.... لا نريد أن ندخل فى خلافات حول "الحقوق" فيما بعد، ومن وجهة نظرنا أنك إذا كان من الممكن أن تظل أنت الشخص المسئول من الجانب المصرى الذى نبحث عنه لنشر النتائج، فإن ذلك سيكون الأكثر بساطة وفائدة" وكتب كرايلنج أن جون

ويلسون سيكون هو المسئول خلال الفصل القادم، وأنه سيناقش موضوع خرويف مع مدير مصلحة الآثار عند وصوله إلى القاهرة. "أما الأموال اللازمة لاستمرار هذا العمل لفصل آخر فقد أصبحت متاحة الآن بفضل المساعدة التى قدمتها".

وفى خطاب آخر وجد بين أوراق حبشى الشخصية، كانت هناك نسخة من موافقة مصلحة الآثار موجهة إلى كرايلنج، تفيد بأن الموافقة على حفائر المقبرة بإشراف لبيب حبشى قد تم الحصول عليها. وقد أرسل كرايلنج إلى لبيب حبشى نسخه من هذه الموافقة، مع حاشية بخط تقول "سوف أعمل أنا وچورچ هيوز على تطبيق أفكارنا عن استراتيجية العمل ويستطيع أن يحدثك بتفصيل أكثر عندما يصل إلى هناك. ولكنك ستكون رئيس العملية". وفيما بعد نشر حبشى النجاح فى إزاحة الرمال عن المقبرة وأرسل صورة إلى كرايلنج الذى كتب: "لقد أخجلتنا جميعًا بسبب السرعة التى سجلتها ونظمت الأمور وأرسلتها بالفعل للطبع، وسأعتبرك دائمًا نموذجًا مشرفًا".

من المهم هنا أن نذكر تلك العلاقات الطيبة بين حبشى والمعهد الشرقى، لأنه مع اقتراب نهاية عمليات إنقاذ النوبة، وعندما استطاع أن ينضم إلى بعثتهم فى النوبة، كانت له مشادة كلامية مع كيث سيلى، مدير المعهد،أدت إلى تمزيق أواصر تلك المودة المتبادلة الطويلة.

وبينما كان الآثاريون من جميع أرجاء العالم (وبعضهم صغير السن وقليل الخبرة) يتدفقون على النوبة وعمليات الإنقاذ تتقدم بقوة، كان شعور حبشى بالنبذ والاستبعاد يتزايد، إلا أنه كان مصرًا على ألا يجعل تلك الانتكاسة عقبة فى طريقه الوظيفى، والحقيقة أنها دفعته فى نوبة جديدة من الكتابة. " أتذكر ما قاله لى ذات مرة سير آلان من أن الدارسين الغربيين أصابهم عدم تقدم المصريين بخيبة الأمل. "اعمل واطبع"، كان ذلك ما نصحنى به، "قدم مثلاً طيبًا إلى أبناء بلدك". وهذا بالضبط ما بدأت عمله. قررت أن أحدد لى هدفًا فى كل مكان أعمل به"، وخرجت من الأماكن الخفية فى بيته ملاحظات ومذكرات واسكتشات ونصوص عن حفائره

الباكرة فى كل أنحاء البلاد. وفى تغيير هدفه كان الشىء الرئيسى هو الحاجة إلى أن يجد من يستمع إليه. كان أحد الأهداف التى حددها لنفسه هو إعادة دراسة مواقع الساحل الشمالى، حيث ظهرت بقايا القلاع التى بناها رمسيس الثانى فى الظهور، وهدف آخر هو متابعة اقتناعه بأن مدينة رمسيس الثانى التى كانت معروفة لزمن طويل باسم تانيس كانت موجودة تحت أو حول قرية تل الضبعة فى الدلتا. عمل ثالث كاد أن يكمل كتابة دراساته عن النقوش والرسوم التى على الحدود الجنوبية فى منطقة الشلالات، والرابع هو مواصلة عمله على لوح كاموس.

وفى خطاب من آلان جاردنر بتاريخ ٢١ مايو ١٩٥٥ نقرأ:(هارى (چيمس... ذكر لى أن الحكومة المصرية تريد منك أن تطبع لوح كاموس (الثانى) فى بلدك، وأضاف أن ذلك يجب إنجازه دون تأخير، ونحن نشعر هنا بأننا لابد من التخلص من الفكرة الخاصة بنشر مقالك فى الجريدة بمثل قدر رغبتى فى نشرها. لقد كتبت ترجمتى وملاحظاتى على الآلة الكاتبة وأستطيع أن أرسلها لك فى أى وقت، ولكننى لا أرغب فى أن أقحمها عليك وإذا أردت أن تطبع نسختك الخاصة بك دون مساعدة منى، فإننى أعتبر ذلك طلبًا معقولاً تمامًا. ولذلك أرجوك ألا تظن أننى أريد أن أضغط عليك بأية طريقة". ولسوء الحظ فإن حبشى لم يكن قادرًا على إكمال عمله فيما يتعلق بالنص "بسبب علاقاتى الصعبة بمصلحة الآثار". وبذلك فإن النص الثمين على اللوح الثانى لكاموس نشر فى أجزاء متفرقة بمعرفة الدارسين الذين اهتموا بعمل حبشى بمن فيهم ساف سودربرج وپيير مونتيه وچون ويلسون وكلاوس باير وچان ليكلانت وألان جاردنر وولفجانج هيلك أو ضمنوا محاضراتهم أجزاء منه.

وفى ١٩٦٠، أى بعد عامين من تعيينه رئيسًا للحفارين فى مصر، علم حبشى أنه كان مرشحًا لجائزة الدولة الأولى فى الفنون والعلوم عن كتابه: "تل بسطة"، "شعرت بالفرحة ولكن لماذا تل بسطة؟ إن حفائرى هناك فى١٩٣٩ وفى موسم ١٩٤٣ و٤٤ كانت تبدو وكأنها منذ زمن، كما لو كانت هناك ألف سنة

ضوئية بينما أهم أعمالى كانت الأتربة تغطيها فى أرشيف مصلحة الآثار". والحقيقة أن حبشى كان مخطئًا فى تقليله من قيمة كتابه "تل بسطة". وكانت دراسة بالغة الأهمية. وعلى أية حال فإن المخطوطة التى سلمت قبل الثورة وبدأ نشرها، تم تصنيفها حسب النظام الذى قدمت به، وأعطيت أولوية على مخطوط "هيكل هيكايب".

وشحذ حبشى همته محاولاً أن يذهب إلى النوبة ويلعب دورًا فى إنقاذ آثارها، وفى النهاية ذهب لمقابلة جوردون جاسكيل الذى كان فى القاهرة للمرة الثانية "ذكرت له القصة كلها ووافق على أن يساند قضيتى عند وزير الثقافة، حاملاً نسخة مجلدة من مقاله عن النوبة الذى يترجم إلى ثلاث عشرة لغة، سأل جوردون وزير الثقافة ثروت عكاشة مباشرة عن سبب منعى من مشاركة معلوماتى مع أولئك الذين كانوا يريدون الإفادة منها؛ ولابد من أن كلماته كان لها أثرها لأننى فى النهاية ذهبت إلى النوبة... ولكننى كان لدى موضوع آخر لابد من أن أتناوله. كان عمرى ٥٤ سنة عندما أعلنت عن نيتى فى الزواج. كان ذلك مفاجأة للكل، كانوا يظنون أننى سأظل عزبًا. حاول والتر إمرى أن يثنينى قائلاً إنه لا يوصى بالزواج لأنه سيتعارض مع العمل ولكن هارى سميث، بارك الارتباط وكذلك مدام نوبلكور. وبالطبع فقد فرح جميع زملائى المصريين، لأن الزواج فى مجتمعنا شىء مرغوب حتى لو جاء متأخرًا".

لم يكن عمل حبشى الوظيفى قد استقر تمامًا عندما تدخل القدر فى هيئة امرأة مشرقة قوية البنية، من خلال زواجه من عطية وهى امرأة من الإسكندرية فرنسية الثقافة كانت تصغره بخمسة عشر عامًا، واستطاع حبشى أخيرًا أن يخترق الحواجز الاجتماعية فى مصر. كانت عطية كامل عياد قد نشأت فى المناخ الوطنى للعشرينيات عندما كان الجدال حول تعليم البنات فى عنفوانه. كانت الإرسالية البروتستانتية الأمريكية فى القاهرة وأسيوط إلى جانب بعض المدارس الفرنسية نشطة فى تحويل الأقباط المصريين إلى البروتستانتية والكاثوليكية. كانت عطية ضمن الأخيرة فالتحقت بمدرسة نوتردام دى سيون بالإسكندرية ومثل الكثيرات من بنات المدينة من جيلها اكتسبت صفات المجتمع الغربى والتشريفات الخاصة

بالمجتمع الغربى إلى جانب الثقافة الفرنسية، ومع نموها تعرضت للثقافة الأوربية-الفرق المسرحية التى جاءت بالتسلية الأوربية إلى الجمهور المصرى-وعرفت هى ومثيلاتها من البنات تسريحات الشعر الجديدة والملابس الغربية. كان اشتغال المرأة المصرية بالغناء والتمثيل أمرًا مستهجنًا، ولكن ذلك لم يوقف الحفلات الخاصة التى كانت تشبه العروض المسرحية.

استذكرت عطية الكثير من حياتها مع زوجها عندما صحبتها مع صديق العائلة عالم المصريات هنرى رياض إلى الأقصر، لتصنيف أوراقه الشخصية بعد وفاته فى ١٩٨٤. كانت الأمسيات عطرة واعتبرت واحدة من أفراد العائلة، ولم تكن فى حاجة إلى كثير من التشجيع حتى تتكلم: "كان لبيب صديقًا للعائلة منذ فترة طويلة"، ثم استطردت: "كان هو وأبى كامل عياد صديقين، واعتادا التحدث معًا عن التاريخ القديم. كنت فتاة صغيرة عندما رأيته لأول مرة فى بيتنا. كان لبيب شديد التحفظ وكانت تدهشه أو بالأحرى تصدمه .الحفلات المسرفة التى كنا نقيمها، ولم يعجبه سلوك أخى وسلوكى وشعر بالحرج وربما تنبه عندما رآنى أرقص وأتصرف بطريقة اعتبرها غير لائقة. لم نكن أنا وأخى نشعر نحوه بالحب. واعتدنا أن ندعوه باسم "رجل الآثار"، واستمرت: "لم أكن طموحًا. لم تكن لدى رغبة فى التدريس أو دراسة مهنة التوليد والتمريض وكانت هذه هى المهن المناسبة للنساء. لم يجتذبنى العمل الخيرى، ولذلك تزوجت بعد التخرج. وافقت على قبول الزوج الذى اختارة لى أبى، رمسيس رزق، وكان مهندسًا للرى. فى تلك الأيام كان إنتاج المزارع الطازج مطلبًا ضروريًا لحفل الزفاف، وطلب أبى من لبيب أن يساعد فى ذلك، فجاء محملاً بكل ما كان مطلوبًا لوليمة كبيرة. وكان سعيدًا لزواجى.

بمجرد إتمام الزواج انتقلت مع زوجى إلى الزقازيق، وعندما عين لبيب هناك استقبلناه فى منزلنا، وفيما بعد عندما تبعت زوجى فى تنقلاته فى القرى فى عمله الوظيفى، كنا نلتقى كثيرًا وبخاصة فى مصر العليا. وفى سنة ١٩٥٤ عندما نقل زوجى إلى أسوان، كان لبيب حين ذاك قد أصبح كبيرًا للمفتشين وأتى لزيارتنا مع أخته رفقة، وأنا أتذكر السنة لأنها كانت السنة التى وقع الرئيس عبد الناصر فيها اتفاقية مع البريطانيين.

للجلاء عن منطقة القناة فى خلال عشرين شهرًا، وقمنا بمناقشة هذا الموضوع. كانت هناك شائعة أن الآثار ستوضع للحفظ فى وادى الملوك، وأتذكر لبيب وهويصرخ "فوق جثتى! فوق جثتى!" وفى العام التالى انتقلنا إلى قنا وكان لبيب هناك أيضًا، وجاء ذات مرة مع چورچ هيوز وتناولنا العشاء. وفى عيد الميلاد التالى كنا مرة أخرى فى الأقصر، حيث كان مطلوبًا من زوجى الإشراف على بعض أعمال الرى، ودعانا چورچ إلى بيت شيكاغو لتناول الشاى. كان الجو متزمتًا بالنسبة لذوقى، ولم أحلم أبدًا بأن يكون ذلك هو بيتى الثانى.

وفى سنة ١٩٥٦ عندما كان زوجى الأول مازال حيًا كان لبيب يكتب مقالاً عن هيكايب وطلب منى أن أترجمه له إلى الفرنسية، وقد سعدت بذلك. وكان رجلاً يفاخر بتراثه وتعجبنى حماسته، وعندما مات زوجى كان لبيب فى حاجة إلى بعض التشجيع من والدى لكى يتقدم للزواج منى، وكنت مستعدة لذلك. ولكن الأرملة لم تكن تعتبر حالة اجتماعية مبجلة فى المجتمع المصرى. وذكر لى والدى أن لبيب سيكون زوجًا مثاليًا. وقال إن لديه عملاً محترمًا ودخلاً من أملاك صغيرة فى المنصورة ورثها عن والده، وأنه كان متقفًا جادًا ورجلاً يمكن الاعتماد عليه. على أية حال كان لبيب يتمتع بروح مرحة وعرف كيف يجعلنى أضحك، ولذلك سعدت بقبول عرضه للزوج منى. قد تزوجنا فى أبريل ١٩٦١ وبعد عقد القران مباشرة دعى لبيب عن طريق أكاديمية جوتنجن وميونيخ لحضور مؤتمر علماء المصريات ولم يفكر مرتين فى ترك زوجته الجديدة، وقال إنها كانت فرصة يجب ألا تضيع، لأنها ستعطيه فرصة لدراسة بعض الأشياء الموجودة فى مخازن متحف ستاليتش فى برلين، ووعد بأنه عند عودته سيذهب فى شهر عسل حقيقى. وكنت أعرف مقدمًا أين توجد أولوياته ولكنه حافظ على وعده. ركبنا الباخرة "ممنون" إلى كلابشة وكان معنا على متنها لويس زابكار، ووجدت الفرصة أيضًا لمقابلة البروفيسورإمرى. وفى طريق عودتنا ذهبنا إلى بيت شيكاغو، كان چورچ هيوز هو المدير ومكثنا معه ومع زوجته مورين لمدة ثلاث ليال.

الشكل رقم ٥٩: لبيب حبشي وزوجته عطية سنة ١٩٧٩

لم يكن لدى عطية وظيفة ذات مرتب ولكنها كانت سيدة حركية، وأتاح لها زواجها من حبشى الذى كان دارسًا حاصلاً على جوائز علمية فرصة لتسهيل طريقها فى مجال العمل، كانت تجيد العربية والفرنسية والإنجليزية، تستطيع التعامل بسهولة مع الطبقة العالية من المصريين كما هى مع الأجانب، وكانت ترى فى نفسها الشخص المثالى للإشراف على الدارسين الذين كانوا يتدفقون على مصر من جميع أنحاء العالم. اتصلت بمركز الأبحاث الأمريكى الذى كان قد أنشئ حديثًا فى مصر. (***ARCE***) وأقنعتهم بمميزات تعيينها سكرتيرة للعلاقات العامة، وعملت تحت رئاسة ستة مديرين حتى تقاعدت فى ١٩٨٢.

أنشئ مركز الأبحاث الأمريكى سنة ١٩٦١ عندما أعلن الرئيس كنيدى عن إسهام أمريكا فى الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة، وفى سنواته الأولى كانت وظيفته الرئيسية تقديم التسهيلات البحثية وتسهيل الإجراءات الرسمية للسفر والحفر بالنسبة للدارسين الأمريكيين العاملين فى مصر. وبفضل لباقة وحسن تصرف عطية حصل رمضان سعد عالم المصريات المقيم بالمركز الفرنسى المصرى فى الكرنك على الموافقة على بدء سلسلة محاضرات منتظمة بهدف إنشاء علاقات أوثق بين الأمريكيين والمسئولين فى الحكومة المصرية، وكان الدارسون مدعوين لعرض جوانب من عملهم، وأصبحت سلسلة المحاضرات فى مجلس مدينة الأقصر منبرًا منتظمًا يتشارك العمل به دارسون من كل الجنسيات. لعب حبشى دورًا نشطًا فى الترتيبات وأصر على أن المحاضرات لابد أن تكون بالإنجليزية (كانت الفرنسية استثناء) وأن توضع النشرات المصورة فى ردهات الفنادق والأماكن العامة لاجتذاب السياح إلى الأقصر. وفى بعض الأحيان كان يصل عدد الحاضرين فى المحاضرة الواحدة إلى نحو مائة فرد، ثلثهم من موظفى مصلحة الآثار والباقى يضم دارسين من مختلف المعاهد والسياح وزوارًا قادمين من جهات بعيدة مثل نجع حمادى وأبيدوس.

وفيما بعد استمرت سلسلة المحاضرات فى رئاسة مركز الأبحاث الأمريكى بالقاهرة. وأصرت عطية على تقديم البيرة والفول السودانى والمشروبات غير الكحولية بعد المحاضرة مما يعطى فرصة لاستمرار تبادل الأفكار. كان نتيجة لجهودها أن تحول مركز الأبحاث الأمريكى إلى منتدى للمصريات مثلما كانت مصلحة الآثار فى القرن التاسع عشر أيام ماريبيت، وكان يحضره جمال مختار، وكمال الملاخ، وهنرى رياض لإلقاء المحاضرات ثم أصبحوا جميعًا أعضاء شرفيين به. بوجود عطية "هانم" إلى جواره حقق حبشى المكانة الاجتماعية التى كان يروغ منها لمدة طويلة. وبدأ يقدم محاضرات منتظمة وأيضًا قدم عروضًا لتوضيح الحقائق ولإسعاد الجمهور مستخدمًا خبراته الفنية الاستثنائية، كان سريع البديهة عندما يرد ويمد رقبته وزاوية رأسه كما يفعل عادة قصار القادمة من الرجال. كان يشعر بالسعادة لدى وقوفه على المنصة آسرًا لمستمعيه منذ تقديمه الطريف إلى التحليل المفصل للنصوص المعقدة وأهميتها بنفس السهولة التى قاد بها لجنة "الدندى" إلى هيكل هيكايب على جزيرة "إلفانتين" قبل سنوات. وعندما دخل بعد ذلك تحت الأضواء الساطعة للمؤتمرات الدولية، كان جمهوره يقف لتحيته بينما تشع عيناه بالبهجة.

اتخذت عائلة حبشى لنفسها سكنًا، شقة فى منشية البكرى بمنطقة هليوبوليس حيث بدأوا يقيمون حفلات العشاء، واستطاعوا أن يستضيفوا الأسر المصرية المكونة من الزوج والزوجة على العشاء، مما أعطى أبعادًا جديدة لحياة حبشى وأصبح هناك شعور متبادل بالرفقة بين الزوج وزوجته. كانت عطية التى كان يدعوها بـــ "هاتى" سيدة ملهمة ومضيفة كريمة ورائعة أدخلت زوجها دائرة الضوء". كانت كريمة الوفادة كالملوك" حسب قول هنرى رياض "كانت بينهما رابطة عاطفية قوية". كان لبيب يتحدث معها أحيانًا بخشونة وربما بقسوة وكانت ترد عليه بحدة شديدة". فى الصور التى التقطت لهما خلال السنوات التى تلت زواجهما تبدو عطية شديدة الحيوية ولبيب مرحًا مبتهجًا، كانا ثنائيًا كثير الظهور فى حفلات العشاء والاستقبالات والولائم.

أصبحت عطية وحبشى "السيدة الجليلة" لمركز الأبحاث الأمريكى ولا شك أنها أعطت لونًا ملحوظًا للمؤسسة. وكان مكتبها الضخم عند باب مقر المركز فى جاردن سيتى، ومن هناك كانت تدير الأمور بصوت مرتفع وجرأة وكفاءة دائمة. كانت تستمتع بأداء دورها أثناء عملها للإشراف على الفرق العاملة فى النوبة، تراقب البعثات فى تحركها من وإلى القاهرة، والتأكد من أنها أجرت اتصالاتها مع الجهات الصحيحة. "كان لدى تقارير مباشرة عما يدور، وكنت أستطيع أن أنقل الأخبار لزوجى، وعندما استطاع لبيب أن يصل إلى النوبة فيما بعد، كنت أستطيع أن أتابع حركاته كذلك".
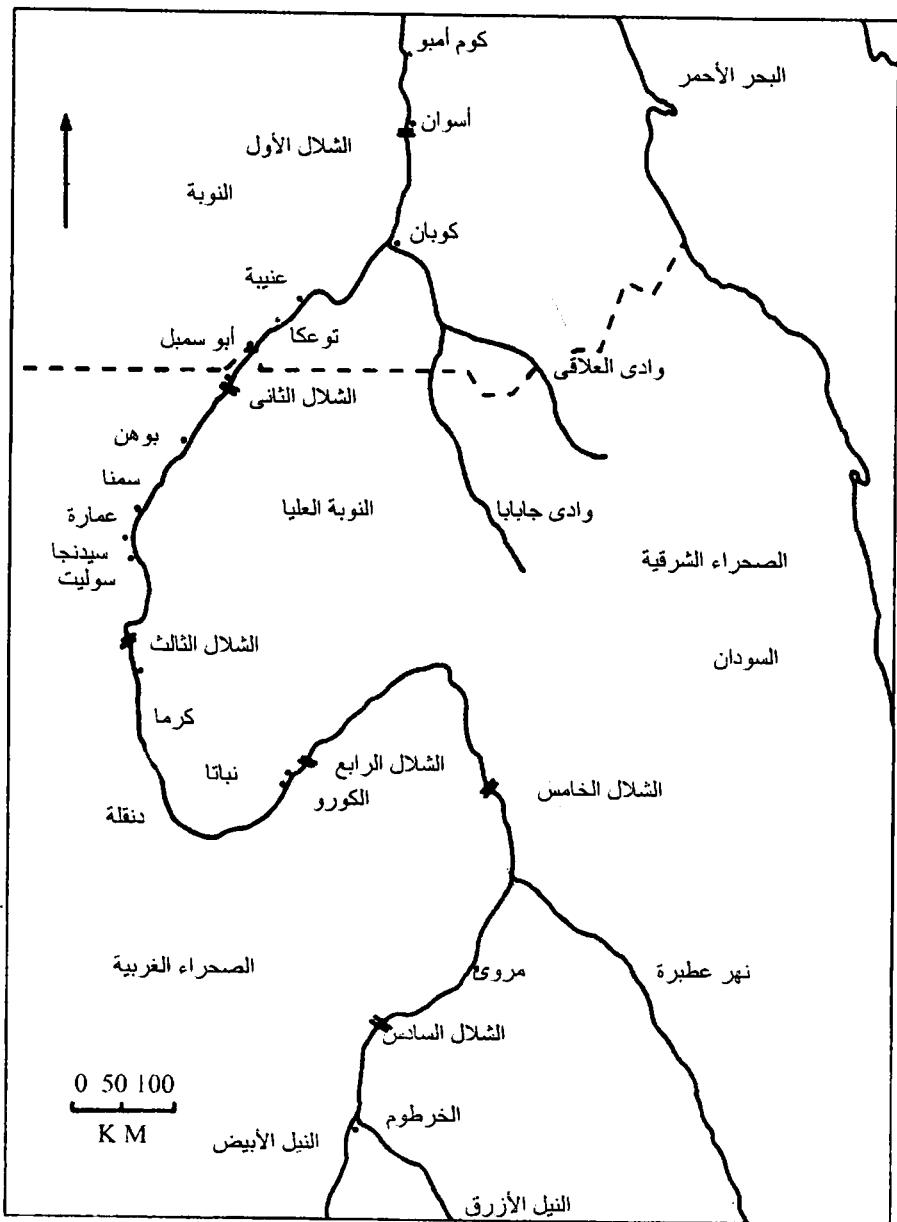
خريطة تبين النوبة من أسوان إلى الخرطوم

الفصل التاسع

إنقاذ النوبة

عندما أطلق مدير عام اليونسكو ڤيتورينو فيرونيس نداء دوليًا لإنقاذ آثار النوبة، كانت تلك هى المرة الأولى التى يطلب فيها من منظمة الأمم المتحدة التدخل لإنقاذ تراث دولة بكاملها، وأكد أنها لم تكن مجرد مسألة الحفاظ على شيء معروف قد يضيع، بل أيضًا إلقاء الضوء على الثروة الأثرية التى لم تكتشف بعد وذلك لفائدة الجميع. وقدمت الحكومة المصرية حوافز قوية لتشجيع الإسهام مثل عقود امتياز للبحث عن الآثار فى بعض أشهر المواقع فى مصر، والحق فى الحصول على بعض القطع المختارة من مخازنها، كانت النوبة مجالا للدراسات الأثرية والاجتماعية لمدة تزيد على العشرين عامًا على مدى غير مسبوق، فجاء المهندسون ومهندسو المباني والمصورون والفنانون والمرممون والآثاريون وعلماء الأجناس وعلماء الاجتماع والمؤرخون لفحص الصور والوثائق وإنقاذ كل ما يمكن إنقاذه. وكانت تلك أعظم عملية إنقاذ أثرى وثقافى وأكثرها طموحًا يعرفها العالم على مدى تاريخه.

تم إنقاذ ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين معبدًا وضريحًا من بينها معبد الملكة حتشبسوت من بوهين وكان من أهم معابد النوبة وتولت مؤسسة ***EES*** الإنجليزية مسئولية التمويل لتفكيكه ونقله إلى متحف الخرطوم على متن ثمانية وعشرين شاحنة. أما المعبد الموجود فى دكة فقد نقل إلى وادى السبوع، وهو موقع آخر فى النوبة على أرض مرتفعة بالقرب من مصعد رائع لرمسيس الثانى كان قد تم تحويله إلى كنيسة فى العصر المسيحى، هذا الأثر الأخير جرى تفكيكه ونقل إلى المستوى المرتفع ضمن مشروع مصرى أمريكى فرنسى سويسرى مشترك، وقام

فريق من علماء الأثار اليوغوسلاف بترميم النقوش المسيحية، وتحملت الحكومة الفرنسية مسئولية معبد أمادا الصغير الذى كان قد تحول كذلك إلى كنيسة فى العصر المسيحى، وتم رفعه كوحدة واحدة على قضبان وسحبه إلى قمة التل بعيدا عن الأضرار، وقدمت حكومتا بلچيكا وهولندا تمويلا لمعبدى سمنة، بعد أن قامت ***EES*** وجامعة براون بإعادة فحصهما أولاً على ضوء الدراسات الحديثة. أما حكومة ألمانيا الاتحادية فحاولت تفكيك المعبد اليونانى الرومانى فى كلابشة أفا طن من الاحجار وأكبر معبد فى النوبة - وإعادة تركيبه بالقرب من السد العالى عند نقطة تبعد عدة كيلومترات عن موقعه الأصلى.

وأسهمت أكثر من عشرين دولة فى عمليات الإنقاذ، وأقامت قرابة ثلاثين بعثة لتشغيل مواقع الحفر وتسجيل المعابد والمقابر والألواح ونقوش الصخور، وربطت العوامات إلى الشاطئ بطول النهر ورفعت الخيام فى مواقع الحفر، وبدأت سيارات اللاندروفر تجوب الصحراء. وتم نقل المتخصصين فى نقوش الآثار إلى مناطق بعيدة للتعرف على الكتابات والرسوم الموجودة على الصخور. وقام دارسو عصور ما قبل التاريخ بالبحث فى الصحراء عن مناطق الاستقرار القديمة، كما قام الحفارون وسائقو اللوريات ومشغلو الأوناش، وحاملو السلال بماهو مطلوب منهم. وقامت بعثة المركز الأمريكى ***ARCE*** بإشراف نيك ميليت، والمعهد النمسوى للآثار بإشراف مانفريد بيتاك، ومركز ***EES*** البريطانى بإشراف والتر إمرى، والمعهد التشيكى للمصريات بإشراف زبيك زابا، ومركز ***IFAO*** بإشراف فرانسوا دوما، والمعهد الألمانى للآثار بإشراف ديتر أرنولد وبيتر جروسمان، قام كل هؤلاء جميعًا بالعمل فى المواقع المحددة، كما فعلت ذلك أيضًا بعثات جامعات ميلان وروما تحت إشراف سيرجيو دونادونى، وكذلك المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو تحت إشراف كيث سيلى، والأسبانى تحت إشراف سيلڤيو كورتو، والمعهد السويسرى للبحوث الهندسية والأثرية تحت إشراف جيرهارد هاينى. تولت بعض البعثات الكبيرة الحفر فى مواقع عديدة، كما فعلت البعثة المشتركة التى كانت تضم الدنمارك وفنلندا والنرويج والسويد تحت رئاسة تورجى ساف - سودربرج من جامعة أوبسالا.

كانت مصلحة الآثار المصرية، ومركز التوثيق وجامعة القاهرة مرتبطة بثمانية مشروعات تحت إشراف سليم حسن الذى كان يقوم بدور قيادى فى العمليات، تنوع بين تفكيك المعابد وتسجيل النحت البارز وقطع رسوم الصخور فى مناطق بعيدة من الصحراء. كان الكثير من مشروعات مصلحة الآثار يتم تحت إشراف شفيق فريد وزكى سعد بالتعاون مع محمد حسن الذى شارك فى عمليات الإنقاذ فى طافا، ودابود، وكلابشة، وأمادا، ووادى السبوع، وقسطل، وبلانة. وهناك بعثات أخرى كانت تحت إشراف زكى إسكندر الذى قام بتنظيف وتقوية الرسوم والنقوش البارزة ونقلها إلى مناطق آمنة أو تفكيك وإعادة تركيب المعابد، وأدار عبد المنعم أبو بكر من جامعة القاهرة العديد من الحفائر فى جبل عدة جنوب أبو سمبل، حيث كانت توجد مدينة حصينة كبيرة من القرن السادس ق.م. وكان العمل فى معبد طافا مشروعًا واسع النطاق سجله حسن السهيرى من مركز التوثيق، وتم تفكيكه بمعرفة المهندس أحمد لطفى مدير الأعمال الخاصة بالآثار النوبية مع فريد ومحمود عبد الرازق. أما لبيب حبشى فلم يكن مشاركًا فى أى من هذه الأنشطة.

وكان المعبد الكبير الذى ينسب إلى رمسيس الثانى فى أبو سمبل هو سفينة القيادة فى الحملة. هذا الأثر المنحوت فى الصخر والذى يعتبر أروع كنوز العالم القديم كان قد اكتشفه الرحالة السويسرى لودفيج بور كهارت، الذى عثر عليه مصادفة فى ١٨١٣، وقد زاره چيوفانى بلزونى الحفار والمكتشف والمغامر الإيطالى مرتين، الذى قام عند زيارته الثانية فى ١٨١٧ بالحفر فى الكثبان الرملية بما يكفى لعمل مدخل للمعبد الذى وصفه بعبارات ساطعة فى حكاياته عن رحلاته فى الكتاب الذى نشره فى سنة ١٨٢٠. أربعة تماثيل ضخمة جالسة للشاب رمسيس الثانى تشكل مدخل المعبد، طول الواحد منها واحد وعشرون مترًا من أخمص القدم حتى قمة التاج المزدوج. ساقا الفرعون تنافسان فى محيطهما الأعمدة الضخمة فى بهو الأعمدة بالكرنك، أما الحجرات الداخلية فى المعبد المنحوتة فى الصخر فتتغلغل لمسافة واحد وستين مترًا فى الجبل. ونجد رمسيس الثانى جالسًا فى الهيكل الداخلى فى صحبه الآلهة العظيمة آمون رع، ورع هاراخت، وبتاح.

الشكل رقم ٦١: صورة جماعية قبل بدء العمل فى أبو سمبل

كانت العروض المقدمة لإنقاذ المعبد خيالية. كان أحدها بناء صنادل من الخرسانة تحتها، ثم انتظار ارتفاع المياه لكى تطفو بها إلى موقع أكثر أمنًا، واقتراح آخر بإحكام إغلاق المعبد كله وحمايته من فيضان الماء وجعل الدخول إليه من أعلى. واقتراح ثالث بترك المعابد حتى تغمرها المياه مع حمايتها داخل قباب من الخرسانة المسلحة مع تشغيل سلالم فى مصاعد تعمل داخل ممرات رأسية يشاهدها منها الزائرون.

وفى سنة ١٩٦٠ وقع الاختيار على مشروع مقدم من شركة ستوكهولم للمهندسين الاستشاريين باعتباره الأكثر جدوى والأقل تكلفة، ورأس أحمد بدوى بعثة اليونيسكو للتنفيذ. كانت الفكرة الأساسية لمشروع ***VBB*** كما أصبح يعرف هى نشر المعبدين بالمناشير فى أبوسمبل إلى كتل متحركة ونقلها إلى مناطق آمنة، ثم إعادة بناء المعبدين بارتفاع ٦٤ مترًا فوق موقعهما الأصلى. أولاً: تم بناء صندوق حديدى كسد لحماية المعبدين من المياه التى ترتفع باستمرار أثناء بناء الخزان، ثم تقسيم الآثار إلى قطاعات ونشرها إلى أكثر من ألف قطعة يمكن نقلها، كان بعضها يزن نحو ١٥ طنا. وتقوم الأوناش برفع كل كتلة منفصلة وبعد نقلها إلى موقع للتخزين يربط كل منها إلى قطعة ضخمة من الخرسانة المسلحة للمحافظة على ثباتها. وبينما يجرى ذلك، كان يتم تسوية الموقع الجديد المختار فوق قمة ليكون جاهزًا. أجريت دراسات على صخور الأساس للتأكد من أنها تستطيع أن تتحمل وزن المعابد الهائل وتمت مراجعة وتدقيق التصميمات الخاصة بقبة الخرسانة المقيسة التى ستغطى المعابد وتدعم الأرض فوقهما.

مع إلقاء الضوء على النوبة دخلت إضافات ثقافية فى تاريخ المنطقة، وتم تعديل كثير من المواقف بشأن التراث الثقافى، فعلى سبيل المثال، بدأ جدال عن العلاقة بين إفريقيا ومصر القديمة عندما حقق المعهد الشرقى لإرسالية شيكاغو اكتشافًا غير عادى فى قسطل بالقرب من أبوسمبل: مبخرة يعود تاريخها إلى سنة ٣١٠٠ ق.م وربما قبل ذلك، وأثارت اهتمامًا عظيمًا بسبب نقوشها التى يظهر فيها

حاكم جالس، مرتديًا التاج الأبيض الذى يرمز لمصر العليا، وبوابة قصر، وصقر، وهى موتيفات أصبحت فيما بعد رموزا للحكم الفرعونى فى مصر، ورأى بعض الدارسين ذلك برهانا على أن شيئًا ما من عصر ما قبل الأسرات شق طريقه من مصر إلى النوبة، بينما رآه آخرون دليلاً على أن مفهوم المملكة نشأت فى النوبة. غير أنه أدى إلى ظهور نظرة المركزية الإفريقية، بمعنى أنه زاد من احتمال أن تكون أصول الحضارة المصرية قد جاءت من الجنوب وليس من آسيا الغربية كما كان يعتقد. إنها كشفت على الأقل عن علاقة طويلة بين مصر والنوبة منذ العصور القديمة وتراث مشترك عاش عبر ألوف السنين.

وجد الباحثون المتخصصون فى عصور ما قبل التاريخ وأشكال الحياة فى العصور الغابرة فى البحث فى الصحراء وطبقات الصخور فى النوبة آثارًا تدل على وجود أحوال معيشية جيدة لصيادين عاشوا هنا قبل ستين أو سبعين ألف عام، كانت هناك صخور تستخدم كمظلات وبرك للماء وبعض مناطق بالقرب من النهر أو الشاطئ ممتلئة بالأسماك المتحجرة وأفراس النهر والتماسيح، كما كانت الخضرة الكثيفة بالقرب من مجرى النهر مأوى لمجموعة متنوعة من الحيوانات الصغيرة، بينما كانت الصحراء تمتلئ بالحيوانات المتوحشة. ودرست بعثة قادمة من جامعة ساوثرن ميثودست فى دالاس برئاسة فريد ويندورف منطقة واسعة تم استخراج مئات القطع الأثرية منها فى يوم واحد: سكاكين وأدوات وشرائح ورقائق، وكانت المناطق التى أتت منها هذه الأشياء تحتلها جماعات كبيرة من الناس على فترات طويلة. واكتشفت البعثة مقابر بها أربعة مواقع للدفن عند الشلال الثانى وكان هناك ثمانية وخمسون هيكلاً عظيمًا معًا. منها هياكل للرجال وهياكل للنساء، وقد شغلت إنجازات البعثة ثلاثة مجلدات ضخمة.(*Wendorf, 1968*) وفى سنة ١٩٥٦ نظم المعهد المصرى ندوة فى القاهرة قدمت فيها خمس عشرة ورقة عمل حول مختلف ملامح النوبة القديمة والجديدة، وفى ذلك الوقت كانت المياه الخارجة من السد قد بدأت ترتفع وغمرت مواقع عديدة. وكان الاتفاق مع البعثة الإسكندنافية المشتركة

من أكبر الامتيازات فى النوبة لأنه شمل آلاف المواقع ابتداء من عصر ما قبل الأسرات حتى العصر المسيحى تحت إشراف ساف سودربرج. فقد مكنت الحفائر فى دبيرا على الضفة الشرقية للنيل شمال وادى حلفا أعضاء البعثة من متابعة ثقافة هذه المنطقة الغامضة منذ بداية تطورها حتى انقراضها غير المفهوم بعد أكثر من ألف سنة. ويبدو أنه ما بين عامى ٢٣٠٠، و١٥٠٠ قبل الميلاد (متزامنًا مع تفكك مصر إلى مدن دويلات متحاربة خلال ما أطلق عليه اسم الفترة المتوسطة الأولى بعد سقوط المملكة القديمة) ظهر شعب رعوى فى النوبة ويطلق العلماء على ثقافتهم اسم ***C-group*** أى المجموعة "ج"، كانوا أصحاب ماشية غير رحل وربما كانوا ينحدرون من نسل مربى الماشية الذين كانو يجوبون الصحراء واندفعوا نحو وادى النيل عندما ضاقت الأحوال بسبب زيادة التصحر. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الناس مسئولين عن ألوف الرسوم التى تمثل الماشية فوق صخور النوبة. والحقيقة عادة أن الماشية كانت تدفن حول قبورهم، كما أن قرون الماشية الطويلة كانت تزين مصنوعاتهم الفخارية. كان ساف سودربيرج يعتقد لمدة طويلة فى وجود علاقة بين الحصون المصرية عند الشلال الثانى أناس ***C-group*** الذين كانوا فى البداية يدفنون فى مقابر ضحلة تحيط بها أطواق حجرية، وفيما بعد بنوا غرفًا مبطنة بالحجر فى وسط هيكل حجرى مزود بمعبد صغير. واستنتج أنهم كانوا الشعب الذى كان وجوده يمثل تهديدًا لفراعنة المملكة الوسطى فى مصر، وهو ماجعلهم يبنون تحصينات هائلة فى أعماق النوبة لحماية مصالحهم.

وذهبت بعثة أثرية تحت إشراف العالم الفرنسى جان ڤركوتر إلى مدى أبعد لحل اللغز القديم عن سبب اختيار قادة مصر العسكريين لذلك الامتداد الخطر للأرض عند الشلال الثانى لبناء سلسلة من القلاع، وعندما وصل ڤركوتر إلى قلعة مرجيسا الحصينة وجدها مغطاة بالكثبان الرملية، وقد عملت بعثته لمدة خمس سنوات متوالية لإخلاء المنطقة. وأخيرًا نجحوا سنة ١٩٦٤ عندما وجدوا فى القلعة العليا ما اعتبروه الشيء الوحيد المهم الذى وجد فى الموقع، وكان عبارة عن لوح

خشبى، يحمل نص "حتحور سيدة إكن"، مما أكد اقتناع ڤركوتر بأن مرجيسا كانت هى المركز التجارى المصرى فى النوبة. كان موقعها مثاليًا بالنسبة للتجارة وكانت تعبد هناك إلهة بواسطة المصريين ممتلئة بالحماسة، قامت البعثة بعمل مسح للصحراء لعدة أميال حولها ودرست ضفة النهر بحثًا عن ميناء أو حوض للسفن وربما مخازن، وبعد إزاحة الرمال عن مقبرة صغيرة غير كاملة قرر ڤركوتر أن يحفر الجبانة الكبيرة كلها، مما أدى إلى اكتشاف نادر آخر، عبارة عن مخبأ للمؤن والذخائر يتضمن قرابة ثلاثة آلاف نص من اللعنات وشظيات من الفخار تحمل أسماء العديد من الأفراد الذين يعتبرهم المصريون أعداء لهم، وعلى مسافة قريبة اكتشفت كذلك أربعة تماثيل مكسورة لسجناء وجمجمة بشرية موضوعة على طبق مع سكين من الصوان وقدر مكسور بالقرب منها. وقد أثرى اكتشاف نصوص مع قوائم بدول أجنبية وشعوب فى آسيا وإفريقيا دراسة الطقوس السحرية المرتبطة بودائع أساسات المعابد فى مصر والنوبة.

وكشفت الحفائر فى النوبة أن البلاد قبلت الدخول فى المسيحية ببطء، فمنذ سنة ٥٥٠ ميلادية حتى ١٥٠٠ قامت ثلاث ممالك مسيحية على طول نهر النيل ما بين الخرطوم الحديثة وأسوان، وعقدت لجنة لدراسة فن النوبة المسيحية وتاريخها فى مدينة إسن فى ألمانيا سنة ١٩٦٢، وفى سنة ١٩٧٢ اجتمع فريق من الدارسين الذين عملوا بالنوبة فى وارسو بمناسبة الاحتفال بافتتاح قاعات تحتوى على الأشياء المهمة التى اكتشفتها البعثات الأثرية البولندية برئاسة كازيمير ميخايلوفسكى. كما أدت الدراسة البولندية للممالك المسيحية على طول نهر النيل إلى اكتشاف بقايا مالايقل عن سبعة وعشرين أسقف من باخوراس القديمة (فاراس) فى شمال السودان وحفائر كاتدرائية، وكانت جدران الكاتدرائية لوحات جصية سليمة لرئيس الملائكة ميخائيل وأجساد أساقفة وجدت فى مشكاة ومعها قائمة بأسمائهم، وأتاح ذلك الفرصة لمقارنة الجماجم التى تم التعرف عليها بالصور.

واكتشف ج. م. بلوملى من بعثة *EES* فى قصر إبريم أن الصخرة العظيمة التى ترتفع اليوم فوق مياه بحيرة ناصر على بعد نحو خمسة عشر كيلومترًا شمال أبوسمبل - كانت فى الأصل نتوءًا من الأرض الرئيسية التى تشرف على منظر وادى النيل والصحراء لعدة أميال حولها، كانت أنشئت فى أوائل الأسرة الثانية عشرة كواحدة من سلسلة حصون نوبية وأثناء الاحتلال الرومانى لمصر مابين ٣٠ ق.م. و٣٩٥ ميلادية كانت تعتبر هى الحدود الرسمية بين مصر والنوبة.

بدأت الحفائر فى ١٩٦٢ وكشفت عن أن معاهدة كانت قد عقدت فى القرن السابع عندما أخذت الامبراطورية العربية فى الاتساع بين الحكام المسلمين والمسيحين النوبيين، نتج عنها علاقات طيبة استمرت قرابة ٥٠٠ سنة. بدأ مصير النوبة المسيحية فى الاضمحلال بعد خضوعها أكثر فأكثر للسيطرة الإسلامية، وبحلول القرن الرابع عشر كان ما تبقى منها هو بعض الجيوب فى النوبة ومطران فى قصر إبريم. وقد استخرج بلوملى من مقبرة فى هذا الموقع جسدًا مرتديًا ملابس الأسقف كاملة وفى ثناياه لفيفتان طويلتان مكتوبتان بالعربية والقبطية، وتضمنتا خطابًا من بطريرك الإسكندرية يؤكد تكريس أسقف فى فاراس وإبريم سنة ١٣٧٢ وشهادات أربعة أساقفة حضروا تنصيب الأخير (ميخالوفسكى ١٩٦٣، ١٩٦٤، ١٩٦٦).

شكل رقم ٦٢: لبيب حبشى (إلى اليسار ممسكًا بآلة تصوير) مع البعثة البولندية فى فارس ويقف البروفيسور ميخايلوفسكى على يساره (الصور هدية من المعهد البولندى للآثار بالقاهرة).

كان حبشى على علم بكل ما يحدث، لأن عطية التى كانت تشرف على الحفائر فى النوبة من *ARCE* كانت تمده بالمعلومات، وعرف من خلالها أخبار العمل الذى كان يجرى تنفيذه فى معابد رمسيس الثانى العديدة بين الشلال الأول عند أسوان والشلال الثانى الذى يقع إلى الجنوب بمسافة مائتى ميل. كانت تلك المعابد فى بيت الوالى، وجرف حسين، ووادى السبوع، والدر، وأبوسمبل، وأكشا. وكان لكل من هذه المعابد تجمعات مصرية تساندها". قال حبشى وهو يتذكر زيارته الأولى للنوبة. "توجد بينها ملامح مشتركة، بما فيها تماثيل قائمة تمتد من ضفتى النهر إلى المنحدر الصخرى الذى حفر فيه المعبد". وأشار إلى أن موقعها بالنسبة للنهر والتجمعات السكانية يدل على تحول من "الانتقال من الاحتلال العسكرى بواسطة الحاميات العسكرية التى تقيم فى قلاع ضخمة إلى حياة التجارة الهادئة المسالمة".

ولم تكن الآثار المادية للثقافة النوبية فردية ومنفصلة كما كان يفترض سابقاً، ولكنها كانت بالأحرى تشكل تطورًا مستمرًا. وبينما كان يجرى جمع المعلومات وتصنيفها وربطها بعضها ببعض عامًا بعد عام، كان يجرى مراجعة وجهات نظر كثيرة واسعة الانتشار عن العلاقة بين النوبة ومصر والانتقال من العصور القديمة إلى العصور الرومانية والبيزنطية والمسيحية والإسلامية ووضعت محددات جديدة وتأكدت مزايا الدراسات البينية لأول مرة.

بعد حرمانه من العمل فى النوبة أصيب حبشى بالإحباط الشديد، فقرر بتشجيع من عطية دون شك أن يستغل علاقته الطيبة بهنرى فيشر، ووالاس أمينَ الأبحاث فى علم المصريات من متحف المتروبوليتان للفنون ليعبر عن رغبته فى زيارة الولايات المتحدة. وردًا على خطاب منى طلبت فيه أن يؤكد أنه تلقى بالفعل خطابًا من حبشى وماذا كان رده، رد فيشر بخطاب بتاريخ ١٢ سبتمبر سنة ١٩٨٩ يقول: "سألت مستر رومير مدير متحف المتروبوليتان للفنون فى سبتمبر ما إذا كان يمكن إعطاء حبشى منحة زمالة لمدة عام، وفى النهاية كانت منحة لمدة ثلاثة

شهور.... لم تكن هناك شروط، ولذلك كان من حق حبشى أن يسافر ومعه عطية إلى بوسطن وبرڤيدنس فى نوفمبر ١٩٦٦ وإلى فورت ورث وهيوستون (تم تمويلها عن طريق وارين ماك كيفر وأصدقاء آخرين من تكساس) وفى يناير ذهبا إلى كندا وعادت عطية إلى مصر. بعد ذلك أكمل حبشى بمفرده جولة طويلة فى الولايات المتحدة نظمتها مصلحة الاستعلامات".

بالقرب من نهاية رحلته، غمرت حبشى السعادة عندما تسلم خطابًا يطلب منه أن يقبل درجة الدكتوراه الفخرية فى الفنون الجميلة من جامعة نيويورك، وقد جاءت هذه المبادرة من فيشر الذى بذل جهدًا كبيرًا لكى يحقق لحبشى التقدير الذى حرمته منه الحكومة المصرية، وكتب يقول: "ناقشت الفكرة الخاصة بالدكتوراه الفخرية مع سيرنى فى خريف ١٩٦٥ عندما كان فى فيلادلفيا كأستاذ زائر لأعرف ما إذا كان سيدعمها من عدمه". "فوافق متحمسًا على أن يفعل، بعد ذلك اتصلت بكريج سميث مدير معهد الفنون الجميلة، ووعد بأن ينقل رغبتى إلى نائب رئيس وسكرتير الجامعة. وفى ٢١ يناير من العام التالى قال نائب الرئيس إن توصيتى سوف تعرض على اللجنة الخاصة بالعضوية والدرجات الفخرية وأضاف إن كان لدى أية توصيات أخرى قد تساند ترشيح حبشى. وبناء على ذلك كتب إلى ثلاثة من الذين كانوا فى ذهنى وهم سيرنى، وهيلك، وهيوز، وردوا كلهم بسرعة. وكتب هيوز فى خطاب التغطية قائلاً: "آمل ألا أبدو مفرطًا فى الحماسة، إن حبشى لا يتوقف أبدا عن أن يكون ظاهرة بالنسبة لى". كلنا كنا نشعر بالسعادة لأننا نجحنا فى أن يحصل لبيب على تقدير تأخر طويلاً. ومنحت الدكتوراه فى اجتماع خاص عقد بالمعهد فى ١٦ مايو ١٩٦٦ وطار أحمد فخرى إلى الولايات المتحدة لكى يكون مع صديقه فى هذه المناسبة.

كان البحث الذى قدمه فيشر عن قبر نبيل يدعى "يپ *Ip* " اكتشفه فى الصف فى جبانة طيبة مسجلاً فى التسعينيات تذكارًا للعالم لبيب حبشى. وقد ذكر فيشر فى مقدمته كلمات قليلة إشادة به فقال: " رجل قدم دفء صداقته وثراء معرفته ".

وكتب عن أنه مدين شخصيًا للعالم لبيب حبشى لمشاركته وزملائه المعلومات، واصطحابه شخصيا إلى المواقع الأثرية وتمكينه من تسجيل النقوش التى وجدها هناك. "أما عن قيمة إسهامه فى علم المصريات" فلا أستطيع إلا أن أقتبس كلمات چورچ هيوز عندما شارك ياروسلاف سيرنى وولفجانج هيلك فى تزكيته للدكتوراه الفخرية التى حصل عليها من جامعة نيويورك: "سيكون من الصعب إحصاء قدراته العديدة وإنجازاته ولكننى قلت فى السنوات الأخيرة إنه ربما لا يكون هناك أحد على قيد الحياة اليوم يعرف الكثير عن آثار مصر القديمة مباشرة ليس من مكان وجودها فقط بل أيضًا معناها... إن خلفيته ومواهبه الفطرية جعلته يرى الآثار حيثما كان.. ليس بعينى موظف حكومى بل بعينى دارس... تلا ذلك سلسلة من المقالات الطويلة والدراسات التى كتبها بقلمه، كل منها تقريبًا يقدم مادة لم تكن معروفة حتى الآن وتفسيرات جديدة لما هو معروف. لقد كان هو الرأس الدارس للحفائر العديدة فى مصر والمجلدات ذات الأهمية التى نتجت عنها وتم طبعها أو تنتظر النشر. لم يكتف بمجرد تقرير عن الحفر أو الأشياء التى عثر عليها ولكنه يعطيها تفسيرًا وشرحًا كاملاً".

وبعد الاجتماع سافر حبشى إلى المتاحف والجامعات فى جميع أرجاء الولايات المتحدة (يبلغ عددها ٢٨) حيث قام بأبحاثه ثم عاد إلى القاهرة عن طريق المملكة المتحدة وفرنسا حيث كانت فرصة لدراسة مختلف مجموعات الآثار المصرية.

فى مصر كان حبشى ورطة أو حالة مربكة بالنسبة لمصلحة الآثار، وقد بقى له ست سنوات قبل إحالته للتقاعد، عندما كان شكرى بصفته رئيسًا للمصلحة ومسئولاً عن كتابة تقارير الكفاءة عن موظفيه وقرر أن يحيله للتقاعد مبكرًا. ووصف جمال مختار ما حدث حينذاك بقوله: "قدمت توصيته إلى وزير الثقافة ثروت عكاشة الذى وجد أن أسباب القرار بإحالة لبيب حبشى إلى التقاعد غامضة" ليس هناك توصيف وظيفى محدد للعمل عند أى مستوى من مستويات البيروقراطية

المصرية، بل إن العناصر دائما متداخلة بما يعطى فرصة للمناورة دائمًا على المستويات العليا، بينما على المستويات الدنيا فإن الانصياع والطاعة يكونان فى الغالب معيار تقييم الأداء. وقع عكاشة فى مشكلة ولم يكن لديه الوقت لدراسة الموضوع، ولذلك اعتمد على نصيحة موظفيه، وكان السبب الرئيسى الذى يستطيع شكرى أن يقدمه مبررًا لاتخاذ ذلك القرار هو أن لبيب كان غير منتج. وكان سببًا مضحكًا يدعو للسخرية، فاندفع كل من فى الاجتماع فى الضحك" وبذلك ترك الأمر معلقًا. فى هذا السياق، جدير بالذكر أننا نجد بين دراسات حبشى المنشورة عن النوبة، المعتمدة على الأبحاث التى قام بها قبل الثورة الأعمال التالية:

١- نقوش نواب الملك وأعمالهم فى كوش فى منطقة أسوان. (*Habachi, 1957*).

٢- نائبا الملك الأولان لنواب الملك فى كوش وعائلتهما. (*Habachi, 1959*).

٣- أربعة أشياء تخص نواب الملك فى كوش والموظفين المرتبطين بهم. (*Habachi, 1961*).

٤ - خمسة ألواح من معبد أمينوفيس الثالث فى وادى السبوع، (*Habachi,1960*)

أما تعليق حبشى على نقوش إحدى الصخور والذى قال عنه إنه بهره، فيقول: "لقد ذكرنى بشخص نعرفه، إنه موظف كان يدعى أوسرساتيت يبدو أنه كان قد تعرض للاضطهاد، ونجد أن اسمه وألقابه، حتى شكله، كانت محطمة فى كل مكان بمنطقة أسوان. لم يكن أعداؤه يريدون أن يعيش اسمه فى الحياة الأخرى... ومن الأمور الطيبة أن لبيب حبشى لم يحفر مثل هذه التسجيلات الشخصية وإلا فإنه مثل أوسرساتيت، كان سيلقى كل ذلك التشويه والإهانة".

والحقيقة هى أنه كان قد وصل إلى مرحلة ترفض فيها روحه المستقلة الاستسلام أكثر من ذلك لنظام يكبح نشاطه بمثل هذه الصرامة. لم يستطع حبشى أن يحتمل الموقف الذى يقلل من قدره والذى تأثر به بعض ممثلى اليونسكو وزملائه المصريين. وبدأ يفكر جيدًا فى خطوته التالية، وخطر له أنه إذا كان عليه

أن يستبق أى قرار من شكرى ومصلحة الآثار ويقدم استقالته، يمكنه أن يلتحق بإحدى البعثات الأجنبية فى النوبة كمستشار. استقال وكله ثقة، ولكنه لسوء حظه وجد الأبواب كلها مغلقة. رؤساء البعثات الذين كانوا يبدون استعدادهم من قبل لقبول انضمامه إلى مجموعاتهم، أصبحوا الآن غير راغبين فى ذلك، كان يفهم السبب جيدًا؛ لن يغامروا بالتعاون مع أفراد يبدو أنهم على القائمة السوداء لمصلحة الآثار. يقول حبشى: "لا أستطيع أن ألومهم لأنهم مجبرون بحكم القانون على الحصول على موافقة رسمية عن كل عضو من فريقهم، ولأن سبب تركى مصلحة الآثار لم يكن واضحًا، لذلك لن تخاطر أية مؤسسة مسئولة بتوظيفى وإغضاب المسئولين. إن عقود امتيازهم فى النهاية تعتمد على حسن النية وبينهم مجاملات."

فى سنة ١٩٦٧ تم تعيين حبشى "استشارى مصريات" لبعثة النوبة المشتركة بين معهدى الآثار الألمانى والسويسرى للآثار بالتعاون مع معهد شيكاغو للدراسات الشرقية. كان المشروع الممول من المعهد السويسرى تحت إدارة هيرمان ريك من المعهد الألمانى، وكان هدف البعثة من شقين: الأول هو إخلاء معبد رمسيس الصغير المحفور فى الصخر فى بيت الوالى، وعمل مسح للكتابات والرسوم المنقوشة على التماثيل ودراسة معمارها فى مراحل تطورها المختلفة تحت إشراف كيث سيلى من المعهد الشرقى. أما الشق الثانى وكان تحت إشراف ريكى فهو الحفر حول تل يسمى جبل أبو سنة شمال غرب المعبد. كانت علاقة حبشى بريك مهنية ولكن ليست ودية (كانا قد عملا فى نفس الوقت على جزيرة فيلة فى ١٩٤٦ ولم يستجب الدارس الألمانى لطلب حبشى آنذاك للقيام بمسح معمارى لهيكل هيكايب) ولذلك لم يكن من المستغرب أنه لم يختر الالتحاق ببعثة ريك، وكان سعيدًا للالتحاق بفريق المعهد الشرقى فى شيكاغو.

أما معبد بيت الوالى الذى قطع من الجبل فيما بعد ونقل وأعيد بناؤه على يد مهندسين من هيئة الآثار المصرية، بمنحة من حكومة الولايات المتحدة، فهو عبارة عن هيكل تذكارى صغير جنوب واد جانبى مؤدٍ إلى معبد كلابشة الذى بنى

لتسجيل انتصارات حملة رمسيس الثانى على بلاد النوبة فى بداية حكمه. وهو أحد الآثار الأكثر شهرة جرى وصفه كثيرًا فى قصص حالة القرن التاسع عشر، عندما أخذت صور من ألواح المعبد الجصية للعرض فى المتحف البريطانى. ولسوء الحظ فقد تسبب ذلك فى إحداث بعض التلفيات للمعبد الذى تدهور بعد ذلك على أيدى السياح والقرويين المحليين وتعرضه للعوامل الجوية. والحقيقة هى أن أجمل الرسوم التى أعيد طبعها كصور طبق الأصل وظهر فيها أوزوريس بلون أخضر زمردى وأنوبيس بالأحمر اللامع وإيزيس بالأصفر فى لون معدن الكروم، هذه الرسوم كانت قد اختفت عندما بدأت البعثة العمل، ولم يكن هناك سوى الغرف الداخلية التى تحتفظ بألوانها الناصعة.

كان حبشى سعيدًا أن يعمل فى مثل هذا المعبد العظيم، " كان مبنيًا من كتل من الحجر الرملى النوبى ويتضمن حوشًا أماميًا صغيرًا وبهوًا للأعمدة محفورًا فى الصخر وهيكلاً صغيرًا مجاورًا له،" واستمر حبشى قائلاً: " كان لابد من وضع مرايا فى الحوش لتعكس ضوء الشمس إلى داخل المعبد للكشف عن التضاريس بينما تستخدم سلالم للاقتراب من النقوش العالية القريبة من السقف. وقال إن الفريق وجد دليلاً على الخدوش التى على الجدران، نقاط الحصى المقساة التى قام بها چوزيف بونومى، بناء على طلب راعيه روبرت هاى، الذى التقط صورًا لهذا المنظر تبين انتصار الملك على أهل كوش الأراذل كما كان يطلق عليهم". كان حبشى يصف أحد المناظر الموجودة فى المعبد بسعادة " المنظر يبين رمسيس الثانى وهو يهاجم العدو من مركبته، وكان فى صحبته ابناه، كلاهما فى عجلته الحربية الخاصة ومعه سائق. وكان الكوشيون المسلحون بالأقواس والسهام يفرون أمامهم، وظهر الرجال والنساء والأطفال وهم يفرون إلى معسكرهم وسط نخيل الدوم بينما يحمل نوبى جريح بواسطة اثنين من رفاقه إلى زوجته وأطفاله. ونرى فى أحد الرسوم الزخرفية الصغيرة امرأة جاثمة فوق نار تطبخ وجبة غذائية، وفى رسم آخر نرى رمسيس الثانى وهو يتابع انتصاره العظيم ويظهر جالسًا تحت مظلة

بينما يقدم له نبلاء مصريون الجزية، ويقف خلفه نوبيان مقيدان ويتبعهما آخرون يقدمون القرود والكلاب السلوقية والفهود والزراف والماشية والنعام معهن أطفال، ومن بينهن امرأة تحمل طفلها فى سلة على ظهرها بطريقة إفريقية نموذجية".

حدد حبشى لنفسه مهمة المقارنة بين الآلهة التى كانت تعبد فى منطقة كلابشة أثناء حكم رمسيس الثانى بتلك التى كانت تعبد فى معابد رمسيس الأخرى فى النوبة، لاحظ أن الآلهة فى منطقة كتراكت، كانت مصورة أيضًا فى النصف الشمالى من معبد بيت الوالى، أما آلهة النوبة فكانت فى النصف الجنوبى، وكانت الإلهة ميكيت المعروفة قليلاً، ممثلة ثلاث مرات فى المعبد، وفى كل مرة معرفة بـــ "سيدة السماء وقرينة الآلهة" وكانت معروفة بالنسبة لى لأن اسمها ورد فى معبد صغير بناه حور محب فى السلسة، وعلى آثار أخرى وألواح صخرية رأيتها" ولكن السبب الحقيقى لاهتمامى بهذه الآلهة كان لأننى كنت قد وجدت اسمها فى أحد الأضرحة فى هيكل "هيكايب". واكتشفت اسمها مرة أخرى على لوح فى متحف القاهرة، وربما كان فى الأصل من أحد معابد هيكايب" ***Habachi, 1969,1983***، مرة أخرى لدينا مثال على قوة ذاكرة حبشى.

بعد بعثة بيت الوالى بدأ سيلى، ومعه حبشى، البحث عن بقعة مناسبة لعمل دراسات أخرى. بحثنا على كلا شاطئى النيل، وأرشدته إلى المنطقة التى تقع بين أبو سمبل والحدود السودانية التى بصرف النظر عن بلانة وقسطل المعروفة بالفعل من حفائر إمرى وكيروان والحفائر الأخيرة التى قام بها شفيق فريد كنت وأعرف أنها لم تكتشف بالكامل، أن بها إمكانات عظيمة وأنها كانت بقعة مثالية. أرسلنا سفن البعثة على الضفة الشرقية للنيل ليس بعيدًا عن المقابر الملكية التى اكتشفها إمرى. لم أكن أعرف أن المشاكل سوف تتبعنى، وهى قصة كريهة، كادت تكلفنى علاقاتى الطيبة مع معهد شيكاغو للدراسات الشرقية.

الشكل رقم ٦٣: الحفائر عند بلانة وقسطل.

بدأ الفريق العمل بالقرب من كشف إمرى وخلال عدة أيام وجدنا عددًا من المقابر تنتمى إلى مجموعة ***(X-group)*** أو ثقافة بلانة، التى ظهرت فى النوبة ما بين منتصف القرنين الرابع والسادس للميلاد أصلها مشكوك فيه وكانت مثار جدل كبير بين الدارسين، إذا كان بعضهم يعتقد أن هؤلاء هم الناس المشاكسون الذين عرفوا لدى الرومان باسم البليمى ***Blymmyes*** وهم قبيلة نزاعة للحرب من الصحراء الشرقية، بينما يقول البعض الآخر إنهم النوباد الذين هاجروا إلى النوبة من غرب السودان. قد قامت بعثة سيل ***(selle)*** بشق طريقها إلى الشمال من الموقع الذى درسته مجموعة ***EES***. ووجدوا مجموعة كثيفة من مقابر مجموعة ***X-group*** ومدافن الدولة الحديثة. لابد أن حبشى كان يشعر بالسعادة بمشاركته فى هذا العمل، ولكن سيلى كان مديرًا قاسيًا، وكان يتوقع الانصياع الكامل من فريقه، ولم يكن ينظر برضا إلى ما يظهره حبشى من الاستقلال فى العمل" نادرًا ما كنت أجد وقتًا لأننى كنت أرسل هنا وهناك، لقد توقعت أن أكون مستشارًا وانتهى بى الأمر لأكون صبى مراسلة (ولذا يوصل الرسائل) هكذا عبر حبشى عن وصفه، " كنا نشاهد كثيرًا وسرعان ما تدهورت العلاقة بيننا، وكان العام الثانى أفضل لأن سيل كان غائبًا معظم الوقت، ولكن الأمور تطورت من سيئ إلى أسوأ فى العالم الثالث".

كان الكثيرون من زملاء سيلى يصفونه بأنه "رجل صعب"، وكان أول اتصال له بمصر عندما كان يدرس اللغة الإنجليزية بكلية أسيوط فى عام ١٩٢٢ و٢٣، وفيما بعد درس علم المصريات بجامعة برلين والتحق بفريق بيت شيكاغو سنة ١٩٢٨، والآن فإنه كمدير للبعثة كان يؤنب حبشى بشدة بقيامه بعمل حفائر بغير تصريح، لذهابه لزيارة زملائه فى المنطقة ولعدم تأدية واجبه. أما حبشى (الذى كان يعتبر ارتداء قميص ورابطة عنق عند تناول العشاء وسط الصحراء أمرًا يبعث على الضحك والاستهزاء) فقال إنه قام بالفعل بعمل البحث الأثرى ولكنه كان فى وقت فراغه ولصالح المعهد الشرقى، كما قال أحد الزملاء الذين اتهم بأنه كان يقضى الوقت معهم، كانوا ماك كيفر عضو لجنة إنقاذ آثار النوبة

وعشرين من زملائه، وكان حبشى قد قابلهم بالأقصر ووعدهم بأن يريهم بعض آثار النوبة، أما بالنسبة لعدم أداء واجبه فقد رفض هذا الاتهام بشدة، وقال: لقد ذكرت سيلى برحلتى إلى القاهرة لتسهيل الإجراءات الرسمية للبعثة وبالترتيبات التى قمت بها للعاملين بالمشروع وتحميض الصور والشرائح التى جمعتها بصعوبة من الأرشيف والتى أرسلتها إليه لتسهيل بحثه، وجهدى الذى بذلته لتأكيد أن البعثة قد حصلت على نصيب معقول من الاكتشافات". تم تبادل بعض الكلمات الحادة ثم قرر حبشى أن يكتب خطابًا إلى سيلى لتوضيح الموقف. كانت إجادته اللغة الإنجليزية قوية ولكن قدرته على التعبير كتابة كانت ضعيفة. كان الاتصال الذى تم فى ٢٢ أكتوبر ١٩٦٣ خطأ كبيرًا.

بدأ حبشى الرسالة بثلاث فقرات طويلة وضع فيها تفاصيل الأنشطة العديدة التى قام بها لصالح البعثة، وأورد بعدها تفاصيل توقعاته. كتب أنه منذ لويس زابكار (أستاذ بجامعة لويولا فى شيكاغو كان يعمل تحت رئاسة چورچ هيوز فى سيرا الشرقية فى سنة ١٩٦١ – ٦٢ وبعد ذلك عين مساعدًا لسيل) لن يستمر فى العمل مع البعثة حتى انتهاء الموسم. فإنه كان يعتبر نفسه مؤهلاً للحلول محله كمساعد لسيل، ولهذا السبب طالب بزيادة أجره للعامين القادمين وأضاف أنه يتمنى إعفاءه من العمل الإدارى " ولكى لا أتهم بعمل شىء من وراء ظهرك، وأن أكون حرًا فى عمل ما أريد أثناء وقت فراغى، حتى لا أوبخ لأننى تركت العمل فى الحفر بعد الظهر وأن أستطيع الصوم حسب التقليد القبطى دون انتقاد". أما فقرة الخاتمة فقد كانت كانت أكثر ركاكة: "أنا حريص على أن أعمل وأساعد فى العمل العظيم الذى يؤديه المعهد الشرقى فى النوبة كما فعلت أثناء السنوات الثلاث السابقة، ولكننى أريد أن أتأكد أننى سأقضى وقتًا مفيدًا وسعيدًا... إذا كنت سوف استمر فى العمل فسأكون دائمًا المساعد النشيط والمخلص، وسوف أقدم لك أفضل النصح والمساعدة، أما إذا حدث العكس فإننى آمل أن نسوى حساباتنا بسلام، لقد كنت دائمًا الصديق الجيد للمعهد وأعضائه، وأود أن يكون هذا هو موقفى بقية حياتى."

وكان رد كيث سيلى المؤرخ بـــ ٢٥ أكتوبر ١٩٦٣ والمكتوب من فندق سميراميس بالقاهرة محكمًا وأوضح أنه لم تكن لديه سلطة من شيكاغو أو من وزارة الخارجية لعمل عقد مع حبشى، وحيث إنه عمل فى السابق دون عقد بالعمل لم يحصل فإن طلبه "مرفوض تمامًا". مضيفًا: "وليس فى استطاعتى زيادة راتبك فى العام الحالى بسبب الظروف التى نعمل فيها. فكتب "لقد أعفيت من معظم الواجبات الإدارية واحتفظت بالكثير منها فقط لترددك فى تسليمها لأى عضو آخر فى البعثة" وأخيرًا فيما يخص وقت فراغ حبشى كتب أنه من الناحية الرسمية ليس هناك وقت فراغ أثناء شهور موسم العمل عدا يوم الراحة الأسبوعى وعندما لايكون هناك عمل يجب أن يؤدى. وأنهى خطابه: "وباختصار فإنك تقدمت بسلسلة من الطلبات غير المقبولة منى وأنا أرفض أن أنفذها.

والحقيقة أننى إن لم أكن قد فهمت أسلوبك، فإن تعبيرك قد أزعجنى، وإذا كنت تشعر باستحالة الاستمتاع بالعمل معنا فى البعثة فقد حان الوقت لكى تجرى تغييرًا لكى تجد موقعًا آخر يكون عملك فيه أكثر ملائمة لك... وأشعر أنه من الأفضل لك أن نعفيك من عمل أصبح مكروهًا منك. ومن الآن فإننى أعفيك من أى وكل التزامات العمل مع البعثة، فيما عدا أن تسلمنى جميع المخطوطات التى أعدت أثناء العمل مع البعثة وسهلتها لك فرص خدمة البعثة مع استخدام معداتها وتسهيلاتها، وأن تسلمنى أية صور أو شرائح ملونة.. إلخ لتسليمها إلى المعهد الشرقى، علمًا بأن جميع هذه المواد مملوكة للمعهد الشرقى وجميع حقوق النشر بالنسبة للشرائح تخص المعهد الشرقى أيضًا". كانت صدمة لحبشى، إنه ينحدر من ثقافة تتطلب أن توضع الطلبات أو حتى المجادلات كأساس للمناقشة، ولسوء حظه فإن سيل أخذ خطاب حبشى بمعناه الظاهرى وتصرف بناء عليه، ومن المهم هنا أن نذكر إحدى المواجهات التى وصلت إلى القمة بينهما فى ردهة فندق سميراميس بالقاهرة، لأنها تفسر كيف يمكن أن يغرق الدارسون المصريون والغربيون فى مستنقع فهم معانى الكلمات، وقد كتب جورج هيوز فى خطاب غير مؤرخ أن كارل دى فريبة (أحد أعضاء بعثة سيل إلى النوبة) كان حاضرًا فى تلك المناسبة،

وذكر أن القضية تركزت حول لقب لبيب والفرق بين "مدير مساعد" و"مساعد المدير" وحدثت مواجهة بين الأمريكيين والمصريين، وتعقدت المسألة ولم يمارس حبشى أى درجة من ضبط النفس. لقد واجه مدير المعهد الشرقى بنفس العناد مثلما واجه من قبل موظفى مصلحة الآثار. والجانب الأعمى فى شخصيته التى لم يستطع أن يرى مبررات سيل لرفض طلباته، مثل عدم موافقة مصلحة الآثار المصرية على تعيينه فى إحدى لجانها الخاصة بالنوبة. ولسوء الحظ فقد ظل اللقب الغامض " استشارى مصريات " الذى كان يعطى للمصريين الذين يعملون مع البعثات الأجنبية بقى لفترة طويلة عرضة لسوء الفهم، لأنه لم يكن هناك توصيف للوظيفة. لم تكن واجبات ولا حقوق الشخص واضحة. كان كثير من الأمريكيين أثناء عمليات النوبة فى الأصل علماء أجناس، ومؤرخين لمرحلة ما قبل التاريخ جاؤوا إلى مصر للمرة الأولى ولذلك لم يكن لديهم أساس أو قاعدة لتقدير قيمة لبيب حبشى. أولئك فقط الذين كانوا قد عرفوه وعرفوا عمله هم الذين كانوا يستطيعون تقديره مقارنة بأنفسهم وبالمصريين الآخرين. يقول جمال مختار إن "سيل كان دارسًا قديرًا ولكنه إلى حد ما كان مضجرًا فى المواقف الاجتماعية". ويضيف: "ولابد أن لبيب كان يحاول أن يسخر منه، كان يجب أن يكسر كبرياءه".

كان لابد من إصلاح الأسوار، فكتب حبشى خطابًا إلى روبرت آدامز من المعهد الشرقى أرفق به نسخًا من كل المراسلات بينه وبين سيل، مع المراسلات الأولى مع المعهد الشرقى حول موضوع مقبرة خيرويف. وقد عكس خطاب التغطية" أسفه العميق" لقرار الدكتور سيل الذى "حرمنى متعة العمل مع المعهد الشرقى، وقد مر أكثر من عشرين عامًا على انتسابى إليه وإلى أعضائه... والآن فإننى أتساءل ما إذا كنت سأستمر فى العمل على أى نحو". وقد أرسلت نسخًا من هذا الخطاب إلى هيوز مع خطاب تغطية يقول: "أرجو ألا يزعجك كونى ذكرت اسمك... ظننت أنك وبيل بويد ولويس زابكار الذين تعرفون حجم ما عملته لبعثة النوبة خلال السنوات الثلاث التى عملت فيها، وتستطيعون أن تقولوا كلمة طيبة إن كان لابد من قولها".

يستطيع الإنسان أن يشعر بيد عطية حبشى المحاربة التى تدير دبلوماسية السلالم الخلفية فى نسخ المراسلات التى أرسلت إلى هيوز. كانت كفئًا حقًا، وامرأة تعرف كيف تحتال للخروج من الأزمات وقد عرفت كيف تحقق التعاطف مع زوجها. من المشكوك فيه أن يكون حبشى كان لديه الفطنة الكافية لجذب الخيوط. والقصة تقول إن الفريق المكون من زوج وزوجة يتمتعان بقوة غير عادية. وهما زوجان رتبا مظاهر عامة مساندة وأيد كلاهما الآخر من خلال المحاولات الشخصية للسلوك الهادئ، واعتنى كلاهما بالآخر، واستطاعا أن يحققا ردًا سريعًا على النكسة غير المتوقعة فى المسار الوظيفى لحبشى. لم يقم بتنفيذ أى عمل آخر فى النوبة ولكنه دعى إلى بيت شيكاغو لاستكمال دراسة مقبرة خرويف وقام بمباشرة هذا العمل ومتابعة طبعه فى نشرته الأخيرة فى ١٩٨٠، وكان يصرف له راتب صغير عندما كان بيت شيكاغو فى الأقصر تحت إشراف تشارلز نيمز خليفة سيل واستمر فى استلامه بقية حياته.

وفى أواخر الستينيات كان السد العالى على وشك الاستكمال، وكان الماء فى الخزان قد بدأ فى الارتفاع، وكان الوقت بالنسبة للنوبة قد أوشك على الانتهاء عندما أعلن ثروت عكاشة أن الحكومة المصرية كانت على استعداد لمنح امتياز آخر. إنها يمكن أن تتخلى لأى حفارين أجانب عن نصف ما يتم العثور عليه أثناء عملهم باستثناء الأشياء الفريدة، وفيما بعد عندما بدأ الماء يغمر القرى أعلن أن أية دولة جاهزة لإنقاذ أحد المعابد الصغيرة كان لها الحق فى نقله إلى الخارج وعرضه على أراضيها، ومن بين تلك المعابد التى فككت وخرجت بموجب هذا العرض كان معبد دابود البطلمى الموجود الآن فى مدريد على صخرة وأمامه قناة صناعية. ومعبد طافا البطلمى وهو الآن فى متحف لايدن، ومعبد إليسيا الذى ينسب إلى الأسرة الثامنة عشرة الموجود فى المتحف المصرى فى تورين، ومعبد دندور البطلمى فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك.

استدعى حبشى للعمل كمرشد للنوبة فى مناسبتين تاليتين. كانت الأولى هى مصاحبة قسيس من الأدفنتست أراد أن يسجل إجلاء أهالى النوبة وعددهم خمسون ألفًا، نصف عدد السكان، بدأوا حياة جديدة فى كوم أمبو على بعد نحو خمسين كيلومترًا جنوب السد العالى، أما النصف الثانى فقد نقل إلى الجزء الشرقى من السودان، إلى خشم القربة. يقول حبشى: "كم كان منظر النوبة حزينًا ! غابات النخيل العظيمة فى بوادى الدر مغمورة إلى النصف بالماء، بعض النوبيين جالسون مع ممتلكاتهم البائسة وهى مكومة حولهم فى انتظار السفن التى تنقلهم إلى بيوتهم الجديدة، وسمعت نباح كلب فى القرية المتروكة" كانت المناسبة الثانية لمرافقة الفلكى چيرالد هوكنز إلى أبو سمبل " كان قد درس تكوينات الحجارة والآثار فى المكسيك وأراد أن يتأكد من أن المصريين كانوا يوجهون معابدهم نحو الكواكب أم نحو انقلاب الشمس الشتوى أو الصيفى. وبينما وجدت فى أبو سمبل وقتًا لدراسة بعض النقوش التى حفرها نواب الملك حول المعبدين، وهو ما مكننى من استكمال دراستى عن نواب الملك فى بلاد النوبة، كانت لدى فرصة لجمع المادة اللازمة لكتابة مقالتين مبسطتين: ***The Deluge of Lower Nubia***: (الفيضان فى النوبة الجنوبية) وقد نشرت فى مجلة: ***Archaeology*** (العدد ٢٢ لسنة ١٩٦٩ ص ١٩٦ – ٢٠٣). والثانية: ***Resurrection in Nubia*** (بعث النوبة) ونشرت فى مجلة: ***Egypt Travel Magazine*** (العدد رقم ٥١ لسنة ١٩٦٤ الصفحات من ٣٠ – ٣٥). فى تلك الرحلة الأخيرة كنت أرى الحفارين وهم يشقون الأرض فى محاولة أخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث النوبة. صدقونى... بعد أن انتهوا من عملهم، كانت تلك الأرض الجميلة أشبه بجثه رجل بائس معروضة للدراسة أمام طلبة كلية الطب".

الفصل العاشر

تغير الأزمنة

أشرقت عينا حبشى وهو يقول: "ثم عاد هيكايب للظهور فى حياتى مرة أخرى" وانفرجت أساريره عندما جلسنا حول المائدة فى حجرة الطعام الخاصة به. حصل المعهد الأثرى الألمانى والمعهد السويسرى للبحث المعمارى على امتياز فى سنة ١٩٦٩ لإزاحة الرمال عن جميع آثار المدينة القديمة فى الطرف الجنوبى لجزيرة فيلة وتسجيلها. "كان هيكل هيكايب الذى اكتشفته سنة ١٩٤٦ ضمن هذه المنطقة وقام ورنر قيصر مدير المشروع بتشجيعى لإعادة تنشيط جهودى للإفراج عن مخطوطى من مصلحة الآثار لنشره كجزء من السلسلة التى يصدرونها".

كان قيصر وحبشى يتشاركان الاهتمام بمنطقة الشلالات،"قضينا ساعات عديدة سعيدة معًا نناقش التاريخ المتفرد للجزيرة منذ القدم إلى اليوم". قبل بناء السد العالى كانت جزيرة إليفنتين مهمة استراتيجيًا لأنها تتحكم فى شلالات النيل والقنوات التى مكنت من الاتصال المائى بين مصر وجارتها الجنوبية، وكانت أيضًا نقطة بداية طرق القوافل العظيمة التى مرت بها بعض البعثات التجارية والعسكرية التى قام بها المصريون. لم تكن أسوان أبدًا مدينة عظيمة يوجد بها مجتمع كبير مستقر مثل الأقصر، والحقيقة أن الحدود السياسية لمصر مع النوبة لم تكن ثابتة، بل كانت تتغير كلما انضمت أرض جديدة إلى الدولة، مثلما حدث فى المملكة الوسطى نحو سنة ٢٠٠٠ ق. م، عندما احتلت مصر الأراضى النوبية حتى الشلال الثانى، ثم انكمشت إلى أجزاء مختلفة من الشلال الأول فى فترات تالية من التاريخ الفرعونى وفى أيام الرومان.
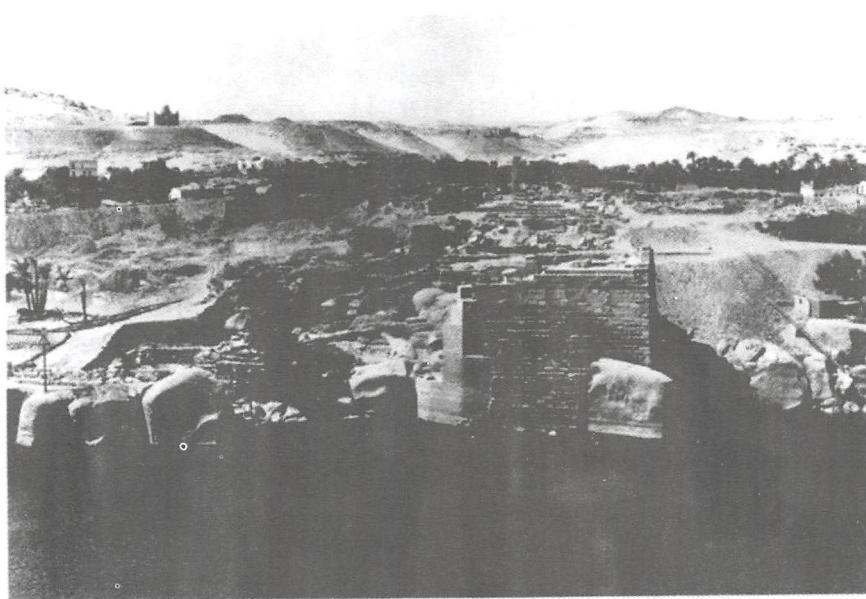
الشكل رقم ٦٤: الاستقرار على الطرف الجنوبى لجزيرة إلفنتين، ويظهر ضريح أغاخان على البعد.

ونظرًا لأن جزيرة إلفنتين كانت منفصلة عن الأرض الرئيسية استمر الاحتلال على مدى آلاف السنين، وحيث إن أجزاء من المبانى القديمة كانت قد تهدمت وتداعت حوائطها مع مرور الزمن، انهارت هذه الأجزاء وكانت تستخدم لملء داخل الحائط الباقى، وشكل ذلك قاعدة صلبة للمبانى الجديدة، وبقيام المناطق السكنية والبناء فوق طبقات متتالية من الخرائب نتج عن ذلك أن أصبحت المدينة فوق أراض مرتفعة (أتاح ذلك للأثريين متابعة تاريخ الاستقرار بدقة يندر توافرها فى أماكن أخرى) ونظريًا فإن طبقات الأرض لابد أن تتبع الترتيب التاريخى فنجد الأقدم عند السطح الأسفل من مناطق الاستقرار ويشمل الآثار التى تنتمى إلى الفترات التاريخية المتعاقبة وصولاً إلى الفترة اليونانية الرومانية. أما فى حالة فيلة فإن الوضع كان أكثر تعقيدًا، ويقول حبشى: "كانت هناك فترات كانت فيها المبانى والأشياء التى تحتوى عليها قد لحقها التشويه والتدمير لأسباب سياسية قبل أن تحتويها رمال الصحراء. أحيانًا كانت المعالم تبنى من الأحجار التى كانت قد سقطت من المبانى الأقدم، أو فى أحوال أخرى كانت المبانى تهدم ويعاد استخدام الأحجار، وحدث أيضًا أن كانت تهجر معالم معينة ثم يعاد بناؤها فى مرحلة تالية من الاحتلال كما ظهر فى هيكل هيكايب".

لم يضيع حبشى وقتًا فى شق طريقه إلى مصلحة الآثار ليستعيد مخطوطه. كانت قد مرت خمس سنوات على استقالته. كتب:"شعرت بموجة من العدوانية البيروقراطية تلطمنى فى اللحظة التى اقتربت فيها. وأسوأ من ذلك أننى منعت من دخول المبنى ولم أستطع استعادة المخطوط".. لم يكن حبشى يعرف أن تعليمات شكرى ألا يلقى حبشى ترحيبًا فى المصلحة بعد استقالته ولم تلغ، ولذلك شعر بالحيرة "لم أستطع أن أفهم ذلك التصميم على عدم إعادة نص إلى لم يكن لوجوده هناك فائدة. ولم يستطع أحد أن يفسر لماذا لا يعاد المخطوط إلى صاحبه. إن عجز بعض زملائى عن تحمل مسئولية اتخاذ قرار شىء محبط". وفسر جمال مختار الذى أصبح وكيلاً للوزارة للآثار والمتاحف فى سنة ١٩٦٨ هذه الظاهرة قائلاً:

"ليس الأمر هو أن الموظفين المصريين لا يعرفون كيف يقومون بالمبادرة، ولكن ذلك بسبب نظام ينطوى على تعليمات متضاربة دائمًا وليس به معايير تحدد ما ينبغى أو لا ينبغى عمله. لا أحد يريد أن يضع عنقه تحت المقصلة، واستمر لبيب المسكين فى التردد على قاعات المصلحة على مدى ست سنوات حتى تم الإفراج عن مخطوطه فى النهاية.

كان الجو العام فى السبعينيات من القرن العشرين يبعث على التفاؤل الحذر، وكان الفكر السائد فى البداية هو أن السد العالى سيحسن الأحوال للمحافظة على الآثار فى مصر، لأن استقرار النهر كان يعنى أن خطر الفيضانات العالية سوف يتم التغلب عليه، وبالتالى سيسهل ذلك تقوية أساسات الآثار الضعيفة ويحول دون أى انهيار جديد فى المنشآت الكبيرة. وسرعان ما أصبح واضحًا أن معدل متوسط ارتفاعات الماء كان يدمر النحت البارز من خلال نضح الماء التآكل الناتج عن الأملاح التى زادت خطورتها، حيث لاحظ الدارسون والزوار التحلل وهو يزحف إلى جدران المعابد مع توالى الفصول مثل المرض اللعين، تاركًا النقوش والرسوم مصابة وعلى وشك السقوط، وأصبح المركز الفرنسى المصرى فى الكرنك الذى تموله الحكومة المصرية ومركز الأبحاث الفرنسى ***CNRS*** مسئولين عن دراسة هذا التدهور المتنامى. أجريت التجارب ولكن أساليب المحافظة التى طبقت بنجاح فى البلدان الأخرى أثبتت أنها أقل فاعلية فى مصر.

وسرعان ما ظهرت مشكلات أخرى. مع استقرار النهر أصبح من الممكن الآن بناء أماكن استقرار دائمة على الأرض التى كان يغطيها الفيضان وزحف العمران على الأراضى الزراعية. أطلقت الحكومة "ثورة خضراء" لاستصلاح الصحراء وتعويض هذه الخسارة، ونتيجة لذلك أصبحت المناطق الأثرية مهددة بتسرب الماء إليها نتيجة الرى. وظهر تطور آخر أكثر خطرًا فى الدلتا، فبعد أن كان الفيضان يطهر التربة، أصبحت الأملاح الآن ترتفع إلى السطح، ولم يؤثر ذلك فقط بالسلب على الزراعة، بل إنه جعل المواقع غير المحفورة أو المحفورة جزئيًا فى وضع خطر.

وأطلقت هيئة الآثار نداء (مثل ذلك الذى أطلقه حبشى قبل ربع القرن) لتشجيع البعثات الأجنبية لتركيز أنشطتها فى الدلتا قبل أن يصبح الوقت متأخرًا، ثم ظهرت أيضًا مسألة الكيان المائى المتضخم فى بحيرة ناصر الذى رفع درجة الرطوبة؛ أما فى مصر العليا فقد زادت نسبة سقوط الأمطار وكان لكل هذه العوامل آثار سلبية على الآثار القديمة.

كان الأمر يحتاج إلى إجراءات فعالة لمواجهة التحديات الجديدة، وكان جمال مختار بصفته وكيل الوزارة هو الشخص الملائم للقيام بتطوير سياسة ثقافية قومية، وباعتباره من أبرز المدافعين عن الثقافة المصرية، حاصل على التقدير فى الداخل والخارج يعتبر شخصية رئيسية فى البحث الأثرى المصرى فى القرن العشرين. ولد سنة ١٩١٨ وحصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس فى سنة ١٩٥٧ وعين مستشارًا لليونسكو فى شئون الآثار سنة ١٩٦٧ وشغل منصب رئيس الهيئة حتى سنة ١٩٧٧. حول مصلحة الآثار المصرية لتصبح هيئة الآثار المصرية (*EAO*) فى سنة ١٩٧٢، وكان من حسن حظى أن عرفته، وأن أجد الفرصة للحديث معه عن عمل لبيب حبشى، وكذلك عن الخطوات التى قام بها بعد إنشاء هيئة الآثار المصرية.

كانت كل الآثار المصرية تحت سقف "كما قال مختار، "ونتيجة لذلك كانت الحفائر وعمليات التجديد مركزة ولكن ذلك اتسع الآن ليشمل الدراسات والآثار الخاصة بما قبل الأسرات الفرعونية والقبطية واليونانية-الرومانية والبيزنطية والإسلامية والنوبية وكذلك قصور بدايات القرن التاسع عشر. كان أمامى مهمة ضخمة وتكاد تكون مستحيلة. كنا نجلس فى كافتيريا فندق هيلتون بعد ظهر مشمس من يونيو ١٩٨٩ بينما كان مختار يشرح لى معنى قيامه بالإشراف على مئات الآلاف من الآثار وعلى عدد من الموظفين يربو على ستة عشر ألفًا.

"كان عملى يتضمن قدرًا كبيرًا من الاحتكاك بمسئولين حكوميين آخرين، ودعينى أضيف أن الوزراء والمحافظين كانوا الأكثر احتكاكًا"، "كانت المشكلة الرئيسية هى أن منصبى خاضع لمسئولية كبيرة بينما ليس لدى سلطة تمكننى من محاسبة الآخرين والتأكد من عمل أى شىء، كما ينبغى"، وراح مختار يصف لى كيف أن شركة كبيرة لجمع القمامة قد استولت بالتدريج على أرض الفسطاط، مصر القديمة، موقع أول عاصمة عربية. "نظريًا الأرض تخص هيئة الآثار لأنه تم تحديدها أثرية منذ بداية القرن، ولكن على الرغم من الأحكام الكثيرة الملزمة للشركة بإخلاء الأرض، فإن القانون لم يطبق، ومما زاد الطين بلة أن صاحب شركة القمامة أصبح عضوًا بمجلس الشعب، والآن انظر وتعجب! كان يحقق معى أنا رئيس هيئة لاستيلائى على أرض تخص شركة القمامة! مثل هذه المواقف هى التى ستقف حتمًا فى طريق التقدم فى أى مجال فى مصر".

وفى مناسبة أخرى كان مختار يصف الأخطاء التى ارتكبتها هيئة الآثار المصرية. وضع يده على نموذج مصغر طبق الأصل للمتحف الذى بنى فى الجيزة لحفظ قارب خوفو الذى اكتشف سنة ١٩٥٤، وقال: "ماذا سنفعل بهذا، لقد كان كارثة من البداية إلى النهاية. لقد كان القارب يمثل كشفًا أثريًا مهمًا بكل المقاييس، ولأنه تم بعد الثورة مباشرة فقد كان مفخرة قومية. وقرر الموظفون المجتهدون فى هيئة الآثار بذل كل الجهد فى الحفر والترميم وعرض هذه السفينة المصنوعة من خشب الأرز وتحويلها إلى موقع جذب سياحى، ولكن لسوء الحظ أصبحت العملية كلها مشحونة بالمشاكل البيروقراطية والعناد وعدم القدرة على علاج الأخطاء المبكرة" وإذا بصوت مختار المعروف باللين والرصانة يعبر عن الضيق والغيظ.
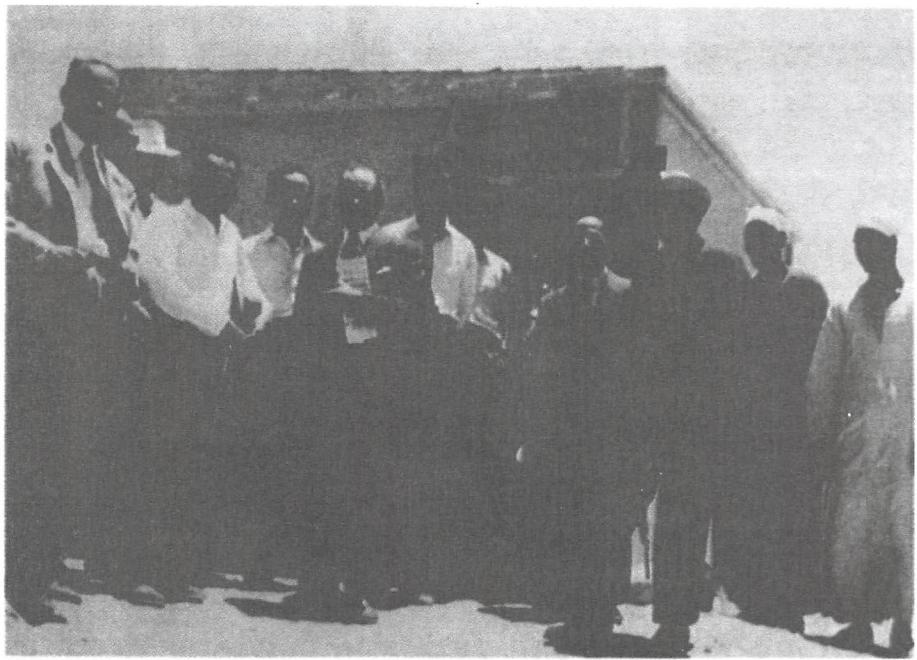
شكل رقم ٦٥: كمال الملاخ (إلى اليمين مرتديًا قبعة) فى الجيزة مع نبيه كمال (الذى يحمل بعض الوثائق) وغيرهما من الموظفين قبل بدء العمل فى رفع كتل الأحجار من فوق الحفرة الموجود بها المركب.

كنت أنا نفسى شاهدة على بعض الأحداث التى تلت كشف مركب الجيزة على يـــد كمـــال الملاخ، وباعتبارى زوجة نبيه كامل عضو هيئة الاستعلامات (فيما بعد أصبحت تسمى وزارة الثقافة والإرشاد القومى) الذى كان صديقًا حميمًا لعبد المنعم أبو بكر كبير مفتشى الآثار بالجيزة، أتيحت لى الفرصة لمشاهدة ثلاث مراحل من العمل الذى كان يجرى تنفيذه: إزالة الكتل الحجرية التى كانت تغطى حفرة المركب، بناء ملجأ من الطوب الأحمر لتخزين الألواح الخشبية الضخمة عند استخراجها، وعمل أحمد يوسف مصطفى (الحاج يوسف كما كان يعرف بعد أن حج إلى مكة)، رئيس المرممين فى مصلحة الآثار الذى كان مسئولاً عن العمل. كان الحاج يوسف قد بدأ عمله الوظيفى كمرمم تحت إشراف چورچ ريزنر بالجيزة، حيث تعلم أساليب إصلاح الأخشاب كما عمل فى عمل الأثاث الخشبى المذهب الخاص بالملكة هتب هيريس، وفيما بعد أصلح قناعًا ذهبيًا كان محطمًا تمامًا من إحدى المقابر الملكية فى تانيس، وكانت المقبرة قد انهارت بعد أن عمل السوس فى قلبها الخشبى. وهو يستحق الاحترام بسبب عمله المتقن والدقيق، وقد أطلق عليه لقب "ذو الذراع الذهبية".

تم تفكيك هذا المركب الذى يعود إلى ٤٦٠٠ سنة بعناية فى العصور القديمة وكانت الأجزاء المنفصلة التى يبلغ عددها ١٢٢٤ جزءًا مرتبة فى ١٣ طبقة لكى يتناسب حجمها مع حجم الحفرة التى يتم تخزين المركب فيها، وكان فوق الخشب طبقة من الحصير والحبال. وعند نقل المحتويات حفظ الحاج يوسف كل قطعة فى محلول خاص قبل وضعها داخل المبنى المقام بالطوب الأحمر. أما ألواح الأرضية السميكة التى وضعت فى وسط الغرفة فقد سمرت معًا بشكل مؤقت، وجمعت الألواح الخشبية الأخرى على كلا الجانبين. توقع أن تستغرق إعادة بناء المركب عشر سنوات، والحقيقة هى أنها استغرقت أكثر من ذلك بقليل. عندما تم تجميع المركب الذى يبلغ طوله ٤٣ مترًا وارتفاعه ثمانية أمتار داخل المبنى الذى أقيم من أجلــه، وكـــان تحـــفة للناظرين. كان قاعه مسطحًا مع بدن مقوس هائل الحجم.

أما الألواح الخشبية السميكة المصنوعة من خشب الأرز والمستوردة من لبنان فكانت مخيطة معًا بمعنى الكلمة، بنظام من الحبال التى تمرر من خلال ثقوب وتتقابل فى الداخل. أما المقدمة الضخمة التى ترفع مؤخرة القارب فقد كانت على شكل نهايات براعم البردى التى ترفع القمة. وكان تسيير المركب يتم عن طريق جهاز مكون من عشرة مجاديف باستخدام دفتين كبيرتين، وعلى السطح توجد كابينة أمامية صغيرة ربما كانت تخص الكابتن (رئيس البحارة)، وقد وجدت عشرات الأمتار من الحبال ملفوفة فى قاع المركب.

"قال من شهدوا العمل المضنى والبطىء فى إعادة بناء المركب أن الملجأ الذى بنى من الطوب، سيكون قلب متحف يبنى حوله، ولكن الحكومة كان لديها أفكار أخرى". كما قال مختار: "تم الإعلان عن عطاء عالمى آخر لتصميم متحف جديد، واختير له المعمارى الإيطالى فرانسى مينسى. وكانت تلك هى الغلطة الأولى. كان الحاج يوسف قد أمضى فترة تزيد على أربعة عشر عامًا بمفرده لكى يعيد بناء المركب الضخم، والآن كان المطلوب تفكيكه ووضعه فى متحف جديد على شكل مركب مصنوع من الزجاج الملون، وكان ذلك يعتبر آخر صيحة فى تكنولوجيا المتاحف ولكنه لم يكن مناسبًا بالمرة لهضبة الهرم". وأضاف مختار: "لأنه بينما يحجب ضوء الشمس المباشر كان زجاجه يحبس الحرارة داخله وأحيانًا كانت درجة حرارة خشب المركب ترتفع إلى أكثر من ضعف ٢٢ درجة مئوية التى كان محفوظًا عليها عند دفنه قبل آلاف السنين. وعندما فتح متحف المركب للجمهور لفترة قصيرة شكا الزوار من الحرارة والرطوبة. ولذلك تم تركيب مراوح، ولسوء الحظ لم تفعل أكثر من إعادة توزيع الهواء الساخن المحتجز، بالإضافة إلى أن تدفق السياح رفع معدلات الرطوبة المرتفعة أصلاً التى أدت مع ارتفاع درجة الحرارة إلى تمدد الخشب وتقلصه على نحو خطر.

وفى النهاية عند إدراك خطورة المشكلة، كان هناك قدر كبير من التفكير البيروقراطى. دارت المناقشات حول ما إذا كان ينبغى تفكيك المتحف الزجاجى

وتصميم متحف جديد أو تركيب تكييف للهواء؟ كان من أكبر مشكلات حكومتنا الثورية أنها وضعت مسئولية التخطيط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى على كاهل البيروقراطية، ولذلك لم يكن هناك تخطيط مركزى، وعند تداخل سلطات اتخاذ القرار تحدث الأخطاء". من الضرورى وضع ملاحظات مختار فى الاعتبار لأنه حتى اليوم لايوجد تنسيق بين مختلف الوزارات، ولذلك فإن الأخطاء مستمرة فى تقدير الأمور.

وربما يعتبر متحف مراكب الشمس أفضل المشروعات، فهو مبنى حديث أنيق، ولكن الفشل كان مصدره، لأن الظروف البيئية للهضبة لم توضع فى الحسبان. لم يكن بالإمكان تركيب أجهزة تكييف لأن المولدات سوف تحدث اهتزازات قد تسبب أضرارًا للمقابر المجاورة ثم قيل إن المتحف نفسه كان معرضًا للحريق لأن المركب والأرضية والسقف كلها مصنوعة من الخشب ولذلك وضعت أجهزة لإطفاء الحريق"، وقد اتخذت وسائل الإعلام من ذلك مادة للسخرية وتساءلت مـــا إذا كانت ثلاث أو أربع أسطوانات لإطفاء الحريق حول المبنى، كان بعضها لا يزال داخل أكياس البلاستيك، يمكنها إطفاء الحريق! وخرجت بعض الصحف بالعناوين التالية:"علامات احتضار مركب خوفو" و"خطة طوارئ لإنقاذ مركب خوفو" و"المركب المتدهور" ولذلك أغلق المتحف فى وجه الزوار، وقال مختار: "إذا صنعت شيئًا بالطريقة الصحيحة فى البداية، لن تكون فى حاجة إلى إصلاحه".

كان لجمال مختار وجهات نظره المحددة بخصوص حفظ تراث مصر القديم، وكان هو وحبشى مشتركين فى اقتناعهما بالحاجة إلى تشجيع الإسهام الأجنبى فى الحفر والترميم". يظن الكثيرون من المصريين أنهم قادرون على القيام بذلك بمفردهم"، كما يقول حبشى، بينما يضيف جمال مختار:"إننا نحتاج إلى المساعدات المالية، ومن الناحية الفنية فإننا لم نصل بعد إلى مستوى الخبرة التى وصلت إليها بعض المنظمات الدولية ولذلك فإن علينا تشجيع المشروعات المشتركة. وإحدى الوسائل لذلك تنشيط الاهتمام العام بمصر القديمة، وكان ذلك عندما

قررت تنظيم معارض سياحية فى الخارج". كان مختار هو الذى طور فكرة أن الآثار المصرية لا تخص مصر فقط ولكنها تخص العالم أجمع، ونظم المعرض الأول لكنوز توت عنخ آمون بالخارج فى السبعينيات من القرن العشرين.

واجه مختار صعوبات كثيرة وهو يحاول وضع هيئة الآثار المصرية ***EAO*** على المسار الصحيح، واعترف بأنه هو نفسه وقع فى بعض الأخطاء فى التقدير. ومع علمه بالحال المتردية للعديد من المقابر بجبانة طيبة، منها على سبيل المثال مقبرة الملكة نفرتارى، فقد قام بدور فعال فى إقامة شراكة بين معهد جيتى للحفاظ على الآثار وهيئة الآثار المصرية للقيام بترميمها. وقام فريق عالمى من المتخصصين فى مجالات مختلفة بحملة مكثفة على مدى ست سنوات تضمنت تقريرًا عن حالتها وبالتحليلات والمعالجة الضرورية والمحافظة على الرسومات الجدارية غير العادية، "أحد الأهداف لأى جهد فى الترميم للمحافظة عليها هو المحافظة على تمامية الموقع التاريخية وبذلك فإن معالجة الرسومات الجدارية فى هذه الحالة كانت تقتصر على التدعيم والتنظيف"، "وكان تدريب القائمين بالترميم سواء من المحليين أو الأجانب، يعتبر جزءًا مهمًا من المشروع، أما الأساليب التشخيصية التى استخدمت فقد طبقت فيما بعد فى حفظ الرسومات الجدارية فى المواقع الأخرى... ولسوء الحظ، عندما تسلمنا منحة بمليون دولار من شخصية بارزة، وكان ينبغى تخصيصها لهذا المشروع، كنت خارج البلاد، عند عودتى كان ثلاثة أرباع التمويل قد خصص لمشروعات ثقافية أخرى! أما المبالغ الباقية فلم تكن كافية للمقبرة ولذلك كان لابد من تأجيل المشروع كله. استخدمت الأموال الباقية لتطوير مشروع الصوت والضوء بالكرنك وفيلة ولاستكمال متحف الأقصر الذى صممه محمود الحكيم" كان صديقى محمود محظوظًا فلولا إساءة استخدام التمويل الأصلى، فلربما لم ير متحفه النور".

شكل رقم ٦٦: رأس أمنحوتب الثالث المنحوت من الجرانيت، عثر عليه فى موقع معبده الجنائزى بمعرفة حبشي.

وكان حبشى مهتمًا اهتمامًا خاصًا بالمعبد الجنائزى الخاص بمقبرة أمنحوتب الثالث فى جبانة طيبة عندما أقام فى بيت شيكاغو فى مرحلة ما بعد النوبة. وكان تمثال ممنون الكبير ورفيقه، وهما التمثالان الهائلان اللذان شكلا فى وقت ما مدخل المعبد الضخم، يقومان على أرضية مستقرة بعد إكمال السد العالى، وعرف أنه للمرة الأولى منذ اكتساح المعبد نتيجة فيضان مرتفع بعد استكماله فى العصور القديمة كانت هناك فرصة للحفر بحثًا عنه. وبعد قيامة بعمل مسح موجز وجد رأسًا عظيمًا للملك أمنحوتب الثالث، هو الآن بمتحف الأقصر، ومعه آثار أخرى مختلفة تؤكد وجود الكثير مما يمكن الكشف عنه، وشجعت المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة على الاهتمام بالمنطقة.

وفى أوائل السبعينيات من القرن العشرين، أعاد حبشى إحياء سلسة المحاضرات التى كان سليم حسن قد بدأها فى تفتيش الأقصر وطاف بنفسه على القادمين إلى الأقصر حديثًا لإلقاء محاضرات حول مختلف الموضوعات. كان بينهم عدد من أصدقائه منهم كمال الملاخ، الذى أصبح المتحدث الرسمى لهيئة الآثار فى جريدة "الأهرام" اليومية، وأحمد فخرى الذى قدم عروضًا حية عن الواحات فى الصحراء الغربية، وحسن فتحى المهندس المعمارى الذى بنى قرية القرنة فوق جبانة طيبة، واستلهم فى بنائها منازل النوبة المبنية بالطوب المحروق فى الشمس، الذى تحدث أيضًا عن خطته لبناء قرية أخرى فى البجوات، ومحمود الحكيم المهندس المعمارى الرائد الذى رسم تخطيط أول متحف حديث لمصر وهو متحف الأقصر. ومن بين الذين حضروا المحاضرات من بين أصدقاء حبشى دوروثى إيدى (المعروفة بأم سيتى) وهانى زينى الذى تحدث عن طرق التجارة والمناجم فى الصحراء الشرقية. أما محاضرات حبشى نفسها فقد غطت مساحة كبيرة من المصريات والتاريخ والإدارة وتسجيل النصوص وعلاقات مصر بدول الجوار، والاكتشافات التى تحدث مصادفة والعمل الميدانى. "كان يأتى دائمًا بالأفكار الجديدة وقدم بكل تواضع عددًا لا يحصى من الأمثلة التى تدل على مواهبه" ويضيف زينى: "وكان اهتمام لبيب

بخصوص الحاجة إلى حماية الآثار أحد الأسباب التى جعلته هو وأم سيتى متفقين، كانت هناك لغة مشتركة بينهما وكانا على صلة بالماضى ولكن بأساليب مختلفة. كان أسلوبها روحيًا بينما كان أسلوبه أثريًا؛ وتعتبر دراساته عن التأليه أو رمسيس الثانى إسهامًا مهمًا فى مشكلة التقديس (حبشى ١٩٦٩) أما بحثه عن مراكز هذا الفرعون العسكرية التى أقامها فى الصحراء الغربية أثناء حكمه، فإنها تلقى ضوءًا جديدًا على السياسة العسكرية المصرية فى حياته. كان لبيب يتصل بى تليفونيًا فى نجع حمادى ويقول: "دعنا نقوم بزيارة مفاجئة إلى أم سيتى".

كانت دوروثى إيدى، من بلاك هيث بإنجلترا، مفتونة بمصر القديمة منذ صباها وقضت وقتًا طويلاً بين المجموعة المصرية فى المتحف البريطانى. كانت قد جاءت إلى مصر لأول مرة سنة ١٩٣٣ وتزوجت مصريًا اسمه إمام عبد المجيد ودرست الهيروغليفية فى متحف القاهرة وأطلقا على ابنهما اسم سيتى حسب رغبتها ومن ذلك الوقت أصبحت تدعى أم سيتى. استمر الزواج لمدة ثلاث سنوات وانتهى بالطلاق، ولكنها استطاعت خلال تلك الفترة أن تحسن من معرفتها بالهيروغليفية كما استطاعت بموهبتها فى الرسم أن تحصل على وظيفة رسام بهيئة الآثار، وكانت أول سيدة تعمل بهذه الوظيفة. "كانت أم سيتى دارسة جادة أكثر مما ذكرته عنها الصحافة الشعبية" ويقول زينى: "كانت عالمة آثار مصرية شديدة الكفاءة ومتمكنة. وكانت تقوم بتحرير النصوص وعمل الرسومات لموسوعة سليم حسن المكونة من عشرة مجلدات عن الحفائر فى الجيزة، وعندما تقاعد سليم حسن انتقلت هى وابنها إلى منزل صغير فى قرية نزلة السمان بالقرب من الهرم، وعملت مساعدة للعالم أحمد فخرى فى أبحاثه بدهشور؛ وعندما بدأ إدوارد غزولى العمل فى إعادة ترميم هرم سيتى فى أبيدوس سنة ١٩٥٦ كانت أم سيتى تساعده فى تصنيف قطع الأحجار وترجمة النصوص. استمر هذا العمل حتى سنة ١٩٥٩ عندما انتهت ميزانية غزولى، وكان عليها بعد ذلك أن تكافح لكى تدبر أمورها المعيشية.

كان معظم الأجانب الذين يعيشون فى مصر، وبخاصة الأمريكيين، يعتبرون أم سيتى حالة غريبة، لأنها كانت تعيش فى مبنى من الطوب اللبن فى أبيدوس وملابسها بسيطة وتأكل طعامًا رخيصًا. وكانت فى سنواتها الأخيرة تتخيل نفسها بنت رشيت ابنة جندى وبائع خضراوات فى عصر سيتى الأول"، واستمر زينى قائلاً:"كان عليك فقط أن تلاحظى أم سيتى وحبشى معًا لتعرفى كم كانت عالمة كبيرة. كانا يشكلان فريقًا رائعًا، كلاهما كان حجة فى دراسة المملكة الحديثة ولديهما حماسة كبيرة لذلك العصر، فكان لبيب يتحدث عن "رمسيس الحتمى"، ويصف آثاره فى أبو سمبل وأماكن أخرى فى النوبة السفلى، أما أم سيتى فتقول: "لاتستطيع أن تلوم رجلاً جسورًا ولديه عدد كبير من الناس الكسالى الذى يعملون من أجله. كانت مشاجراتهم لاتنتهى حول خايم وست ابن رمسيس الثانى الذى كانت أم سيتى تقول عنه، "كان مفتشًا للآثار مثلك"، ويضيف لبيب: "ولكن ليس بنفس المهارة". تقاطعه: "كان أفضل لأنه كان يهتم بالآثار فى كل مكان وليس فى مكان واحد مثلك!"

ويتذكر جمال مختار بتأثر:"كانت أم سيتى دائمًا على استعداد لتشجيع المفتشين المحليين ومساعدتهم فى كتابة تقاريرهم، وعندما تقاعدت رسميًا فى سن الخامسة والستين اهتموا بكيفية معيشتها ونشر لبيب كلمة عن حاجتها، واتصل بالأمريكيين فى بيت شيكاغو والأصدقاء الأغنياء وعلماء المصريات المتقاعدين بالقاهرة والإسكندرية، وفى كل شهر كان يجمع مبلغًا يسلمه بنفسه فى مظروف إلى المفتش المحلى المتجه إلى مصر العليا مع تعليمات بتوصيله أبيدوس مع مؤونة من الشاى والسكر والعسل، وكانت تلك هى المواد الوحيدة التى تقبلها". يقول مختار: "على الرغم من مرتبات المفتشين المتواضعة فإنهم كانوا يضعون أم سيتى فى مكانة رفيعة لدرجة أنهم كانوا يقدمون إسهامات منتظمة لإعالتها، وأما عطايا لبيب فكانت كريمة دائمًا".

وأخيرًا أفرجت هيئة الآثار عن مخطوط لبيب حبشى فى ١٩٧٥. ويقول فى ذلك: " أتذكر جيدًا ذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى مكتب جمال مختار ووجدته يبتسم ابتسامته الدافئة ويخرج حزمة من الأوراق البالية ويضعها أمامى، عندما رأيت العنوان المكتوب باليد وهو: "معبد هيكايب" لم أصدق عينى، وعندما بدأت أفحص النص أدركت المدى الذى بلغته فى تقدمى: بدت كتابتى باليد وطريقة العرض غير ناضجة، بعض الفصول كان لابد من أن يعاد تنظيمها، كما أن الكثير من النصوص كان يجب إعادة دراستها وتفصيلها، كما أن استنتاجاتى كانت ضعيفة. أخبرت قيصر باقتراحاتى للتحسينات ووافق عليها، ثم أخليت هذه الطاولة، قال ذلك مشيرًا إلى الطاولة فى غرفة الطعام الخاصة به، "وفردت مختلف فصول المخطوط على أحد طرفيها، والصور والرسومات على الطرف الآخر". وأضافت عطية قائلة: "كنا نخليها للاحتفالات فقط فيما بعد".

عمل حبشى على المخطوط حوالى عامين قبل عودته إلى إلفنتين. عند عودته واجه صدمة شديدة. لقد وجد المخزن مغلقًا ومنعوه من الدخول. وأكد جيرهارد هاينى مدير المعهد السويسرى الذى صحبه فى هذه الجولة ما يلى: "كان لبيب هائجًا وقيل لنا إن السبب هو الأمن ولكنها كانت إهانة واضحة، لقد ترك ذلك انطباعًا لديه بأن هناك شيئًا يريدون إخفاءه: ربما كانت هناك قطع مفقودة. (وإلا فلماذا عندما أعلنت الحكومة أن أى دارس حفر فى النوبة له حق دخول أى أثر أو متحف أو مخزن فى مصر عند طلبه، يغلق هذا الباب فى وجهى؟) متخليًا عن حرصه وهو غاضب، أفصح حبشى عن مخاوفه. "لقد ذهبت إلى هيئة الآثار وأبلغتهم بأننى أشك فى حدوث سرقة، وكتبت إلى جمال مختار للإذن رسميًا بالتفتيش على القطع الموجودة، فقام معى وصحبنى بنفسه إلى فيلة مع مجموعة من كبار المسئولين كان من بينهم هنرى رياض الذى كان يعرف القطع مثلى تمامًا، وعندما فتحنا المخزن وفحصنا محتوياته اكتشفنا ضياع اثنتى عشرة قطعة كان من بينها قطعة كنت أنا وجدتها فى أبريل سنة ١٩٤٦ وهى رأس تمثال من الجرانيت

الرمادى بارتفاع ١٦ سنتيمترًا وجدت فى خا - كاورى - سنب. كان الجزء الأمامى فقط من الرأس هو السليم، ولذلك لم يكن من الممكن تركيبه على جسم التمثال. أما الملامح فكانت منحوتة فى شكل جميل".

وفى النهاية اعترفت مصلحة الآثار بحدوث سرقة فى جزيرة إلفنتين، ولكن ذلك حدث فقط عندما لم يستطيعوا إخفاء الأمر، لأن قطعة وهى جزء من حائط يصف "والد الإله، أنخو ابن ميريستخ" ظهرت فى سوق القاهرة معروضة للبيع". وأضاف حبشى: "وقدمت قائمة بالقطع المفقودة وتم التحقيق ولكن لم تعد أية قطعة. ويوجد ضمن إحدى المجموعات الخاصة فى العالم الجزء الأعلى من تمثال جالس لرجل منحوت من الجرانيت الرمادى، ارتفاعه ٤٠ سنتيمترًا وهو كنز حقيقى. يرتدى ثوبًا طويلاً مربوطًا عند الوسط ملامحه مصورة بعناية، وأطراف الباروكة التى يرتديها مدببة، إننى أتذكره جيدًا".

وبعد وفاة حبشى فى ١٩٨٤ عندما كنت أنا وهنرى رياض نقوم بتصنيف بعض الصور الفوتوغرافية فى أرشيف حبشى ببيت شيكاغو استطاع أن يحدد رأس التمثال المفقود، قائلاً: إنه بقدر ما يتذكر أن السرقة قد حدثت خلال إجازة عيد الأضحى عندما تكون الحراسة متراخية. "كان قد تم عمل فتحات فى غرفة المخزن لوضع أجهزة تكييف الهواء ولذلك لم يكن من الصعب على اللصوص نزع الألواح الخشبية ليتمكنوا من الدخول".

وكرس حبشى على مدى عدة سنوات مفتشًا للآثار قدرًا كبيرًا من تفكيره لنهب المواقع الأثرية ذات الحراسة المتراخية وغرف المخازن، وكان يقلقه حجم النهب الذى يحدث بعد الحفائر. كان يزور المواقع أثناء الحفر وعندما كان يعود إليها أحيانًا بعد عدة سنوات، كان يرى مدى الدمار "كانت الفرق تحفر ثم لا توالى عناية كافية لحماية الآثار التى يكتشفونها. تجار الآثار على دراية تامة بالتقدير الذى يكنه العالم الغربى للقطع القديمة ولذلك لايمكن أن نلومهم لاستغلال ذلك، علماء الآثار كانوا يدلون اللصوص المحتملين على الأماكن التى توجد بها الكنوز.

دعينى أضيف إلى ذلك أيضًا أن فلندرز بترى الحفار البريطانى العظيم كان أحد كبار المذنبين، كان يشبه رمسيس الثانى تقريبًا من حيث إنه لم يترك موقعًا لم يمسه، لقد وضع يده على كل المواقع المهمة وأيضًا على بعض المواقع الأقل أهمية، وبعد أن يقضى فى العمل بكل موقع موسمًا أو موسمين يتركه ويمضى ثم يدخل صيادو الكنوز وينهبون المنطقة. وهناك أسطورة محلية عن "الخواجة بدرى" الطيب الذى كان يرشدهم أين يحفرون بالضبط". ظل حبشى طوال حياته مشغولاً بمشكلات سرقة الآثار القديمة "كان يتحدث عنها كما لو كانت ملكية خاصة له". كما قال زينى.

وصل نهب الآثار وتهريب التحف إلى الخارج إلى أعلى مستوى أثناء عمليات النوبة، حيث كان العديد من المواقع الأثرية فى مصر متروكًا دون حماية، فوجد اللصوص وتجار الآثار الفرصة سانحة، وكان يتم الحفر بمعرفة عصابات من العمال فى ضوء النهار ثم يجرى الشحن بالبحر إلى الخارج". وأخيرًا أصبحت الحكومة على وعى بالمشكلة واتخذت إجراءات صارمة ولكنها لم تكن كلها فعالة". كما قال حبشى: "تم اتخاذ قرار لاستيعاب القوة البشرية التى تم الاستغناء عنها بعد استكمال السد العالى لحراسة المواقع الأثرية".

وياله من قرار شنيع ! لم يكن لدى الأشخاص المعينين أى إحساس بقيمة ما يقومون بحراسته، وعلى أى حال فإن أجورهم كانت متدنية مما دفعهم للشعور بأن بلادهم كانت مدينة لهم بأكثر مما يحصلون عليه، هل يمكن أن تتخيل عملاً كريهًا أكثر من أن تحرس من يحتقرونك؟ كان العديد من النوبيين حراسًا شرفاء ورفضوا التدخل بينما كان آخرون سعداء جدًا للحصول على نقود إضافية بالسكوت إزاء ما يشاهدونه. كانت حلقة مفرغة. رجال الأمن استعدوا الحراس لأنهم هم أنفسهم كانوا يتعرضون للرشوة من تجار الآثار".

قرر لبيب حبشى أن يقدم ورقة بعنوان:"تخريب وسرقة الآثار المصرية فى نصف القرن الأخير" فى المؤتمر الدولى الأول للمصريات ***ICE*** الذى عقد سنة

١٩٧٦. أصيب زملاؤه المصريون بالذعر، وقالوا له فى غير تحفظ إن مثل هذه المصارحات المكشوفة ستقدم صورة قبيحة لمصر وعلم المصريات. "حاولوا بكل الطرق إثنائى عن تقديم الورقة، ولكننى لم يكن عندى نية التراجع. اتهمونى بأننى غير وطنى، وذكرونى بأن ذلك كان تجمعًا لخبراء من أنحاء العالم وأننى سوف ألحق العار ببلادى إذا ذكرت أنهم غير أكفاء. كان ردى أننا ينبغى ألا نخاف من أن نقول للأعمى أنت أعمى فى وجهه، وأن الوقت قد حان لأن تعترف الحكومة بهذه المشكلة كخطوة نحو حلها. ومما يؤسف له أن مسئولينا يعانون أعراض مرض النعامة، فما دام لا أحد يعرف بالأمر، فلا أحد مسئول أو متهم بالتقصير. قلت إنه قد حان الوقت لأن نستيقظ، كان موضوع التجارة غير القانونية والمحرمة فى الآثار يناقش على مستوى العالم، وقد حان الوقت لعرض حالة تخص مصر، وذكرتهم بأن سرقة المقابر كانت جريمة منظمة حتى فى أيام الفراعنة، ولكن عندما كان يتم القبض على اللصوص القدماء كانوا يحاكمون ويعاقبون. إن بردية أبوت وأمهيرست الشهيرة تقدم لنا تفاصيل عن ستين من الكهنة والموظفين بجبانة طيبة الذين قبض عليهم بتهمة التواطؤ فى انتهاك حرمة المقابر.

إذا كان النظام مطبقًا فى العصور القديمة واللصوص الخطيرون كانوا يقدمون للمحاكمة فإننى أرى ألا نكون أقل منهم بالنسبة للصوص المحدثين".

كانت القاعة مزدحمة أثناء محاضرة حبشى الصادمة التى ألقاها فى رباطة جأش. كانت الطرقات والممرات مزدحمة بمن جاؤوها متأخرين. وصف بعض المناطق المعروفة جيدًا المحمية نظريًا التى عانت بشدة من النهب، وأذهل المستمعين عندما ذكر الجيزة وممفيس ودندرة ودير المدينة من بينها. ودعا إلى تعاون أمناء المتاحف الأجنبية بالامتناع عن شراء القطع الأثرية قبل التأكد من وضعها مع السلطات المصرية، ودعا أيضًا هيئة الآثار للتأكد من أن المخازن مبنية جيدًا ومحروسة حراسة جيدة، وأكد الحاجة إلى التوثيق السليم". كيف تعرف أن هناك شيئًا مفقودًا إذا لم تكن على علم بما هو موجود أولاً؟" كما تساءل مستنكرًا.

وأعطى أمثلة وصفية لعمليات النهب والسرقة التى شهدها شخصيًا أثناء رحلاته وهو مفتش ذاكرًا البردى الذى سرق من الكاب وسقارة والأقصر وإسنا وإدفو. وقال: "لقد رأيت دارسين سويسريين وبولنديين أثناء تفتيش حقائبهم بحثًا عن الآثار المسروقة" وصرح قائلاً:"كنت فى سقارة عندما اختفت ٢٨٠ قطعة أثرية عندما كان الإنجليز يبحثون عن مقبرة إمحوتب، كما أن محطة السكة الحديد بالزقازيق سوق حقيقية لتجار الآثار المستخرجة من تل بسطة". وقال إنه وضع قائمة بكل الأماكن التى انتزعت آثار من جدران مقابرها، وذكر أن بعض جامعى التحف المعروفين يجب أن يوضعوا فى التصنيف بوصفهم لصوصًا خطرين "لأنهم يأتون إلى بلادنا للحصول على القطع التى لا تقدر بثمن عن طريق مقاولين يمارسون أعمالهم القذرة لصالحهم. إن الأجانب يتهموننا نحن المصريين بعدم القيام بالحراسة الكافية لتراثنا بينما بعضهم مذنب مثل المخربين أنفسهم.

بعد المحاضرة كان حبشى يتيه مختالاً وسط المديح "كنت سعيدًا لرؤية عدد كبير من زملائى المصريين بين الحضور حتى أولئك الذين حذرونى من قراءة ورقتى. كان انتصارًا حقيقيًا، صدقينى، لو أننى ألقيت هذه المحاضرة فى جمع غفير من المستمعين المصريين فقط لما نلت سوى النقد. وأضاف "شىء مضحك عن شعبنا فقط عندما يرون الأجانب يتجاوبون مع شىء فإنهم يتشجعون على المضى فى مواقفهم الإيجابية. هنأنى وليم كيلى سيمپسون وقال إن سوق الآثار المصرية المنهوبة وبخاصة فى أوروبا والولايات المتحدة واليابان ضخمة، وأن الحاجة ماسة إلى تغليظ العقوبات فى قانون الآثار. وقال إنه لو تم الإبلاغ السريع من هيئة الآثار المصرية عن القطع المسروقة إلى الإنتربول، فإن المتاحف فى جميع أنحاء العالم سوف تتردد قبل أن تقوم بالشراء".

ومن المثير للسخرية ألا يقوم المجلس الأعلى للآثار بتوثيق علاقته بالإنتربول، وسلطات الجمارك فى العالم، وهيئة استعادة الآثار المسروقة إلا فى التسعينيات أو بعد قرابة خمس عشرة سنة من محاضرة حبشى. ولم يحدث حتى

أبريل سنة ١٩٩٥ أى بعد مرور عشر سنوات على وفاة حبشى أن اعترف وزير الثقافة فاروق حسنى بأن أكثر من ثلاثمائة قطعة من الآثار قد سرقت، معظمها من المخازن، وهربت إلى الخارج منذ ١٩٦٩ (جريدة الإچيشيان جازيت بتاريخ ٤ أبريل ١٩٩٥) كما اعترف بأن المخازن الموجودة فى المواقع الأثرية لم يقم أحد بالتفتيش عليها منذ ٥٠ عامًا.

اليوم وبعد مرور ثلاثة وعشرين عامًا على وفاة حبشى هناك ما يدعو للسخرية فى الضجة المثارة حول استرداد قطع أثرية، بينما لا يذكَر شىء عن سرقات المقابر والمعابد التى نهبت منها. تصريحات مشكورة تبشر باستعادتها مع صمت عن الأحوال التى سهلت النهب فى المحل الأول. فى مايو ٢٠٠٣ اعترف رئيس شرطة السياحة والآثار اللواء كمال النجار بأن تهريب الآثار مازال مستمرًا، ولكنه قال إنه تم اتخاذ خطوات لوقف النزيف. "إن آثار مصر وكنوزها متناثرة فى منطقة واسعة ولا نستطيع تحديد مسارها". ثم قال:"تم الآن تعيين حراسة خاصة لتحل محل خفراء الليل الأميين، وبعض أفراد هذا الحرس من الشباب وغير مدربين وسيكون من الصعب عليهم مقاومة إغرائهم بقبول مبالغ نقدية من تجار الآثار. (الإچيشيان جازيت بتاريخ ١١ مايو ٢٠٠٣) ولم يكن النجار مبالغًا فى هذا القول. وحتى اليوم فإن القطع المسروقة من المواقع الأثرية والمخازن مازالت تهرب إلى خارج البلاد، ويظهر بعضها فى صالات المزادات حول العالم ولحسن الحظ فإن القليل منها يتم التعرف عليه من قبل علماء الآثار الذين يستخدمون الإنترنت وتعاد إلى مصر.

والآن كان حبشى يركز كل اهتمامه لتطوير مخطوط هيكل هيكايب والانتهاء منه، وشعر بالسعادة عندما أخبره ڤيصر بأن ديتر چوهانس مصور المعهد الألمانى سيقوم بتقييم كل الصور الفوتوغرافية الأصلية ويلتقط صورًا جديدة إذا استدعت الضرورة وأن التماثيل ستوضع مواصفاتها بمعرفة فريدريتش چنچ أستاذ تاريخ الفن، ولكنه شعر بالقلق عندما علم بأنه سيتم عمل مسح معمارى

للهيكل بمعرفة چيرهارد هاينى، وأنه سيتم تضمين تقريره فى النشرة كفصل مستقل "قلت لقيصر إنه من الصعب البدء فى عمل دراسة جديدة للموقع وآثاره". وأضاف حبشي: "لا! دعنى أكون أمينًا، لقد كان هذا الموقع من اكتشافى وكنت أريد أن أكون المؤلف الوحيد ولم أرغب أن يتعدى على عملى، انتظرت طويلاً بما فيه الكفاية وكنت مستعدًا لعمل أية مراجعات ضرورية وأضمنه كل التفصيلات الخاصة، بنتائج أى دراسات يجرى تنفيذها، ولكننى كنت أريد أن تكون جزءًا من عملى الخاص، أما فكرة عمل فصول عن التماثيل والعمارة يكتبها دارسون لم يشاركوا حتى فى الحفر، ولم يكونوا حتى موجودين فى أسوان فى ذلك الوقت فهى غير مقبولة". سبب قلقه الرئيسى، الذى ألمح إليه قليلاً، هو أن هاينى كان شديد الانتقاد للدارسين الذين أعطوا اهتمامًا طفيفًا للجوانب المعمارية للآثار. وكان هاينى يعتبر كل عنصر بمفرده فى حاجة إلى تسجيل دقيق لو تم فهمه فهمًا صحيحًا. ولكن مثل هذه المنهجية لم تكن موجودة على أيام حبشى، ولابد أنه أحس بالخوف على بعض استنتاجاته من أن يساء تقييمها على يد الدارس السويسرى.

"مارس قيصر الدبلوماسية لإقناعى بمزايا تضمين كتابى دراسات أخرى، وأننى لم يكن أمامى خيار. استطعت أن أجعله يوافق بأن المادة الإضافية ستقلل من أهمية عملى وأن الفصول الزائدة يمكن إضافتها فى آخر الكتاب قبل النتائج التى توصلت إليها، وأن تكون النصوص بالإنجليزية مثل بقية المخطوط."

الفصل الحادى عشر

امتلاك الزمام

كان لبيب حبشى غارقا فى مراجعة النص الخاص بهيكل هيكايب فى خريف ١٩٧٩ عندما اتصلت به لقراءة مراجعات كتابى الإرشادى عن سقارة وممفيس لإعداده لطبعة ثانية. استقبلنى بحرارة عند الباب ثم قادنى إلى غرفة المائدة. كانت المنضدة قد تناثرت عليها الصفحات المكتوبة على الآلة الكاتبة وملفات وصور فوتوغرافية وآلة كاتبة صغيرة ماركة أوليفتى شهدت أياما أفضل. ثم جلس وأشار إلى الكرسى الذى يجب أن أجلس عليه، ووضع ذراعيه فوق المنضدة وجمع بين إصبعى الإبهام وابتسم وقال: "والآن دعينا نرى ما يمكن أن يفعله لبيب حبشى من أجل جيل كامل". ونظرت إلى الرجل الضئيل الحجم البالغ من العمر سبعين عامًا والجالس إلى جانبى، وكان يبدو نحيلا أكثر مما كان عليه عندما رأيته آخر مرة فى بيت شيكاغو قبل عدة سنوات. كان قد مر بأزمة قلبية متوسطة فى ١٩٧٥ ولكن يبدو أنه تعافى. وكنا فى أحد أيام شهر أكتوبر التى يميل فيها الطقس للبرودة بشكل غير عادى، وكان لبيب مرتديًا غطاء للرأس من الصوف وقد جذب طرفه الأمامى على جبهته بزاوية مائلة وبلا سترة. وقلت إننى أقدر قراءته للنص الذى كتبته للتحقق من دقته تاريخيًا قبل إرساله إلى المطبعة، فنظر إلى وعلى وجهه علامات الارتباك وقال: "لقد جمع بيننا القدر فى النهاية، لقد فقدت أستاذك أبا بكر وأنا فقدت محرر أعمالى رولاند إليس، وبالتأكيد نستطيع أن نتعاون. ستتركين مخطوطك معى لكى أقرأه وفى مقابل ذلك سأطلب منك معروفا". ودفع نحوى نصًا مكتوبًا على الآلة الكاتبة وقال: "ستقومين بمراجعة اللغة الإنجليزية، هذا فصل معدل من هيكل هيكايب الذى اكتشفته وهو جاهز لكى يقوم المعهد الألمانى للآثار لإعادة كتابته على الآلة الكاتبة ثم طبعه". قلت له إننى لم أسمع أبدًا عن اكتشافه. قلت ذلك

لمجرد التأكد. فقال: ولكنك ستعرفينه ياصديقتى العزيزة. أما الآن فلنتناول بعض الشاى، سوف أحكى لك عن مؤتمر جرينوبل".

كان عائدًا لتوه من المؤتمر الدولى الثانى لعلماء المصريات الذى عقد فى فرنسا، وكان قد قدم فيه ورقة عن سلسلة من الحصون التى أقامها رمسيس الثانى على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكان بعض هذه الحصون قد تم اكتشافه قبل خمسة وعشرين عامًا وعندما ذهبت إلى الساحل الشمالى فى الشتاء الماضى مع محمد مرسى، وجدنا أن المحارب العظيم كان قد بنى مراكز عسكرية بطول الساحل من العلمين إلى الحدود الليبية. وكان رمسيس الثانى قد توقع متاعب من أهل البحر، وبفضل استراتيجيته لم تتعرض مصر للغزو أثناء حكمه. "ألا ترين أنه من المحزن أن إنجازات رمسيس الثانى كرجل بارع فى التكتيك الحربى قد أغفلت" ثم نظر إلى بحدة وأكمل: "لأن قدرته على إقامة الآثار العظيمة وإنجاب عدد كبير من الأبناء والبنات كانت بلا شك أكثر إثارة من الأمن الداخلى!". كان يختار ألفاظه بعناية مع المزاح والابتسام والاستمتاع بما أظهره من شدة الانتباه. وقال: "تعرفين رمسيس الثانى لم يضع ميلشيات محلية لحراسة المواقع الحدودية، وضع بعض النوبيين فى الشمال، وأرسل بعض القبائل من الدلتا إلى الجنوب، ووضع قبائل من غرب الدلتا فى الشرق وعشائر من شرق الدلتا للسيطرة على الغرب، وهى استراتيجية مازلنا نستخدمها إلى اليوم، حيث تضع حكومتنا الرشيدة حراسًا بعيدًا عن بيوتهم بقدر الإمكان ولذلك لا يستطيعون الهـرب لتنـاول وجبـة سـريعة أو الاستراحة قليلاً مع عائلاتهم. أليس غريبًا "أن تبنى مصر نصبًا تذكاريًا على ساحلها المطل على البحر الأبيض المتوسط لأجانب مثل رومل، وتهمل تخليد أبطالها؟" : (ليس من الواضح هنا من هم الأبطال الذين كان يقصدهم حبشى، ربما كان يقصد الوطنيين المصريين فى الربع الأول من القرن العشرين).

كنت قد حضرت بعض محاضرات حبشى، ولذلك كنت على وعى تام بما يقصده من تورية. ولكن الآن كنت أتذوق عبقريته فى ربطه الماضى بالحاضر. إنه

يعرف بلاده جيدًا. تحدث عن أشياء عديدة بعد ظهر ذلك اليوم بدءًا من التزييف إلى "الثورة الخضراء" عن التزييف قال إن من الأمور المحرجة أن يطلب من المرء إصدار حكم على عملية تزييف واضحة عندما يكون قد شارك كرم ضيافة أهل البيت. أما عن الثورة الخضراء، إخلاء مناطق واسعة من الأراضى من أجل التنمية الزراعيه، فقال: "إن خمسة وتسعين فى المائة من أرضنا تبدو كما لو كانت أرضًا خربة، ولكن هناك إمكانة تحويلها إلى أرض منتجة لإطعام جماهيرنا، ولذلك فإننا نتحرك فى الصحراء. ياله من تهديد مخيف للمواقع القديمة. نظريًا فإن مناطق التنمية يجب أن تتم عملية مسح لها من البداية للتأكد من أن الأرض خالية من الآثار، ولكن الحدث بالتأكيد أسرع من الحفر. الأفواه الجائعة لا تستطيع الانتظار، وعلـــى أيـــة حال فإنه لو تصادف ظهور قطع أثرية فإن كل واحد سيتظاهر بأنه لا يرى شيئًا، لأن الحكومة تريد للعمل أن يمضى بأسرع ما يمكن، والقرويون يكرهون تدخل علماء الآثار بنفس القدر الذى يكرهون به مسئولى الحكومة، أما اللصوص فإنهم على استعداد دائم لسرقة الآثار وعرضها فى السوق، إنهم يعرفون قيمتها ! "

على مدى السنوات الخمس التالية كنا نلتقى أسبوعيًا بانتظام، وعندما كان لبيب وزوجته يذهبان إلى الأقصر كل شتاء كنا نستكمل حديثنا كتابة، جلستنا الممتدة بعد ظهر أيام الاثنين فى هليوبوليس أخذت شكلا محددًا كان دائمًا يستقبلنى عند الباب، ويطلب من عطية إحضار الشاى أو مشروب بارد، يقودنى إلى غرفة الطعام ويشير إلى الكرسى الذى سأجلس عليه على رأس المنضدة ويجلس على يسارى. أما عطية التى كانت ترحب بزياراتى لأنها اجتماعية الطبع، لم يكن مسموحًا لها بأكثر من خمس أو عشر دقائق. كان بيتهما بقعة أثرية، وكان من الصعب تصنيف الحجرات لأن مكتبة حبشى تجاوزت مكان دراسته إلى الرواق ومنه إلى المدخل حتى وصلت إلى حجرة جلوس عطية التى كانت فى غاية النظافة والأناقة. وهناك إلى جانب الصور الفوتوغرافية العائلية كانت توجد دوسيهات

المذكرات، ومسودات النصوص، وصور المواقع الأثرية، والرسوم التخطيطية. كان يحتفظ بكثير من الأشياء التافهة، قطع دوبارة، حليات، بقايا وفضلات تملأ منافض السائر وبخاصة فى مكتبه حيث كانت تغطيها طبقة رقيقة من التراب، ويبدو أنه كان دائمًا يحشر الكتب فى كل مكان ويكوم الملفات والدوسيهات ونسخًا بالكربون من كتابات الآلة الكاتبة. وغير ذلك من الرسوم التخطيطية التى رسمت فى موقع العمل وبعضها كان ملقى على الكراسى أو على الأرض.

"غير مسموح لى بأن ألمس شيئًا فى هذه الحجرة". كانت عطية تقول من باب الاعتذار: "يجب ترك كل شىء كما هو تمامًا". أما بالنسبة لكل من يدخل المكتبة فلم يكن هناك أى مظهر للنظام. والحقيقة أنه لم يكن هناك مكان للجلوس، -كان ذلك سبب اختياره حجرة الطعام للعمل فى موضوع الهيكل- ولكن أسلوبه فى استعادة المعلومات كان ناجحًا. معرفة حبشى التى لا تبارى بالمواقع الأثرية فى كل أنحاء مصر، وقدرته على الربط بين المواد المتناثرة فى فوضى جعلت من السهل عليه تصنيفها، وبين جدرانه الأربعة كان بإمكانه أن يحدد مكان أى شىء يريده حتى المرجع الشديد الغموض أو المذكرة الميدانية. ولم يكن لديه نظام واضح للملفات: " إننى أعرف فقط أين أبحث عن الشىء". كما يقول.

وأنا أقرأ مخطوطه، ما كان يبدو فى البداية أنه عبارة عن وصف أكاديمى محلى للأضرحة وموائد القرابين والتماثيل وترجمات النصوص، كان يصبح مفهومًا بالتدريج. شعرحبشى بفهمى واهتمامى وبدأ فى تضخيم وصفه لهيكايب النبيل الذى ينتمى للمملكه القديمة وابنه سابنى وزوجته ميريت وكذلك حاكم المملكة الوسطى سيرنبوت "الذى كان يتمتع بثقة الفرعون". ثم أغمض عينيه وأمال رأسه إلى الخلف وراح يسرد نصوصًا طويلة كان يحفظها عن ظهر قلب. أما عن النبيل نبعنخ فقال: "كان رجلاً مذهلاً، ومخلصًا لسيده وعائلته وأصدقائه وبخاصة عازف الهارب الأعمى الخاص به "ثينيا". هل تعرفين أن نبعنخ أخذ ثينيا آ معه إلى أبيدوس عندما رقى وعين فى منصب فى تلك المدينة المقدسة؟! وكان الرجل

الأعمى وفيا حتى إنه ترك لوح تكريم للرجل النبيل يقول فيه: " كم أنت رزين فــى مــوضع خلــودك يا نبعنخ. أتمنى لك أن تحظى بنسيم الشمال العليل. إنه موسيقاره الذى يجعل اسمه مخلدًا... الموسيقار ثينيا... إنه يحب... أن يغنى لروحه (كا) كل يوم". وكان نبعنخ قد قام هو أيضًا بتكريم بواب منزله "متور"، وكاتب الخزانة "سنب" ومراقب حسابات الحبوب "سينى بيبى"، وشرح حبشى ذلك بقوله: "كان المسئول يريد أن يظهر تقديره لعمل تم إنجازه، لم يكن يمنح علاوة كما نفعل اليوم، كان يقيم لوحا عليه أسماء المكرمين ثم يستدعى الكهنة لكى يقدموا الطقوس من أجلهم بعد وفاتهم لكى تستمر أرواحهم الخالدة فى التمتع بالنعيم فى الحياة الأخرى. "

لقد سمعت مرارًا من أولئك الذين عرفوا حبشى أو عملوا معه أنه كان يتحدث عن قدماء المصريين كما لو كان يعرفهم شخصيًا ويتحمس لأفكارهم. لم يكن فى ذلك مبالغة. ومن حسن حظى أننى جئت إليه فى وقت كان عقله متجهًا نحو الماضى، عند مراجعة مخطوط اكتشاف حدث قبل أكثر من ثلاثين عامًا، كان يبدو وكأنه يعيش تلك الأيام مرة أخرى، قال ذات مرة:انظرى إلى ابتسامة ثينيا الدافئة "، قال ذلك وهو يلتقط صورة فوتوغرافية لتمثال عازف الهارب الأعمى. وفى مرة أخرى عندما صادف خطًا مرسومًا قال: " انظرى إلى ذلك السجل الرائع الذى على صخور الجرانيت فى سهيل، إنه يصور رجلين يواجه أحدهما الآخر، والنص يتخذ شكلاً حديثًا بينهما إنتف ملاحظ الأعمال يقول: " ليت بدنك (البا) يعيش ويتنفس مزورا بالبهجة". ويرد هيكايب عنخ رئيس الكهنة قائلاً: "ليت المؤن التى فى منطقة الشلالات والماء البارد الآتــى مــن إلفنتين يعطــى لك". والآن، ألا ترين أن هذا المخطوط يمثل سجلاً غير عادى للصداقة؟ هل هناك أكثر رقة من هذه اللمحة حيث يتمنى كلا الرجلين للآخر بعد الموت حياة مريحة إلى الأبد.؟"

سحرتنى مودته مثل شخصيات الدراما القديمة. أما اكتشافه الذى أعطانا مائة وخمسين تمثالاً من ضمنها ثمانية أضرحة كبيرة، وموائد للقرابين، وبعض أفخم

النماذج من تماثيل المملكة الوسطى التى عثر عليها حتى الآن، كل ذلك يلقى الضوء على الأعمال والعواطف الدينية لحكام ورؤساء كهنة فى إلفنتين وأدوار وزراء وموظفين وقادة الجيش أثناء احتلال النوبة وحياة الناس العاديين. "بعض هؤلاء الأشخاص كانوا معروفين من مناطق أخرى، ولكن عددًا كبيرًا لم يكن معروفًا حتى ذلك الحين" واستمر لبيب: "ويظل هيكايب نفسه، وهو نبيل من نبلاء المملكة القديمة شخصًا مبهمًا. لقد تم تكريمه فى حياته وتأليهه بمجرد موته، بقيت عقيدته حتى المملكة الوسطى عندما أعيد تجديد هيكله".

ووصف بالتفصيل السنوات الأربع التى قضاها فى إلفنتين، عرضًا، عندما كان يقتبس نصوصا قديمة، كان يشير إليها وهى على المنضدة، وكثيرًا ما كان يغمض عينيه ويستعيدها من الذاكرة. لقد وجدت نفسى فى موقف متفرد. كان لبيب يستعيد أحداث الماضى البعيد بوضوح كما لو كانت قد حدثت بالأمس. واحدًا واحدًا كان سكان إلفنتين القدماء يعودون إلى الأضواء، وعندما كنت أعمل على مخطوطه وأسأله كانت إجابته دائمًا سريعة وصريحة. لم أكن أقوم بتوجيهه، كان يشعر بما أريد أن أعرفه ويمدنى بالأجوبة قبل أن أطرح الأسئلة. كان وجهه يستجيب لإشعاع داخلى يشع فى كل مرة يعود فيها إلى الماضى، وعندما كنت أعلق على عمق فهمه للشخصيات القديمة كان يبتسم ويقول: " إنهم عائلتى كما تعرفين. "

كنت أدون ملاحظات خلال زياراتى الأسبوعية، وعندما تراكمت بدأت أدرك إمكاناتها الضخمة للسرد الأثرى. اقترحت الفكرة على حبشى وأبدى سعادته. جاءت إجابته السريعة: " سنطلق عليها اسم " هيكايب وهيكايب " فهل نمى اهتمامى بما كان فى ذهنى ؟ بدأت أطور ملاحظاتى، وفحص المسودات، وقدم تفاصيل إضافية. وعندما كان يذهب إلى الأقصر فى كل شتاء كنا نستكمل حوارنا بالرسائل، معظم رسائله كانت على الآلة الكاتبة وبعضها باليد، وكان الزملاء فى المعهد والدارسون فى بيت شيكاغو فى الأقصر ينقلون مراسلاتنا المتبادلة.

كنت شاهدة لعدة سنوات متوالية على العديد من جوانب شخصية لبيب حبشى. كان رجلاً شديد الاعتزاز بنفسه وطموحًا ولديه طاقة كبيرة على العمل، وكان مساره الوظيفى مليئًا بالنـــزاعات والخصومات والرعاية من الخبراء الأجانب والتمييز الأكاديمى والاجتماعى فى المجال المحلى. لقد تأثرت جدًا بعطفه وحنانه وكرمه وكان الفلاحون والعمال يلقون الترحيب فى بيته مثل المتخصصين والأصدقاء. كان الصغار والكبار يستمتعون بالوقت الذى يمنحه لهم. كانت النبضات المغناطيسية التى تشع منه تؤثر فى الناس. كان لديه درج ملىء بالهدايا بعضها مشترًى من الخارج، التى يقدمها للمصريين الذين يحبون المنتجات المستوردة، وحليات صغيرة وتذكارات ولوحات مصنوعة من القطن مزينة برسوم فرعونية للضيوف الأجانب،' إننى أجمع الهدايا أينما ذهبت وأحتفظ بها جاهزة، المؤكد أن الشخص المناسب ينال الهدية التى تناسبه! "زجاجة من عطر الآس "لميرتل" كان يقصد زوجة فيشر.

كانت تبهجه المرأة الجذابة، ويستمتع بالأحاديث الماجنة ويغازل بقدر، وبالقليل من المداعبة. ولكنه كان شديد المحافظة بطبيعته، وقد قال عنه جمال مختار "كان يحب النظر إلى المرأة الجميلة ويحب الاستماع إلى الفضائح، ولكنه كان ينتقد النساء الأجنبيات اللاتى يقمن علاقات". وكان قليلون من خارج دائرة أصدقائه وأقاربه المقربين هم الذين يعرفون أن حبشى كان رجلاً وربما يذهب إلى الكنيسة بانتظام،" حتى وهو فى سن تربو على الستين كان ينحنى ليقبل يد قسيس يمكن أن يكون فى سن ابنه" كما ذكر هانى زينى. وأنا نفسى سمعته وهو يؤنب زوجته ويطالبها بأن تهجر المسيحية الغربية التى تمارس فى الإسكندرية، وأن تعتنق العقيدة الأرثوذكسية. "وهناك رسالة من جاويجا كبنسكا من متحف وارسو بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٩٦ تذكر حقيقة أنه عندما فرضت الأحكام العرفية فى بولندا فى ديسمبر سنة ١٩٨١ نظم حبشى قداسًا فى كنيسة قبطية صغيرة خلف مدينة هابو، وأنه أيضًا فى مرات عديدة أيام الآحاد كان يدعو جميع البولنديين من البعثتين بالدير البحرى إلى الكنيسة وكان يشارك دائمًا... وكانت كبنسكا تقول: كان لبيب متعاطفًا جدًا مع بلادى".

شكل رقم ٦٧: لبيب حبشي مع قسيس فى دير المحرق.

عرفت ببطء أن شعور حبشى العميق بالإخلاص لبلده وشعبه كان يصاحبه شعورعميق بالظلم الذى عاناه بينهم، وليس ذلك لأنه كان يحمل ضغائن، فمن الواضح أنه كان يرى دائمًا أن العملية التى تتم أكبر من الأشخاص الذين يقومون بها، أكثر من مرة كان يوصف بأنه عقيم مهنيا، وكان ذلك يسبب له ألمًا شديدًا. لم يكن مستعدًا دائما لتبادل المعلومات الشخصية. فى البداية كان على أن ألتمسها منه، ولكن مع تعمق صداقتنا وثقتنا، أنفتح على جوانب حياته وإلا كانت قد مرت دون تسجيل. كانت لديه حاجة ملحة للإنجاز وعطش لمساعدة الناس. كان يقدم معلوماته وخبرته ونصيحته مجانًا إلى أى شخص يطلبها، وكان الطالبون كثيرين. لم يكن يكتفى بالإجابة عن سؤال أو الإشارة إلى مصدر ملائم، بل كان يصحب الطلبة والأصدقاء وحتى الأغراب إلى المكتبات والحفائر والآثار لإثبات نقطة معينة، كان له تأثير قوى على الجيل الأصغر. ولم يقدم التشجيع الكثير إلا لهؤلاء الذين لديهم استيعاب بطىء للحقائق. كان يجود بوقته ومعرفته، ويؤكد على أهمية التوثيق ويقدم فوائد خبرته الميدانية. وكان يقول: "إن مفتشى الآثار الذين نضجوا بعد الثورة المصرية لم يحظوا بالفرص التى حظى بها أبناء جيلى".

كثيرًا ما كان يجىء إلى حبشى هواة ممن لديهم أفكار شاذة لاختبار رد فعله إزاء عدد كبير من الموضوعات ابتداء من قوة الأهرام حتى كتاب فرويد عن: موسى والتوحيد ***Moses and Monotheism***. وفى مساء أحد أيام الاثنين وأثناء زيارتى الأسبوعية أطلق شخص سمين حسن الملبس ليست له جنسية محددة فكرة مبتكرة حول كيفية بناء الأهرام. فقال: "كانت الأحجار من إثيوبيا وحملها الفيضان إلى الجيزة".

كنت ألاحظ حبشى وهو ينصت فى صبر عندما كان الشخص يمضى فى حديثه لشرح فكرته اللامعقولة. فى البداية ظننت أنه صديق قديم وعرفت من بعض ملاحظات حبشى أنه لم يسبق لهما أن تقابلا من قبل. وفى مناسبة أخرى عندما جرت مقاطعتنا وأظهرت الضيق، ولما تكرر ذلك مرة أخرى مع طالب صغير

السن، قلت لحبشى إن هذه المقاطعات ليست سوى إضاعة لوقتنا معًا، فغشيت وجهه نظرة غضب عابرة، ثم وضع ذراعيه على المنضدة ونظر إلى نظرة مباشرة وقال: "هل لديك أية فكرة عن الدور المهم الذى لعبه الهواة فى تاريخ علم المصريات ياصديقتى العزيزة؟ إن ألفريد لوكاس الذى أعطانا أول دراسة شاملة عن المواد المصرية القديمة كان ابنًا لأحد صائغى الذهب الذى جاء إلى مصر فى بداية القرن الثامن عشر ليجمع الأحجار الكريمة والتحف ليبيعها فى الغرب. أما هوارد فايس وهو رجل عسكرى والمهندس جون بيرنج فقد حفرا فى الجيزة ودرسا الأهرام ما بين عامى ١٨٣٥، ١٨٣٧ ورغم أنهما استخدما البارود لشق طريقهما فى الأهرام، كانت خططهما ومقاييسهما ووصفهما هى الأساس لمعظم الدراسات عن الأهرام منذ ذلك الحين، ودعينا لاننسى أن هنرى أبوت الذى سميت على اسمه أشهر بردية عن التحقيقات مع لصوص المقابر فى أيام رمسيس التاسع، كان جندى خدمات لقائد إحدى السفن، وهجر سفينته فى الإسكندرية سنة ١٩٣٠".

بعد أن فهمت وجهة نظره اعتذرت بينما ابتسم هو، وقال فى لطف: "هناك الكثير الذى يجب أن نتعلمه، لماذا يتحتم أن يحتل المحترفون الميدان ؟ إن بعض الأفراد الذين يهتمون بمشاكل علم المصريات عقولهم غير مزدحمة بالكثير من المعلومات، وقد يرون الموضوعات المعقدة على نحو أوضح من أى دارس؛ وعلى أية حال " لماذا لا أكون كريمًا فيما يتعلق بوقتى. لقد كنت أنا نفسى أطلب المساعدة عندما كنت أعمل فى تل بسطة، كان دريوتون دائمًا مستعدًا لتقديم نصيحته القيمة وكذلك البروفيسير فيرمان الذى كنت أعتبره صديقًا وكان يسير مسافات طويلة لمشاهدة عملى وتقديم النصيحة لى، ثم كان جورج هيوز الذى ساعدنى عندما واجهت مشاكل فى بعض نصوصى مثل لوحة كاموس، وجون ويلسون وكلاوس باير وتشارلس نيمز وبيل هايز الذى تصادف أن كان لديه روح الدعابة. عندما أرسل إلى نسخة من كتابه: سكيبتر الثانى وكان يقول " كتاب ثقيل وجيد يفيد دائمًا مثل درجة الباب أو باقة الزهور. "ثم كان هناك أيضًا ألان جاردينر الذى كان رقيقًا

دائمًا، وكيللى سيمبسون الذى عرف بين زملائه بأسماء مثل: "الفتى العبقرى وسيرنى" وأيضًا جمال مختار... ماذا كان عساى أن أعمل دون مساعدة مثل هؤلاء الدارسين؟"

وبالتدريج مع تطور صداقتنا من الاحترام والتعاطف إلى الإخلاص العميق كان حبشى ينفتح على جوانب شديدة الخصوصية فى حياته. فبينما قال مبكرًا إنه كان يعتبر نفسه محظوظًا لأنه لم يصبح أستاذًا جامعيًا لأنه حينذاك ما كان ليجد الوقت للقيام بأبحاثه وتوثيق اكتشافاته، ها هو يعترف الآن بأنه نادم لأنه لم تكن لديه فرصة لمتابعة دراساته الأكاديمية. لم يكن ذلك بسبب افتقاره إلى الجهد، " إذا عدنا إلى أربعينيات القرن العشرين عندما كنت مفتشًا شابًا أقوم بتنفيذ العمل فى تل بسطة لحساب مصلحة الآثار بذلت جهدًا كبيرًا للبحث وتسجيل الموقع بالتفصيل وبدقة، كنت أعتقد أن ذلك سيجعلنى أحصل على درجة الدكتوراه، ولكنها رفضت باعتبارها غير مناسبة ربما لأنها لم تكن جزءًا من التوجه الفكرى الرئيسى الذى كان لغويا بالأساس فى تلك السنوات".

كان من المفهوم ضمنًا أن حكايتى المخططة عن اكتشاف حبشى لهيكل هيكايب كانت لن تصدر قبل أن يصدر المعهد الألمانى كتابه، ومن المثير حقًا أن حماسته لكتابى كانت تقوى وتضعف مع المضى فى كتابه هو، وعندما أرسل فصولاً من مخطوطه الذى أعيدت كتابته وعليه تصحيحاتى بالحبر إلى المعهد الألمانى أو عندما كنا نعمل حسب التغييرات التى أقترحها قيصر، كان متحمسًا لحكايتى ودارت بيننا مناقشات جيدة مستمرة. وفيما بعد، محبطًا بسبب التأخير غير المتوقع، كان يزيح مسودات كتابى جانبًا ويضع يده عليها ليبين أننى كنت أتقدم بسرعة أكثر من اللازم. وفيما بعد عندما دخل فى تناقضات خطيرة مع جيرهارد هاينى وبدأ يعبر عن قلق شديد عما إذا كان سيرى مخطوطه مطبوعًا، كان يشعر بالاكتئاب وفقد كل الاهتمام بقصتى".

كان لبيب حبشى يعيش فى عالمين. فى القاهرة كان يعمل على مخطوطه عن هيكايب فى شقته فى هليوبوليس، ويقضى صباح أيام عديدة كل أسبوع فى مكتبات المعهد الفرنسى والألمانى والسويسرى للآثار، ويزور مملكة عطية فى مقر عملها. أما بالنسبة لمصر العليا فكان يقيم فى بيت شيكاغو بالأقصر، حيث كان يدعوه المدير تشارلس نيمز لقضاء عدة أسابيع من كل فصل لاستكمال بحثه، والقيام بدور "المرجع" بالنسبة للبعثة، واستمر ذلك الارتباط موجودًا بلا انقطاع حتى وفاته. فى هذه السنوات الأخيرة من حياته قام حبشى بتنمية علاقتين وثيقتين مهنيًا وشخصيًا: إحداهما مع كنت ويكس الذى خلف بعد نيمز مديرًا للمسح المتعلق بكتابات التماثيل ونقوشها وذلك سنة ١٩٧٣. والأخرى مع مانفريد بيتاك مدير المعهد النمسوى للآثار الذى تأسس سنة ١٩٧١.

كان جيمس بريستيد هو مؤسس المعهد الشرقى فى العشرينيات من القرن العشرين وأعلن أن التزام الجيل الحالى من علماء المصريات (كانوا يسمون المستشرقين فى تلك الأيام) هو القيام بجهد شامل لإنقاذ المخزون الضخم من السجلات القديمة التى مازالت باقية فى مصر للأجيال القادمة. ولهذا الهدف وضع خطة طموحًا للمحافظة على ماتبقى من طيبة بتسجيل الآثار من خلال عمل صور طبق الأصل من النقوش المحفورة والمناظر الملونة والرسوم (كان أولها هو مشروع المسح، وسبعة آلاف متر من السطح المنقوش فوق المعبد الجنائزى لرمسيس الثالث فى مدينة هابو، وتلاه حفظ وترميم أربعة آثار أخرى رئيسية كان من بينها بيت الوالى فى النوبة) وطور بريستيد أسلوب التسجيل الذى أطلق عليه اسم أسلوب بيت شيكاغو المعروف بين علماء المصريات المصريين على مستوى العالم بدقته التى لا تبارى. وتقدم الصور الفوتوغرافية مرحلة أولى مهمة للتوثيق وتستعمل كقاعدة للرسومات الخطية التى قد تحمل تفاصيل الأعمال القديمة المحفورة بحيث تصبح أكثر وضوحًا من الجدران المحطمة نفسها، ثم يقوم ثلاثة فنانين يعملون كل الوقت بمقارنة المطبوعات بالسطح المنقوش نفسه، وفى بعض

الأحيان كانوا يتسلقون السلالم لكى يؤدوا هذا العمل، ويكتبون بالقلم الرصاص أية تفاصيل ضائعة ثم تكتب بالحبر بعد ذلك. وبعد مقارنة النصوص يقوم اثنان من الخطاطين المدربين فى علم المصريات بالعودة إلى المصدر الأصلى وهو الحائط نفسه لفحص التفاصيل وتتبع النقوش التى قد تكون قد أغفلت أو أسىء تفسيرها من قبل الفنان الأصلى، وفى النهاية وعندما يقر الفريق بدقة الرسومات يتم تحميض الصور لإظهارها فلا يتبقى إلا الرسومات التى تمت بالحبر. بالنسبة لمرحلة ما بعد النوبة كان لدى بيت شيكاغو فريق متخصص مكون من ١٠ أفراد وفريق مساعد مصرى مكون من ٢٢ فردًا.

كان حبشى يصف ببشاشة ما كان يطلق عليه اسم: زمن كنت ويكس. "كان كنت شخصية حركية، حوّل بيت شيكاغو من دير إلى سفارة".. "كان كل شىء يبدو مختلفًا عندما يكون هناك مع زوجته سوزان وطفليهما الرائعين، ويكس الذى كان عالم مصريات ميدانيًا وعالم أجناس بعض الوقت كان يبتسم لهذه الملحوظة التى أبداها حبشى". لم يكن من الصعب تغيير الجو العام لأن كثيرين من مديرى منزل شيكاغو السابقين كانوا من رجال الكهنوت. وقبل أن أصبح مـديرا كنت أدخـن أو أشرب قليلاً مع بعض اللقاءات الاجتماعية وحياة اجتماعية قليلة أو الاتصال بالفرق الأثرية الأخرى، التى تعمل فى الأقصر وكان من المعتاد أن أذهب إلى الفراش فى التاسعة مساءً. بتشجيع زوجته استطاع أن يحطم بعض العادات الروتينية، أفكار جديدة مثل بوفيه الغذاء فى الفناء المشمس، مشاهدة فيلم أسبوعيًا، وركوب الفلوكة وحضور حفلات فى مناسبات رأس السنة الجديدة، والزوار سـواء أكانوا دارسين أو من المقيمين فى الأقصر أو الأصدقاء هؤلاء جميعًا كانوا يقابلون بالترحاب لتناول كوب من الشاى أو وجبة غداء أو للعمل فى المكتبة". وعن طريق لبيب التقينا بعدد كبير من الناس المثيرين للاهتمام، وشهدت فترة العمل فى النوبة فى بيت شيكاغو أكبر فريق عمل، وكان جلوس ما يقرب من عشرين فردًا لتناول الغداء أمرًا غير مستغرب".

فيما بعد كانت عمادة وييكس لجامعة كاليفورنيا فى مشروع بيركلى على جبانة طيبة آسرة لحبشى على نحو خاص. بدأ المشروع فى سنة ١٩٧٨ وكانت المرحلة الأولى تتمثل فى رسم خريطة ثلاثية الأبعاد لوادى الملوك لاكتشاف المقابر "المفقودة" التى يزيد عددها على خمسين مقبرة. كان الرحالة قد عرفوها وكتبوا عنها فى القرن التاسع عشر ولكنها امتلأت فيما بعد بالرمال والأنقاض التى كان يجلبها الفيضان بعد سقوط الأمطار الغزيرة، "الآن كان يعاد اكتشافها وتوثيقها بشكل سليم للمرة الأولى منذ سنة ١٩١٩ عندما ضمنتها مصلحة الآثار الكتالوجات". واستمر حبشى: "كان المشروع يستلزم قياسات تفصيلية، وتسجيل كل المقابر المعروفة ومواقعها وتضاريسها الأرضية الثانوية التى يتم عمل خرائط لها بواسطة أحدث معدات المسح".

قام نفذ مانفريد بيتاك الذى يعتبر أحد أبرز الدارسين بدراسة للصور الفوتوغرافية للمنطقة حول تل الضبعة فى شرق الدلتا منذ سنة ١٩٦٦، وكانت منطقة اهتم بها حبشى طويلاً (*HABACHI 1954*). وعندما بدأ مشروع مشترك بين المعهد النمسوى للآثار وقسم المصريات التابع لجامعة فيينا بعد انتهاء عمليات إنقاذ النوبة، كان حبشى يتابعه بنشاط. "الموقع الدقيق لأفاريس عاصمة الهكسوس التى أصبحت بى رمسيس مقر إقامة الرعامسة، كان موضوعًا للمناقشات منذ مولد علم المصريات. " كانت هذه معروفة بوجود مواقع عديدة فى شرق الدلتا تمتد من هليوبوليس فى الجنوب إلى تانيس وبلوزيوم فى الشمال؛ وقد كرست وقتًا طويلاً على مدى سنوات طويلة لجمع المادة المتبقية المتناثرة هنا وهناك للتدليل على فكرتى التى مؤداها أن القريتين المتجاورتين فى خاتانا – قنطير كانتا الموقع الطبيعى للعاصمة أفاريس – بى رمسيس. ولكننى لم أكن قادرًا على إقناع الآخرين بوجهة نظرى، والآن، بفضل المعهد النمسوى للآثار سوف يحسم الأمر". نشر المعهد النمسوى للآثار كتاب حبشى بعد وفاته بسبعة عشر عامًا.(**Habachi, 2001**)
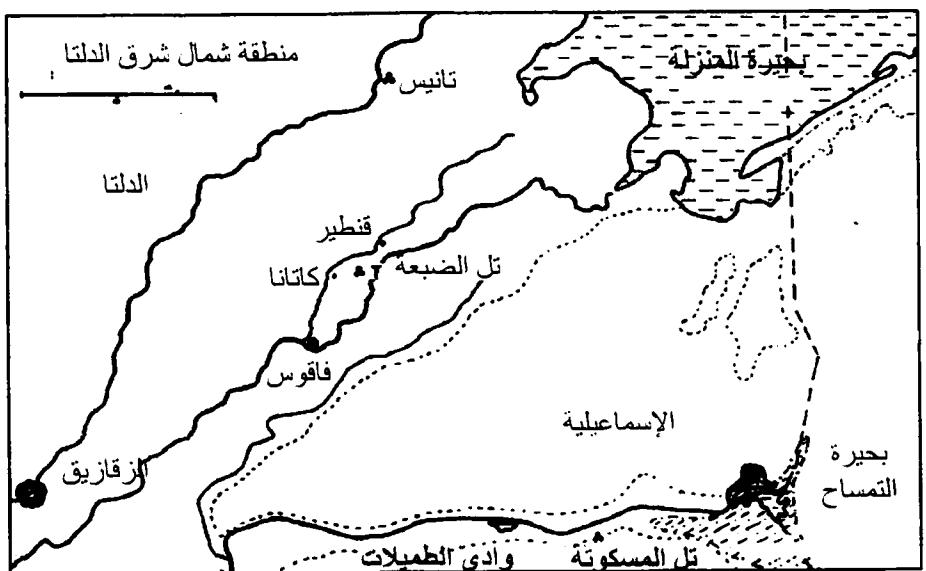
شكل رقم ٦٨: خريطة شرق الدلتا

دهش حبشى عندما ظهر دليل على وجود مدينة قديمة قامت على هضبة جنوب بحيرة كانت ميناء من خلال قناة من الفرع البيلوزى للنيل" أثبتت بعثة بيتاك أن تلك كانت منطقة استراتيجية مهمة على حدود مصر الشمالية الشرقية وكانت بمثابة وصلة مائية بالبحر الأبيض المتوسط". ثم قال حبشى: "وتم تتابع المراحل التالية من الاحتلال إلى بقايا عصر الرعامسة عندما انتشرت المدينة عبر تل الضبعة ليكون قلبها أبعد قليلا جهة الشمال عند قنطير. أكدت لبيتاك أننى سأبحث عن ملاحظاتى التى دونتها فى الأربعينيات من القرن العشرين عندما كنت مفتشا فى هذه المنطقة وأعدها لتضمينها دراسته عن المنطقة".

ومن الأمور ذات الأهمية أنه عندما كان حبشى على دراية بآخر أساليب الحفر والتسجيل وترميم الآثار كان ينتقد التخصص الضيق. كان يتحدث باستخفاف عن "الأخصائيين المتخصصين" الذين يقدمون دراسة مثلاً عن عـــادات تنـــاول الطعام عند سكان النيل القدامى اعتمادًا على بقايا تقدمات الطعام أو العظام فى مقابرهم، "ولكن يحصرون أنفسهم فى مجالات تخصصهم الضيق حتى أن الكثيرين منهم لا يستفيدون من مزية أنهم فى مصر ويقومون بالتجوال فى جميع أنحاء القطر". إن الدارسين العظماء الذين علمونى علم المصريات كان لديهم صورة شاملة عن مصر القديمة. لقد دخلوا إلى روح العالم القديم. هل نستطيع أن نقول ذلك عن دارسى اليوم؟ كم يعــرفون عن الأمور خارج مجال اهتماماتهم الخاصة؟ لا أقول إن أساليب اليوم خطأ، ولكننى أظن أن الدارس الأمريكى العظيم جون ويلسون كان هو الذى تفهم روح مصر القديمة وقدمها فى كتابه: عبء مصر ***The Burden of Egypt***.

لقد كتب تناقضا ظاهريًا، بمعنى أن زيادة المعرفة تجعل من الفهم أمرًا شديد الصعوبة.

لسنا فى حاجة إلى القول بأن إعجاب حبشى بجزيرة الفنتين لم يضعف أبدًا.

"وجدت بين النقوش على الجدران نقوشًا كثيرة تحمل بركات الآلهة الثلاثة الموجودة فى منطقة كتراكت وهى خنوم، وساتيس، وأنوكيس. هذه الآلهة الثلاثة جذبت اهتمامى لأنها كرمت فى هيكل هيكايب، وكانت العلاقة بينها قد وصفت خنوم بأنه الإله الرئيسى مع ساتيس وأنوكيس زوجتيه. ولكن لم يكن هناك أساس لتبرير ذلك. إله وله زوجتان، أعنى أن ذلك فى رأيى لا يتماشى مع التقليد المصرى. الأب والأم والطفل كانوا العائلة المثالية فى مصر القديمة، وهذا ما يؤكده الأدب والأسطورة، أنا واثق من أن ساتيس كانت زوجة خنوم الوحيدة وأن أنوكيس التى كانت توصف بأنها موزعة الماء البارد كانت ابنته"، ولأنه لم يكن الشخص الذى يترك مثل هذه الفكرة لتضيع، عاد حبشى إلى الملاحظات التى كتبها خلال زياراته العديدة إلى سهيل لدراسة النقوش التى دونها فى أيام شبابه. وجد فى أحد النقوش شكلين تظهر فيهما الإلهة أنوكيس واقفة أمام الفراعنة نفرحتب الأول وسنوسرت الثالث بالترتيب. "كل نقش تظهر فيه الإلهة باعتبارها المفضلة لدى أمها، أو حبيبة أمها". ثم قال: "لقد فحصت دليلاً وثائقيًا آخر ووجدت أن الصفة" المفضلة لدى" أو المحبوبة من أمها ظهرت فقط بعد اسم أنوكيس وليس ساتيس، هو ما يدل على أن كلتا الإلهتين كانت تتمتع بوضع مختلف عن الأخرى". كتب حبشى ملاحظاته الأخيرة وأعدها للطبع، وفيها قدم كدليل، لوحًا من منطقة كتراكت ذكر أنه معروف فى متحف برلين "كانت صلاة قدمت فيها القرابين إلى ساتيس سيدة الفنتين وإلى أنوكيس حبيبة أمها وإلى خنوم سيد منطقة كتراكت. وفيما بعد انتقدت دومنيك فالبيل نتائجى فى كتابها الذى يحمل عنوان: ساتيس وأنوكيس الصادر فى ١٩٨١، وادعت أننى قدمت افتراضاتى على أسس غير كافية لحل مشكلة دقيقة. ربما كان الأمر كذلك، ولكننى مازلت مقتنعًا بأننى كنت على صواب. لم تكن أنوكيس زوجة ثانية لخنوم، وإنما ابنته".

شكل رقم ٦٩: خرائب الفيلات الرومانية التى كشفت عنها الحفائر غرب معبد خنوم فى إلفنتين وتعتبر الآن متحفًا مكشوفًا.

حاول حبشى طوال حياته أن يصحح، كما أكدت له ملاحظاته وغريزته المدعومة بالبحث، وجهات النظر الخاطئة للدارسين الغربيين. وكان يضايقه اعتبار بعض النتائج التى يتوصل إليها بعيدة عن الموضوع. صراعه الفكرى الذى سيكون بينه وبين جيرارد هاينى، مثل ذلك مع فالبيل، كان يمثل الآراء المختلفة جذريا بين الدارسين من مختلف الأجيال. أولئك الذين كانوا يعملون فى مشروع إنقاذ النوبة لم يكونوا مستعدين لقبول نظرة أكثر اتساعًا لدارس مصرى عجوز.

وهناك فكرة كانت تدور فى ذهن حبشى لفترة طويلة بدأت تتبلور فى زياراته القليلة لأسوان، حيث كان يتابع مدى التقدم فى ترميم الآثار بمعرفة البعثة الألمانية السويسرية المشتركة فى ألفنتين، تصور تضمن هيكل هيكايب فى طريق سياحى مخطط. " كان من الممكن أن نترك بعض التماثيل فى مكانها فى الهيكل مثل تمثال زوسر فى سرداب الهرم المدرج على أن يقام ملجأ جديد فوق الهيكل مثل ذلك الذى أقيم حول تمثال رمسيس الثانى الضخم فى ميت رهينة. سيتيح ذلك رؤية الهيكل من شرفة محيطة دون تعرضه للخطر من قبل الزائرين. فكر فى ذلك. ستكون إلفنتين أحد المواقع الفريدة فى مصر: مكان معمور دائمًا منذ فترة ما قبل الأسرات إلى عصر البطالمة".

الفصل الثانى عشر

خــلاف مـهــنى

فى مرحلة متأخرة من مراحل مراجعة لبيب حبشى لمخطوطه عن هيكايب اقترح ورنر قيصر مدير المعهد الألمانى إعادة كتابة المقدمة لكى تتضمن خلفية تاريخية أكبر. وافق حبشى على المبدأ ولكنه وجد من الصعب عليه أن يركز فى العمل. صحته كانت أحد الأسباب، كان قد أصيب بنوبة قلبية ثانية فى ١٩٨٠. السبب الآخر كان الإحباط الذى أصابه بسبب جيرهارد هاينى، الدارس السويسرى، الذى كان يقوم بتنفيذ مسح أثرى للهيكل.

قال هاينى: "لقد قابلت التحدى بحماس، فقد كانت هناك أسباب عديدة مثيرة لاهتمامى ليس أقلها هو أننى كنت أريد بكل إخلاص أن أؤدى العمل الذى كان المدير السابق هيرمان ريكى قد تجاهله، وكذلك كنت حريصًا على تنفيذ العمل بسبب طبيعة الموقع نفسه. كان غير عادى، فهو لا يقع فى تصنيف عمارة المعابد المحددة والمحافظة، كان أمامى عمل معقد على نحو غير عادى "

تحدث هاينى معى باستفاضة فى هذا الموضوع خلال إحدى زياراته لمصر بعد تقاعده دعوته إلى شقتى، حيث جلس فى حالة هدوء واسترخاء يصف لى عمله وملاحظاته. "كان لبيب حفارًا نموذجيا بالنسبة لجيله، ربما أضيف أن اكتشافه هو أحد الاكتشافات التى يوجد لدينا لها أفضل توثيق فى الأربعينيات. لقد وجدت قطعة واحدة فقط من الحجر غير منقوشة وقد وضعت مقلوبة. إنه سجل جيد. ومع ذلك فإن معظم المادة الموجودة تم تجاهلها فى حينها، ثم دمرت جزئيًا أو كليًا خلال السنوات المتتالية. إننى أعود إلى موقع أجزاء التماثيل، أهمية المواقع التى أعيد

فيها استخدام هذه القطع، والشكل أو العلامة على كل قطعة من الأحجار لا تحمل نقوشًا أو حتى طبقات النفايات المتروكة فى ركن البناء. وكان ذلك لايعنى أنه حتى فى مرحلة متأخرة فإن دراسة النقش الهندسى للهيكل لا تعد بأنها ستكون مفيدة. وبلا شك فإنها ستؤدى إلى نظرة أعمق بالنسبة للتغيرات المتتالية فى بنية المنشآت للدولة الوسطى، كذلك فإن وضع الآثار الأكبر فى مختلف مراحل تاريخها سيتيح فهمًا أكبر لوظيفتها"، تعطل عملى بسبب سقف كان قد بنى فوق حائط من الطين لحماية الأثر واختفت بعد ذلك كانت مهمة جدًا بالنسبة لدراستى، ولم أفكر فى إزالة السقف فى تلك المرحلة، لأننى لم أكن أريد أن أعرض الأثر للعوامل الجوية وثانيًا لأن ذلك كان يمكن أن يؤدى إلى دمار المبنى الأصلى.
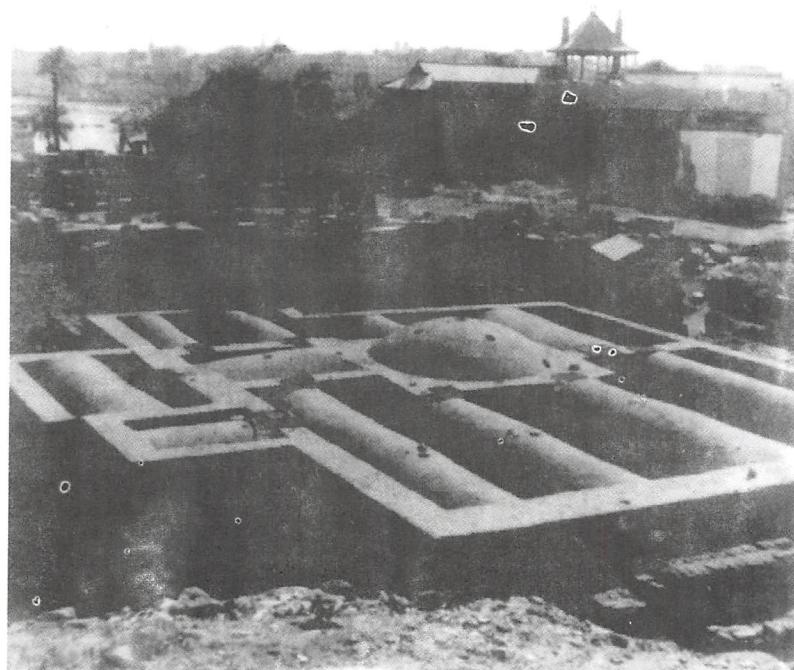
شكل رقم ٧٠: القباب الواقية المبنية فوق هيكل هيكايب بعد حفره وترميمه فى ١٩٤٦.

وشرح هاينى كيف أنه: "فى وقت حبشى كان العمل الميدانى فى الآثار مركزًا على المعابد المبنية بالأحجار والآثار الجنائزية بما تشتمل عليه من زخارف غنية وثروة من النقوش كان يعتقد أنها تمثل الحضارة الفرعونية "خلال العقود الأخيرة عرف علماء المصريات أن هذه المعالم كانت تمثل عنصرًا واحدًا من عناصر حقيقة مصر القديمة. قبل ٣٠ عامًا كان يعتقد أن حفر المدن ومواقع الاستقرار شىء غير ضرورى لفهمنا للثقافة القديمة، لكن ذلك هو ما يهمنا اليوم. كانت تلك أولى أخطاء جيرهارد هاينى: افتراضه أن عقلية لبيب حبشى كعالم مصريات كانت قديمة لأنه ينتمى إلى جيل قديم.

قال هاينى: "إنه قضي "وقتًا صعبًا "مع "هيكل لبيب" لعدة أسباب: "منها أننى لم أستطع أن أصل إلى كل الصور الفوتوغرافية التى التقطت أثناء حفرياته، لأن الكثير منها كان قد تم تسليمه إلى مصلحة الآثار مع المخطوط الأصلى وكان من الصعب أن نعرف مكانه. " والحقيقة أن العديد من الصور الفوتوغرافية الأصلية التى يضمنها هذا الكتاب وجدت فى مكتبة حبشى بعد وفاته، وهى موجودة الآن فى أرشيف لبيب حبشى فى بيت شيكاغو فى الأقصر، ثم زاد تعقيد الأمور أن بعض الحوائط التى تظهر فى إحدى الصور لم تكن موجودة فى أية صورة أخرى، كان من الصعب أن تتخيل كيف كان يبدو الأثر فى كل مرحلة من مراحل تطويره، لأن الأضرحة التى اكتشفت فى الهيكل لم تكن كلها هناك فى وقت واحد. كان ذلك هو العمل الذى كرست نفسى له ببطء، للوصول إلى قلب البصلة دون تقشيرها، والحفار الممتاز ليس هو الذى يعرف كيف يجد أفضل القطع الأثرية – فتلك مسألة حظ – ولكنه ذلك الذى يفيد من الشىء ومن الدليل الذى يقابله على أفضل وجه. لذلك يجب أن يكون المرء مستعدًا لقبول كل ما يصادفه ويتعامل معه.

وهناك مشكلة أخرى قابلها هاينى وهى أن مصور المعهد الألمانى كان عالم مصريات وليس مهندسًا معماريًا، وأن الصور الفوتوغرافية للقطع المكتشفة والنقوش التى جمعت عن نفس القطعة كانت مقطوعة عند نفس النقطة التى كان

ينبغى أن تكون المعالم المعمارية واضحة فيها. "لم يقم جوهان بتصوير المساحات غير المنقوشة فى جوانب النصوص أو تلك الأجزاء التى تبين كيف وأين يتناسب تركيب قطعة من الحجر مع قطعة أخرى كما شرح هاينى. ولكن مثل هذا الدليل كان أساسيا بالنسبة لفهمى للهيكل. إن المكتوب على الحائط من الممكن أن يكون نصًا مغتصبًا أو نقشًا قديمًا معادًا أو حتى نصًا أصليًا ولكن آثار الأداة التى استخدمها العامل ليس لها قيمة دعائية ولا مع النقوش دافع نهائى. مثل هذه الآثار حقيقى. بالنسبة للآثار المعمارية نحن نحتاج إلى أكثر من مجرد جزء من كتلة مع النقوش، نحتاج إلى الكتلة بكاملها بما فيها الإفريز وجميع العناصر والملحقات حتى نستطيع أن نضعها فى مكانها. إن علم الآثار الحديث يتطلب تسجيل كل مرحلة من عملية الحفر بدقة حتى يستطيع الدارسون فى المستقبل أن يعودوا إلى السجل المكتوب ويدرسوا كل ما يتعلق بالموقع المطلوب. فى أربعينيات القرن العشرين كان يتم التخلى عن الدليل أو تجاهله وهو ما يعتقد أنه مهم الآن. إعادة حفر الواقع يكشف عن حقائق جديدة".

شرح هاينى أن مهمته الأولى كانت دراسة العناصر المعمارية للهيكل المنسوب إلى سيرنبوت الأول حاكم المملكة. "كان من الضرورى تحديد المواقع الأصلية للعديد من الأضرحة والآثار وأيضًا تعريف الأشياء الأخرى المرتبطة بها بالضرورة، وقد بدأت هذا العمل بالتعاون الوثيق مع لبيب، وأوضحت له أنه على الرغم من أن سيرنبوت ربما يكون قد توقع أن يقوم نسله وخلفاؤه بمواصلة عقيدة هيكايب ولم يتوقع أن يضعوا تماثيلهم أو يبنوها فى المنطقة المقدسة، وتوقعت أن تكون هذه الإضافات الأخيرة قد شغلت فراغًا استخدم لغرض آخر، أو أنها قد أقيمت فوق الأرض لم تلحق بحرم الهيكل، ونبهته إلى أننى سأضع فى اعتبارى مثل هذه الاحتمالات وتفهم هو ذلك".

قال هاينى إنه فى البداية تعرف على آثار سيرنبوت الأول بما فيها إعادة بناء مفترضة للأماكن الأصلية للألواح الأربعة المنسوبة إليه. "ثم مضيت لأعطى اهتمامًا للإضافات الأولى إلى الهيكل فى عصر سيرنبوت الثانى، وقمت بعمل مسح

للإضافات اللاحقة، وهى التى بنيت حول الموقع عكس اتجاه حركة عقرب الساعة، وعندما وصلت فى النهاية إلى الحجرات الموجودة فى الركن الجنوبى الشرقى للهيكل وهو القسم الذى وجد فيه حبشى القطع الأولى، اكتشفت أنها ليست إضافات متأخرة إلى الأثر الذى يعود إلى الدولة الوسطى كما كان متوقعًا. ولكن يبدو أنها سابقة عليها تاريخيا".

أدى المزيد من دراسة العناصر المعمارية الباقية بهاينى إلى نتيجتين متوقعتين: "الأولى التى رفضتها كانت أن هذه المنطقة إلى الجنوب كانت هى المكان الذى تم وصفه فى نقش سيرنبوت بأنه "غرفة الكهنة "و "مكان الشرب بالنسبة لجزيرة إلفنتين "والثانية كانت بعيدة ولكنها تستحق الاعتبار: "وهى أن المدخل القريب من الركن الجنوبى الشرقى من الحرم وهو الباب الخلفى المفترض، كان يومًا ما المدخل الأصلى للهيكل". وعندما ناقش هاينى هذه الافتراضات مع حبشى وجد نفسه أمام حائط مصمت.

قال حبشى: "إنه يغير رأيه باستمرار. ففى البداية يصف المدخل إلى هيكل هيكايب هنا.... ثم هناك ! والآن يقول إن الألواح الأربعة الكبيرة لم تكن منصوبة حيث وجدت، ويدعى أنها كانت تشكل زوجين، وأنا أوافقه على ذلك ولكنه يقول إن الزوج الأول منهما كان موضوعًا فى الأصل فى المنطقة الصغيرة التى يحددها الضريحان الأولان اللذان يخصان سيرنبوت الأول، وهيكايب فى جهة الشرق، ثم تم تحريكهما بمعرفة سيرنبوت الثانى عندما قرر أن يقيم ضريحًا لتكريم والده خيما. هاينى يخرج باستمرار باقتراحات عن مكان إقامتهما ولكنه يعترف بأنه لا يوجد دليل. إنه يصر على نظريته ولكنه يعترف بأنها لا يمكن إثباتها دون دليل ويتخيل أن هذه الآثار الضخمة يمكن تحريكها مثل قطع الأثاث، إنه يغفل النقطة كلها فالهيكل بنى لتكريم بيبى نخت هيكايب بمعرفة حاكم من إلفنتين يدعى أنه من نسله، والذى قام خلفاؤه أيضًا بعمل إضافات كبيرة للهيكل، ولكن دعنا نتذكر أن كل

جيل كرم ذكرى الرجل نفسه، وأن نصوص الألواح الأربعة تشير إلى أن الآثار والطقوس التى يجرى تنفيذها كانت كلها باسم ذلك الرجل العظيم".

ومن الغريب جدًا أن حبشى عندما كان يقوم بإعادة كتابة المقدمة، بدأ يتساءل بجدية عن طبيعة عقيدة هيكايب" كان بيبى نخت بلا شك إداريًا كفئًا ومحبوبًا كما كان قائدًا عسكريًا له سمعة طيبة، وكنت مقتنعًا فى البداية بأنه كان قد جرى تكريمه بسبب شجاعته ولكننى الآن لست متأكدًا من افتراضى الأصلى. أحد الأسباب هو أننى افترضت سابقًا أن هيكايب كان محاربًا بارزًا إلا أنه على الرغم من ثقة الفرعون فيه بإرساله فى بعثات خطرة، هل نحن متأكدون من ذلك ؟ إن اسمه هيكايب أو "ذو القلب القوى" يعنى الشجاعة والتحكم فى النفس، ولكن الدليل الذى فى الهيكل لا يدعم فكرة البطل العسكرى. من بين ما يزيد على مائة قطعة أثرية وجدناها فإن واحدة تخص شخصًا اسمه "كاكو" كانت تشير إلى "المحارب هيكايب" والثانية كانت ضابطًا عسكريا يدعى سينبيبو لتكريم هيكايب. ليس سجلا جيدًا!"

واستمر حبشى قائلاً: " على أية حال فإن قدماء المصريين لم يكونوا محبين للحروب، صحيح أنهم خاضوا معارك لحماية طرق التجارة، وأنهم ردوا عسكريًا على الفوضى الاجتماعية حتى دون عدوان ولكن أعمالهم الأدبية تفصح عن روح غير عدوانية. انظر ما الذى كان أطفال المدارس يكلفون بكتابته: حكم قديمة، وقصائد شعرية، وقصص. لا يوجد مديح كبير للقوة البدنية. "

عندما ننظر إلى ملاحظة حبشى الثانية يجب أن نتذكر أنه كان حينذاك فى منتصف السبعينيات من عمره ولم تكن صحته جيدة. "ربما كانت العقيدة لها علاقة بحقيقة أن حياة هيكايب كانت طويلة جدًا، وكان السن محل احترام كبير فى مصر فى العصور القديمة كما هو اليوم. لا يوجد دليل على عمر هيكايب عندما مات وإن كان هناك كثير من الإشارات فى الهيكل إلى "الرجل المسن".
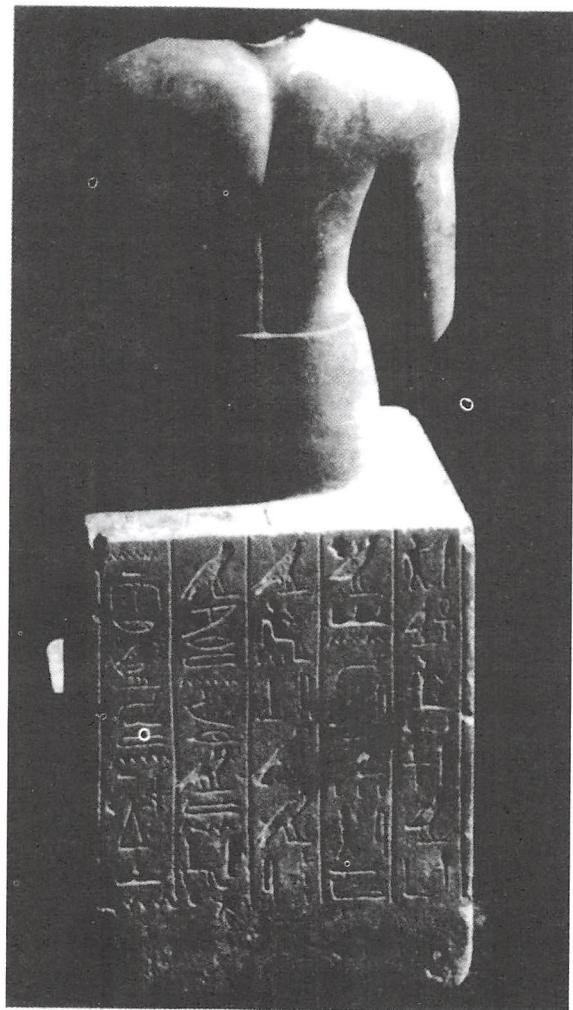
شكل رقم ٧١: تمثال من الحجر الجيرى لضابط عسكرى هو سنبيبو مع نقش مدون بعناية.

"ومن المحتمل أيضًا أنه يوجد عنصر فى اسم سيرنبوت ***rnpwti*** يمكن أن يعنى "ابن السنين" أو "ابنه لسنوات عديدة". وهو ماقد يكون إشارة إلى " هيكايب".

ومضى حبشى قائلاً: "إلا أن العمر وحده ليس سببًا كافيًا للتأليه، والحقيقة هى أننى كلما فكرت فيه مدة أطول وجدت أن وزن الدليل فى صالح الرجل الذى ليس له عزوة (نسب) ولم يفعل أكثر مما فعله غيره، ويبدو لى أن هيكايب كان يمثل القليل من كل شىء : فهو قائد رحيم ومحسن، لديه القدرة على رد العدوان بالعدوان وأنه قد عاش طويلاً. بمعنى أنه يمثل حياة، مليئة بالإنجازات وجسد قيم مرحلة كاملة.

واستمر حبشى: "حقًا.. لقد كان الأمر كذلك. لقد نال الكثيرون من الأفراد فى مصر القديمة التقدير عن إنجازات ظهرت على مراحل، مينا، على سبيل المثال، هو المعروف بموحد القطرين، ولكن التوحيد لم يكن نتيجة معركة واحدة منتصرة، كانت عملية بطيئة استمرت أكثر من قرن. عندك مثلاً أمنمحات الثالث الذى يعتبر أعظم ملوك المملكة الوسطى، وذلك فقط لأنه حصد فوائد كل المشاريع التى فكر فيها ويراها الذين سبقوه، ربما يكون بيبى نخت هيكايب آخر أوصياء البوابة الجنوبية تحت حكم بيببى الثانى، آخر عظماء الملوك فى المملكة القديمة، والذى عاش هو نفسه إلى الرابعة والتسعين من العمر "، وتمهل حبشى ثم أضاف: "إننى أستغرب ما إذا كان بيببى وحاكمه على إلفنتين كانا يعرفان أحدهما الآخر "، فى سنة ١٩٨١ وجدت شظية من الحجر فى جزيرة إلفنتين يظهر فيها بيببى الثانى يحتفل بيوبيله، وكان حبشى سعيدًا.

مشغولاً بهذه الأفكار، كان حبشى قلقًا عندما استمر هاينى فى تساؤله عن موقع مدخل الهيكل فقال: "لقد جرت بيننا مناقشات عديدة، حتى عندما كنت أعتقد أننى أقنعته بأن سيرينبوت بنى الباب الغربى للهيكل حيث وجدت خرائب مبنى من الأعمدة وزعم أنه كان هناك مدخل أقدم يقع على خط متواز مع هيكلى سيرينبوت الأول وهيكايب وأنا ببساطة لا أتفق معه".
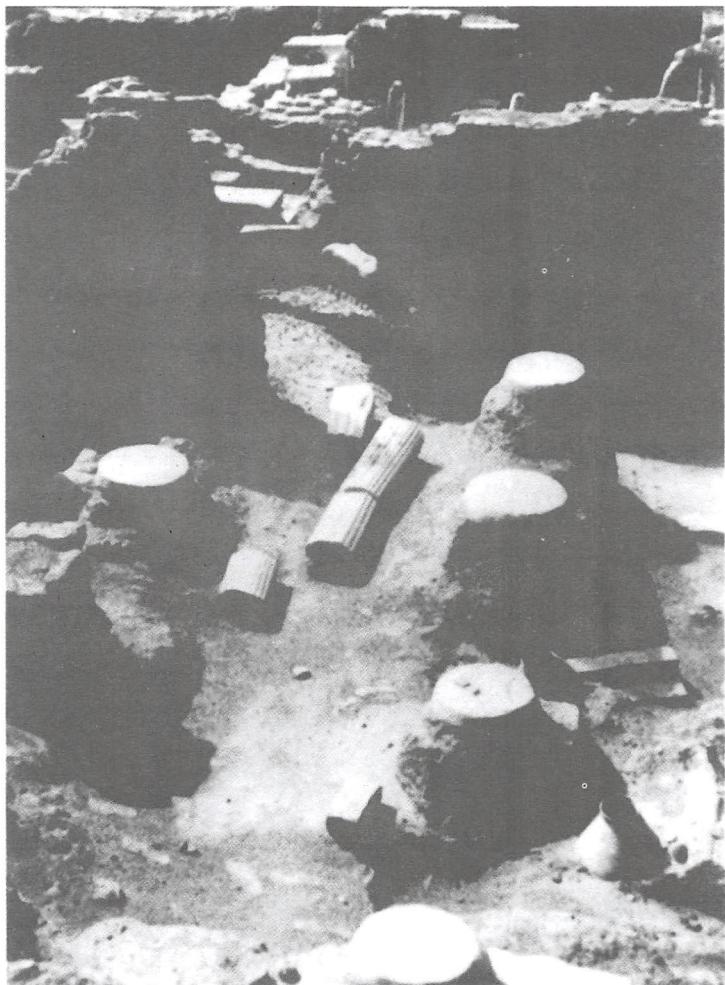
شكل رقم ٧٢: خرائب مبنى قائم على أعمدة وجد مقابل المدخل الغربي للهيكل.

منتقدًا حبشى، قال هاينى: "بالنسبة لحبشى فإنه قد وصف الموقع كما لو أنه كان قد صمم كما تم العثور عليه من البداية ولم يكن الأمر كذلك، بالإضافة إلى أنه أطلق على كل غرفة محاطة جزئيا بجدران اسم هيكل صغير بينما الهياكل الحقيقية لم تكن كثيرة كما ذكر".

رد حبشى بسرعة: "إنها مسألة ألفاظ، ولا تهم الأسماء التى نطلقها عليها، والمهم وظيفتها، سبب بناء الآثار والهدف الذى استخدمت فيه، انظر إلى قاعه عبادة هيكايب فوق قبة الهواء، عندما افتتحت أرض الدفن الخاصة بكبار المسئولين فيما بعد لدفن غير النبلاء كما نعرف كانت فقط مسألة وقت قبل أن تمتلئ المساحة المخصصة بالقرب من قاعة عبادة بيبى نخت هيكايب وكان لابد من وجود أرض جديدة للدفن. كان ذلك عند تولى مركز العبادة من المكان الذى دفن فيه هيكايب إلى المكان الذى عاش فيه، فى إلفنتين. وعندما بدأت العمل فى النصوص التى فى الهيكل لاحظت إشارات كثيرة إلى منزله، ولكن مغزى ذلك لم يتضح لى حتى بدأت البعثة الألمانية العمل فى إلفنتين سنة ١٩٨٤ واكتشفت مبنى من الطوب المجفف فى الشمس فى طبقات المملكة القديمة، وجدوا لوحًا خشبيا طويلاً يحمل نقشا بارزًا عن هيكايب وزوجته ومسئولين وكان بعضهم يحمل نفس الأسماء المنقوشة فى قاعة العبادة على قبة الهواء، لاشك أنــه كان منزل هيكايب وقــد تــم إغلاقه بعد وفاته بواسطة عائلته أو السكان المحليين، وتحول بعد ذلك إلى ضريح".

وعيناه مركزتان على المسافة المتوسطة واصل حبشى:" وفى آخر الأمر تعرض هذا البيت لعوادى الأيام، وربما يكون قد أهمل خلال الفورات السياسية فى الفترة المتوسطة الأولى وتم تخريبه، ولكن ذكرى هيكايب، استمرت، ونحن نعرف ذلك لأن حكام طيبة الأقوياء عندما استطاعوا إعادة توحيد البلاد بعد قرن من الفوضى، استعاد إنتف الثالث المكان المقدس. أما العارضة الأفقية القريبة من المدخل الغربى للهيكل التى وجدت خلال الأيام الأخيرة للحفائر فكانت منقوشة

بنص وصف نفسه فيه بأنه "صانع الجمال الذى أعاد هذا الأثر إلى هذا النبيل بعد أن وصل إلى حد الخراب". والحقيقة أنه لا يوجد على القطعة الباقية ما يدل على ذلك النبيل، ولكننى لم أشك أبدًا فى أنه كان هيكايب. "

رفض هاينى وضع الاحتمال السابق فى الاعتبار " يظن أن هذه العارضة التى أعيد وضعها فوق البوابة التى أعيد بناؤها كان فى الأصل جزءًا من باب تمويه كانت القرابين تودع الهيكايب أمامه، حيث كان يوجد تمثال له فى حنية باب أو فى نقش بارز محفور على الباب المغلق، فكيف أتفق معه وهو لا يستطيع حتى أن يجيب عن سؤال عن كيفية بقاء الكتلة كل هذه السنوات الطويلة قبل إعادة استخدامها عند نهاية الأسرة الثانية عشرة فى إعادة بناء البوابة؟"

كان موقف هاينى المتشبث معلقًا على حبشى، " الأمر كله يتعلق بالسلوك المصرى الذى لا يفهمه" كما قال حبشى: "هل لاحظت كيف يتبع الناس بإخلاص نفس المسارات سواء إلى المقابر أو آبار الماء أو الكنائس أو المساجد أو الأضرحة؟ إن عاصفة رملية قد تطمس هذه المسارات، ولكن كما يعرف الحمار الطريق إلى السوق حتى لو نام صاحبه فإن المؤمنين يتبعون المسارات. لقد انهار هيكل هكايب على إلفنتين وتحول إلى خرائب وانهار المدخل، ولكن الحجاج ظلوا يجيئون ويقدمون القرابين على الرمال بالقرب من المكان الذى كانوا يعرفون، ناحية الغرب".

كان جيرهارد هاينى متحمسًا لما أسماه "ردود أفعال لبيب السلبية على اقتراحاتى، ومع إلمامه بحالة حبشى الصحية المتردية حاول أن يمارس نوعًا من ضبط النفس "ولكن لبيب تزايد انفعاله وأصبح أقل استعدادًا للتفكير فى افتراضاتى بخصوص المدخل ومواقع الألواح" كما قال.

أما بالنسبة لحبشى فقال: "لا أنكر أن القطع الأثرية يتم تحريكها غالبًا من موقع إلى آخر فى المعبد، بما يتماشى مع التقاليد، فمن المعروف أن الصور

المقدسة أو الأضرحة التى تضمنها كانت تخرج بانتظام من الهياكل القديمة وتحمل من مكان إلى آخر، أنا أعرف أن هناك أحيانًا ظروفًا عارضة تؤدى إلى اتخاذ قرار بتغيير وجهة أثر قديم بنى على مر أجيال وقطع أثرية دفنت فى الأرض المقدسة. ولكننى أعتقد أن مثل هذه التغييرات لم تكن تحدث فى معظم المنطقة المقدسة حول الهيكل، حيث كان ضريح هيكايب المكرم قد بنى، ربما على خرائب المنزل الذى عاش فيه. ولكن التقليد المصرى القديم أو الحديث لا يساند فكرة هاينى.

"وسرعان ما برزت نقطة خلاف أخرى تتعلق بتوسيع هيكل بواسطة عدد متوال من رؤساء الكهنة بعد حكم سنوسرت الثالث". يصر هاينى على أنهم كانوا من السكان المحليين، ويستند فى ذلك إلى حقيقة أن نقوشهم لم تعد تحمل كلمة "حاكم" وهو ما يفيد أن أنشطتهم كانت تخص الفترة التى تلت الإصلاحات الإدارية لذلك الفرعون "أضاف حبشى: "أعتقد أنهم كانوا أفرادًا جاؤوا من مناطق أخرى".

قال حبشى إنه أعطى الكثير من تفكيره لهذه المشكلة على مدى عدة سنوات. "وتوصلت على نتيجة مؤداها أنه حسب إعادة التنظيم السياسى للبلاد تحت حكم سنوسرت الثالث، استطاع الملك أن يكسر قوة الحاكم الإقليمى للمدينة الحدودية الجنوبية باستقدام شخصية متنفذة من منطقة أخرى مع إلهه المحلى". وأوضح أنه فى التماثيل الأخيرة فى هيكل هيكايب ورد ذكر للآلهة جب، ورع، وبتاح، وبتاح سوكر وليس لأى منها كلها علاقة بجزيرة إلفنتين". ثم تساءل فى ثقة: "كيف يمكن تفسير ذلك ؟ إننى أعتقد أنه عندما كان ملوك البطالمة يحكمون مصر بنجاح عن طريق ممارسة روح التسامح مع التقاليد الراسخة، فإن رؤساء الكهنة الذين جلبوا من مناطق أخرى كانوا يفصلون الشيء نفسه على إلفنتين. كانوا يؤدون العمليات الطقوسية التى أقامها سيرينبوت الأول كما تم توضيحها على أكبر الألواح الأربعة التى نصبت فى الهيكل، واستمروا فى تكريم آلهتهم الشخصية الحامية. ومن المؤسف أننى لا أستطيع أن أعضد افتراضى سوى بقليل من المنطق وليس بدليل!

كان هاينى يعتقد أن حبشى المسن، معتل الصحة، كان متشبثًا برأيه لأنه يرفض حقيقة أن دارسًا آخر قد توصل إلى مفاتيح مضيئة عن اكتشافه الذى يعتز به. حبشى من ناحية أخرى عبر عن رأيه بأن: "التاريخ الاجتماعى والتراث كاشفان أكثر من الدليل المعمارى". انقطعت الصلة بين الرجلين، ولأن قيصر كان مدركا لهذا الطريق المسدود، كان مضطرًا للمضى فى النشر على الرغم من حقيقة أن الفصل الذى كتبه هاينى عن معمار الهيكل كان يحتوى على كثير من التضارب فى مخطوط حبشى، وأن رسمه التخطيطى للهيكل يبين أن الممر الذى كان حبشى يعتبره المدخل الغربى كان مغلقًا يتضمن "حجرات غير مهمة" فى الجنوب الشرقى. وهى المظللة فى الشكل رقم ٧٣ الذى رسمه هاينى للمقارنة مع الشكل رقم ٣١ الذى رسمه حبشى.
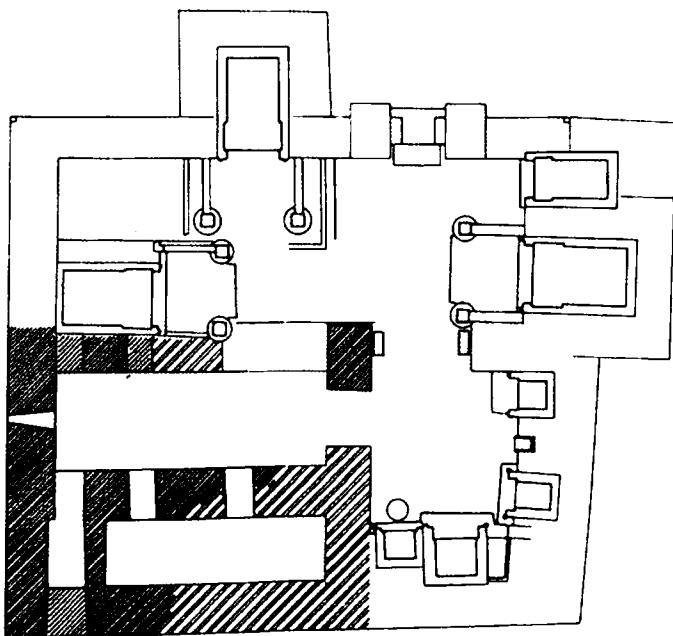
الشكل رقم ٧٣: مخطط هاينى للمقارنة مع مخطط حبشى فى الشكل رقم ٣١

عندما علم حبشى أن مخطوطه سيظل كما كتبه دبت فيه الطاقة وتجدد نشاطه وبذل جهدًا كبيرًا للانتهاء من المقدمة وإعادة مراجعة كل فصل قبل إرسال العمل على أجزاء إلى المعهد الألمانى لكتابته كتابة نهائية على الآلة الكاتبة. خلال الصيف عمل بطاقة هائلة فى استكمال الحواشى وتصنيف المساقط والخرائط. أقلق زوجته وأصدقاءه بسبب حالته الصحية، وأظن أننى وعطية كنا ضمن القليلين الذين عرفوا أهمية طبع عمله بالنسبة له. كان زملاؤه وأصدقاؤه قد سمعوا كثيرًا عن "اكتشافه المهم فى إلفنتين "حتى إن تساؤلاتهم كانت تشجيعًا أكثر منها اهتمامًا.

كان أكثر ما يكون دهشة وربما فرحًا، عندما أبلغ فى سنة ١٩٨٠ أن هيئة الآثار قد قررت دعوته ليكون عضوا فى إحدى لجانها. كان حبشى يرى فى ذلك اعترافًا متأخرًا بقيمته، كما أنها فرصة للتعبير عن آرائه. ومن الصعب فى المقابل رؤية كيف خدع نفسه بشدة. لم تكن أكثر من لمحة متأخرة، فهو تعيين شرفى للرجل المسن الذى لم تستطع هيئة الآثار أن تتجاهله أكثر من ذلك. كان، على المدى الطويل، بمثابة عائق آخر فى تعاملاته مع المسئولين فى الآثار.

تم تحديد الجلسة الاحتفالية للجنة فى سبتمبر، وعانى حبشى آلامًا شديدة لإعداد كلمته. خطط لبلورة قاعدة مفيدة للعمل فى المستقبل فيما يتعلق بالاشتراك المصرى فى الحفائر الأجنبية فى مصر، وقسمها إلى جزأين، الأول حدد فيه ثلاثة أمثلة للعمل المشترك الناجح بين المصريين والبعثات الأجنبية، ذكر فيها بالتحديد المركز الفرنسى المصرى فى الكرنك، والبعثة البولندية فى الدير البحرى ومعونة اليونسكو فى إنشاء مركز التوثيق، واعتبرها نماذج يجب اتباعها وتطبيقها فى أماكن أخرى". مثل هذا التعاون يتيح للمصريين فرصة التدريب الميدانى فى البيئة الصحيحة كما كتب: "ويؤدى إلى تحسين مستوياتنا بوجه عام، مهم للخريجين أن يحصلوا على مثل هذا التدريب قبل التعيين فى أعمال إدارية، وعلاوة على ذلك يجب أن يكون أحد شروط منح الامتيازات الأثرية للفرق الأجنبية إلزامهم بتدريب عدد من الخريجين المصريين على العمل الميدانى".

وأوصى حبشى فى القسم الثانى من تقريره بضرورة عقد اجتماعات منتظمة بين علماء الآثار المصريين ورؤساء البعثات الأجنبية " لمعرفة ما يتم عمله، كيف يتم، وتبادل الأفكار حول ما يمكن إنجازه. وأنا واثق أنه فقط من خلال المشاركة فى الأفكار مع الفرق المتخصصة نستطيع أن نضمن وضع مستويات عالية، والتعرف على طرق أحدث وأننا نستطيع إعداد علماء مصريات منتجين وأكفاء "

ارتدى حبشى بذلة ورابطة عنق للمناسبة ووقف بفخر على المنصة وألقى كلمته بثقة. "لقد تم تجاهل كل اقتراحاتى، كنت كمن يتحدث إلى حائط من الحجر". كما قال فيما بعد، لقد شعر بالانسحاق.

فى مناسبة الاحتفال بعيد ميلاده السابع والسبعين فى ١٨ أبريل ١٩٨١ وفى حفل استقبال بالمعهد الألمانى للآثار أهدوه كتابًا يضم مقالات كتبت لتكريمه. سبعون دارسًا من عشر دول شاركوا فيه – الحجم مهم فى مصر- وكان فخورًا وهو يقول إنه جاء فى ٥٣٢ صفحة من ٧١ مشاركًا و١٥٤ شكلاً و٩٤ لوحة كان واحدًا من أكبر الكتب التذكارية. كانت هناك مقالات بأقلام لانى بيل، ومانفريد بيتاك، وهيلك وإديل، وورنر قيصر، وكنت ويكس، ومن زملائى المصريين على رضوان، وجاب الله جاب الله، وجودت جبرة.

شكل رقم ٧٤: ورنر قيصرمدير المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة يقدم الكتاب التذكارى لحبشى.

كـــانت الكـــلمة التى أسعدته بشدة هى تلك التى كتبها آى.إى. إس إدواردز ***I. E. S. Edwards*** بعنوان "استخدام نادر لكلمة ***Look*** "وقال حبشى وهو يقلب الصفحات للعثور عليها: "دعونى أقرأها لكم". كتب: "إنه ليس لديه شيء يضيفه إلى ما قيل عن تطوير وجهات النظر التى قيلت عن تطور الاستخدامات المتأخرة لحروف الوصل المصرية سوى تفصيلة صغيرة تتعلق بأحد استخدامات هذه الكلمة، وبالذات استخدامها فى الجمل الشرطية، وهنا يقول "إنها هدية صغيرة نقدمها إلى عالم المصريات البارز الذى نهدى له هذا المجلد. ولكن ربما أمكن قبوله علامة عرفان لصداقة سنوات طويلة وتقديرًا لإسهاماته البارزة لتعريفنا بمصر القديمة".

كثير من العرفان والتقدير لإسهامات حبشى فى علم المصريات يمكن أن نجده فى مقال كيلى سيميون بعنوان: ***Varia Aegyptiaca in American Collections***:

"من خلال جهود لبيب حبشى أنقذ العديد من موظفى الإدارة الفرعونية، أنقذوا من النسيان بتجميع آثارهم وإثبات أعمالهم، ومن أفضل هذه الأعمال اكتشاف شخصية مهمة من الأسرة الخامسة والعشرين وهو وزير وصهر، ويسمى منتوحوتب، على قاعدة جعران من العقيق فى موسكو ولوحة مكشوطة وجدت أمام المدخل الغربى للمتحف المصرى بالقاهرة الأجزاء السليمة موجودة بأسلوب من المملكة الوسطى. الألقاب ليست متطابقة ولكن حبشى يرى أن" النبى (ورئيس الكهنة) بمدينة أتريب" وهو منتوحتب فى الاثنين قد يمثل الوزير وصهر طهارقة فى مرحلة مبكرة من عمله".

مع خطاب تغطية إلى قيصر بتاريخ ٢ يناير ١٩٨٢، أرسل حبشى آخر مراجعات مخطوطه عن هيكل هيكايب إلى المعهد الألمانى للآثار: "أستطيع أن أقول وأنا مطمئن أنه قد أصبحت لديك الآن كل المادة التى تستطيع أن تبدأ فى نشرها، وأتمنى ألا تحتاج من المحرر والطابع وقتًا طويلاً "، وفى حاشية عاطفية يضيف: " إذا صدر هذا الكتاب مع الاحتفال بالذكرى السنوية للمعهد الألمانى فسيكون ذلك بمثابة معجزة ! " وفى سبتمبر تعرض لنوبة قلبية ثالثة ولزم الفراش.

الفصل الثالث عشر

سباق ضد الزمن

كان لدى لبيب حبشى منذ فترة طويلة رغبة فى الاحتفاظ بمكتبته التى تحتوى على أكثر من ثلاثة آلاف كتاب كوحدة واحدة بعد وفاته؛ وذلك لتقديم خدمة إلى شباب الطلبة الذين يدرسون علم المصريات؛ وكان يتصور لذلك مبنًى خاصا يقام على الضفة الغربية للنيل عند الأقصر. "ناقشت فكرتى مع أصدقاء من معاهد المصريات المختلفة وشجعونى جميعًا، ولكن لم يقدم أى منهم اقتراحًا حول تدبير التمويل الضرورى لمثل هذا المشروع المكلف". ثم جاء كنت ويكس بالإجابة، طلب منى التفكير فى وضع كتبى فى مكان يجعلها جزءًا من مكتبة نشطة ملحقة بمؤسسة تقدم برنامجًا لدراسة علم المصريات؛ واقترح لذلك الجامعة الأمريكية بالقاهرة. لم آخذ الأقتراح مأخذ الجد آنذاك، ولكن مع مرور الوقت طلبت منه أن يقوم بالتنفيذ".

اتصل ويكس ريتشارد يدرسون رئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرة بالإنابة عن حبشى وحصل على موافقة على الفكرة مبدئيا، وقال يدرسون إنه سيتابع الأمر واقترح أن يتم عرض هذا الاقتراح عند زيارة مجلس الإدارة فى فبراير ١٩٨٢ وسيكون ذلك الوقت مناسبًا لتسليم المكتبة رسميًا. واحتفالاً بالمناسبة عرض حبشى تنظيم سلسلة محاضرات لبيب حبشى فى علم المصريات فى قاعة إيوارت التذكارية بالجامعة الأمريكية. ودعا اثنى عشر دارسًا مصريًا وأجنبيًا بالقاهرة لتقديم سلسلة من الأحاديث حسب الترتيب الزمنى، تغطى جميع نواحى التاريخ المصرى ابتداء من عصر ما قبل الأسرات حتى اليوم. شارك فى المحاضرات دارسون أمريكيون ونمسويون وكنديون ومصريون وألمان وسويسريون، ونجحت نجاحًا كبيرًا. ألقى حبشى نفسه المحاضرة الافتتاحية ولكنه لم يبق فى القاهرة

لحضور السلسلة كلها، اعتذر بأن صحته لم تكن تساعده وأخذته عطية إلى الأقصر، وهناك فكر في مشروع كان دائمًا فى ذهنه.

عند عودة حبشى إلى القاهرة قال لى: "أريد أن نمضى قدمًا فى عمل كتاب عن علم المصريات، سوف يعتمد على محاضرة ألقيتها ذات يوم فى ال ***ARCE*** بعنوان "خمسون عامًا فى علم المصريات فى مصر: انطباعات شخصية"، سيكون كتابًا شعبيًا. لقد كتب كثيرون من علماء المصريات عن تجاربهم ولكن هذه ستكون هى أول سيرة ذاتية يكتبها مصرى، سأكتب عن الدارسين الذين ساعدونى فى عملى الوظيفى والذين قاموا بإسهامات كبيرة فى علم المصريات وسأطلق عليهم اسم "أصدقاء علم المصريات"، من بينهم ألان جادنر أبو علم المصريات الذى كتب "علم النحو" الذى لا يستطيع أى عالم مصريات أن يستغنى عنه، هنرى جوتييه الذى يفوق توثيقه للآثار القديمة أى عمل آخر فى وقته، وفلاديمير جولينشيف الابن الروسى لأحد الدوقات، الذى كان يقوم بتدريس الهيروغليفية عندما افتتحت أول مدرسة لتدريس علم المصريات للمصريين، سأكتب أيضًا عن" أعداء علم المصريات" أولئك الذين ينهبون ويسلبون آثارنا ويهربون القطع الأثرية إلى خارج البلاد، وبينهم العديد من جامعى الآثار للمتاحف المعروفين. وسوف أصف بالطبع زملائى المصريين الذين أقول، آسفًا، إن معظمهم يفضل وجاهة التدريس على الحفر. إن بعض أساتذة الجامعة لدينا يعملون موسميًا ولكنهم غير متحمسين للحفر، إنهم يعتبرون الأقصر وأسوان منفى، وفى رأيى أن التدريس ليس مساعدًا على الدراسة الخلاقة، وأستطيع أن أعطيك قائمة كاملة بأسماء زملائى الموهوبين الذين أعاقت البيروقراطية أو الواجبات المنزلية إنتاجهم الخلاق. كان أحمد فخرى استثناء، فقد ركز على واحات الصحراء الغربية وكان أكثر من أثرى وعالم من علماء المصريات من بينهم. سأكتب كذلك عن زميل كنا نسميه الرجل" الشوابتى "لأنه مثل قدماء المصريين الذين كانوا يضعون تماثيل العمال فى مقابرهم ليخدموهم فى حياتهم بعد الموت، كان

يجعل الآخرين يقومون بالعمل الميدانى لصالحه ثم يستغل قدرته على الكتابة جيدًا لكى ينشر النتائج، لمجده الشخصى طبعًا!"

وفى كل زيارة لى إلى هليوبوليس، كان حبشى يثير موضوع هيكل هيكايب متسائلاً: "أين المخطوط؟ ولماذا لم ينشره المعهد الألمانى؟ إن المادة كلها لديهم فلماذا التأخير؟ لماذا على أن أنتظر إلى الأبد"؟ ومرت الشهور دون أخبار.

"وعندما أتصل تليفونيا وأسأل عنه فإنهم يقولون: إنه "فى الطريق". وذات مساء لم يقابلنى حبشى عند الباب كالمعتاد. ووجدته جالسًا على طاولة حجرة الطعام مع بعض المواد المطبوعة المفرودة أمامه. وقال: "لا حاجة لانتظار كتابى، نستطيع أن نمضى مع كتابك عن حبشى وهيكايب". قال ذلك بمجرد أن رآنى لقد أفحمنى. كان مشروعى مهملاً لفترة طويلة، وقال بعينين غائمتين: "هيكايب لن يذهب إلى المطبعة، لن يخرج فى الوقت المناسب مع الذكرى السنوية للمعهد الألمانى لأن هاينى مازال يعمل فى الفصل الخاص به عن العمارة "ماذا كان يمكن أن أقول؟"

ثم قال: "انظرى، هذه هى الصورة التى أنتجها لانج هيرمر لتمثال خيما بمجلة إجبتين ***Ägypten*** فى ١٩٧٥، وهنا مقال مصور نشره سيدل ويلدونج وبه صورة لنفس التمثال وقد طبعت فى مجلة أخرى هى مجلة ***Propylaen Kunstgeschichte*** فى نفس السنة، والآن فإن مجلة ***Lexicon derAgyptologie*** بها فقرتان عن اكتشافى، إحداهما بعنوان "إلفنتين" والثانية "هيكايب وعبادته"، وأنا نفسى نشرت ١٦ دراسة عن النوبة الجنوبية، تتضمن فصلاً عن مخطوطى الذى لم ينشر "التعريف بهكايب وسابنى، مع أصحاب المقابر التى فى قبة الهواء وعلاقتهم بالنوبة". وأنا هنا مازلت أتساءل ما إذا كان كتابى سيرى ضوء النهار أم لا ؟"

كان حبشى يضع نفسه تحت ضغط كبير فى العامين الأخيرين من حياته كان متشوقًا لاستكمال مقالاته عن رزق الله مكرم الله وزكى سعد (اثنان من علماء

المصريات المصريين انتقلا إلى رحمة الله) وذلك للنشر فى القاموس القبطى، كما كان متشوقًا كذلك لاستكمال دراسته عن ضريح سيتى الأول فى ممفيس ليضمنه الخريطة الطبوغرافية للمنطقة،"ولذلك فإننى أريد أن أذهب وأقيم فى تفتيش ميت رهينة ليلة أو ليلتين"، كان مصممًا على أن يفى بوعده لما نفريدبيتاك: أن يصنف بعض الملاحظات من أوراقه عن كل الطبعة. وأضاف: "يجب ألا أنسى المادة الخاصة بمقابر قبة الهواء التى سأقوم بها مع إلمر إديل. عندما كان هنا فى العام الماضى، عملت كل جهدى لتشجيعه على نشر عمل مشترك عن المقبرتين اللتين اكتشفتهما سنة ١٩٤٦ وكتبت إليه بعد ذلك الوقت لكى أذكره". والحقيقة أنه ردًا على خطاب منى بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٩٨٥ كتب إدل يقول إن جميع الجهود التى بذلها للحصول على تصريح لعمل حفائر مشتركة لم تنجح، وفى خطاب آخر كتب قائلاً: "أخيرًا تم رسم الصور بمقياس رسم ١: ١ وتم تحبيرها للطبع ولكن خريطة المقبرة قد"تأجلت مؤقتًا".

وانكسرت حلقة اليأس التى عاش فيها حبشى عندما تسلم دعوتين من الحكومتين النمساوية والألمانية لاستلام أوسمة، لم يكن أحد يتوقع ذهابه إلى أوربا ولكن بكل مجازفة الرجل الذى اعتاد العمل، صمم على الذهاب.

"إنه يريد أن يقتل نفسه، لا يستمع إلى أحد ولا حتى إلى أطبائه أو أصدقائه ولا إلىّ أيضًا"، قالت عطية وهى تئن، أما هو فقال وكأنها ليست موجودة بالغرفة: "هى التى ستقتلنى باهتمامها، إنها تدفعنى إلى الجنون".

شكل رقم ٧٥: حبشي فى حفل تسليم الجائزة فى فيينا

لم يلن عزمه، وسافر فعلاً إلى أوربا فى شتاء ١٩٨٠ - ١٩٨١ لاستلام صليب الجدارة الأكبر من الحكومة الألمانية تقديرًا "لعلاقاته الطويلة والمستمرة مع علماء الآثار الألمان لمطبوعاته البارزة فى سلاسل العهد الألمانى للآثار. أما الحكومة النمساوية فقد أهدته صليب الشرف للعلوم والفنون من الدرجة الأولى "تقديرًا للإنجازات العلمية للدكتور لبيب لتشجيعه ونصحه الذى قدمه للمعهد".

على الرغم من ضعف صحته، قام ببعض الأبحاث فى ألمانيا. وعند عودته إلى القاهرة قال: "هل تعرفين ماذا وجدت فى المتحف؟ لوحًا صغيرًا لرمسيس الثانى ارتفاعه ٥ سنتيمترات فقط، هل تتخيلين أن مثل هذ اللوح الصغير يصنع لأعظم بناة الآثار؟" وكان جالسًا فى "البلكونة" ليستنشق نسيم الليل وهو يرتدى "جاكيت" واسعًا وتلفيعة رمادية يلفها حول عنقه كما كان هناك "بيريه" مشدود على جبهته وكان يطفىء إحباطه بالحديث عن مشروعات مستقبلية. كان ذلك ما جعله يستمر: الإصرار على المحافظة على القوة الدافعة وأن يتصرف وكأن ليس هناك أى خطأ. فى هذا الإطار العقلى بدأ فى تجهيز مقال لتقديمه فى المؤتمر الدولى للمصريات الذى كان مقررًا إقامته فى سبتمبر ١٩٨٢ فى تورنتو. "إنها دراسة مهمة عن معبد أمينوفيس الأول كله، الذى ليس لدينا منه سوى ثمانى كتل حجرية، أظن أنه سيحدث ضجة كبيرة. ثم أضاف مبتسمًا: "إنه لايمكن عمله بعد الوفاة!"

"شجعناه أنا وعطية لإعداد المقال ولكن كلانا لم نكن نتوقع أن يحضر المؤتمر. كان فى منتهى الصلابة ولا شىء يمكن أن يقنعه بالعدول. أما نجاته من الرحلة الجوية الطويلة عبر الأطلنطى فكانت مذهلة، كان يحضر عدة محاضرات يوميًا، وكان عرضه، كما هو متوقع، جيدًا. "كنت أعرف أن الجميع سوف يهتمون بملك قرر أن يحول العطايا التى توجه إلى عقائد الملوك وأعضاء الأسر الملكية إلى عقيدة أمينرى بالكرنك وأيضًا لدراسة قائمة الاحتفالات التى تزين مدخل المعبد"، قال ذلك بسعادة وأقام هو وعطية حفلاً أثناء المؤتمر كما رقص حبشى فى حفل الوداع، وكان يغنى هو وعطية:" بلدنا... بلدنا..".

وعند عودته إلى القاهرة أصيب بانتكاسة، أخذته عطية إلى الأقصر. وقد وصفه الدارسون فى بيت منزل شيكاغو بأنه كان يعمل فى ركن المكتبة بالقرب من الشباك المطل على الخليج معظم الأيام إلى وقت متأخر مساء حيث ينام قليلاً، وكان يشاهد أحياناً وهو يتمشى فى البيت ويتحدث إلى عمال الحديقة ورجال النظافة، والعمال، وبخاصة أبناء قفط وجورج النجار وشافعى العامل " الذى يكبرنى سناً ولكنه مازال يعمل" كما كتب لى فى أحد خطاباته. وفى المساء كان يستمع إلى مناقشات غير رسمية بين لانى بيل المدير، وأدوارد وينت، وببيل مورنان، وكلاوس باير، وأعضاء البعثة البولندية فى الدير البحرى، "ولكننى كنت أجلس فى الخلف، فلست فى الحالة التى تسمح لى بإبداء الرأى. وانتشرت أخبار توعك مزاجه ونفوره بسرعة، وقال هنرى رياض "يظهر أن الكل كان يتوقف لكى يراه، وكانت تتم استشارته أحياناً بمعرفة المفتشين المحليين على الرغم من نفوره، كما كان يزوره بعض موظفى هيئة الآثار. كان دائما شغوفاً لمعرفة أخبار أم سيتى من المفتشين الذين يمرون بأبيدوس.

شكل رقم ٧٦: لبيب حبشي وأم سيتي

كتب يقول: "مازلت أعمل، ولكن صدقينى، لم تعد الحياة بالنسبة لى ممتعة. الأسابيع الستة الأخيرة لم تكن سارة بأى حال. كان ينبغى أن أتعلم درسًا من أم سيتى التى كتبت من أبيدوس أن الطقس يتغير باستمرار وأن كل عظامها تؤلمها، إنها مصابة ببرد شديد وإن صوتها ضاع. ثـم قـالت إنـها مع كل هذه المشاكل" لا أستطيع أن أشكو وكل ذلك شيء صغير مقارنة بالنعم التى أتمتع بها، حقا إن الآلهة القدامى كانوا رحماء بى"، ربما ينبغى على أنا أيضًا أن أكف عن الشكوى. ومع العودة إلى القاهرة، لزم حبشى شقته، زاد إحباطه عندما كان عقله يلهث وراء مطالب لا يستجيب لها بدنه. وبدأ ينسى أين يضع الأشياء، ومع فقدان الأمل فى أن يرى مخطوطه مطبوعًا بدأ يعيد التفكير فى طموحه المبكر فى أن يرى هيكل هيكايب على جزيرة إلفنتين وقد تحول إلى متحف مفتوح.

دعى حبشى ليرافق وزير الثقافة ومحافظ أسوان وأعضاء هيئة الآثار المصرية وهيئة اليونسكو فى رحلة إلى مصر العليا لاختيار موقع المتحف، باعتباره عضوًا فى هيئة مستشارى متحف النوبة الجديد. وبمجرد أن سمع أن صديقه المهندس المعمارى محمود الحكيم سيكون معهم قرر أن يذهب بنفسه، "قلت لعطية إن ذلك سيكون مفيدًا لصحتى ولذلك ستجد صعوبة إثنائى"، ولكى يكون صادقًا مع نفسه مضى بكل طاقته لتجهيز ورقة عن الخطط المستقبلية لمتحف إلفنتين بعد نقل الكثير من معروضاته إلى متحف النوبة الجديد ووضع قائمة بالقطع الأثرية من كل مراحل التاريخ المصرى بما فى ذلك ألواح وكتل حجرية من مناجم الجشمت فى وادى هونى والتوابيت الحجرية ذات النقوش الآرامية التى وجدت فى أسوان واكتشافات الفريق الألمانى السويسرى الذى يعمل فى إلفنتين منذ سنة ١٩٦٩، واكتشافاته الخاصة فى مقابر النبلاء فوق قبة الهواء فى ١٩٤٧، وقطع هيكل هيكايب التى لم يتم اختيارها للعرض بمتحف النوبة. كان يرى أن مشروعى المتحفين يكملان بعضهما بعضًا، ونظرًا لشدة قرب الأخير إلى هيكل هيكايب كتب فى تقريره "متحف إلفنتين ملاحظات عامة" ملحق *9: IV* – القاهرة أكتوبر ١٩٨٢ " لابد من التركيز على أن هيكايب كان يعبد فى منزل فى إلفنتين،ثم فى المقبرة وأخيرًا فى هيكل مهم فوق إلفنتين".

شكل رقم ٧٧: انزعج حبشى كثيرًا عندما رأى تمثالاً من هيكل هيكايب وقد استخدم لتزيين حديقة

كان خطأً بالغًا أن يقوم بهذه الرحلة إلى أسوان، ربما يكون قد تحمل رحلات الطيران إلى النمسا وألمانيا وتورنتو، ولكنه كان ضربًا من الانتحار أن يتبع أعضاء اللجنة فى تلك الحرارة الحارقة. وتذكر سيره غربًا من المقبرة الفاطمية إلى محجر الجرانيت القديم ثم عبر الموقع الصخرى: "كنت أتعثر فوق الصخور، حاولت أن أحدثهم عن متحف إلفنتين، ولكنهم لم يستمعوا لى. إنه لأمر غريب! إنهم حتى لم ينظروا إلى تقريرى، وعندما ذكرت هيكل هيكايب صموا آذانهم! مع أن كل ماكنت أريده هو أن أقترح تحويله إلى متحف مفتوح وحمايته مثل تمثال رمسيس الثانى فى ممفيس، مع بناء منحدرات بحيث يستطيع الزوار مشاهدته من زوايا مختلفة، كان يمكن تنفيذ ذلك بتكلفة قليلة. ربما كان ذلك هو السبب إذا كان لديكم مشروع لعمل بناء أضخم فإن ذلك سوف يتطلب لجنة على مستوى عال تعقد اجتماعات، أما إذا أردتم بناء مجـــرد مـــأوى مع سلسلة من المنحدرات فإنه أمر لا يستحق حتى مجرد المناقشة".

تدهورت صحته فى أسوان. فى خطاب من ساف سودربرج بتاريخ ١٥ يناير ١٩٩٠يقول: "كان آخر لقاء لنا فى ١٩٨٢ عندما كان علينا أن ننهى معًا برنامج عرض متحف النوبة بأسوان، كان قد تم تعيينه لهذا العمل سواء عن طريق السلطات المصرية أو بواسطة ***ICOM***..... كنت قد انتهيت من عمل نموذج لتقديمه إلى ***ICOM*** وكنت فى منتهى السعادة لأننى سأشترك مع لبيب فى إعداد شكله النهائى من جهة أخرى، ربما كان لبيب يفضل أن يعده بنفسه، وعلى الرغم من صداقتنا القديمة فإن مشاركتنا لم تتم كما توقعت. لم يكن فى حالة جيدة كما كان سريع الغضب إلى حدٍ ما. لم يكن صبورًا معى وشعر بآلام فى القلب. وكان عليه أن يستريح فى متحف إلفنتين حتى يتم نقله إلى المستشفى الألمانى... ولحسن الحظ فإن الألم لم يكن خطيرًا، وعند العودة بالطائرة إلى القاهرة عاد إليه مرحه مرة أخرى.

"لابد أنه حاول التظاهر بأن حالته الصحية جيدة، ولكنه كان مستاء من بقائه فى منزله، ورفض أن يستريح، وأصبحت إعاقته الظاهرية ذات تأثير على أفكاره، وعلى الرغم من روحه الاجتماعية عندما يكون الزوار حوله، كان يصبح لحوحًا وخشنًا بعد رحيلهم. لقد أنهك صبر زوجته وباعد أصدقاء عديدين، وللمرة الأولى عانت عطية الكثير من سورات غضبه حتى مع طباخه الوفى، وكانت هى أيضًا قد أصبحت عليلة لأنها كانت تعانى ارتفاع ضغط الدم وألم العصب الوركى، ولكن إخلاصها كان فوق ذلك كله كانت تحضر له "بلوفرات" دافئة وبليلة عندما كان يطلب مراجع علمية. كان يقول إنه ليس لديه وقت يضيعه فى الأكل أو اللبس، بينما كانت هى وبكل إخلاص تعتقد أنه إذا لم يمتثل لرعايتها المخلصة فإن حياته لن تطول كثيرًا، انتشرت قصة بين زملائه فحواها أنه بعد النوبة القلبية الأولى فى سنة ١٩٧٥ كانت كلماته الأولى إلى زوجته هى: أحضرى لى مجلد كذا وكذا من دولاب كذا لأننى أبحث عن كذا وكذا. حالته الحالية أعطت ثقلاً للأسطورة. كان يتصل ب *ARCE* للسؤال عن صور مخطوطاته وعن أدوات كتابية ومعلومات. انتقد الجامعة الأمريكية لأنها "تأخرت فى جمع كتبى التى كان يجب أن تكون الآن فى المكتبة ومصنفة ". أحيانًا كان يشحب لونه، فيضع يده فى جيب سترته العلوى ويضع قرص دواء فى فمه بهدوء، وبعد عدة دقائق يرفع رأسه ويبدأ الكلام وكأن شيئًا لم يكن.

"تعرفين! إننى لست الوحيد الذى له تجارب غير سارة مع الحكومة، دعينى أحدثك عن محمد الحكيم. كانت الحاجة لبناء متحف إقليمى فى أسوان لحفظ آثار النوبة واضحة، حتى عندما كانت عمليات الإنقاذ تجرى على قدم وساق وبخاصة بعد استكمال السد فى ١٩٧٠.

كان من الطبيعى أن تلجأ هيئة الآثار إلى محمود الذى كان متحفه الرائع قد افتتح فى الأقصر فى ١٩٧٦ ليقوم بتصميمه، وسافر إلى أسوان ليشاهد الموقع المختار الذى كان عند نقطة يلتقى فيها الشارع الرئيسى القديم مع طريق الكورنيش

الجديد أمام مبنى محافظة أسوان، وقدم تصميمه الابتدائى إلى هيئة الآثار لاعتماده وتم اقتراح بعض التعديلات وقام بتنفيذها. ثم قدم نسخة جديدة من التصميم وتبع ذلك مناقشات أكثر، وتم اقتراح بعض التعديلات وقام بتنفيذها وتقديم نسخة جديدة من التصميم وتبع ذلك مناقشات أكثر وتم اقتراح تعديلات جديدة، واستمر ذلك حتى تم قبول التعديل الخامس. تم تحرير العقد ووقعه وزير الثقافة فى سنة ١٩٧٩".

لم يتقدم المشروع على الرغم من ذلك، لأن الحكومة لم يكن لديها التمويل الكافى لبناء المتحف. وقال حبشى: "كان ذلك عندما بدأت المضايقات. تم الاتصال باليونسكو وطلب من ساف سودربرج دراسة المشروع وقدم عرضين، الأول يتلخص فى عمل مسابقة بين المعماريين العالميين لاختيار أنسب التصميمات للمتحف الجديد، والثانى كان يتلخص فى اختيار موقع أكثر ملاءمة له، وقد وضع ذلك هيئة الآثار فى موقف حرج لأنهم كانوا قد وقعوا العقد مع محمود وكان من الطبيعى أن يغضب عندما طلب منه أن يشارك فى المسابقة". وواصل حبشى: "ولكنه وافق أخيرًا على المشاركة فى المسابقة وكان المفترض أن يكون فوزه أمرًا مفروغًا منه، وعندما طلب الإذن بأن يشاهد الآثار التى ستوضع فى المتحف قيل له إن ذلك لم يكن من شأنه وإنه سيكلف بتصميم المتحف بحيث يتم تخصيص عدد من الأمتار المربعة لكل فترة تاريخية. وعندما قال إنه كان يريد أن يصحب اللجنة لرؤية الآثار الموجودة بمخازن متاحف إلفنتين وفى القاهرة لم يسمحوا له بذلك. كان محمود شديد الاعتزاز بعمله، وقال إن المتاحف ليست أشياء ميتة، أو أماكن لتخزين الأشياء القديمة إنما هى كائنات حية، كما قال إن المهندس المعمارى يستطيع أن يصنع تصميمًا جميلاً إذا عرف المادة التى يتعامل معها. أتذكر عندما رأيته فى أسوان فى أوائل فبراير سنة ١٩٨٠ فى اجتماع بين وزير الثقافة ومسئولين مصريين واثنين من الخبراء الفرنسيين فى المتاحف وأحد المهندسين المعماريين ومصمم لسطح الأرض. كان ذلك عندما تم اختيار موقع جديد للمتحف على ضفة النيل جنوب وسط المدينة. مسكين محمود! لم يعمل له أحد حسابًا، وعندما كان يريد أن يبدى رأيًا أو يبرز فكرة من أفكاره كان يتم تجاهله".

إن صعوبة بدء الشمروعات ثم استمرارها، أمر عادى فى مصر حيث تعقد لجان بحسن نية وتقدم اقتراحات رنانة، ولكنها كثيرًا تحل محلها اقتراحات أخرى معارضة لها، واعتراضات ومراوغات وعوائق تؤدى إلى أن تتوقف العملية كلها، وقالت صوفي شحاتة موظفة العلاقات العامة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى الثمانينيات: "السبب فى أن الأمور لا تمضى إلى نهايتها، فى رأيى، هو سوء الإدارة، فالقرارات بطيئة، والثغرات تفتح الباب للمزيد من النقاش وتغيير الرأى إنها "الفهلوة" هو مصطلح معروف بين المصريين لأنه يعبر عن ظاهرة واسعة الانتشار، ولكن ليس من السهل تعريفه. إنها نوع من التظاهر بالشجاعة مع أسلوب غير عملى يستطيع أى شخص أن يستخدمه فى حواره مع أى شخص آخر حتى وهو يعرف أنه غير منطقى. والنتيجة هى أنك لا تحصل إلا على موقف غير متوازن يكون من الصعب فهمه ومن الصعب فى نفس الوقت معالجة مايشوبه من أخطاء. ولايستطيع أن يعالجه إلا شخص خارجى، ولكن ما دامت الوساطة قد انتهت وانسحب هذا الشخص فإن المشكلة تظهر مرة أخرى".

ويقول جمال مختار عن تأخير تنفيذ المشروعات "لم يكن الموقف شاذًا فيما يخص متحف النوبة، فالمصريون ناجحون عندما يعمل كل شخص بمفرده، أما العمل الجماعى فإنه يظهر أسوأ ما فيهم، إنه فعلاً أمر غريب. إنهم يتصارعون مع بعضهم بعضا ويقدح أحدهم فى سمعة الآخر، ليس لأن كلاً منهم يشعر بالغيرة من الآخر، بل لأن كلاً منهم أكثر اهتمامًا برضاء رئيسه من القيام بعمل جيد". وقد وصف أحد علماء النفس الشخصية المصرية بأنها "منظومة رأسية وليست أفقية ففى القيادة الأفقية يأخذ كل واحد بيد الآخر ويتقدمون جميعا إلى الأمام. أما فى المنظومة الرأسية فإن الأفراد الذين فى الدرجات الأدنى من البناء الهرمى يبدأون الهز على أمل أن يؤدى ذلك إلى سقوط من هم أعلى منهم".

وبعد أن أصبح يتناسى خيبة أمله فى عدم وصول أى بروفات عن هيكل هيكايب من المعهد الألمانى وعدم اعتبار فكرته عن إقامة متحف مفتوح فوق جزيرة إلفنتين، راح يتحدث فى أمور أخرى، "إن حسن فتحى مهندسنا المعمارى اللامع لم يفهم أبدًا الفارق بين الفلاحين من ذوى الأصل العربى والفلاحين المصريين"، فقد قال فى إحدى الأمسيات إنه "خطط لإقامة قرية نموذجية فى القرنة ولكنها لم تكن نموذجية بالمرة؛ فقد تم تخطيطها على مناطق الفيضان وكان من المتوقع أن يترك فلاحو القرنة مساكنهم بين مقابر النبلاء فوق الجبانة الكبيرة ويعيشوا هناك، وعلمت أن القرية المبنية بالطوب المحروق فى الشمس وبها منازل ومدرسة ومركز اجتماعى لن يسكنها أحد. عندما كنت طفلاً تنقلت بين مجتمعات الأعراب فى الغربية فى الدلتا، وكان أصحاب الخيول العربية الذين يسكنون هناك لا يختلطون بالفلاحين، ولا الفلاحون يختلطون بهم. غلطة حسن أنه يراعى حقيقة أن المصريين من ذوى الأصل العربى لن يعيشوا بين الفلاحين على أراضى الفيضان بصرف النظر عن الخدمات التى ستقدم لهم هناك. كان رجلاً مثقفًا وذكيًا، وأصبح يعرف بشيخ المعماريين والبيئيين. كان مشروعه يقوم على الوظيفة والقدرة واعتمد على المواد المحلية أيضًا. لكن لا حسن ولا الذين رعوا مشروعه كانوا يفهمون الفروق الاثنية بين الفلاحين وسكان القرنة من الأعراب والنوبيين الذين استلهم حسن عمارتهم. شىء عجيب! كان حسن فتحى فى الثلاثين من عمره تقريبًا عندما وطئت قدمه الريف لأول مرة، وعندما فشل مشروعه ادعى أن ناس القرنة كانوا لصوص مقابر لا يريدون الانتقال بعيدًا عن مصدر مهم لدخلهم. قد يكون ذلك صحيحًا بالطبع، ولكنه ليس كل الحقيقة".

ذات مساء، وضع يده فى جيب عباءته وقال: "انظرى ماذا أحضرت لك! هدية. "ثم أعطانى عقدًا من حبات زجاج زرقاء رائع الجمال. كنت أعرف أنه يحتفظ بدرج ملىء بالهدايا، وقد شعرت بالامتنان لأن هذا العقد الثمين كان يحتفظ به من أجلى.

أثناء جلوسنا فى الشرفة لاحظت أن طرف إصبع حبشى الإبهام كان يتحرك ببطء عن طرف الإصبع الصغير نحو السبابة ثم يعود ثانية، وأن الحركة تتكرر دون توقف. كانت أصابعه كأنها تتوق للإنتاج على غير قدرة كل أعضاء الجسم. كان ذهنه حاضرًا، وقال: "أحتاج أن أكتب المناقشات المثيرة التى كانت تحدث بين الدارسين، عندك مثلاً اصطلاح "النوبيين المتمصرين" الذى استخدم فى سيرة بيبى نخت هيكايب الذاتية على سبيل المثال. فإنه لم يكن مقصورًا على مقبرته وقد أثار اهتمام أكثر من جيل من الدارسين. كان أول من تناوله بالدرس سير ألان جاردنر الذى زعم أنه كان يشير إلى المترجمين أو المفسرين. أما هانز جوديك فقد تعامل مع هذه الكلمات باعتبارها تعنى (الأجنبى)، أما هنرى فيشر فقد توسع فى الشرح بحيث جعلها تعنى الأجانب الذين يستخدمون ليس فقط كمفسرين، بل وكشافين وجواسيس ووكلاء وأدلاء. وأخيرًا كتب لانى بيل أفضل أطروحة عن الموضوع، ومن دراسته الشاملة استنتج أنه عند تطبيق هذا الاصطلاح على المصريين فإنه كان يعنى "المفسر" وعندما جرى تطبيقه على الأجانب أصبح يعنى "الأجانب المتمصرين" نعم لاحظى ذلك، لأننا فى حاجة للكتابة عن مثل هذه المناقشات فى سيرتى الذاتية، ويجب ألا ننسى صديقى بول غليونجى، هو طبيب بشرى كان يقوم بالتدريس، وكان له اهتمام كبير بالطب الفرعونى حتى إنه كتب مقالات ودراسات كثيرة عن الموضوع. كتبه عن "السحر وعلم التداوى فى مصر القديمة" و" الصحة والعلاج فى مصر القديمة "و"أطباء مصر الفرعونية"، حققت له الشهرة".

ولم يسترد حبشى صحته، وعاد الشتاء مرة أخرى وذهب إلى الأقصر مع عطية. وكانت الخطابات تأتى من الأصدقاء فى الخارج ولكنها كانت مواساة قليلة، كان راضيًا ولكنه لم يستسلم لقدره. كان خطه مرتعشًا، فى إحدى رسائله الأخيرة من الأقصر بتاريخ ١٤ يناير ١٩٨٤ يتضح استمرار انشغاله بالمشروعات المهمة: "أريد ان أنتهى من هيكل سيثوس الأول فى ممفيس، ويلى ذلك فى الأهمية تل الضبعة، وأنا فى حاجة إلى شخص مثل قيصر ليدفعنى إلى ذلك مثلما فعل مع

هيكايب. وعند عودته إلى القاهرة كان يعرف أنه لن يستطع استكمال هذه المشروعات وبدأ فى تجهيز ما لديه من مواد لكى يستخدمها الآخرون.

"أشعر بالسعادة لأننى لم أقم بتدريس علم المصريات". بدأ حبشى يتكلم ولكننى فقدت بقية عبارته، إذ خطر لى فجأة أن لبيب بهذا التفصيل كشف عن المفتاح الدقيق لقلقه. لم يكن له تلميذ يعيش من خلاله ولا سلالة. وقد تأكد ظنى عندما أكمل قائلاً: "الآن بعد أن توفى أربعة من إخوانى واثنتان من أخواتى، لم يتبق لى سوى أخ واحد هاجر مع العديد من أولاد الأعمام والخالات إلى كندا، ولذلك فإننى أشعر بالوحدة " ثم بدأ يتحدث كثيرًا عن الموت وإن بشكل غير مباشر وذات مساء، على الرغم من ألمه كان يصف نقشًا على لوح بالمتحف بالقاهرة واستطعت بصعوبة أن أتبين إلى أين كان يؤدى.

وجدوه فى تانيس وهو يعود إلى الأسرة الحادية والعشرين". ثم قال: "إن جزءًا من النص يشير إلى الموت وتحنيط الميت وهو كاهن فى بيت آمون كان يدعى أنخفين آمون وابنته. يبدو أن الكاهن مات فى سن الثانية والسبعين وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا؛ ويسجل النص أن جسمه ظل فى "بيت التطهير" اثنين وسبعين يومًا وأن جسد ابنته بقى سبعين يومًا، وقد لفت نظرى شيئان، الأول فترة التحنيط، لأنك ستجدين أن الحداد سبعين يومًا ما زال ساريًا فى مصر، ولذلك يمكن أن نلحظ استمرارية هنا. الشىء الثانى هو أن تسجيل السن التى مات عندها الشخص لم يظهر إلا بعد وقت طويل. دونت ملاحظاتى ثم نشرت تقريرى"، وتوقف قليلاً ثم استمر: "ويلكوكس المهندس المعمارى الذى بنى خزان أسوان الأول صمم منزلاً يشبه فيلا إنجليزية الطراز فوق جزيرة إلفنتين بناها من أنواع مختلفة من الجرانيت، أصبحت متحف إلفنتين بعد ثورة ١٩٥٢. كان رجلاً غريبًا كما تعرفين. كان مهتمًا بمصر وبالناس لدرجة أنه كان يقضى أمسياته يترجم الأناجيل إلى اللغة العربية الدارجة لتنويرهم، وعبر عن رغبته فى أن يدفن فى مصر. لم يكن هو الأجنبى الوحيد الذى أراد ذلك، فقد كان هناك إنجلباخ أمين المتحف المصرى أيضًا

ثم ألفريد لوكاس، العالم القادم من مانشستر، الذى كان مسئولاً عن القسم الكيميائى بمصلحة الآثار... كلهم أرادوا أن يدفنوا فى التربة المصرية.

وعندما يحين أجلى سأرقد فى قبر صغير فى دير قديم يسمى دير المحارب فوق جبانة طيبة. كنت قد تعرفت على القس القبطى هناك، وعندى ثقة كبيرة فى تقواه. كان صديقى، ولذلك بنيت له قبرًا كبيرًا له قبة داخل الدير حيث يرقد الآن. يوجد إلى جانبه قبر صغير مقبب سيضم يومًا ما أحد أصدقائك الطيبين، وربما يساعد ورع القس على محو خطاياه". وبعد يومين نقل لبيب حبشى إلى مستشفى الأنجلو أمريكان فى الزمالك حيث توفى وزوجته عطية إلى جانبه، فى ١٧ فبراير ١٩٨٤.

وأقيم قداس احتفالى فى كنيسة كليوباترا القبطية فى هليوبوليس حضره مندوب للرئيس والسفراء ورؤساء المعاهد الأجنبية والأسرة والأصدقاء والدارسون، حسب رغبة حبشى نقل جثمانه إلى الأقصر ليدفن فى دير المحارب. وبدأ موكب الجنازة على رصيف المحطة. ووقف أعضاء البعثات الأمريكية والفرنسية والبولندية والألمانية العاملة فى الأقصر مع جموع المصريين من كل الطوائف يشاهدون التابوت يحمل على عربة دفن الموتى تجرها مجموعة من الخيول. تقدم الموكب فرقة موسيقية قبطية يتبعها بعض حاملى الأعلام وأكاليل الزهور، وتحرك الموكب المهيب عبر شوارع الأقصر وتوقفت حركة المرور واصطف مئات المشيعين على طول الطريق، بينما تبع آخرون الموكب أثناء مساره وعبوره أمام المسجد ونقطة الشرطة إلى موقع المعدية. أغلق أصحاب المحلات أبوابها احتراما، كما دق جرس كنيسة الفرنسيسكان. وأنزل تابوت لبيب حبشى إلى مقابر النبلاء القدامى على مقابر طيبة عبر نهر النيل إلى الضفة الغربية وحيث تبعه موكب مكون من ثمانى عشرة سيارة لنقل الموتى إلى مكان الراحة الأخيرة، وهو القبر المتواضع المقام من الطوب اللبن الذى كان قد أعده لنفسه فى الدير. بعد مرور اثنى عشر يومًا على الجنازة سافرت عطية يصحبها أعضاء اللجنة الدائمة لهيئة الآثار المصرية إلى

الأقصر للقيام بأداء طقوس الاحترام عند القبر، ومنذ ذلك الحين أصبح القبر مزارًا لمن كان حبشى يود أن يطلق عليهم "المحبون الذين يحيون ذكراى" وقد قدم أعضاء البعثة البولندية للآثار فى الأقصر شاهد قبر من الرخام. وهناك فى ذلك المجتمع الهادىء عند حافة الصحراء أصبح قبره مكانًا لأولئك المدينين له بالفضل لمساعداته القيمة.

شكل رقم ٧٨: شاهد قبر حبشى

بعد مرور شهر على وفاة حبشى أذيعت حلقة تليفزيونية ثانية من سلسلة حلقات النوبة وكان عنوانها "هيكل هيكايب، "ما كان أسعده لو شاهدها !": قالت ذلك عطية الحزينة التى لم تعش طويلاً بعد زوجها. ماتت فى نوفمبر ١٩٨٧.

وبعد ثلاث سنوات من وفاة حبشى اكتشفت ورشة إغريقية قديمة على جزيرة إلفنتين وجدوا فيها تمثالاً دون رأس من هيكل هيكايب، ومن المحتمل أن تكون الكتل الحجرية قد نقلت إلى هنـــاك لإعـــادة تصنيعها فى شكل تمثال أصغر أو لوح أو أنها استعملت كمطرقة" كما قال ورنر قيصر، "وأن لبيب كان سيشعر بالسعادة إذا عرف أن هناك قطعًا أخرى من الهيكل كانت ما زالت تظهر"

أما تقرير لبيب حبشى عن متحف إلفنتين المؤرخ فى أكتوبر ١٩٨٢ والذى تضمن رؤيته لهيكل هيكايب بعد تطويره ليصبح متحفًا مفتوحًا، فقد تمت الموافقة عليه أخيرًا فى سنة ١٩٨٧، واتخذت خطوات بمعرفة المعهدين الألمانى والسويسرى لإزالة السقف الحامى لبدء العمل فى إعادة ترميم الحوائط السفلية للأضرحة المختلفة. تقرر أن تترك الهياكل الصغيرة فى أماكنها وكذلك الألواح الأربعة الكبيرة، والآن ظهرت فخامة الهيكل الذى يعود إلى المملكة الوسطى بعد أن أصبح معروضًا فى قاعة العرض بمتحف النوبة فى أسوان، بينما وضعت نماذج جبسية لأهم القطع فى أماكنها الأصلية. لم يتم تطوير الهيكل كما اقترح حبشى إلى متحف مفتوح، ولكن أعيد وضع سقف له لحمايته.

ولتخليد ذكرى لبيب حبشى، وإجلالاً للسنوات العديدة التى ارتبط فيها بالمركز الرئيسى للمعهد الشرقى لشيكاغو فى الأقصر، أنشئ صندوق تمويل لكى تستخدم أمواله فى المساعدة فى دفع نفقات مكتبة المراجع فى بيت شيكاغو، ولكى يظل الدارس المصرى حيا بين الكتب والدارسين الذين أحبهم وساعدهم وكذلك

الناس الذين أحبوه واحترموه(*). أما أرشيفات لبيب حبشى فى المكتبة فمازالت مستعملة بمعرفة الدراسين من كل أنحاء العالم. كما أن جوائز حبشى معروضة بالقرب من الشباك المطل على الخليج حيث يعمل على مكتب كبير. المكتب نفسه تم نقله إلى غرفة مكتب المدير.
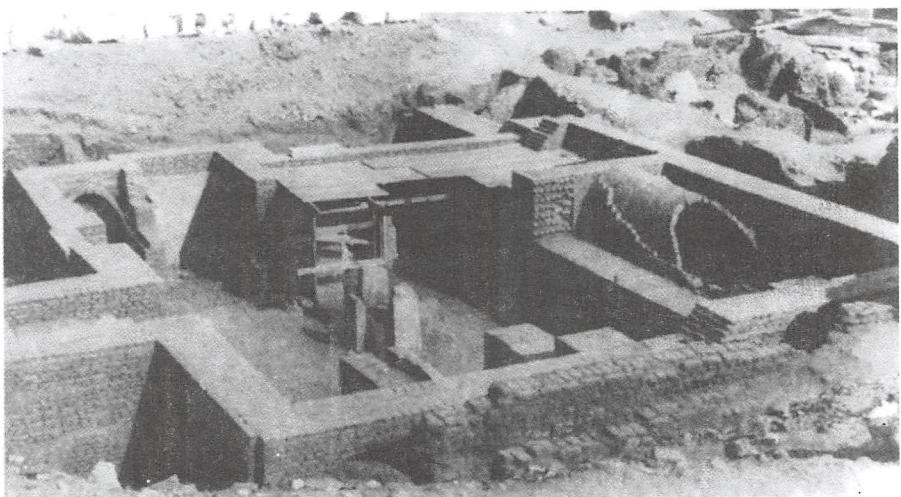
شكل رقم ٧٩: هيكل هيكايب أثناء ترميمه فى سنة ١٩٨٨

(*) الإسهامات فى صندوق التمويل باسم ***The Oriental Institute***
وترسل بالبريد على العنوان التالى:
Labib Habachi Fund, the Oriental Insitute, 1155East 58 th street, Chicago, Illinois 60637.

شكل رقم ٨٠: لبيب حبشى فى آخر عيد ميلاد احتفل به فى الأقصر سنة ١٩٨٣

الفصل الرابع عشر

الخاتمة

فى المؤتمر الدولى الرابع للمصريات الذى عقد فى ميونيخ فى خريف ١٩٨٥، عرض مجلدان كبيران من "هيكل هيكايب"، كتاب لبيب حبشى، ووقف الموجودون دقيقة صمت إحياء لذكراه. كانت وفاته علامة على انتهاء عصر. حتى أيامه الأخيرة كان جيل كامل من علماء المصريات مدينًا له بسبب مساعدته وخبرته، ليس فى الشئون الدراسية فحسب، بل فى العمل الميدانى كذلك. لم يكن لدى أى دارس آخر سواء أكان مصريًا أو أجنبيًا مثل تلك المعرفة الوثيقة بالآثار المادية للفترة الفرعونية أكثر منه. حبشى الذى لم يضن بوقته وبخاصة بالنسبة لشباب المصريين الطامحين، كان صديقًا مخلصًا ومستشارًا لكثيرين، ومستعدًا دائمًا لمساعدة أولئك المنخرطين فى مشروعات جديدة بالرعاية. ولايزال صدى سيره وتصميمه ونتاجه يتردد إلى اليوم باعتزاز بأن "أينما قامت الأجيال القادمة بالحفر ونظرت فى سجل ما تم تنفيذه فسيجدون اسمى".

كان "علم المصريات فى التسعينيات" هو موضوع ذلك المؤتمر فى ميونيخ، وكان من بين الأسئلة التى أثيرت فى الجلسة الافتتاحية: إلى أين نمضى ؟ هل نحن مدركون لمسئولياتنا ؟ وهل نستطيع تناولها ؟ وكانت هذه الأسئلة قد تأخرت طويلاً لأن علم المصريات تطور بشكل سريع خلال القرن العشرين. إن الحقل الذى افتتحه فلندرز بترى عندما طور نظامَ تتابع زمنيًا مؤسسًا على تقلبات شكل الفخار من ٩٠٠ سنة فى مقابر ما قبل الأسرات، ويمتد اليوم زمنيًا إلى الوراء عبر العصر الحجرى الحديث (٣٤٠٠ – ٦٠٠٠ ق. م.) إلى ثقافات العصر الحجرى الأبعد والأوسط والأدنى. لم تعد قطع الفخار المكسورة الآن غير ذات قيمة، فقد

أصبحت الدراسات التحليلية على شقفات الفخار من المواقع الأثرية البعيدة تمكن الدارسين اليوم من متابعة الصلات الاقتصادية والثقافية بين المجتمعات القديمة، وكذلك الاختلافات الإقليمية فى الفخار فى الفترة الواحدة، كل الاستنتاجات المتعلقة بفترة ماقبل الأسرات فى مصر والمؤسسة على الأساطير والنصوص الدينية ومراكز العبادة الإقليمية فى الفترات المتأخرة كلها مرفوضة الآن. وما كان يبدو فى فترة ما حقلاً محدودًا للدراسة يبدو اليوم بلا حدود. إن ثراء المعرفة المتراكمة ومعدل زيادتها يجعل فهمها سهلاً وصعبًا فى آن واحد.

حتى النصف الثانى من القرن العشرين، كان دارسون مثل بومجارتل يعتقدون أن مصر السفلى والدلتا كانت فى معظمها مستنقعات غير صالحة للاستقرار قبل عصر الأسرات. ثم كشفت الدراسات التالية التى قام بها ك. و. عن أن الذى بناها لم يكن رواسب الطمى فى الألف الأخيرة وأن الأحوال الطبيعية فى خلال عصور ماقبل الأسرات كانت فى الحقيقة مختلفة قليلاً مما هى عليه اليوم، (بوترز ١٩٧٦)، وعلاوة على ذلك فإن الكثير من الموانع بين "الفترات العظيمة" المختلفة من التاريخ المصرى كانت رفعت وتواصلت الاستمرارية حتى عندما كانت الحدود الطبيعية للدراسة قد انتشرت أبعد مما كانت من قبل، إلى مروى شمال السودان وجبل الزيت على شاطئ البحر الأحمر ومناطق بعيدة فى شمال غرب مصر حتى الحدود الليبية.

أما عن أساليب البحث عن الآثار، إذا نظرنا إلى تلك التى مارسها الدارسون الأوائل ومقارنتها بالأساليب المستخدمة اليوم، فسنجد تغيرًا كبيرًا فى الأولويات. إن علماء الآثار المصريين اليوم، على خلاف الرواد الذين كانوا فى معظمهم علماء اللغة والباحثين الأثريين، هم من علماء الاجتماع والأجناس والنقوش ودارسين من تخصصات أخرى. ودراسات أخرى تجرى اليوم فى كل جوانب المجتمع المصرى القديم مثل نظام الحكم والقانون والفنون والصناعات والزراعة وعادات تناول الطعام أكثر من قبل، أما المومياوات التى كانت محل اهتمام منذ القدم، ولكن بينما

كان الحفر عن الأجساد يتم فى الماضى بدافع الفضول ويتم تصديرها بسبب خصائصها الطبية أو تخزن، اليوم يتم دراستها بالمعدات الحديثة مثل أشعة إكس والأشعة المقطعية، التى كشفت الكثير عن معدلات العمر والصحة والأمراض المتوطنة وغيرها عند قدماء المصريين، وقد سهلت شبكة معلومات المكتبات البحثية (*RLIN*) اليوم دراسة الأورام فى مومياوات قدماء المصريين وكما يقدم بنك معلومات الأورام المزيد من المعلومات.

لقد أصبح علم المصريات علمًا متخصصًا ينقسم إلى ما لا يقل عن ٢١ فرعًا، والتركيز اليوم على العمل الميدانى، ليس فقط حفائر المواقع الجديدة بل إعادة مسح مواقع أخرى لم يتم حفرها أو تسجيلها جيدًا بمعرفة علماء المصريات الأوائل. وأعيد فحص النظريات السابقة بما فيها البعض عن أشهر الشخصيات المصرية. لقد قال و. كيللى سيمبسون من جامعة ييل رئيس الاتحاد الدولى لعلماء المصريات أمام المؤتمر إنه على الرغم من سعادته لرؤية العديد من الكتب والنشرات عن مصر القديمة تظهر فى السوق، فإنه من الأهمية بمكان ألا نفقد النظرة الشاملة لمصر القديمة ككل.

وتحدثت فايزة هيكل أستاذة المصريات بجامعة القاهرة أمام المؤتمر عن الحاجة إلى تتبع جذور مصر المعاصرة بلا تأخير. "لقد دخل جيل جديد إلى العالمية حيث يتحدث الشباب بلهجة حديثة ويتصرف بشكل مختلف". ثم قالت: "هذا هو آخر جيل نستطيع الإمساك به لعمل دراسة شاملة، وعلينا أن نحاول تحديد ملامح مصر القديمة فى الحياة اليومية للمصريين المحدثين، فى تعبيراتهم وسلوكهم وفى روح الشعب نفسها. ولابد لنا من تطوير نوع من دوائر المعارف عن الأشياء الباقية. لقد ظل علماء المصريات فترة طويلة على علم بالتشابه بين القدماء والمحدثين، والآن حان الوقت للقيام ببحث جاد قبل أن تطمس المصطلحات الحديثة، وأساليب التفكير والسلوك الهوية المصرية". من المؤكد أن مثل هذه الملاحظات كان ليعجب بها لبيب حبشى وأنه كان سيثنى عليها.

ولعله كان أيضًا سيوافق على الخطوات التى تتخذ الآن لتدريب المفتشين المحليين فى مجال الآثار وإدارة المواقع الأثرية وحمايتها، ويزكى البرامج الثقافية للأطفال والكبار الذين يحاولون تأكيد شعورهم بالانتماء الوطنى ويزيدون من وعيهم الثقافى والأثرى.

ويستطيع المرء أن يتخيل كيف كان حبشى سيؤيد عودة الآثار المهربة إلى مصر، من خلال هيئة الآثار المستعادة، ويعبر عن ابتهاجه للنجاح المتواصل لمعارض الآثار المصرية فى الخارج. ولكن لاشك أنه كان سيروعه أنه عاش ليرى تطور السياحة الحديث ينتهك حرمة المواقع الأثرية، أو سبعة آلاف سائح فى يوم واحد فى وادى الملوك يلحقون الضرر بالنقوش التى عاشت آلاف السنين.

الاختصارات المستخدمة

محفوظات أرشيف الآثار المصرية، ڤيينا	*AÄA*
معهد الآثار الألمانى بالقاهرة	*ADAIK*
حوليات هيئة الآثار بمصر	*ASAE*
مكتبة الدراسات التى قام بها المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة	*BdE*
المكتبة الخاصة بالآثار بالقاهرة	*BE*
نشرة المعهد المصرى بالقاهرة	*BIÉ*
مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة	*BIFAO*
مجلة المعهد المصرى	*Bid'Égypte*
المكتبة الشرقية فى بروكسل	*BiOr*
نشرة المعهد الملكى البلجيكى للعلوم الاجتماعية فى بروكسل	*BSAB*
مصر القديمة – بروكسل	*CdE*
كراسات التاريخ المصرى – القاهرة	*CHE*
مجلة *Gottinger Miszellin* فى جوتنبرج	*GM*
جمعية اكتشاف مصر بلندن	*EES*
المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة	*IFAO*
جريدة المركز الأمريكى للأبحاث فى مصر – بوسطن	*JARCE*
جريدة الآثار المصرية فى لندن	*JEA*
جريدة جمعية دراسة الآثار المصرية	*JSSEA*
جريدة هيئة الآثار السوادنية بالخرطوم	*KUSH*
المعجم المصرى، ڤسبادن (طبع بمعرفة *W. Helck*، *E. Otto*)	*LdÄ*
أرشيف لبيب حبشى فى منزل شيكاغو بالأقصر	*LHA*
محفوظات المعهد الألمانى بالقاهرة	*MDAIK*

ذكريات المعهد المصرى بالقاهرة (قبل سنة ١٩١٩ المعهد المصرى)	*MIE*
المذكرات التى نشرت بمعرفة أعضاء المعهد الفرنسى للآثار الشريقة بالقاهرة	*MIFAO*
متحف المتروبوليتان للفنون فى نيويورك	*MMA*
نشرة مركز الأبحاث الأمريكى فى مصر	*NARCE*
مطبوعات المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو فى شيكاغو	*OIP*
المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو بالاشتراك مع هيئة الآثار فى مصر	*Orant*
مجلة المصريات بالقاهرة	*RdE*
مجلة الدراسات الأثرية فى برلين	*SAK*
ملحق حوليات هيئة الآثار بمصر	*SASAE*
مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية	*SOAS*
مجلة معهد *Wiener zeit schrift fudi des Morgenlands, Vienna*	*WZKM*
مجلة معهد: *Zeitschrift fud Agyptische sprache und Alter .tu mskunde, Leipzigand Berlin*	*ZÄS*
معهد: *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, Leipzig and Wiesbaden*	*ZDMG*

المراجع العلمية للكتاب

Bibliography

- *Adams, W.J. 1984. Nubia: Corridor to Africa, 2nd ed. London and Princeton: Princeton University Press.*

- *Amin, Ahmed. 1978. My Life: The Autobiography of an Egyptian Scholar, Writer,and Cultural Leader. Leiden: Brill Academic Publishers.*

- *Badawi, Ahmed. 1942. "Denkmäler aus Sakkara," ASAE 48, pp.1-20.*

- *Badawi, Ahmed. 1943. "Temple of Ramesses II at Memphis," ASAE 51, pp.14-28.*

- *Baikie, James. 1932. Egyptian Antiquities in the Nile Valley. London: Methuen.*

- *Baraka, Magda. 1988. The Egyptian Upper Class Between Revolutions: 1919-1952. Reading,UK: Ithaca Press for Garnet Publishers.*

- *Baumgartel, E.J. 1955.The Cultures of Prehistoric Egypt. Vol. I, 2nd ed.*

- *London: Oxford University Press.*

- *Bietak, M. 1975. Tell al-Dab'a II.Vienna: Verl.d. Österr.*

- *Bietak, M. 1981. Avaris and Piramesse: Archaeological Exploration on the Eastern Nile Delta. London and Oxford.*

- *Boulos, Tewfik. 1937. "Excavations at Shaykh Nassir and el-Deir near Abydos," ASAE 54,pp. 16-18.*

- *Bowman, Alan K.1986 Egypt After the Pharaohs (332 BC-AD 642). London: Butish Museum Publieations.*

- *Brunton. Guy. 1928. The Badarian Civilisation and Predvnastic Remains New Badari London Qumitch.*

- *Brunton, Guy. 1932. "The Predynastic Town-site Hierakonopolis," in Studies Presented to F.LI. Griffiths, pp. 272 76.London.*

- *Brunton, Guy. 1947. "Oracle of Kom el-Wist," ASAE 48,pp.293 95.*

- *Butzer, K.W. 1976. Early Hydraulic Civilization in Egypt. A Study in Cultural Ecology (Prehistoric Archaeology and Ecology Series). Chicago and London: University of Chicago Press.*

- *Capart, Jean. 1937-1938. "Foundation Egyptologique Reine Elizabeth a el-Kab," ASAE.*

- *Cecil, Lady Williams. 1932. "Report on Work Done at Aswan". ASAE 4,pp.51-71, and ASAE 6,pp.273-83.*

- *Crabbs, Jack A., Jr. 1984. The Writing of History in Nineteenth-Century Egypt: A Study of National Transformation. Cairo: The American University in Cairo Press.*

▪ *Crabities, Pierre Ismail. 1933. Ismail: The Maligned Khedive. London: Routledge.*

▪ *Cromer, The Earl of. 1908. Modern Egypt, 2 vols. London: Macmillian.*

▪ *Desrouche-Noblecourt, C. and Gerster, G. 1968. The World Saves Abu Simbel. Vienna and Berlin: A.F.Koska.*

▪ *Drioton, Êtienne and Lauer, Jean-Philippe. 1951. Sakkarah: The Monuments of Zoser. Cairo: Imprimerie de l'Institut Français d'Archaeologie Orientale.*

▪ *Drower, Margaret S. 1985. Flinders Petrie: A Life in Archaelogy. London: Victor Gollancz.*

▪ *Edel, Elmar. 1961-1962. "Work at Aswan. Qubbat al-Hawa". ASAE65, pp.77-89 and 91-94.*

▪ *Edwards, Amelia. 1877. A Thousand Miles up the Nile. Bath: The Bath Press.*

▪ *Egyptology at the Dawn of the Twenty-first Century. Proceedings of the Eighth International Congress of Egyptologists, Cairo, 2000, 3 vols. Cairo:The American University in Cairo Press.*

▪ *Emery, Walter B. 1949. Nubian Treasure: An Account of the Discoveries at Ballana and Qustul. London: Methuen.*

▪ *Emery, Walter B. 1964. "Egypt Exploration Society: Preliminary Report on Work at Buhen, 1962-63". Kush: Journal for the Sudan Antiquities Service, 12.*

▪ *Epigraphic Survey of the University of Chicago's Oriental Institute publica-tion, in cooperation with the Department of Antiquities in Egypt. 1980.Tomb of Kheruef (Theban Tomb 192), Vol. 102.*

▪ *Fakhry, Ahmed. 1973. The Oases of Egypt. Vol. I, Siwa Oasis. Cairo: The American University in Cairo Press.*

▪ *Fakhry, Ahmed. 1974. The Oases of Egypt. Vol.II, Farafra Oasis. Cairo: The American University in Cairo Press.*

▪ *Fathy, Hassan. 1989. Architecture for the Poor. Cairo: The American University in Cairo Press.*

▪ *Festchrift für Labib Habachi, Vol. 37. 1981. Mainz/Rhein: Verlag Philipp von Zabern.*

▪ *Fischer, Henry George. 1996. The Tomb of 'Ip at al-Saff. Lunenburg, Vermont: The Stinehour Press.*

▪ *Gabra, S., E. Drioton, P. Perdrizet, and W.G. Waddell. 1941. Rapport sur Fouilles d'Hermopolis Quest. Cairo.*

▪ *Gabra, Sami. 1943. "Aspect du culte des annimaux à Hermopolis-Ouest," Bld'Égypte, T.XXV, pp. 237-44, 5 pls.*

▪ *Ghaliounghi, Paul. 1947. "A Medical Study of Akhenaten," ASAE 47:29-46.*

▪ *Gohary, Jocelyn. 1998. Guide to the Nubian Monuments on Lake Nasser. Cairo: The American University in Cairo Press.*

▪ *Greener, Leslie. 1962. High Dam over Nubia. London: Cassell.*

▪ *Habachi, Labib. 1937. "Une 'vaste salle' d'Amenemhat III à Kiman Faràs (Fayoum)," ASAE 37, pp. 85-95.*

▪ *Habachi, Labib. 1938. "Decouvertes de Karnak (1936-37)". ASAE 38, pp. 69-84, pls. 11-13.*

▪ *Habachi, Labib. 1939. "A 1st Dynasty Cemetery at Abydos," ASAE 39, pp. 767-74, pls. 142-45.*

▪ *Habachi, Labib. 1941. "The Monument of Biyahmu," ASAE 40, pp. 721-32, pls. 83-86.*

▪ *Habachi, Labib. 1943. "Sais and its Monuments," ASAE 42, pp. 369-407, pls. 23-28.*

▪ *Habachi, Labib. 1944. "Bubastis and its temples," Egyptian Gazette, June 30.*

▪ *Habachi, Labib. 1947. "Kom el-Wist Finds," ASAE 47, pp. 285-87, pls. 34-35.*

▪ *Habachi, Labib. 1947. "A Statue of Osiris Made for Ankhefenamun, Prophet of the House of Amun in Khapu and His Daughter," ASAE 47, pp. 261-82, pls. 32-33.*

▪ *Habachi, Labib. 1950. "An Inseription at Aswan Referring to Six Obelisks," JEA 36, pp. 13-18, pl. 3.*

▪ *Habachi, Labib. 1950. "Was Anukis Considered as the Wife of Khnum or as His Daughter," ASAE 50, pp. 501-507.*

▪ *Habachi, Labib. 1951. "Clearance of the Area to the East of Luxor Temple and Discovery of Some Objects," ASAE 51, pp. 447-68, pls. 1-5.*

▪ *Habachi, Labib. 1951. "Notes on the Altar of Sekhemre-Sewadjtowe Sebkhotpe from Sehel," JEA 37, pp. 17-19.*

▪ *Habachi, Labib. 1953. "Graffito of the Chamberlain and Controller of Works Antef at Sehel," JEA 39, pp. 50-59.*

▪ *Habachi, Labib. 1954. "Khata'na-Qantir: Importance," ASAE 52, pp. 443-562, pls. 1-38; Studia Aegyptiaca 37, Studies on the Middle Kingdom. Budapest 1987.*

▪ *Habachi, Labib. 1954. "Grands personages en mission ou de passage à Assouan: Mey, attaché au temple de Re," CdE, pp. 210-20.*

▪ *Habachi, Labib. 1955. "Preliminary Report on Kamose Stela and Other Inscribed Blocks Found Reused in the Foundations of Two Statues at Karnak," ASAE 53, pp. 195-202, pl. 1.*

▪ *Habachi, Labib. 1955. "Notes on the Delta Hermopolis, Capital of the XVth Nome of Lower Egypt," ASAE 53, pp. 441-80.*

▪ *Habachi, Labib. 1955. "A Strange Monument of the Ptolemaic Period from Crocodilopolis," JEA 41, pp. 106-11, pls. 21.*

▪ *Habachi, Labib. 1955. "La liberation d l'Égypte de l'occupation des Hyksos,"Les Grandes Découvertes Archéologiques de 1954, Numéro Spécial RC 175, pp. 52-58. pls. 36.*

▪ *Habachi, Labib. 1955. "Découverte d'un temple-fortresse du Ramsés II," Les Grandes Découvertes Archéologique de 1954, Numéro Spécail RC 175, pp. 62-65.*

▪ *Habachi, Labib. 1956. "Rizkallah Naguib Makramallah (1903-1949)," ASAE 54, pp. 43-46.*

▪ *Habachi, Labib. 1956. "Amenwahsu Attached to the Cult of Anubis, Lord of the Dawning Land," MDAIK 14, pp.52-62, pls. 2-3.*

▪ *Habachi, Labib. 1956. "Hekaib the Deified Governor of Elephantine," Archaeology 9, pp. 8-15.*

▪ *Habachi, Labib. 1957. Tell Basta, SASAE 22.*

▪ *Habachi, Labib. 1957. "Two Graffiti at Sehel from the Reign of Queen Hatshepsut," JNES 16, pp. 88-104.*

▪ *Habachi, Labib. 1957. "A Statue of Bakennhifi, Nomarch of Athribis During the Invasion of Egypt by Assurbanipal," MDAIK 15, pp. 68-77, pls. 5-9.*

▪ *Habachi, Labib. 1957. "A Group of Unpublished Old and Middle Kingdom Graffiti on Elephantine," Festschrift H. Junker. WZKM 54, pp. 55-71, pls.1-4.*

▪ *Habachi, Labib. 1957. "The Graffiti and Work of the Viceroys of Kush in the Region of Aswan," Kush: Journal for the Sudan Antiquities Service 5, pp.13-36, pls. 5-8.*

▪ *Habachi, Labib. 1958a. "God's Fathers and the Role They Played in the History of the First Intermediate Period," ASAE 55, pp. 167-90, pls. 1-4.*

▪ *Habachi, Labib. 1958b. "Clearance of the Tomb of Kheruef at Thebes (1957-58)," ASAE 55, pp. 325-50, pls. 1-22.*

▪ *Habachi, Labib. 1959. "The First Two Viceroys of Kush and Their Family," Kush: Journal for the Sudan Antiquities Service 7, pp. 45-62, pls. 15-18.*

▪ *Habachi, Labib. 1959. Contribution to The Excavations of the Southwest Corner of the Enclosure Wall of the Great Temple of Ptah at Memphis. R. Anthes, Mit Rahineh 1955, pp. 3-5.*

▪ *Habachi, Labib. 1959. "Town of History and Beauty," Egypt Travel Magazine 55, pp. 30-35.*

▪ *Habachi, Labib. 1959. "Aswan and the Famous Men Who Made It," Egypt Travel Magazine 56, pp. 6-11.*

▪ *Habachi, Labib. 1960. "Five Steles from the Temple of Amenophis III at Es-Sebua' Now in Aswan Museum," Kush: Journal for the Sudan Antiquities Service 8, pp. 45-52, pls. 16-18.*

▪ *Habachi, Labib. 1960. "Notes on the Unfinished Obelisk of Aswan and Another Smaller One in Gharb Aswan," A La mémoire de W.Golénischeff,pp. 216-35.*

▪ *Habachi, Labib. 1960. "The Nile and the Region of Aswan," Egypt Travel Magazine 72, pp. 21-26.*

▪ *Habachi, Labib. 1961. "A statue of 'Triton' from Gaza," JNES 20, pp. 47-49, pls. 1-2.*

▪ *Habachi, Labib. 1961. "Four Objects Belonging to Viceroys of Kush and Officials Associated with Them," Kush: Journal for the Sudan Antiquities Service 9, pp. 210-25, ppls. 27-29.*

▪ *Habachi, Labib. 1962. "Neue Entdeckungen in Ägypten," ZDMG 111, pp. 436-39.*

▪ *Habachi, Labib. 1962. "Rosetta," Egypt Travel Magazine 94, pp. 21-28.*

▪ *Habachi, Labib. 1962. "II Museo dei Faraoin," Le Vie del Mondo (Touring Club Minano) 6, pp. 586-96.*

▪ *Habachi, Labib. 1963. "King Nebhepetre Menthuhotep. His Monuments, Place in History, Deifieation and Unusual Representations in the From of Gods," MDAIK 19, pp. 16-52, pls. 4-14.*

▪ *Habachi, Labib. 1963. "Edjo, Mistress of Bebt (Bilifya, near to Ihnasya el-Medineh),"ZÄS 90, pp. 41-49, pl. 8.*

▪ *Habachi, Labib. 1964. "A New Nubia," Egypt Travel Magazine 114, pp. 30-35.*

▪ *Habachi, Labib. 1963. "A Family from Armant in Aswan and in Thebes," JEA 51, pp. 123-36, pls. 17-18.*

▪ *Habachi, Labib. 1965. "Varia from the Reign of King Akhenaten," MDAIK 20, pp. 70-92, pls. 21-31.*

▪ *Habachi, Labib. 1965. "The Triple Shrine of the Theban Triad in Luxor," MDAIK 20, pp. 93-97, pls. 32-33.*

▪ *Habachi, Labib. 1965. "The Discovery of the Northern Tower of the Pylon and its Inscriptions," R.Anthes, Mit Rahineh 1956, pp. 60-64, 20-23.*

▪ *Habachi, Labib. 1966. "Three Monuments of the Unknown King Sehetepibre Pedubastis," ZÄS 93, pp. 69-74, pls. 5-6.*

▪ *Habachi, Labib. 1966. "The Qantir Stela of the Vizier Rahotep and the Statue 'Ruler-of-Rulers,'" Festgabe für W. Will, pp. 67-77.*

▪ *Habachi, Labib. 1966. "Review of R.A. Caminos and T.H.G. James, Gebel es-Silsilah, 1". The Shrines, Bior 23, pp. 46-48.*

▪ *Habachi, Labib. 1966. "Les temples de Karnak témoins de l'histoire pharaonique," Vie des Arts (Montreal) 42, pp. 20-29.*

▪ *Habachi, Labib. 1967. "An Embalming Bed of Amenhotep, Steward of Memphis Under Amenophis III," MDAIK 22, pp. 42-47, pls. 10-12.*

▪ *Habachi, Labib. 1967. "Per-Ra'et and Per-Ptah in the Delta," CdE 42, pp. 30-40.*

▪ *Habachi, Labib. 1967. "Tongefässe und Kleinfunde, in Ricke, Ausgrabungen von Khor-Dehmit bis Bet el-Wali," Oriental Institute Nubia Expedition 2, pp. 46-70.*

▪ *Habachi, Labib. 1967. "Setau, The Famous Viceroy of Ramesses II, and His Career," Nube, CHE 10, pp. 51-68.*

▪ *Habachi, Labib. 1968. "The Owner of Tomb No. 282 in the Theban Necropolis," JEA 54, pp. 107-13, pls. 17/2-3.*

▪ *Habachi, Labib. 1968. "Tomb No. 226 of the Theban Necropolis and its Unknown Owner," Festschrift für S. Schott, pp. 61-70, pl. 3.*

▪ *Habachi, Labib. 1968. "Nakht, Proprietaire de la Tomb No. 397 de la Nécropole Thébaine et sa Famille," Kêmi 18, pp. 51-56.*

▪ *Habachi, Labib. 1968. "Review of J. von Beckerath, Untersuchungen zur politischen Geschichte der Zweiten Zwischenzeit in Ägypten," CdE 43, pp. 78-82.*

▪ *Habachi, Labib. 1968. "Review of M.-P.Fouchet, Nubien, Geborgene Schatze (and English version: Rescued Temples of Egypt," BiOr 25, pp. 189-90.*

▪ *Habachi, Labib. 1969. "Features of the Deification of Ramesses II," ADAIK 5.*

▪ *Habachi, Labib. 1969. "Divinities Adored in the Area of Kalabsha with a Special Reference to the Goddess Miket," MDAIK 24, pp. 169-83, pls. 30-32.*

▪ *Habachi, Labib. 1969. "La reine Touy, femme de Séthi I, et ses proches par-ents inconnus," RdE 21, pp. 27-47, pls. 1-3.*

▪ *Habachi, Labib. 1969. "The Deluge in Lower Nubia," Archaeology 22, pp. 196-203.*

▪ *Habachi, Labib. 1969. "The Administration of Nubia During the New Kingdom, with Special Reference to the Discoveries Made During the Last Few Years," Actes du Symposium International sur la Nubie, Le Caire 1965, MIE 59, pp. 65-78.*

▪ *Habachi, Labib. 1969. "The Ancient Royal Genealogies of Egypt," Proceedings of the World Conference on Records and Genealogical Seminar, Salt Lake City, Utah (August 6), pp. 1-11, pls. 1-6, and map.*

▪ *Habachi, Labib. 1969. "Sculpture a Abu-Simbel: Bréves images d'un long sauvetage," Vie des Arts (Montreal) 54, pp. 58-61.*

▪ *Habachi, Labib. 1970. "Le mur d'enceinte du grand temple d'Amenre à Karnak," Kêmi 20, pp. 229-35, pls. 21.*

▪ *Habachi, Labib. 1970. "Jaroslav Çerny (Pilsen 1898, Oxford 1970)," NARCE 74, pp. 19-21.*

▪ *Habachi, Labib. 1971. "The Jubilees of Ramesses II and Amenophis III with Reference to Certain Aspeets of their Celebration," Festschrift W. Wolf, ZÄS 97, pp. 64-72, pls. 5-7.*

▪ *Habachi, Labib and P. GhalioungHi. 1971. "The 'House of Life' of Bubastis," CdE 46, pp. 59-71.*

▪ *Habachi, Labib. 1971. "Akhenaten in Heliopolis," Festschrift H. Ricke, Beiträge Bf. 12, pp. 35-45, pl. 14.*

▪ *Habachi, Labib. 1971. "Akhenaten in Heliopolis," Festschrit Ricke: Beiträge zur Ägyptischen Baufforschung und Altertumskunde 12, pp. 35-45.*

▪ *Habachi, Labib. 1971. "Review of R.A. Caminos, The Shrines and Rock-inscriptions of lbrim," BiOr 28, pp. 186-88.*

▪ *Habachi, Labib. 1972. "The Second Stela of Kamose and His Struggle Against the Hyksos Ruler and His Capital," ADAIK 8.*

▪ *Habachi, Labib. 1972. "Nia, the W'b-priest and Doorkeeper of Amun-of-the-Hearing-Ear". BIFAO 7, pp. 67-85.*

▪ *Habachi, Labib. 1972. "Graffiti in the Area of the First Cataract," Textes et Langages de l'Égypte pharaonique, Hommage à J.-F. Champollion, BdE 64/2, pp. 185-92.*

▪ *Habachi, Labib. 1972. "The Destruction of Temples in Egypt". Medieval and Middle Eastern Studies in Honor of Aziz Suryal Atiya, pp. 192-98, and map.*

▪ *Habachi, Labib. 1972. "Review of J.-F. Champollion, Monuments de l'Égypte et de la Nubia," Vols. I-II," BiOr 29, pp. 159-60;*

▪ *Habachi, Labib. 1973. "Review of J.-F. Champollion, Monuments de l'Égypte et de la Nubia," Vols. III-IV BiOr 30, pp. 392-93.*

▪ *Habachi, Labib. 1973. "The Two Rock-Steles of Sethos I in the Cataract Area Speaking of Huge Statues and Obelisks," BIFAO 73, pp. 113-25, pls. 10-11.*

▪ *Habachi, Labib. 1973. "Le Perle de l'Égypte sur le point de changer de place," Archaeologia 55, pp. 70-72.*

▪ *Habachi, Labib. 1974. "Sethos I's Devotion to Seth and Avaris," Gedenkschrift für S.Morenz, ZÄS 100, pp. 95-102, pls. 5-6.*

▪ *Habachi, Labib. 1974. "Amenophis III et Amhotep, Fils de Hapou à Athribis," RdE 26, pp. 21-33, pls. 1-2.*

▪ *Habachi, Labib. 1974. "Three Large Rock-Steles Carved by Ramesses II near Quarries," JARCE 11, pp. 69-75, pls. 6-12.*

▪ *Habachi, Labib. 1974. "A High Inundation in the Temple of Amenre at Karnak in the Thirteenth Dynasty," SAK 1, pp. 207-14, pls. 1-2.*

▪ *Habachi, Labib. 1974. "Three Objects of Unusual Form," Recueil d'études dédiées à V. Wessetsky, Studia Aegyptica 1, pp. 137-50.*

▪ *Habachi, Labib. 1974. 'Lids of the Outer Sarcophagi of Merytamen and Nefertari, Wives of Ramesses II," Festschrift zum 150*

jährigen Bestehen der Berliner Ägyptischen Museums, Mitteilungen aus der Ägyptischen Sammlung 8, pp.105-12, pls. 10-12, figs. 2-3.

▪ *Habachi, Labib. 1974. "Psammetique II dans la région de la premiére cataracte," OrAnt 13, pp. 317-26, pls. 19-20.*

▪ *Habachi, Labib. 1974. "Review of N. Farag and Z. Iskandar, The Discovery of Neferwptah," OrAnt 13, pp. 336-37.*

▪ *Habachi, Labib. 1974. "Review of J. Monnet-Salah, Les antiquités Égypti-ennes de Zaghreb," OrAnt 13, p. 338-39.*

▪ *Habachi, Labib. 1975. "Building Activities of Sesostris I in the Area to the South of Thebes," MDAIK 31, pp. 27-37, pls. 12-14.*

▪ *Habachi, Labib. 1975. "The Four Hundred Year Stela Originally Standing in Khata'na-Qantir or Avaris-Piramesse". Actes du 29e Congres des Orientalistes, Paris 1973, 1-Egyptologie, pp. 41-44.*

▪ *Habachi, Labib. 1975. "Review of W. Helck und E.Otto (Hrsg.), Lexikon der Ägyptologie I," Lief. 1-5, BiOr 32, pp. 193-94.*

▪ *Habachi, Labib. 1976. "Miscellanae on Viceroys of Kush and their Assistants Buried in Dra' Abu el-Naga, South," JARCE 13, pp. 113-16, pls. 33-36.*

▪ *Habachi, Labib. 1976. "Two More Steles of King Tiberius Unearthed in the Eastern Side of Luxor Temple," Miscellanea in Honorem J. Vergote, OIP 6/7, pp. 247-52, pls. 9-10.*

- *Habachi, Labib. 1976. "The Royal Scribe Amenmose, Son of Pendzetti and Mutemonet: His. Monuments in Egypt and Abroad," Studies in Honor of G.R. Hughes, SAOC 39, pp. 83-95, figs. 19-31.*

- *Habachi, Labib. 1976. "Assuan," LdÄ 1, pp. 495-96.*

- *Habachi, Labib. 1976. "Behbeit el-Hagar," LdÄ 1, pp. 682-83.*

- *Habachi, Labib. 1976. "Bubastis," LdÄ 1, pp. 873-74.*

- *Habachi, Labib. 1976. "Buhen," LdÄ 1, pp. 880-82.*

- *Habachi, Labib. 1976. "Damanhur," LdÄ 1, pp. 988-89.*

- *Habachi, Labib. 1976. "El-Dibbabija," LdÄ 1, p. 1079.*

- *Habachi, Labib. 1976. "Elephantine," LdÄ 1, pp. 1217-25.*

- *Habachi, Labib. 1976. The Obelisks of Egypt: Skyscrapers of the Past. London: Scribners.*

- *Habachi, Labib. 1977. "New Light on Objects of Unknown Provenance. 1-A Strange Monument of Amenemhet IV and a Similar Uninscribed One," GM 26, pp. 27-33, pl. 1, Fig. 1.*

- *Habachi, Labib. 1977. "Mentuhotep, the Vizier and Son-in-Law of Taharqa," Äegypten und Kush, Festschrift F. Hintze, Schriften zur Geschichte und Kultur des Alten Orients 13, pp. 165-70, pls. 1-7.*

- *Habachi, Labib. 1977. "Gottesvater," LdÄ 2, 825-26; "Hawara," LdÄ 2, 10B 74: "Heqaib," LdÄ 2. 1120-22.*

▪ *Habachi, Labib. 1977. "L'avenir de l'Archeologie Copte," Le Monde Copte 2. pp. 4-5.*

▪ *Habachi, Labib. 1978. "King Amenmesse and Viziers Amenmose and Kha'emtore: Their Monuments and Place in History". MDAIN 44. pp. 57-67, pls. 10-12.*

▪ *Habachi, Labib. 1978. "The So-called Hyksos Monuments Reconsidered: Apropos the Discovery of a Dyad of Sphinxes," SAK 6, pp. 79-92, pls. 23-26.*

▪ *Habachi, Labib. 1978. "New Light on Objects of Unknown Provenance. II: A Group of Statues in Roemer-Pelizaeus Museum Hildersheim," GM 27, pp. 27-30, pl. 1, fig. 1.*

▪ *Habachi, Labib. 1979. "New Light on Objects of Unknown Provenance. III: A Head of Queen Youy and a Block of Shabaka Now Kept in Museum Abroad," GM 31, pp. 47-53, pl. 1, fig. 1.*

▪ *Habachi, Labib. 1979. "Rock-inscriptions from the Reign of Ramesses II On and Around Elephantine Island," Festschrift E. Edel, AÄA 1, pp. 227-37.*

▪ *Habachi, Labib. 1979. "Unknown or Little-known Monuments of Tutankhamun and of His Viziers," Glimpses of Ancient Egypt, Studies in Honour of H.W. Fairman, pp. 32-41.*

▪ *Habachi, Labib. 1979. "Damages and Robberies of Egyptian Monuments in the Last Half Century," Acts of the First International*

Congress of Egyptology, Cairo 1976, Schriften zür Geschichte und Kultur des Alten Orients 14, pp. 271-75.

▪ *Habachi, Labib. 1979. "Sixth-Dynasty Discoveries in the Jabal al-Tarif," BE 42/4, pp. 237-38.*

▪ *Habachi, Labib. 1979. "Zaki Iskandar Hanna (1916-1979)," NARCE 109, p. 2.*

▪ *Habachi, Labib. 1979. "Les Coptes sont-ils responsables de la destruction des temples pharaoniques," Le Monde Copte 6, pp. 15-19.*

▪ *Habachi, Labib. 1980. "The Military Posts of Ramesses II on the Coastal Road and the Western Part of the Delta," BIFAO 80, pp. 13-30, pls. 5-7.*

▪ *Habachi, Labib. 1980. "The Owner of the Tomb (Tomb of Kheruef) Theban Tomb 192," OIP 102, pp. 17-26.*

▪ *Habachi, Labib. 1980. "Hori II," LdÄ 3, pp. 1-2; "Hori III," LdÄ 3, pp. 2-3; "Hui II," LdÄ 3, pp. 72-73; "Koningssohn von Kusch," LdÄ 3, pp. 630-40.*

▪ *Habachi, Labib. 1980. "A Score of Important Officials Serving the Neferhotep Family as Revealed from Three Objects in the Heqaib Sanctuary," Serapis 6; Studia Aegyptiaca X, Budapest.*

▪ *Habachi, Labib. 1981. "New Light on the Vizier Iymeru, Son of the Controller of the Hall, Iymeru," BIFAO 81, pp. 29-39, pls. 3-9.*

▪ *Habachi, Labib. 1981. "New Light on the Neferhotep I Family as Revealed from their Inscriptions in the Cataract Area," Studies in Ancient Egypt, the Agean, and the Sudan, Essays in Honor of D.Dunham, pp. 77-81.*

▪ *Habachi, Labib. 1981. Sixteen Studies on Lower Nubia. Supplement aux ASAE, Cahier No. 23.*

▪ *Habachi, Labib, ed. 1981. Actes du 11e Symposium Internationale sue la Nubie, Le Cairo, CASAE 24.*

▪ *Habachi, Labib. 1981. "Collaboration of Egyptian Egyptologists with Foreign Expeditions in Facing Problems Threatening the Pharaonic Monuments," Prospection et Sauvegarde des Antiquites de l'Égypte, Actes de la Table Ronde Organisée à l'Occasion du Centenaire de l'IFAO, Cairo, BdE 88, pp. 87-90.*

▪ *Habachi, Labib. 1981. "Abdel Moneim Abu-Bakr (1907-1976)," BSAB 23, p. 307.*

▪ *Habachi, Labib. 1982. "Athribis in the XXVIth Dynasty," BIFAO 82, pp. 213-35, pls. 40-46.*

▪ *Habachi, Labib. 1982. "Omm Seti: A Personal Tribute," NARCE 116, pp. 4-5.*

▪ *Habachi, Labib. 1982. "A Score of Important Officials Serving the Neferhotep Family, as Revealed from Three Objects in the Heqaib*

Sanctuary," Studies in Honor of C.F. Nims, Serapis 6, pp. 47-53, pls. 1-2, figs. 1-12.

▪ *Habachi, Labib. 1983. "Notice nécrologique: Zaki Youssef Saad (1901-1982)," ASAE 69, pp. 379-80.*

▪ *Habachi, Labib. 1983. "The Tomb of Princess Nebt of the VIIIth Dynasty Discovered at Qift," SAK 10, pp. 205-13, pl. 3b.*

▪ *Habachi, Labib. 1984. "The Family of the Vizier Ibi and His Place Among the Viziers of the Thirteenth Dynasty," Festschrift W. Helck, SAK 11, pp. 113-26, figs. 4-6.*

▪ *Habachi, Labib. 1984. "Certain Sites to be Examined Before It Is Too Late," Third International Congress of Egyptology, Toronto 1982, SSEAJ 14, p. 105.*

▪ *Habachi, Labib. 1984. "Geneaology and Importance of the Family of Teti," The Sanctuary of Heqaib, pp. 77-78, Elephantine IV.MDAIK.*

▪ *Habachi, Labib. 1984. "Persons Unknown or Little-known from Previous Finds," The Sanctuary of Heqaib, pp. 99-108, MDAIK.*

▪ *Habachi, Labib. 1985. "Devotion of Thutmose III to His Predecessors: Apropos of a Meeting of Sesostris I with His Comtiers," Melanger: Gamal eddin Mokhtar, BdE 97/1. pp. 349-59.*

▪ *Habachi, Labib. 1985. "The Saricmary of Heqaib," Elephantine IV.AN 33.*

- *Habachi, Labib. 1985. A Hitherto Unknown Viceroy of Kush from the Reign of Ramesses II. Paris: Mélanges Vercoutter.*
- *Habachi, Labib. 1985. "The Sanctuary of Heqaib," Vols. I and II, Elephantine IV, Archäologische Vetöffentlichungen 33, Deutsches Archäologisches Institut, Abteilung Kairo.*
- *Habachi, Labib. 1986. "The Gneiss Sphinx of Sesostria III: Counterpart and Provenance," MMA 19/20.*
- *Habachi, Labib. 1987. "Eighteen Labib Habachi Studies on the Middle Kingdom," Studia Aegyptiaca 10, no. 37.*
- *Habachi, Labib. 2001. "Tell al-Dab'ai and Qantir: The Site and its Connection with Avaris and Piramesse," Verlog der Osterreichischen Akademie des Wissenschaften, Wien.*
- *Habachi, Labib and B. Habachi. 1952. "The Naos with the Decades (Louvre D 37) and the Discovery of Another Fragment," JNES 11, pp. 251-63, pls. 28-33, and plan.*
- *Habachi, Labib and H. Riad. 1959. "Aswan, the Town with a Glorious Past and a Promising Future," Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale (sous sequester).*
- *Habachi, Labib, H. Ricke, and G. Haeny. 1981. "Untersuchungen im Totentempel Amenophis III," Beiträge Bf. 11.*
- *Habachi, Labib and J.C. Biers. 1969. "An Agata Bowl from Egypt," Muse 3, pp. 29-34.*

▪ *Habachi, Labib and P. Anus. 1977. "Le tombeau de Nay a Gournet Mar'ei (No. 271)," MIFAO 97.*

▪ *Habachi, Labib and P. Ghalioughi. 1972. "Notes on Nine Physicians of Pharaonic Egypt, of whom Five Hitherto Unknown," BIÉ 51, pp. 15-23.*

▪ *Habachi, Labib and P. Ghalioughi. 1974. "Some Anecdotic Details on a Few Unknown Pharaonic Physicians," Proceedings of the 23rd International Congress of the History of Medicine, London 1972, Wellcome Institute of the History of Medicine 1, pp. 1007-1009.*

▪ *Hassan, Selima. 1936. Excavations at Giza. Oxford and Cairo.*

▪ *Heyworth-Dunne, J. 1938. An Introduction to the History of Education in Modern Egypt. London: Luzan.*

▪ *Hyde, D.M. 1978. Education in Modern Egypt: Ideals and Realities. London: Routledge and Kegan Paul.*

▪ *Hoffman, Michael A. 1984. Egypt Before the Pharaohs. London: Routledge and Kegan Paul.*

▪ *Hölbl, Günther. 2001. A History of the Ptolemaic Empire. London and New York: Routledge.*

▪ *Hussein, Taha. 1997. The Days: His Autobiography in Three Parts. Cairo: The American University in Cairo Press.*

▪ *Kamal, Ahmed. 1903. "Note sur la rectification des noms arabes des anciens rois d'Égypte" (S. du 2 Mars 1903) BIÉ 4e sér. No. 4, fasc. 3, pp. 89-127.*

▪ *Kamal, Ahmed. 1916, 1917, 1918. "La procédé graphique chez les anciens Égyptiens, l'origine du mot Égypte, les noms géographiques désignant cette contrée et ses habitants primitifs (avec critique et réponse)". S. du le Mai 1916 et 28 Mai 1917; BIÉ 5e sér. t. X, fasc. 1, 1916 pp. 133-76; 5e sér. XI. Fasc. 1, 1917, pp. 325-38; 5e sér. T. XI, fasc. 2, 1918, pp. 422-23.*

▪ *Kamal, Ahmed. 1917. "Les noms des vêtements, coiffures, et chaussures ches les anciens Égyptiens comparés aux noms arabes" (S. du 23 Avril), BIÉ 5e ser. t. XI, fasc. 1, pp. 93-126.*

▪ *Lloyd, George A. 1933. Egypt Since Cromer, 2 vols. New York: Macmillan.*

▪ *Loti, Pierre. 1909. Egypt (La Mort de Philae). Trans. from French by Baines, W.P. London: T. Werner Laurie.*

▪ *Montet, P. 1933. Les novelles fouilles de Tanis. Paris.*

▪ *Michalowski, Kazimierz. 1962, 1963, 1964, 1966. "Polish Excavations at Faras in Nubia," Kush: Journal of Sudan Antiquities Service.*

▪ *Naville, H.E. 1885. The store-city of Pithom and the route of the Exodus London: Trübner & Co.*

- *O'Connor, D. 1993. Ancient Nubia: Egypt's Revival in Africa. Philadelphia: University Museum Pennsylvania of Archaeology and Anthropology.*

- *Petrie, Flinders W.M. 1898-1900. Diospolis Parva: The Cemeteries of Abadiyeh and Hu. Egypt Exploration Fund Memoirs.*

- *Petrie, Flinders W.M. 1904. Methods and Aims of Archaeology. London and New York: Macmillan.*

- *Petrie, Flinders W.M. 1910. Egypt and Israel. Society for Promoting Christian Knowledge, Great Britain. New York and Toronto: Macmillan.*

- *Reid, Donald Malcolm. 1990. Cairo University and the Making of Modern Egypt. Cairo: The American University in Cairo Press.*

- *Reid, Donald Malcolm. 2002. Whose Pharaohs? Archaeology, Museums, and Egyptian National Identity from Napoleon to World Wand. Berkelev University of California Press.*

- *Saad, Zaki Youssef. 1941, 1942. "Preliminary Report on Royal Excavations," ASAE.*

- *Saad, Zaki Youssef. 1941-45. "Royal Excavations at Sakkara and Helwan" 1947. ASAE Supplement, Cahier 3, Cairo.*

- *Saad, Zaki Youssef. 1951. "Royal Excavations at Helwan," ASAE, Supplément, Cahier 14, Cairo.*

▪ *Säve-Söderbergh, T. 1987. Temples and Tombs of Ancient Nubia. London: Thames & Hudson.*

▪ *Smith, W. Stevenson. 1958. The Art and Architecture of Ancient Egypt. New York: Penguin.*

▪ *Strouhal, Eugen. 1989, 1992. Life of the Ancient Egyptians. London: Opus Publishing.*

▪ *Taylor, J.M. 1991. Egypt and Nubia. London: British Museum Press.*

▪ *Trad, May. 1984, 1985. "Bibliography of Labib Habachi," ASAE 70.*

▪ *Trigger, B.G. et al. 1983. Ancient Egypt: A Social History. Cambridge: Cambridge University Press.*

▪ *Vandier, Jacques. 1944. Le Religion Égyptienne. Paris.*

▪ *Vandier, Jacques. 1944. Mana: Introduction à l'Histoire des Religions, Les Anciennes Religions Orientales, 1. Paris.*

▪ *Vatikiotis, P.J. 1969, 1980. The History of Egypt: From Muhammad Ali to Sadat. London: Weidenfeld and Nicolson.*

▪ *Vercoutter, Jean. 1964, 1965, 1966. "Excavations at Mirgissa," Kush: Journal of Sudan Antiquities Service.*

▪ *Weeks, Kent R. 1998. The Lost Tomb: The Greatest Discovery in the Valley of the Kings Since Tutankhamun. Cairo: The American University in Cairo Press.*

- *Wendorf, F. 1968. The Pre-History of Nubia. Papers assembled and edited by F. Wendorf. Dallas: Fort Burguin Research Center and Southern Methodist University Prees.*

- *Wilkinson, G. 1837, 1841. Manners and Customs of the Ancient Egyptians. London: John Murray.*

- *Wilson, John A. 1951. The Burden of Egypt. Chicago: University of Chicago Press.*

- *Youssef, Ahmed. 1947. "Repair of the Golden Mask of Amenomepet," SASAE.*

المؤلفة فى سطور

جيل كامل

- درست علم المصريات تحت إشراف الدكتور عبد المنعم أبو بكر كما درست علم الآثار ميدانيا تحت إشراف لبيب حبشى.
- وهى محررة باب التراث الثقافى أو الفنى فى جريدة ***Al Ahram Weekly***
- مؤلفة كتاب: المسيحية فى أرض الفراعنة ***Christianity in the Land of the Pharaohs*** الصادر عن الجامعة الأمريكية (٢٠٠٢).
- لها مجموعة من الكتب الإرشادية عن الآثار الفرعونية والمسيحية.

المترجم فى سطور:

إبراهيم سلامة إبراهيم ميخائيل:

كاتب ومترجم مصرى، ولد فى القاهرة فى عام ١٩٣٨، وتخرج فى قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة فى عام ١٩٦١، ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا فى الصحافة والنشر فى كلية الإعلام بجامعة القاهرة فى عام ١٩٨٣، وعمل منذ تخرجه فى مجال انطيران المدنى بوظيفة ضابط مراقبة جوية حتى أصبح كبيرًا لضباط المراقبة الجوية، وخلال السنوات الخمس الأخيرة من العمل الوظيفى انتقل إلى ديوان وزارة الطيران المدنى، وأحيل إلى المعاش سنة ١٩٩٨ بدرجة مدير عام.

له الكثير من المؤلفات والترجمات، فى مجال علم النفس ترجم كتاب: التوافق النفسى للدكتور: توماس هاريس. ثم كتاب الطب النفسى والتحليل النفسى للدكتور: إريك برن. وفى مجال عمله الطيران المدنى ألف: الطيران المدنى والسلام العالمى، نشرته الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩١. ثم ترجم كتاب المؤرخ الإنجليزى ألفريد بتلر: الكنائس القبطية القديمة فى مصر (جزءان) وقد طبعت منه طبعتان سنة ١٩٩٣،٢٠٠١ وترجم كتاب السائحة الإنجليزية إميليا إدواردز: رحلة الألف ميل. كما ترجم أيضًا كتاب المؤرخ سومرز كلارك: الآثار القبطية فى وادى النيل، وطبعت منه طبعتان سنة ١٩٩٩، وسنة ٢٠٠٠. ثم ترجم كتاب الدكتورة بربارة واترسون: أقباط مصر سنة ٢٠٠٢، كما ترجم كتابين آخرين نشرهما له المركز القومى للترجمة، أولهما: الاتصال الجماهيرى من تأليف مجموعة من كبار أساتذة الإعلام الأمريكيين، إضافة إلى كتاب آخر فى الاتصال نشرته له هيئة الكتاب تحت عنوان: الإعلام التطبيقى واستخداماته فى تطوير الإدارة، من تأليف:

فرانسيس برجين، وموسوعة: الأديرة الأثرية فى مصر لمؤلفه: كولين كريستوفر وولترز.

وفى السبعينيات والثمانينيات أسهم بالعديد من الأبحاث والدراسات فى العمل الصحفى بجريدتى الجمهورية والأخبار ومجلة روز اليوسف ثم مجلة دنيا الطيران ومجلة الطيران المدنى التى عمل مديرًا لتحريرها عدة سنوات.

فى سنة ٢٠٠٣ أصدر كتاب الوطن المغتصب ترجم عن الكاتب الإنجليزى مايكل رايس.

وفى سنة ٢٠٠٨ صدر له كتاب: روما آثارها ولوحاتها القديمة لمؤلفه: فرانسيس وى، أصدره المركز القومى للترجمة.

المراجع فى سطور:

طلعت الشايب

كاتب ومترجم مصرى له نحو ثلاثين كتابًا مترجمًا من بينها:

- "صدام الحضارت"، تأليف صموئيل هنتجتون.
- "الحرب الباردة الثقافية"، تأليف فرانسيس ستونر سوندرز.
- "المثقفون"، تأليف بول جونسون.
- "فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى"، تأليف آرثر هيرمان.
- "الاستشراق الأمريكى"، تأليف دوجلاس ليتل.